

جامعة صفاقس / جامعة ديرهام
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس
قسم التاريخ / قسم الآثار
مخبر الدراسات والبحوث متعددة المجالات والمقارنة
مخبر المغرب العربي: العمران المتعدد

فعاليات المؤتمر الدولي

المهدية 2- 3- 4 ديسمبر 2019

من سرت الصغرى إلى سرت الكبرى

الجزء الثالث

سرت الكبرى وسرت الصغرى بين البحر والصحراء:

مجال تبادل وتنافس وصراع عبر التاريخ

تجميع وتقديم

حافظ العبدولي، أنا ليوني وسالم المكني



منشورات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس

اللجنة العلمية: عبد الواحد المكني- أحمد مشارك- الطاهر غالبية- علي درين- الهادي بن وزدو- الهادي الدريدي- أنا ليوني- ميشال بونيفاي- رولاند شتاينباخر- كاتيا سكورل- مفتاح الحداد- فوزي عبداللاوي- أحمد سعد- رياض الحمروني- عبد الحميد الفهري- أحمد الباهي- مراد عرعار- لطفي عبد الجواد- محمد الغضبان- محمد علي الحبيب- النوري بوخشم- أورليان مونتل- الحبيب الجموسي- محمد الجربي- إنعام شرف الدين- رياض بن خليفة - سعيد مشبب القحطاني- خليفة الذويبي.

لجنة التنظيم: حافظ العبدولي- ألفة بودية- الحبيب الجموسي- محمد الجربي- عبد المجيد الجمل- أنا ليوني- سالم المكني- عمار عثمان.

حقوق النشر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس

الترقيم الدولي: 978-9938-35-125-5



صفافس-2025

الفهرس

- 5 تقديم: حافظ العبدولي، أنا ليوني وسالم المكني
- 13 عبد اللطيف الركيك
- الوجود القرطاجي بالسواحل الممتدة بين السرت الصغرى والكبرى بين
المصادر الأدبية والأثرية
- 29 الحبيب الجموسي
- صورة الجنوب الشرقي التّونسي في الفترة الحديثة: من خلال آثار
الرّحالة الأوروبيين
- 73 سميّة سالم الشعالي وسالم الصغير اصنان
- موانئ سرت الكبرى وتجارة النفط (1958-1990م) «السدرة، رأس
لأنوف والبريقة نموذجاً»
- 97 أحمد الباهي
- طريق الحج المغربي بين قابس وطرابلس خلال العصر الحديث (قسم
قابس - برج الملح)
- 127 جهاد الصويد
- قرية برشانة والطريق بين الجم و صفاقس خلال الفترة الحفصية
- 151 الصغيرة بنحميدة
- «الفنار» بساحل سرت الصغرى خلال الفترة الحديثة: علامة تاريخية
بحرية
- 173 مصطفى محمد قنديل زايد
- عمارة المسرح الروماني في لبدة الكبرى ودوجا وصبراته «دراسة
تحليلية مقارنة»

201	علي الثابتي.....
	التحكّم في مياه الأمطار بجنوب شرق البلاد التونسية منذ العصر الوسيظ من خلال الشواهد الأثرية والنصوص المصدريّة
227	محمد اللواتي.....
	مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني خلال فترة حكم محمد الصادق باي 1859 - 1881 م
255	المنصف بربو.....
	أسماء الأماكن الحاليّة بجزيرة جربة بين التّأصل والتّواصل
267	محمد حسن.....
	بلاد سرت بين القرنين الأوّل والرابع الهجري / السابع والعاشر الميلادي: مقارنة جغرا - سياسيّة
295	عبد القادر سوداني.....
	«اللاجوء» السياسي في منطقة سرت الكبرى خلال القرنين 18 و19 م
309	عبد الناصر اشتيوي.....
	البعد الاستراتيجي لخليج سرت الكبرى في السياسة الفرنسية من أعقاب الحرب العالميّة الثانية حتى عام 1952
327	الزرقاء سالم محمد حسين.....
	البعد التاريخي للخلاف الليبي الأمريكي على خليج سرت الكبرى 1973-1986

تقديم

«لَقَدْ حَمَلَتْ مِثْلَ الرَّمَالِ الْعَقِيمَةَ فِي الْوَاقِعِ حَضَارَةٌ غَنِيَّةٌ، فِي الزَّمَنِ الَّذِي غَزَا فِيهِ الْعَرَبُ مِثْلَ الْمُنَاطِقَةِ وَخَصَّصُوهَا بِنِظَامِ رِيهِمِ الْمُبْتَكِرِ، [...] إِنَّ الْغَزَوَاتِ الَّتِي اجْتَاكَتْ مِثْلَ الْأَرْضِ بِشَكْلِ شَيْءٍ مُسْتَمَرٍّ مُنْذُ الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ [...] جَعَلَتْ مِنْ سُكَّانِهَا كَالرَّمَالِ الْمُتَحَرِّكَ، [...] وَمِنْ حَضَارَتِهَا فُسَيْفَسَاءَ هَمَجِيَّةٍ، يُجَاوِرُ فِيهَا التَّرَفُ الشَّرْقِيُّ الْمُتَنَاهِي وَحَشِيَّةُ الْبَدْوِ. [...] كَانَتْ الْكَنِيسَةُ الرَّسْمِيَّةُ هُنَا، فِي الْمَاضِي، مُضْطَرَّةً إِلَى التَّكْيِيفِ مَعَ الْبِدْعِ وَالْخِلَافَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي الْمَسِيحِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَكَانَتْ قِبَابُ سَانَ دِمَاسٍ تُمَثِّلُ مُنْذُ قُرُونٍ رَمَزًا يَجْتَمِعُ حَوْلَهُ كُلُّ مُتَمَرِّدٍ وَمُغَامِرٍ فِي الْفِكْرِ الدِّينِيِّ لِأُورُسَنَا. وَكَانَتْ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ مَرْكَزًا صَغِيرًا لِحَالِيَّةٍ مِنْ تِجَارِ السَّرْتِينَ، الَّذِينَ ارْتَبَطُوا – بِفَضْلِ عِلَاقَاتِهِمُ التِّجَارِيَّةِ – بِالْكَنَائِسِ النَّسْطُورِيَّةِ فِي الشَّرْقِ، ثُمَّ أَصْبَحَتْ مَرْكَزًا لِمُتَابَعَةِ سَرِّيَّةٍ يُعْتَقَدُ أَنَّ لَهَا صِلَاتٍ مُؤَكَّدَةً مَعَ جَمَاعَاتِ «الْإِخْوَةِ الْأَنْقِيَاءِ» فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ. أَمَّا الْأَسَاطِيرُ الْمُحَلِّيَّةُ، فَتُعَرِّفُ الْكَثِيرَ عَنِ الْاجْتِمَاعَاتِ السَّرِّيَّةِ الَّتِي احْتَضَنَتْهَا تِلْكَ الْقِبَابُ ذَاتُ الطَّرَازِ الْمُورِيسْكِيِّ»

جولييان غراك، شَطُّ السَّرْتِينَ، ص. 10-12.

يُمَثِّلُ هَذَا الْكِتَابُ الْجُزْءَ الثَّالِثَ وَالْأَخِيرَ مِنْ سِلْسِلَةِ الْمُنْشُورَاتِ الَّتِي تَجْمَعُ فَعَالِيَّاتِ الْمُؤْتِمَرَاتِ الدَّوْلِيَّةِ الثَّلَاثَةِ الْمَوْسُومَةِ بـ «مِنْ سَرْتِ الصَّغْرَى إِلَى سَرْتِ الْكِبْرَى»، وَالَّتِي نَظَّمَهَا قِسْمُ التَّارِيخِ بِكَلِيَّةِ الْأَدَابِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِصِفَاقْسٍ بِالتَّعَاوُنِ مَعَ مَوْسَسَاتٍ بَحْثِيَّةٍ وَطَنِيَّةٍ وَدَوْلِيَّةٍ حَوْلَ مَجَالِ السَّرْتَيْنِ عِبَرِ الْعُصُورِ. وَقَدْ تَضَمَّنَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَحْمِلُ عِنَاوَانَ «مِنْ سَرْتِ الصَّغْرَى إِلَى خَلِيْجِ قَابَسٍ: تَارِيْخٌ وَتَرَاثٌ» أَعْمَالَ النَّدْوَةِ الْأُولَى الَّتِي انْعَقَدَتْ بِصِفَاقْسٍ مِنْ 20 إِلَى 22 نَوَفَمْبَرِ 2014 مِنْ قَبْلِ قِسْمِ التَّارِيْخِ بِكَلِيَّةِ الْأَدَابِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِصِفَاقْسٍ بِالتَّعَاوُنِ مَعَ «مَخْبَرِ الدِّرَاسَاتِ وَالبَحْثِ مُتَعَدِّدَةِ الْاِخْتِصَاصَاتِ وَالمُقَارَنَةِ (LERIC)» وَ«مَخْبَرِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ: الْعُمَرَانِ الْمُتَعَدِّدِ»⁽¹⁾. أَمَّا الْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ فَقَدْ صَدَرَ سَنَةَ 2022 بِعِنَاوَانِ «مِنْ سَرْتِ الصَّغْرَى إِلَى

(1) نِصُوصُ هَذِهِ النَّدْوَةِ قَامَ بِتَجْمِيعِهَا وَتَقْدِيمِهَا سَالِمُ الْمَكْنِي، مُنْشُورَاتُ مَكْتَبَةِ عِلَاءِ الدِّينِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، 2019.

سرت الكبرى: تنقل الأشخاص والممتلكات والأفكار عبر التاريخ»⁽²⁾. ويحتوي فعاليات المؤتمر الدولي الثاني حول السرّتين الذي نظم بصفاقس من 17 إلى 19 نوفمبر 2016 من قبل قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس وقسم الآثار بجامعة نيوشاتال السويسرية بالتعاون مع «مخبر الدراسات والبحوث متعدّدة الاختصاصات والمقارنة (LERIC)» و«مخبر المغرب العربي: العمران المتعدّد».

يحمل هذا الجزء الذي يمثل الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة الثلاثية عنوان «سرت الكبرى وسرت الصغرى بين البحر والصحراء: مجال تبادل وتنافس وصراع عبر العصور». ويتضمّن فعاليات المؤتمر الدولي الذي انعقد بمدينة المهدية من 2 إلى 4 ديسمبر 2019 من قبل قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس وقسم الآثار بجامعة ديرهام البريطانية بالتعاون مع المعهد الوطني للتراث و«مخبر الدراسات والبحوث متعدّدة الاختصاصات والمقارنة (LERIC)» و«مخبر المغرب العربي: العمران المتعدّد».

ولئن اقتصر الاهتمام في المرحلة الأولى من خلال فعاليات المؤتمر الأول على دراسة تاريخ وتراث منطقة سرت الصغرى، فإن مجال البحث قد توسّع تدريجياً خلال المؤتمرات الثاني والثالث ليشمل منطقة سرت الكبرى بليبيا والتي تعرف حالياً بخليج سرت وتذكرها المصادر القديمة بتسمية «*Syrtis Maior*». إذ عالجت فعاليات المؤتمر الثاني مسائل حركيّة التبادل وانسيابية التنقل داخل السرّتين كوحدة مجالية متجانسة. ثم توسّعت دراسات المؤتمر الثالث على الامتداد الصحراوي والانفتاح المتوسطي لهذا المجال.

منذ القدم كان يُنظر إلى منطقة السرّتين كمجال موحد ومتجانس يتميز خصوصاً بمياهه الضحلة وانفتاحه المباشر على ظهيره الصحراوي الممتد. هذه الخصائص جعلت من مجال السرّتين محور اهتمام الأدب العالمي المعاصر حيث مثل مصدر إلهام العديد من الروائع الفنية، فقد استوحى الأديب والشاعر الفرنسي «جول فيرن» روايته الشهيرة التي صدرت سنة 1905 بعنوان «اجتياح البحر» من فكرة مشروع واقعي يعود إلى سنة 1880 ويهدف إلى حفر قناة تربط خليج قابس بشط الجريد⁽³⁾. ثم تتالت لاحقاً المآثر الفنية التي رسّخت خصائص المشهد الطبيعي لمجال السرّتين في المخيلة الجماعية مثل الروائي الإيطالي «دينو

(2) أعمال هذه الندوة من تجميع وتقديم حافظ العبدولي، الهادي الدريدي وسالم المكني، منشورات دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، صفاقس، 2022.

(3) Sur ce projet promu par François Élie Roudaire (1836-1885), voir Létolle & Bendjoudi 1997 et Picot 2005.

بوزاتي» بروايته الشهيرة «صحراء التتار» الصادرة سنة 1940 والأديب الفرنسي «جوليان غراك» بروايته الصادرة سنة 1951 بعنوان «شط السرتين». فهو مجال «تركته الطبيعة متردداً بين البحر والصحراء» على حدّ تعبير الشاعر اللاتيني «لوكانوس / Lucanus»⁽⁴⁾. ومن هذا القول كان استلهم عنوان الندوة الدولية الثالثة «سرت الكبرى وسرت الصغرى بين البحر والصحراء».

لقد مثّل هذا المجال حلقة وصل تربط من جهة بين المجال الصحراوي والفضاء المتوسطي وتصل من جهة أخرى الحيز الغربي من المتوسط بنظيره الشرقي. فمنطقة السرتين تقع في محور شبكة المواصلات البرية والبحرية وقد ساهمت محطاتها وموانئها عبر العصور في تنشيط حركيّة التبادل داخل الفضاء المتوسطي. فقد برزت خلال الفترات القديمة عدّة مراكز على هذه الشبكة كمحطات على الطريق الساحلي ومنافذ بحرية للتجارة الصحراوية مثل أكولا، طينة، سرسينا، تاكابس، جكتيس، زيان، مينيكس وصبراتة وأويا ولبسيس ماغنا ويوسبيريدس وأبولونيا وقورينا وظهرت خلال العصر الوسيط مدن صفاقس وقابس وجربة وطرابلس وسرت وبرنيق، ثم تميّزت لاحقا خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة مدن الخمس ومصراتة وبنغازي ودرنة وغيرها من المدن -الموانئ. لقد شكّلت منطقة السرتين عبر العصور فضاءً مميزاً للتفاعل والاحتكاك، فكانت باستمرار مسرحاً لحركة بشرية نشيطة سواء في شكل أفراد أو جماعات (تجار، علماء، حجاج، جيوش، قبائل، طوائف وأقليات دينية...) ومثلت على مر الأزمان مجالا رحبا لانتقال الأفكار والممتلكات (سلع نادرة، معارف، مهارات، فنون، عادات اجتماعية وثقافية، مذاهب وتيارات فكرية...).

لئن مثّل هذا المجال المترامي بين سواحل جنوب المتوسط والصحراء، عبر العصور، فضاءً للتبادل والتفاعل بامتياز بين المجالين الصحراوي والمتوسطي. فإنه كان أيضا على امتداد الحقب التاريخية المتعاقبة محورا ومجالا لتنافس دائم يبلغ أحيانا حد التصادم والصراع بين القوى الإقليمية والعالمية على حد سواء.

رغم هذا التكامل المجالي لمنطقة السرتين والتفاعل الحضاري مع امتدادها الصحراوي والمتوسطي على مرّ العصور، اقتصرَت الأبحاث السابقة على مقاربات جزئية في شكل دراسات أحادية تتناول بعض المواقع بمعزل عن مجالها العام وعادة ما تكتفي بتغطية فترة زمنية محدّدة (فينيقية/بونية أو إغريقية أو رومانية أو بيزنطية أو إسلامية). ويبدو أن هذه المقاربات المجزأة

(4) « Syrtes uel primam mundo natura figuram cum daret, in dubio pelagi terraeque reliquit » (Lucain, Pharsale, IX, 303-304).

والمفتتة ناجمة عن تفكك المجال بين الحدود السياسية الفاصلة بين تونس وليبيا، وهي بدورها حدود موروثية عن قوى استعمارية متصارعة وذات مشاريع ترتكز على مرجعيات تاريخية وحضارية مختلفة. وحتى بعد الاستقلال لم تتغير المسألة حيث ظهرت مع الدول الوطنية بكل من ليبيا وتونس وبلدان جنوب الصحراء مشاريع سياسية متباينة لم تساعد على بلورة تصوّر مشترك يقوم على تبادل الخبرات والتجارب. هذا علاوة على ترسخ تقاليد أكاديمية تفصل بين مجال قورينا وإقليم «سيرينايا» عموماً في إطار الدراسات التي تُعنى بالحضارة الإغريقية وإقليم طرابلس الذي عادة ما يتم تناوله ضمن الدراسات المهمة بالحضارة الفينيقية-البونية أو كامتداد للعالم الروماني لاحقاً.

وقد ظلّت حالة البحث على حالها إلى حدود نهاية القرن العشرين لتظهر أولى الدراسات التاريخية والأثرية التي تتحسّس وتتناول مجال السرتين كوحدة متكاملة؛ حيث اعتبرت أحياناً كمنطقة حدود عازلة بين مجالي قرطاج وقورينا (Crawley Quinn 2014 ; Ribichini 1991 ; Malkin 1990) أو كمنطقة ذات خصوصيات مميزة بالنسبة للدراسات المهمة بشبكة الطرقات البحرية والتجارة المتوسطية (Pagano 1976 ; Fulford 1989 ; Mastino 1989, 1990 ; Wilson 2011 ; Crawley Quinn 2013) وأحياناً أخرى تمّ تناولها كمنفذ يمكن شعوب المتوسط من الولوج إلى الفضاء الصحراوي وبهذا الخصوص يمكن الإحالة إلى (Gsell 1929 ; Lefranc 1985 ; Devisse 1990 ; Thiry 1995 ; Schörle 2012 ; Duckworth et alii 2015 وأعمال D. Mattingly خلال السنوات الأخيرة).

وتهدف فعاليات هذه الندوة إلى المساهمة في تلافي هذا النقص الاستوغرافي عن منطقة السرتين كوحدة مجالية متكاملة في امتدادها الصحراوي من جهة وانفتاحها المتوسطي بالجهة المقابلة، من خلال تصوّر دراسة شمولية ومحينة تتناول تاريخ المنطقة وتفاعلها مع محيطها المجاور من منظور طويل المدى يغطي كل الفترات التاريخية منذ العصور القديمة إلى الفترة الراهنة. ومن خلال اشتغالنا على محاور «التبادل والتنافس والصراع عبر العصور» تسعى ورقات هذه الندوة إلى صياغة دراسة شاملة لمجال السرتين وتهدف إلى ربطه بامتداده الصحراوي والمتوسطي من خلال رصد أشكال التبادل والتفاعل وقتواته المتعددة (سلع- أفكار- معارف- مهارات- أنماط العيش- حركية الأشخاص والمجموعات- مسالك- طرق- موانئ- مدن- محطات...) وكذلك مظاهر التنافس والصراع الذي شهدتها المنطقة على مرّ العصور (التنافس والمعاهدات حول الحدود ومجالات النفوذ- التناحر والمواجهات القبلية- الصراعات والتنافس الجيو- سياسي بين القوى العظمى وانعكاساتها

على المنطقة عبر العصور). وقد ارتأينا تبويب المقالات في هذا المجلد وفق محاور الاهتمام الثلاثة، إذ تكون بداية الدراسات التي تتناول أشكال التبادل وقتواته ثم تأتي تباعا تلك المتعلقة بمحوري التنافس والصراع.

هذا الكتاب من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس وقد تمت طباعته من قبل «مخبر الدراسات والبحوث متعددة الاختصاصات والمقارنة (LERIC)» و«مخبر المغرب العربي: العمران المتعدد». ولا يسعنا إلا أن نتوجه بجزيل الشكر والامتنان لكل من الأستاذ عبد الواحد المكني والأستاذ منصف القابسي مديري هذين المخبرين على دعمهما المستمر لأنشطة قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس. كما نعبر على امتناننا وشكرنا الكبير لكل المؤلفين الذين شاركوا في هذه الندوة ووافقوا على نشر أعمالهم في هذا الكتاب. هذا ونعبر عن شكرنا الخاص لجميع أعضاء لجنة التنظيم للعمل الكبير الذي قاموا به لضمان نجاح هذه الندوة وحسن تنظيمها. وأخيرا، نود أن نتوجه بجزيل الشكر إلى أعضاء اللجنة العلمية لهذه الندوة الذين ساهموا، من خلال نصائحهم ومقترحاتهم، في تعديل وتحسين جودة الأعمال المنشورة في هذا الكتاب.

9

حافظ العبدولي (كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة صفافس/
مخبر الدراسات والبحوث متعددة الاختصاصات والمقارنة LERIC).

آنا ليوني (قسم الآثار بجامعة ديرهام البريطانية).

سالم المكني (كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة صفافس/ مخبر
الدراسات والبحوث متعددة الاختصاصات والمقارنة LERIC).

- FULFORD, M. (1989) : "To East and West: The Mediterranean Trade of Cyrenaica and Tripolitania in Antiquity", in : *Libyan Studies* 20, p. 169-191.
- GSELL, St. (1926) : "La Tripolitaine et le Sahara au IIIe siècle de notre ère", in : *MAIBL* 43, p. 149-166.
- LEFRANC, J. Ph. (1985) : "L'expédition d'UQBA ibn Nafi au Kawar (46 hég./ 666 J.-C.). Nouveaux aspects d'un épisode de l'introduction de l'Islam au Fezzan (Libye) ", in *Bulletin archéologique C.T.H.S.*, Nouv. Sér., Fasc. 19 B, Paris, p. 411-424.
- LÉTOLLE, R. et BENDJOUDI, H. (1997) : *Histoires d'une mer au Sahara, utopies et politiques* (= Écologie et agronomie appliquée), Éditions L'Harmattan, Paris.
- MALKIN, I. (1990) : "Territorialisation mythologique : les «autels des Philènes» en Cyrénaïque", in : *Dialogues d'histoire ancienne*, 16, p. 219-229.
- MASTINO, A. (1989) : "Sirte", in : *Enciclopedia Virgiliana*, IV, p. 895-897.
- MASTINO, A. (1990) : "Le Sirti negli scrittori di età augustea", in : *L'Afrique dans l'Occident romain (Ier siècle av. J.-C. - IVe*
- CRAWLEY QUINN, J. (2014) : "A Carthaginian perspective on the Altars of the Philaeni", in : *The Punic Mediterranean. Identities and Identification from Phoenician Settlement to Roman Rule*, Actes de la Conférence tenue à la British School, Rome, Novembre 2008, J. Crawley Quinn et N. Vella, eds. (= *Monographs of the British School at Rome*), Cambridge University Press, Cambridge, p. 169-179.
- CRAWLEY QUINN, J. (2011) : "The Syrtes between East and West", in : *Money, Trade and Trade Routes in Pre-Islamic North Africa*, Amelia Dowler et Elisabeth R. Galvin, eds. (= *British Museum Research Publication* 176), British Museum Press, Londres, p. 11- 20.
- DEVISSE, J. (1990) : "Commerce et routes du trafic en Afrique Occidentale", in *Histoire générale de l'Afrique III. L'Afrique du VIIe au XIe siècle*, UNESCO, Paris, p. 397-463.
- DUCKWORTH, C.N., MATTINGLY, D.J. et SMITH, V.C. (2015) : "From the Mediterranean to the Libyan Sahara. Chemical analyses of Garamantian glass", in : *Journal of Archaeological Science: Reports*, <http://dx.doi.org/10.1016/j.jas-rep.2015.02.007>.

- ume 4, *Survey and excavations at old Jarma (Ancient Garama) carried out by C. M. Daniels (1962-69) and the Fazzan project (1997-2001)*, the Society for Libyan Studies/ Department of Antiquities (Tripoli), London, p. 505-544.
- PAGANO, V. (1976) : "Le rotte antiche tra la Grecia e la Cirenaica e gli itinerari marittimi e terrestri lungo le coste cirenaiche e della Grande Sirte", in : *Quaderni di Archeologia della Libia* 8, p. 285-352.
- PICOT, J.-P. (2005) : *Le testament de Gabès*, Presses Universitaires de Bordeaux, Bordeaux.
- RIBICHINI, S. (1991) : "I fratelli Fileni e i confini del territorio cartaginese", in : *ACFP II, I, Actes du deuxième Congrès des Études Phéniciennes et Puniques*, Rome, 9-14 novembre 1987, E. Acquaro et al. éds. (= Studi Fenici 30), CNR, Rome, p. 393-400.
- SCHÖRLE, K. (2012) : "Saharan Trade in Classical Antiquity", in : *Saharan Frontiers. Space and Mobility in Northwest Africa*, James McDougall et Judith Scheele, éds. (= *Public Cultures of the Middle East and North Africa*), Indiana University Press, Bloomington - Londres, p. 58-72.
- THIRY, J. (1995) : *Le sahara libyen dans l'Afrique du nord médiévale*, Leuven.
- siècle ap. J.-C.), Actes du colloque de Rome (3-5 décembre 1987) Rome : École Française de Rome, p. 15-48.
- MATTINGLY, D. J. (2023) : *Between Sahara and Sea, Africa in the Roman Empire*, University of Michigan Press, United States.
- MATTINGLY, D. J., DANIELS, C. M., DORE, J. N., EDWARDS, D. et HAWTHORNE, J. (2003) : *The Archaeology of Fazzān, Volume I. Synthesis*, David Mattingly, éd., The Society for Libyan Studies, Londres.
- MATTIGLY, D. J., STERRY, M. (2017) : "Zuwila and Fazzān in the 7th – 10th centuries AD", in: Anderson G. D., Fenwick C. and Rosser-Owen M. (eds.), *the Aghlabids and their Neighbours. Art and Material culture in Ninth-century North Africa*, Leiden, Boston, Brill, p. 551- 572.
- MATTINGLY, D. J., STERRY, M., EDWARDS, D. (2015) : "The origins and development of Zuwila, Libyan Sahara : an archaeological and historical overview", in : *Azania Archaeological Research in Africa*, N° 50.1, p. 27-75.
- MATTIGLY, D. J., STERRY, M. J., THOMAS, D. C. (2013) : "Part 5 : Concluding synthesis : Jarma in its Saharan context : An urban Biography", in : David J. Mattingly (ed.), *The Archaeology of Fazzan, Vol-*

WILSON, A. (2013) : “Trading across the Syrtes: Euesperides and the Punic world”, in : *The Hellenistic West. Rethinking the Ancient Mediterranean*, Jonathan R. W. Prag et Josephine Crawley Quinn (éds.), Cambridge University Press, Cambridge, p. 120- 156.

الوجود القرطاجي بالسواحل الممتدة بين السرت الصغرى والكبرى بين المصادر الأدبية والأثرية

عبد اللطيف الركيك⁽¹⁾

Résumé

La présence carthaginoise sur les côtes des Syrtes est restée mystérieuse dans les sources anciennes en raison de la rareté des informations des écrivains anciens sur la région. Cet article cherche à aborder la problématique de la présence carthaginoise sur ces rivages que les anciens appelaient « emporia », à travers une comparaison entre les témoignages des textes gréco-romains et les données des recherches archéologiques afin d'apporter quelques éléments de réponse aux questions posées par cette problématique, notamment : Les côtes des Syrtes étaient-elles soumises au contrôle politique carthaginois direct ? Ou ces zones sont-elles restées simplement une sphère d'influence commerciale carthaginoise ?

Abstract

The Carthaginian presence on the coasts of Syrtes has remained mysterious in ancient sources due to the lack of information from ancient writers about the region. This article tries to tackle the issue of the Carthaginian presence in this region that the ancients writers called « emporia », through a comparison between the testimonies of Greco-Roman texts and the data of archaeological research in order to give answers to the questions raised by this issue, in particular: Were the coasts of Syrtes subject to direct Carthaginian political control? Or did these areas simply remain a sphere of Carthaginian commercial influence?

(1) باحث في التاريخ القديم والآثار-المملكة المغربية

المقدمة

شكلت السواحل الممتدة بين السرتين الكبرى والصغرى، أو ما يعرف في المصادر القديمة بمنطقة الأمبوريات (*Emporia*)، على ما يبدو مجالا مهما للأنشطة التجارية ما يطرح مسألة الدور الذي اضطلعت به قرطاج في المنطقة، لاسيما بعد إنشاء الإغريق مستعمرة لهم بالمنطقة (قورينا)، وتحولها إلى مجال للصراع بين قرطاج والإغريق. غير أن أهم ما يلاحظ على الأبحاث التي اهتمت بموضوع المجال السياسي القرطاجي هو أنها لا ترى إمكانية لاتساع مجال السيطرة السياسية لقرطاج جنوب صفاقس بالجنوب الشرقي التونسي، وذلك اعتمادا على إفادات النصوص اللاتينية. وهذا معناه جعل ذلك المجال مطابقا لحدود الخنادق الدفاعية والمقاطعات الرومانية العائدة لفترة ما بعد سقوط قرطاج سنة 146 ق.م. ويبدو أن حصر المجال التابع مباشرة للدولة القرطاجية في النطاق المذكور أعلاه راجع بالأساس لتركيز الكتاب القدامى على عامل القرب من قرطاج، واعتماد الباحثين المعاصرين على معطيات الفترة المتأخرة

من التاريخ القرطاجي، وخصوصا خلال فترة الحروب البونية⁽²⁾، حيث أصبحت المعلومات عن المجال القرطاجي أكثر وفرة إذا ما قورنت بشح معطياتنا حول الوجود القرطاجي في المناطق الواقعة بين السرت الصغرى والكبرى.

14

والراجع أن ثمة عوامل ساهمت في عدم تسليط الضوء على تاريخ مناطق السرت خلال الفترة القرطاجية، وبالتالي عدم معرفة طبيعتها علاقتها بقرطاج. ومنها أن تلك المناطق قد ظلت بعيدة عن اهتمام المؤرخين الإغريق والرومان بحكم بعدها عن الأحداث الأساسية للفترة القرطاجية المتأخرة. ذلك أن المناطق الواقعة شرق السرت الصغرى كانت بمنأى عن الصراع الروماني القرطاجي. هذا فضلا عن عوامل أخرى اقتصادية وطبيعية تتعلق على ما يبدو بضعف المؤهلات الاقتصادية لذلك المجال كما يتضح من قلة الموانئ، وصعوبة الإبحار بساحل السرت الكبرى، وجفاف المنطقة حسب إشارات الكتاب القدامى.

1- علاقة قرطاج بمناطق السرت من خلال النصوص الأدبية

تحدث هيرودوتوس منذ القرن 5 ق.م عن مناطق السرت، وقدم معلومات وفيرة عن عادات وتقاليدها سكانها⁽³⁾، غير أنه لم يولي اهتماما كبيرا

(2) نستعمل في هذا المقال مصطلح «بوني» انطلاقا من تسمية بوني (Poeni) التي استعملها الكتاب اللاتينيون للإشارة إلى القرطاجيين في سياق الحديث عن الحروب القرطاجية الرومانية.

(3) HÉRODOTE, *Histoires*, IV, 168-195.

لعلاقات مناطق السرت بقرطاج، لدرجة تبدو معها المنطقة في كتابات المؤرخ الإغريقي كما لو كانت مستقلة عن نفوذ «الدولة» القرطاجية، وبالتالي لم يشملها التوسع القرطاجي خلال فترة تدوين كتاباته عن المنطقة. لقد فسر الباحث الفرنسي كسيل (S. Gsell) صمت هيرودوتوس بكون قرطاج لم تكن قد توسعت بعد بالمنطقة خلال العصر الذي عاش فيه المؤرخ الإغريقي، وذلك بحجة أنها لم تكن قد تخلصت بعد من دفع الإتاوة للأفارقة المجاورين للمدينة⁽⁴⁾. ويتعين-مبدئياً- وتبعاً لما ساقه كسيل دعم الفكرة التي مؤداها أن مناطق السرت لم تكن خاضعة للقرطاجيين خلال الفترة التي جُمعت فيها نصوص هيرودوتوس حول المنطقة.

غير أن التفسير الذي قدمه الباحث الفرنسي لا يبدو مقنعاً لعدة اعتبارات، منها أننا لسنا متأكدين من أن كل معلومات هيرودوتوس قد جُمعت في حياته، إذ لا يستبعد اعتماده على مصادر سابقة على عصره، علاوة على تلك التي جمعها بنفسه. وهذا ما ينطبق على حديثه عن حادثة طرد القرطاجيين للإغريقي دوريوس من السرت الكبرى، والتي تؤرخ بحوالي 515 ق.م. ومن ناحية أخرى، يرجح أن هيرودوتوس قد جمع معلومات قديمة وسابقة لعصره عن مناطق السرت. فهذا ما يستشف من اعترافه بأنه استقى معلوماته من لبيين وجدهم بمصر، ومن القرطاجيين أنفسهم.

إذن، يحق التساؤل عن قدرة هيرودوتوس على تقديم تلك المعلومات الوفيرة عن منطقة السرت وهو الذي لم يزرها قط. ولعل التفسير الممكن لذلك هو طرح فرضية اعتماده أيضاً على معلومات القرطاجيين عن المنطقة، وهو ما يعني احتمال اتصال القرطاجيين بسكان مناطق السرت منذ فترة أقدم. يضاف لذلك أيضاً أن هيرودوتوس لم يهتم كثيراً بالحدود السياسية للمجال الشمال إفريقي بقدر تركيزه على الجوانب الجغرافية والإثنوغرافية.

وعلى الرغم مما ذكر أعلاه، فإن أقدم نص يشير إلى الوجود القرطاجي بمناطق السرت نجده عند هيرودوتوس لما تحدث عن تدخل قرطاج لطرد الإغريقي دوريوس (Dorieus) من وادي كينوبس (Kinyps)⁽⁵⁾ على ساحل

(4) GSELL S., 1915, p. 113.

(5) اختلف الباحثون في توطين نهر كينوبس الوارد عند هيرودوتوس. فقد طابق الباحث ستيفان كسيل بينه وبين وادي الكعام الذي يقع على بعد حوالي 75 كلم غرب رأس مصراته و18 كلم شرق لبدة، بينما اعتبر الباحث شارل تيسو أن الكينوبس هو واد المكار لكرين. لمزيد من التفاصيل انظر:
GSELL S., 1915, p. 90 ; TISSOT Ch., 1884, p. 154.

السرت الكبرى، ومنعه من إنشاء مستوطنة إغريقية هناك⁽⁶⁾. ويمكن اعتبار تدخل قرطاج للدفاع عن المنطقة بمثابة دليل على مراقبتها لتلك السواحل⁽⁷⁾. وإذا جاز هذا الربط، فإن القرطاجيين كانوا يشرفون على مناطق السرت على الأقل خلال أواخر القرن 6 ق.م. وهو أمر منطقي بالنظر للطابع الساحلي لتلك المناطق، وأهميتها بالنسبة للتجارة القرطاجية.

فإذا لم يكن هذا التدخل كافيا للحديث عن تبعيتها المباشرة للسيطرة القرطاجية خلال تلك الفترة، فالغالب على الظن، أن تحالفا مهما قد ربط بين قرطاج وسكان مناطق السرت، ساعد على توسيع النفوذ القرطاجي في المنطقة لاحقا. تحدث سترابون بدوره عن الوجود القرطاجي بوادي كينوبس، وذكر في نص، يصعب تأريخه، بأن القرطاجيين قد أقاموا جسرا على الوادي⁽⁸⁾.

تسمح المعاهدة القرطاجية الرومانية الأولى المؤرخة بأواخر القرن 6 ق.م (509 ق.م) بتأكيد المعلومات الواردة عند هيرودوتوس وسترابون بشأن الوجود القرطاجي المبكر بمناطق السرت. ويتضح هذا الأمر أكثر في المعاهدة القرطاجية الرومانية الثانية الموقعة سنة 348 ق.م، والتي تكشف بأن قرطاج كانت تشرف بالفعل على مجموع السواحل الممتدة جنوب رأس بون بالوطن القبلي (نابل شمالي شرق تونس)، ولا يستبعد أن مناطق السرت قد شكلت جزء من المجال الذي يشمل المنع المفروض على الرومان بمقتضى تلك المعاهدات لأن بنود المعاهدة لم تشر إلى حد جنوبي أو شرقي لذلك المجال.

ذكر ديودوروس الصقلي بدوره معلومات عن طبيعة العلاقات بين قرطاج ومناطق السرت، وهو ما يظهر من حديثه عن وقائع حملة الطاغية الإغريقي أغاثوكليس على المنطقة عند نهاية القرن 4 ق.م. ذلك أن دفاع قرطاج عن المنطقة أمام حملة القائد الإغريقي يعطي فكرة عن امتداد المجال القرطاجي إلى المناطق الواقعة جنوب صفاقس بما في ذلك سواحل السرت الصغرى والكبرى. فقد ذكر ديودوروس الصقلي بأن قسما من الجيش القرطاجي قد توجه للدفاع عن المدن البحرية⁽⁹⁾ ضد أغاثوكليس الذي هاجم حوالي مائتي مدينة بالمنطقة⁽¹⁰⁾، وأن الجانبين قد وقعا معاهدة تم بموجبها إرجاع المدن المحتلة إلى «السيادة» القرطاجية⁽¹¹⁾.

(6) HÉRODOTE, *Histoires*, V, 42.

(7) LANCEL S., 1992, p. 278 ; SZNYCER M., 1978, p. 597.

(8) STRABON, *Géographie*, XVII, 3, 18.

(9) DIODORE DE SICILE, *BH*, XX, 59.

(10) *Id*, *ibid.*, XX, 17.

(11) *Id*, *ibid.*, XX, 69.

لا يظهر بأن المجال الساحلي الممتد بين قرطاج ومدينة تاني (صفاقس)⁽¹²⁾ كان يشمل ذلك العدد الكبير من المدن الواردة في نص ديودوروس الصقلي، ذلك أن سترابون لم يذكر إلا عددا قليلا من المدن بتلك المناطق⁽¹³⁾ مقابل إشارته لعدد مهم من المدن في المناطق الممتدة بين السرت الصغرى والكبرى انطلاقا من مدينة زوكيس (Zuchis)⁽¹⁴⁾، ربما جرجيس الحالية⁽¹⁵⁾ بالجنوب الشرقي لتونس. ومن هنا، لا يستبعد اتساع الصراع القرطاجي السيراكوزي ليشمل المناطق الممتدة بين السرت الصغرى والكبرى، لا سيما إذا استحضرنما ما ورد في النصوص الأدبية حول منطقة «الأمبوريات».

تحدث الكتاب الإغريق واللاتينيون عن كثرة المدن بمنطقة الأمبوريات (أي ما عرف بساحل الوكالات التجارية)⁽¹⁶⁾، التي يمكن توطينها انطلاقا من خلال إفادات نصوص بوليبيوس⁽¹⁷⁾ وتيتوس-ليفوس⁽¹⁸⁾ وسالوستوس⁽¹⁹⁾ بالمجال الواقع بين السرت الكبرى والصغرى. ولعل ما يعزز ذلك التوطين أن الملك النوميدي مسنيسا قد تدخل، حسب نص أورده بوليبيوس، لدى القرطاجيين للسماح له بعبور منطقة «الأمبوريات» في طريقه إلى قورينا⁽²⁰⁾. وقد أضاف بوليبيوس في نص مؤرخ بحوالي 161-162 ق. م بأن مسنيسا قد اقتحم مناطق «الأمبوريات»⁽²¹⁾. وقد وردت هذه المعلومة أيضا عند تيتوس-ليفوس في نص يعود لحوالي 165 ق. م⁽²²⁾. بينما أشار أبيانوس فيما بعد إلى قبول قرطاج التخلي عن تلك المناطق لصالح مسنيسا⁽²³⁾.

(12) تاني (Thaenae)، أي هنشير طينة (Henchir Thyna) وقد وطنها الباحث الفرنسي لنسل بالسرت الصغرى (جنوب صفاقس). للمزيد راجع:

LANCEL S., 1992, p. 283.

(13) STRABON, *Géographie*, XVII, 3, 16.

(14) *Id, ibid*, XVII, 3, 18.

(15) ذكر سترابون أن المدينة توجد بالقرب من بحيرة تحمل نفس الاسم، وتقع بعد السرت الصغرى، وتشتهر بأوراش صناعة الصباغ الأرجواني وتعليح السمك. وتبقى مطابقتها بجرجيس الحالية مجرد فرضية تعوزها الأدلة الكافية.

(16) POLYBE, *Histoires*, I, 82, 6 ; *id, ibid.*, III, 23, 2 ; TITE-LIVE, *HR*, XXIX, 25; 33 et 62 ; APPIAN, *PW*, VIII, 72 et 79.

(17) POLYBE, *Histoires*, XXX, 21, 7.

(18) TITE-LIVE, *HR*, XXXIV, 62, 3.

(19) SALLUSTE, *GJ*, 19.

(20) POLYBE, *Histoires*, XXXI, 21.

(21) *Ibidem*.

(22) TITE-LIVE, *HR*, XXXIV, 62, 3.

(23) APPIAN, *Punic Wars*, VIII, 72.

ورغم عدم اتفاق القدامى على تأريخ تلك الأحداث، التي تنتمي لفترة متأخرة، بشكل مضبوط، فإن المؤرخين المعاصرين يتفقون على توطين المنطقة موضوع النزاع بالسواحل الممتدة بين السرت الصغرى والكبرى⁽²⁴⁾. علما أن مسنيسا لم ينف في خطابه أمام مجلس الشيوخ الروماني تبعية منطقة «الأمبوريات» لقرطاج ما دام قد طلب السماح له بالمرور عبرها، بينما أكد القرطاجيون بدورهم بأن المنطقة شكلت جزء من الحدود التي اختطها سكيبيون الإفريقي لمجالهم عقب نهاية الحرب البونية الثانية كما ذكر تيتوس-ليفوس⁽²⁵⁾.

ولعل أهم ما يمكن استخلاصه من نص تيتوس-ليفوس هو أن الحد الجنوبي للخنادق الفينيقيّة التي تم تحديدها حوالي 201 ق.م لا يمكن توطينه بمنطقة صفاقس بالسرت الصغرى. وهذا بخلاف ما خلصت إليه عديد الدراسات التي حددت المجال القرطاجي في مجال ضيق مستثية من ذلك مناطق السرت. لقد تضمنت النصوص القديمة إشارات مهمة تدعم فرضية امتداد النفوذ القرطاجي المباشر إلى المناطق الواقعة بين السرت الصغرى والكبرى.

فقد أشار بوليبيوس إلى جلب القرطاجيين للمؤونة من المنطقة خلال حرب المرتزقة (*Guerre des Mercenaires*) سنة 238 ق.م⁽²⁶⁾. وفوق ذلك فقد أشار تيتوس-ليفوس إلى ما يفيد بأن سكان السرت الكبرى كانوا ملزمين بدفع إتاوات للدولة القرطاجية كما يتضح مثلا بالنسبة لسكان لبدة⁽²⁷⁾. كما ذكر بوليبيوس بدوره أن القرطاجيين أصبحوا ملزمين فيما بعد برد تلك الإتاوات لمسنيسا⁽²⁸⁾ بعد أن فقدوا السيطرة على جزء من المنطقة. كما كانت قرطاج تعتمد على منطقة الأمبوريات في تعبئة الجنود منذ نهاية القرن 5 ق.م كما يتضح من إشارة ديودوروس الصقلي⁽²⁹⁾، وخلال الحروب البونية الرومانية كما يستشف من نصوص بوليبيوس⁽³⁰⁾ وأشعار سيلفيوس الإيطالي⁽³¹⁾. ويمكن اعتبار دفع الإتاوات⁽³²⁾ وتقديم الجند⁽³³⁾ بمثابة مؤشرات على العلاقة المباشرة التي ربطت قرطاج بمناطق الأمبوريات.

(24) GSELL S., 1921, T. II, p. 128; TISSOT Ch., 1884, p. 534.

(25) TITE-LIVE, HR, XXXIV, 62, 9-10.

(26) POLYBE, *Histoires*, I, 82, 6.

(27) TITE-LIVE, HR, XXXIV, 62, 3.

(28) POLYBE, *Histoires*, XXX, 21, 7.

(29) DIODORE DE SICILE, BH, XIII, 80.

(30) POLYBE, *Histoires*, III, 33, 13.

(31) SILIUS ITALICUS, *Les puniques*, III, 256-257 et 276.

(32) POLYBE, *Histoires*, I, 72, 1-2.

(33) DIODORE DE SICILE, BH, XI, 1, 5 ; id, ibid., XIII, 8 ; 43 et 54.

من ناحية أخرى، تساعدنا مدلولات الصراع القرطاجي الروماني بالجزء الشرقي لشمال إفريقيا خلال الحروب البونية على رصد مدى تبعية مناطق السرت لقرطاج، فإذا انطلقنا من السرت الصغرى واعتبرنا الصراع البوني الروماني محددًا لتلك التبعية فإن لدينا ما يكفي من الأدلة للبرهنة على مراقبة قرطاج بشكل مباشر للمناطق الممتدة شرق السرت الصغرى. فقد نزل الرومان بجزيرة مينيخس (Meninx)، ويرجح أنها جربة الحالية⁽³⁴⁾، حوالي 253-254 ق.م.⁽³⁵⁾، وحوالي 217 ق.م.⁽³⁶⁾. كما نزل سكيبيون بساحل منطقة الأمبوريات⁽³⁷⁾ خلال حربه ضد قرطاج⁽³⁸⁾.

كما نسب بعض الكتاب القدامى للقرطاجيين السيطرة على مدن السرت الصغرى والكبرى. فقد وردت في رحلة سكيلاكس المزعوم إشارات إلى مجموعة من المدن التابعة لقرطاج بالمنطقة⁽³⁹⁾، واعتبر سترابون أن المدن الواقعة بين برج أوفرنتاس (Tour Euphrantas) بمدخل السرت الكبرى ومدينة تاياني بالسرت الصغرى كانت تابعة للقرطاجيين⁽⁴⁰⁾، وذكر توكسيديد (Thucydide) بأن نيابوليس (لبدة) كانت مركزا قرطاجيا⁽⁴¹⁾.

كما يمكن دراسة التوسع التوسع القرطاجي بمناطق السرت كذلك من خلال حديث القدامى عن مجال السكان الليبي-فينيقيين (Λιβυφοίνικες) لولا أن الكتاب الإغريق والرومان قدموا في الواقع معلومات متناقضة حول ذلك المجال. فقد كان ذلك المجال شاسعا كما يستفاد من بعض النصوص. فقد ذكر ديودوروس الصقلي بأنهم ينتشرون بالمناطق الساحلية⁽⁴²⁾، وحدد سترابون مجالهم بين قرطاج ورأس صيفال بمدخل السرت الكبرى⁽⁴³⁾. بينما يبدو مجالهم أضيق في نصوص بلينيوس الأقدم الذي أشار إلى مجال الليبي-فينيقيين بالبيزاكين⁽⁴⁴⁾، وبطوليموس الذي حصر مجالهم بين قرطاج والمناطق الواقعة شمال البيزاكين⁽⁴⁵⁾.

(34) ميننكس موقع أثري يقع على الساحل الجنوبي الشرقي لجزيرة جربة، قرب قرية القنطرة، يعود إلى القرن 4 ق.م، ويمتد على مساحة 132 هكتار.

(35) Id, ibid., I, 39, 1-6.

(36) TITE-LIVE, HR, XXII, 31, 2.

(37) Id, ibid., XXXIV, 62, 3.

(38) ربما يكون سكيبيون قد نزل بالمنطقة خلال فترة السلم كما يستشف من نص تيتوس ليفيوس:

Tite-Live, HR, XXXIV, 62, 16-18

(39) Périple du PSEUDO-SCYLAX, 92F, 109M-94F, 111M.

(40) STRABON, Géographie, XVII, 3, 17-19.

(41) THUCYDIDE, La guerre de Péloponnèse, VII, 50, 1-2.

(42) DIODORE DE SICILE, BH, XX, 55.

(43) STRABON, Géographie, XVII, 3, 19.

(44) PLINIE L'ANCIEN, HN, V, 24.

(45) PTOLÉMÉE, Géographie, IV, 3, 22.

يستفاد من خلال تمييز ديودوروس الصقلي بين سكان السواحل الممتدة إلى أعمدة هرقل وسكان السواحل الممتدة جنوب قرطاج أن المقصود بالمدن الساحلية هي المناطق الواقعة إلى الجنوب من قرطاج مثلما هو الأمر بالنسبة لسترابون حسب قراءة الباحث باطس⁽⁴⁶⁾. ومن هنا يرجح أن مجال الليبي-فينيقيين في النصوص المذكورة يوافق مناطق الأمبوريات الممتد إلى السرت الكبرى⁽⁴⁷⁾، خصوصا وأن نص رحلة سكيلاكس المزعوم ربما أشار إلى صبراته الواقعة باتجاه السرت الكبرى باسم أبرطنون (*Abrotonon*)⁽⁴⁸⁾، وكذلك الأمر بالنسبة لإيفور (*Éphore*) الذي استعمل نفس الاسم للإشارة إلى صبراته التي وصفها بمدينة الليبي-فينيقيين⁽⁴⁹⁾.

وفضلا عما سبقت الإشارة إليه بخصوص تقديم سكان منطقة الأمبوريات لإلتاوات لقرطاج، فقد تحدثت المصادر عن تجنيد الليبي-فينيقيين في الجيش القرطاجي⁽⁵⁰⁾، وذكر ديودوروس الصقلي بأنهم يرتبطون بسكان قرطاج برابطة القرابة الدموية، ويملكون حق المصاهرة مع القرطاجيين⁽⁵¹⁾. وهذا يعني خضوعهم لنفس القوانين السائدة بقرطاج إذا اعتبرنا الزواج حق من بين حقوق فردية أخرى حسب رأي الباحث كسيل⁽⁵²⁾. وإن كان النص الأخير يحتمل تفسيرات أخرى⁽⁵³⁾، فلا شك أنه يدل على قوة علاقة تلك الساكنة بقرطاج، واحتمال تبعيتها مباشرة للحكم القرطاجي، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار النص الوارد في معاهدة حنبعل مع فيليب المقدوني المؤرخة بحوالي 215 ق.م، والذي مفاده أن «الذين يخضعون لسلطة قرطاج يتبعون نفس القوانين»⁽⁵⁴⁾.

لقد ربط بعض الباحثين هذا النص بوضعية الليبي-فينيقيين إزاء قرطاج⁽⁵⁵⁾. وهو أمر منطقي لأن ثمة علاقة بين اتباع نفس القوانين والخضوع للسلطة القرطاجية، خصوصا وأنه يُفترض أن هؤلاء السكان، وجميع المجموعات البشرية المستقرة بالمجال الخاضع للحكم القرطاجي، كانوا معنيين بالمعاهدات التي تعقدها قرطاج، وبالتالي فهم جزء من المجال التابع لها.

(46) BATES O., 1970, p. 56.

(47) GSELL S., 1905, p. 376.

(48) Périple du PSEUDO-SCYLAX, 92F, 109M.

(49) ÉPHORE apud ÉTIENNE DE BYZANCE, s.v cité par GSELL S., 1921, T. II, p. 123.

(50) DIODORE DE SICILE, *BH*, XXV, 2, 2 ; TITE-LIVE, *HR*, XXI, 22, 3.

(51) DIODORE DE SICILE, *BH*, XX, 55.

(52) GSELL S., *HAAN*, T. II, p. 290-291.

(53) CROUZET S., 2003, p. 683.

(54) POLYBE, *Histoires*, VII, 9, 5.

(55) GSELL, S., *HAAN*, T. II, p. 291.

وبناء على المعطيات المذكورة أعلاه، تُطرح فرضية وجود مدلول سياسي لمصطلح «ليبي-فينيقيين» واحتمال تعبيره عن المدن الإفريقية التي خضعت لنفس القوانين المتبعة في قرطاج. وترتبط هذه الفكرة بما ورد في نص ديودوروس الصقلي الذي أشار فيه إلى إرسال بعثة ليبي-فينيقية وقرطاجية إلى الشرق لتهنئة ألكسندر بانتصاراته هناك، وذلك حوالي 323-324 ق.م.⁽⁵⁶⁾

يبقى من الصعب تأويل النص بكون الليبي-فينيقيين كانوا مستقلين عن قرطاج لأن المؤرخ الإغريقي لم يوضح ما إذا كان الأمر يتعلق ببعثة مدينة واحدة أم عدة مدن مثلما لا يوجد في النصوص التاريخية ما يسمح بافتراض قيام كيان مستقل عن القرطاجيين، سواء في مناطق السرت أو بالساحل الشرقي التونسي⁽⁵⁷⁾ مثلما لم تكشف المعطيات الأثرية عن دليل يمكن أن يُفسر في هذا الاتجاه، إذ لم يثبت بعد أن مناطق السرت قد ضربت عملة خاصة بها قبل سقوط قرطاج⁽⁵⁸⁾، حيث اكتشفت بها نقود قرطاجية بموقع صبراته⁽⁵⁹⁾ غرب طرابلس الحالية. ومن هذا المنطلق لا يستبعد أن يكون المقصود في نص ديودوروس الصقلي هو إرسال بعثات من قرطاج وباقي المدن الساحلية التابعة لها، وليس بعثات رسمية منفردة.

21

يتضح من خلال المعطيات التي سقناها أعلاه أن مجال الأمبورات الممتد بين السرت الصغرى والكبرى يشمل أيضا مجال الساكنة الليبي-فينيقية، وأن مجموع تلك المناطق الساحلية شكلت جزءا من المجال الإفريقي الذي راقبته قرطاج لفترات طويلة قبل أن تظهر المنافسة النوميديّة منذ القرن 2 ق.م. ولذلك لا يبدو من المنطقي استثناء ذلك المجال من المناطق التي امتد إليها النفوذ القرطاجي المباشر بدعوى بعدها عن قرطاج، أو وجود عوائق طبيعية يمكن أن تمنع القرطاجيين من التوسع بتلك الأنحاء كامتداد مناطق شبه صحراوية بالسرت الصغرى وباتجاه السرت الكبرى⁽⁶⁰⁾ لأن في ذلك إغفال للطابع البحري للانتشار القرطاجي فضلا عن عدم معرفتنا بالتنظيم المحلي للمدن والمناطق الإفريقية التابعة للدولة القرطاجية.

إن الحديث عن التبعية السياسية و«الإدارية» المباشرة لسواحل السرت الصغرى والكبرى للقرطاجيين يبقى استنتاجا مبنيا على قراءة في المعطيات الأدبية التي سقناها أعلاه. ويبقى الأمر مجرد فرضية تدعمها دلائل

(56) DIODORE DE SICILE, *BH*, XVII, 113, 2.

(57) DIODORE DE SICILE, *BH*, XX, 17 ; CORIPPE, *La Johannide*, V, 74.

(58) GSELL S., *HAAN*, T. II, p. 294, n° 1.

(59) ALEXANDROPOULOS J., 2000, p. 122.

(60) LANCEL S., 1992, p. 278.

كثيرة، لكنها لا تحسم النقاش في الموضوع. وهو ما يطرح ضرورة التريث في تحديد طبيعة النفوذ القرطاجي بمناطق السرت لعدة اعتبارات، منها جهلنا بالتنظيم الذي اتبعه القرطاجيون لضمان خضوع المناطق التابعة لهم مباشرة، إذ يبقى الحديث عن مقاطعات قرطاجية أمراً معقداً بسبب اقتصار معطيات النصوص التاريخية على المناطق القريبة من قرطاج وتلك التي بقيت بحوزتها خلال القرنين الأخيرين من تاريخها.

2- علاقة قرطاج بمناطق السرت من خلال المعطيات الأثرية

تعكس اللقى الأثرية التي عثر عليها بمواقع الساحل الليبي والساحل الشرقي التونسي أهمية الصلات الحضارية مع مدينة قرطاج، إلا أننا مع ذلك نصطدم بعدم توازن السياقات الأثرية الخاصة بكل موقع على حدة، فهناك مواقع تؤرخ بقاياها بفترات جد مبكرة مثل لبدة الكبرى (*Leptis Magna*) التي ترجع إلى القرن 7 ق.م⁽⁶¹⁾، وصبراتة (النصف الثاني من القرن 5 ق.م)⁽⁶²⁾. بينما لا تتجاوز باقي المواقع الأثرية بمناطق السرت القرن 4 ق.م كما هو الشأن بالنسبة لمواقع أويا (*Oea*) بطرابلس الحالية، وجربة (*Meninx*)، وجيكس (*Gigthis*)⁽⁶³⁾ الموطنة بخليج بوغرة بولاية مدين بالجنوب الشرقي للبلاد التونسية⁽⁶⁴⁾.

22

وهذا ما طرح إشكالية وجود مرحلة فينيقية سابقة على وصول القرطاجيين إلى المنطقة. ولا يمكن الادعاء بأن المعطيات المتوفرة حالياً تعد كافية لمعرفة النشاط الفينيقي بالمنطقة وتاريخ تزايد النفوذ القرطاجي بها لأنه لا يوجد انسجام بين معطيات المصادر الأدبية التي تتحدث عن اتصال القرطاجيين منذ فترات مبكرة بمناطق السرت والمعطيات الأثرية التي تؤرخ، لحد الآن، لذلك الانتشار بفترات أحدث (القرن 4 ق.م).

إذن يتضح أن المعطيات الأثرية بمناطق السرت لا تضيف شيئاً لفهم علاقة تلك المناطق بقرطاج لأنها لا توفر ما يسمح بالحديث عن استيطان قرطاجي بقدر ما تبرز أن تلك المناطق قد حافظت على حضارة متميزة في أغلب

(61) CARTER T.-H., 1965, p. 123-132, et p. 125-126.

(62) PICARD G.-Ch., et PICARD C., 1958, p. 229.

(63) ذكر اسم المدينة في المصادر القديمة بصيغ مختلفة، منها *d'Epichos* في نص رحلة سكيلاكس المزعوم، و*Gichtis* عند الجغرافيين الإغريق بطوليمايوس. ويرجح أن هذه التسميات هي تحريف لتسمية ليبية، أو قرطاجية قديمة. للمزيد راجع: PTOLEMÉE, *Géographie*, IV, 3, 11, TROUSSET P., *Gigthis*, dans *Enc. Ber.*, 20, 1998, p. 3128-3134. Passim

(64) *Ibidem*.

مظاهرها عن حضارة مدينة قرطاج. ولذلك لا نعرف على وجه التحديد ما إذا كانت تلك المناطق قد شكلت مقاطعة قرطاجية واحدة أم أكثر، أم أنها كانت منطقة للأنشطة الاقتصادية كما توحي بذلك تسمية «أمبوريات».

أما بالنسبة للحدود الشرقية لمناطق النفوذ القرطاجي بالسرت الكبرى، فإن الكتاب القدامى يتفقون على جعل قوس الأخوان فليني (*Arc des Philènes*) بخليج السرت الكبرى⁽⁶⁵⁾ بمثابة الحد الشرقي لمجال السيطرة القرطاجية بالمنطقة كما يرى الباحث كسيل⁽⁶⁶⁾ من نص سترابون⁽⁶⁷⁾، وحدًا غريبًا لمجال سيطرة قورينا (*Cyrene*)⁽⁶⁸⁾ المستعمرة الإغريقية بالسواحل الليبية⁽⁶⁹⁾. لقد أخبرنا بلينيوس الأقدم بأن النصب التذكاري للأخوين فليني كان موجودا بالفعل، وأنه كان مبنيًا بالرمال⁽⁷⁰⁾. أما سترابون فقد ذكر بأن آثار قوس الأخوان فليني لم تعد موجودة خلال عصره، وإنما بقي اسمه يطلق على المنطقة التي أنشأت بها⁽⁷¹⁾.

أما بالنسبة لتوطين تلك النصب التذكارية، فقد جعلها سترابون بين السرت الصغرى والكبرى⁽⁷²⁾، بينما حدد أورويسيوس موقعها بشرق لبدة⁽⁷³⁾.

ويعد سالوستوس أول من قدم قصة أسطورية متكاملة عن ظروف إنشاء الحدود بين المجال القرطاجي والقورينائية عند قوس الأخوان فليني. بيد أن تلك القصة تتضمن جوانب غامضة مثل مسألة تأريخ الصراع المشار إليه، وكذلك الأسباب الحقيقية التي أدت إلى وضع حدود بين ممتلكات القرطاجيين والإغريق بمنطقة السرت الكبرى. ذلك أن سالوستوس لم يقدم في الواقع معلومات يمكن أن تساعد على معرفة تاريخ إنشاء حدود دائمة بين المجال السياسي القرطاجي والقورينائية.

وإذا كان البعض لم يستبعد وجود قوس الأخوان فليني، فإنه شكك في صحة الرواية التي وردت عند سالوستوس من منطلق أن الأمر يتعلق بأسطورة إغريقية حاولت تفسير وجود تلك النصب، وبالتالي قد لا تتضمن الأسباب

(65) Périple du PSEUDO-SCYLAX, 94F, 111M ; POLYBE, *Histoires*, III, 2 ; SALLUSTE, GJ, LXXIX, 1-9 ; POMPONIIUS MÉLA, *Géographie*, I, 7.

(66) GSELL S., 1921, T. II, p. 118.

(67) STRABON, *Géographie*, XVII, 3, 20.

(68) PTOLÉMÉE, *Géographie*, IV, 4, 1.

(69) أسست المستعمرة الإغريقية سنة 631 ق.م من طرف جماعات إغريقية، ويوطن موقعها على بعد 10 كيلومترات شرق مدينة البيضاء بليبيا الحالية.

(70) PLIN L'ANCIEN, *HN*, V, 28.

(71) STRABON, *Géographie*, III, 5, 5.

(72) *Ibidem*.

(73) أورويسيوس، 1982، ص. 69.

الحقيقية التي أدت إلى بنائها⁽⁷⁴⁾، خصوصا وأن هناك من حاول إيجاد معنى لكلمة فيلان (Philainoi) في اللغة الإغريقية⁽⁷⁵⁾. لكن هذه الشكوك تتسحب في الواقع على الكثير من أحداث المنطقة، نظرا لعدم اهتمام المؤرخين القدامى بالكتابة عن تاريخ منطقة السرت الكبرى، لا تلغي فرضية قيام الحرب التي تحدث عنها سالوستوس لأن هناك معطيات تفيد وجود صراع بين قرطاج وإغريق قورينا⁽⁷⁶⁾.

ساهمت التحريات الأثرية في توطين قوس الأخوان فليني المذكور في النصوص الكلاسيكية، حيث حُدّد موقعه بعمق السرت الكبرى⁽⁷⁷⁾ على بعد 290 كلم جنوب غرب مدينة بنغازي بليبيا الحالية⁽⁷⁸⁾ من منطلق غياب أي أثر قرطاجي شرق ذلك الموقع⁽⁷⁹⁾، فضلا عن وجود عوائق طبيعية تجعل الوجود القرطاجي لا يتجاوز الموقع المذكور بسبب امتداد صحاري تفصل عمليا قورينا عن المجال القرطاجي بالسرت الكبرى⁽⁸⁰⁾.

ومن هنا، يبدو أن هناك تكاملا بين المعطيات الأدبية والأثرية للبرهنة على امتداد النفوذ القرطاجي إلى عمق السرت الكبرى. غير أنه لا يوجد ما يسمح بالبرهنة على أن ذلك النفوذ قد تجاوز المناطق الساحلية نحو داخل الأراضي، حيث تعتبر مدن السرت بمثابة واحات تمتد خلفها مجالات صحراوية قاحلة⁽⁸¹⁾. هذا فضلا عن وجود قوى محلية منافسة جنوب الشريط الساحلي متمثلة بالخصوص في الكرامنت⁽⁸²⁾ الذين أقاموا كيانا مهما بالمنطقة⁽⁸³⁾ يتمحور حول عاصمتهم جرما (Garama)⁽⁸⁴⁾.

ويتضح من خلال المعطيات الأثرية أن الكرامنت أقاموا دولة قوية ومنظمة بمنطقة فزان⁽⁸⁵⁾ بالجنوب الغربي لليبيا الحالية منذ فترات قديمة، حيث تؤرخ آثار حضارة الكرامنت بموقع زنشكرة قرب جرما بالقرن 9 ق. م⁽⁸⁶⁾.

(74) ERNOUT A., (Traducteur) dans SALLUSTE, *Guerre de Jugurtha*, les Belles lettres, Paris, 1964, p. 211, n° 1.

(75) LANCEL S., 1992, p. 110.

(76) LARONDE A., 1987, p. 202 et 487.

(77) DEVILLERS O., 2000, p. 119-144, et p. 119.

(78) LARONDE A., 1987, p. 199.

(79) LANCEL S., 1992, p. 110

(80) STRABON, *Géographie*, XVII, 3, 1 et 23.

(81) GSELL S., 1921, T. III, p. 211.

(82) PLINIE L'ANCIEN, *HN*, V, 34.

(83)

(84) *Id, ibid.*, V, 36.

(85) HACHID M., 2000, p. 127.

(86) *Ibid.*, p. 129.

ويبدو من خلال البقايا المادية أن بلاد الكرامنت قد عرفت ازدهارا مهما خلال أواسط الألف الأول ق.م⁽⁸⁷⁾. وبناء على ذلك لا يبدو أنه كان بمقدور القرطاجيين التوغل جنوبا نحو مجال الكرامنت للاستفادة من خيرات المنطقة.

والراجع أن القرطاجيين قد قبلوا بدور الوساطة التجارية التي قام بها هؤلاء مع المناطق الجنوبية، واكتفوا بمراقبة المناطق الساحلية⁽⁸⁸⁾، وتجنيد الكرامنت في جيشهم إذا صحت معلومات الشاعر الإيطالي سيليوس بهذا الخصوص⁽⁸⁹⁾. لقد اتضحت صعوبة اختراق مجال الكرامنت خلال فترة الاحتلال الروماني. فلما حاول الرومان مناوشة الكرامنت⁽⁹⁰⁾، أصر هؤلاء الأخيرون على الدفاع عن مجالهم، بل صعدوا إلى سواحل السرت للقيام بعمليات حربية ضد الرومان، كما رفضوا التجنيد في صفوف الجيش الروماني⁽⁹¹⁾.

بناء على ما سبق، وباستحضار محدودية معطياتنا الأدبية والأثرية على حد سواء، يمكن الاستنتاج بأن المجال الساحلي الممتد بين السرت الصغرى والكبرى قد خضع للمراقبة القرطاجية، وإن كان من الصعب الحسم في طبيعة تلك التبعية. وطالما أن مجمل المجال القرطاجي بالجزء الشرقي لشمال إفريقيا قد تركز بالسواحل، فمن المنطقي أن التوسع القرطاجي بالمنطقة قد ركز على سواحل السرت دون التوغل بداخل الأراضي باعتبار أنه كان من السهل النزول بالسواحل مقارنة بالمناطق الداخلية التي تستوطنها كيانات مستقلة.

(87) MATTINGLY P., 2001, p. 45-61, et p. 53.

(88) ABDELALIM M.-K., 1988, pp. 165-177, p. 167.

(89) SILIUS ITALICUS, *Les puniques*, II, 58 ; id, *ibid.*, III, 313.

(90) PLINIE L'ANCIEN, *HN*, V, 35-37

(91) *Id, ibid.*, V, 38 ; TACITE, *Annales*, IV, 50

البليوغرافيا

DIODORE DE SICILE, *Bibliothèque historique*, T.IV, liv. XX, 2^{ème} édition, traduit du grec par Hoefer, F., Librairie de L. Hachette et Cie, Paris, 1865.

HÉRODOTE, *Histoires*, liv. IV, texte établi et traduit par Legrand, Ph.- E., 4^{ème} tirage, les Belles Lettres, Paris, 1949.

PLINE L'ANCIEN, *Histoire naturelle*, liv. V, texte établi et traduit par Desanges, J., les Belles lettres, Paris, 1980.

THUCYDIDE, *La guerre de Péloponnèse*, T. IV, liv. VI-VII, texte établi et traduit par Bodin, L., et Romilly, J., 3^{ème} tirage revu et corrigé, les Belles lettres, Paris, 1970.

TITE-LIVE, *Histoire romaine*, liv. XXIX, texte établi et traduit par Nisard, Paris, 1864.

TITE-LIVE, *Histoire romaine*, T. V, Traduction de Eugène Lasserre, Garnier, Paris, 1937.

TITE-LIVE, *Histoire romaine*, T. VXI, liv. XXI, texte établi et traduit par Jal, P., les Belles lettres, Paris, 1991.

2- المراجع باللغات الأجنبية

ABDELALIM M.-K. 1988, « Le nationalisme Libyen et la domination étrangère à l'époque gréco-romaine » dans *Lybica antiqua*, n° 11, p. 165-177.

ALEXANDROPOULOS J. 2000, *Les monnaies de l'Afrique antique (400 av. J.-C. - 40 ap. J.-C.)*, PUF, Toulouse.

1- المصادر

أ- باللغة العربية

أوروسيسوس (أبلوس)، 2891، *تاريخ العالم*، الترجمة العربية القديمة (منتصف ق. 4 هـ)، حققها وقدم لها عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت.

ب- باللغات الأجنبية

APPIAN, *Punic wars*, Vol. I, book VIII, English translation by White, H, et Heinemann W., London, 1912.

CORIPPE, *La Johannide*, texte traduit par Alix, J., dans *Rev. Tun.*, T. VI-IX, 1899-1902.

DIODORE DE SICILE, *Bibliothèque historique*, liv. I, texte établi par Bertrac et traduit par Vernière, Y., les Belles lettres, Paris, 1993.

DIODORE DE SICILE, *Bibliothèque historique*, T. II, liv. V-XIII, traduit du grec par Hoefer, F., Librairie Hachette et Cie, Paris, 1912.

DIODORE DE SICILE, *Bibliothèque historique*, T. II, liv. V-XIII, traduit du grec par Hoefer, F., Librairie Hachette et Cie, Paris, 1912.

DIODORE DE SICILE, *Bibliothèque historique*, T. III, liv. XIV-XVII, traduit du grec par Hoefer, F., 3^{ème} édition, Librairie Hachette et Cie, Paris, 1912.

DIODORE DE SICILE, *Bibliothèque historique*, T. III, liv. XIV-XVII, traduit du grec par Hoefer, F., 3^{ème} édition, Librairie Hachette et Cie, Paris, 1912.

- SALLUSTE, *Guerre de Jugurtha*, texte établi et traduit par Ernout, A., les Belles lettres, Paris, 1964.
- SILIUS ITALICUS, *Les puniques*, T. II, liv. I-V, traduction nouvelle par Corpet, E.-F., et Dubois, N.-A., C.L.F Pankoucke, Paris, MDCCCXXXVI.
- SILIUS ITALICUS, *Les puniques*, T. II, liv. I-V, traduction nouvelle par Corpet, E.-F., et Dubois, N.-A., C.L.F Pankoucke, Paris, MDCCCXXXVI.
- STRABON, *Géographie*, T. II, liv. III-IV, texte établi et traduit par Lassere, F., les Belles lettres, Paris, 1966.
- STRABON, *Géographie*, T. III, liv. XVII, traduction nouvelle par Tradieu, A., Hachette, Paris, 1966.
- TACITE, *Annales*, T. I, liv. I-III, texte établi et traduit par Willeumier, P., les Belles lettres, Paris, 1978.
- GSELL S. 1915, *Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord*, Typographie Adolphe Jourdan, Alger.
- GSELL S. 1921, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, T. II, 2^{ème} éd., Librairie Hachette, Paris.
- GSELL S. 1921, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, T. III, 2^{ème} éd., Librairie Hachette, Paris.
- GHAKI M. 1979, *Recherches sur les rapports entre les phénico-puniques et les libyco-numides V^e siècle av. J.-C. -I^{er} siècle av. J.-C.*, Thèse de 3^{ème} cycle, Université de Paris I, Panthéon Sorbonne, Décembre (dactylographiée).
- HACHID M. 2000, *Les premiers berbères*, Ina-Yas, Édisud, Paris.
- BATES O. 1970, *The Eastern Libyan*, Frank Cass et Co, LTD.
- CARTER T.-H. 1965, « Western Phoenician and Lepcis » dans *AJA*, T. LXIX, 2, p. 123-132.
- CROUZET S. 2003, « Les status civiques dans l'Afrique punique » dans *MEFR*, T. 115, p. 655-703.
- DEVILLERS O. 2000, « Regards romains sur les Autels des frères Philènes » dans *Africa Romana*, T. XIV, Vol. I, p. 119-144.
- GSELL S. 1905, « Étendue de la domination carthaginoise en Afrique » dans *Recueil de mémoires et de textes publiés en l'honneur du XIV^{ème} congrès des orientalistes*, Algiers, Kraus Reprint, Nendeln/Liechtenstein, 1968, p. 347-387.
- POLYBE, *Histoires*, liv. III, texte établi et traduit par Foucault, J., les Belles lettres, Paris, 1971.
- POLYBE, *Histoires*, liv. XXX (Fragments), Traduction de Bouchot. (<http://remacle.org/bloodwolf/historiens/polybe/trente.htm>).
- POLYBE, *Histoires*, T. I, liv. I, texte établi et traduit par Pédech, P., les Belles lettres, Paris, 1969.
- POLYBE, *Histoires*, T. VII, liv. VII-VIII, texte établi et traduit par Weil, R., les Belles lettres, Paris, 1982.
- POMPONIUS MÉLA, *Géographie*, texte traduit par Baudet, M.-L., C.L.F Pankoucke, Ed., Paris, 1843.
- PTOLÉMÉE, *Géographie*, Traduction latine par Müller, C., Paris, 1883.
- QUINTE-CURCE, *Histoires*, T.I, liv. III-VI, texte établi et traduit par Bardon, H., 4^{ème} tirage revu et corrigé, les Belles lettres, Paris, 1992.

- LANCEL S. 1992, *Carthage*, Fayard, Paris.
- LARONDE A. 1987, *La Cyrène et la Libye hellénistique*, Éd. CNRS, Paris.
- MATTINGLY P. 2001, « Nouveaux aperçus sur les Garamantes : un Etat saharien ? » dans *Ant. Afr.*, T. 37, p. 45-61.
- PICARD G.-Ch. et PICARD C. 1958, *La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal*, Hachette, Paris.
- SZNYCER M. 1978, « Carthage et la civilisation punique » dans *Rome et la conquête du monde méditerranéen 264-27 av. J.-C.* (sous la direct. de NICOLET, Cl.), T. II, PUF, Paris, p. 545-593.
- TISSOT Ch. 1884, *Géographie comparée de la province romaine d'Afrique*, T. I, Imprimerie nationale, Paris.

صورة الجنوب الشرقي التونسي في الفترة الحديثة: من خلال آثار الرحالة الأوروبيين

الحبيب الجموسي⁽¹⁾

الملخص

يتميّز الرحالة الأوروبيون خلال الفترة الحديثة عن غيرهم بما يعرضونه في صفحات آثراهم من أحداث ومشاهد عايشوها على أرض الواقع. بل حرصوا حرصا شديدا على مدّ قرائهم بمادّة إخبارية معتمدين فيها أدبا طريفا وفريدا وكلّ السبل لإقناعهم بحقيقة ما يعرضونه عليهم خاصّة وأنهم قد عاينوا عن كثب ما يقومون بوصفه.

29

لذا، أوضحت هذه الآثار، مصادر للبحث التاريخي بل ربّما المصدر الأساسي في بعض الأحيان لكتابة التاريخ الاجتماعي لمنطقة خليج قابس أوسرت الصغرى، نعتمدها لتدعيم ما قد نعثر عليه في كتابات المؤرخين والمخبرين التونسيين وما تتضمنه الأرشيفات المتعلقة بهذه الفترة. فقد أتت هذه المصادر بدقائق الأخبار عن نمط عيش السكان عموما وعن النمط البدوي للقبائل المنتشرة داخل هذه المنطقة تحديدا والعلاقات بينها.

الكلمات المفتاحية: الرحالة الأوروبيين، خليج قابس، سرت الصغرى، التاريخ الاجتماعي، الحضر، القبائل البدوية.

Résumé

Les voyageurs européens de l'Epoque Moderne se démarquent parmi les autres par leur littérature de voyage constituée essentiellement de scènes et de vie quotidienne qu'ils avaient vécues durant leurs voyages. Ils ont même tenu à se présenter comme étant des témoins oculaires honnêtes dans ce qu'ils rapportaient.

(1) كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة صفاقس / البريد الإلكتروني: habib_jamoussi@yahoo.fr

C'est dans ce sens que ces sources historiques demeurent quasi uniques dans l'écriture de l'histoire sociale de la région du golfe de Gabès ou bien la Petite Syrte, selon l'ancienne appellation, à cette époque, aussi bien celles des habitants dans les grandes villes que celle des différentes tribus de la région.

Mots clés : Voyageurs européens, Petite Syrte, histoire sociale

Abstract

European travelers of the Modern Era stood out from the rest by their travel literature constituted primarily of scenes and accounts of daily life experienced during their travels. They even insisted on presenting themselves as honest eyewitnesses in their reports.

In this sense that literature remains a historical source virtually unique in the writing of the social history of the golf of Gabès region, or Little Syrte, as it was formerly known at this time, even of inhabitants of major cities or of the region's various tribes

Key words: Little Syrte, European travelers, social history

المقدمة

إلى حدود الاستعمار الفرنسي لم تعر المصادر المحلية ولا الأجنبية اهتماما بالمناطق الجنوبية للبلاد التونسية بقدر اهتمامها بكبرى الحواضر الساحلية. فابن أبي الضياف، على سبيل المثال، لم يذكر في إتحافه⁽²⁾ دواخل الإيالة أو جنوبها إلا عرضا، كلما جرّه الحديث عن خروج المحلة لاستخلاص الجباية أو لردع القبائل المستعصية، بل يخال لدارس مؤلفه، كما لآثار من سبقه من المؤرخين⁽³⁾، أن تاريخ البلاد التونسية يتوقف عند المناطق الحضرية الساحلية فحسب.

ذلك شأن بعض المصادر الأجنبية، وتحديدًا آثار الرحالة الأوروبيين، التي خصّصت مساحات أوفر لكبرى المدن الساحلية، أمّا دواخل البلاد وجنوبها فهي لم تتل حيّزا من نصوص أصحابها بقدر ما نالته المناطق الساحلية، إذ أنّ جلهم جابوا سواحل الإيالة إلى حدود مدينة صفاقس وتحاشوا التّوغل جنوبا وفي المناطق الداخلية النائية خوفا على أنفسهم من الأذى الذي قد يلحقهم من

(2) ابن أبي الضياف أحمد (1989)، (سنشير إليه لاحقا بـ «إتحاف»).

(3) انظر على سبيل المثال، ابن أبي دينار القيرواني محمد بن قاسم (1967).

قطاع الطرق والحيوانات الضارية⁽⁴⁾. فهذه المناطق لم تكن، فعلا، آمنة وفي غالب الأحيان مارقة عن سيطرة السلطة المركزية والمحلية المتمثلة في الفايدي وأعوانه.

أما الذين زاروا بعض المناطق من الوسط أو الجنوب التونسي وقدموا شهادات عنها في كتاباتهم، فهم قلة، إذ تمكنوا من الحصول على «أوامر» من قبل الباي أو من قبل السلط المحلية للقيام برحلات دراسية أو استطلاعية. وغالبا ما اصطحبهم في مغامراتهم لهذه المناطق النائية حراس وخدم⁽⁵⁾. ونال بعضهم حظا أوفر عندما رافقوا الباي الحاكم أو باي الأمحال في رحلته الشتوية أو الصيفية لرفع الجباية.

تتراءى لنا آثار الرحالة الأوروبيين إذن، أساسية في دراسة تاريخ منطقة الجنوب الشرقي التونسي خلال الفترة الحديثة، عسى أن تضيف إلى شح ما ورد في مصادرنا المحلية من معلومات حول خصائص المنطقة الاجتماعية وعلاقتها بالسلطة المركزية، مثلما سنتبين ذلك. كما تمثل نوعا خاصا من المصادر تبدو في مجملها فريدة، نظرا لما امتاز به أصحابها من دقة في جمع أخبار وطرائف متنوعة لنمط عيش السكان، قد لا نعثر على مثيلها في مصادرنا المحلية⁽⁶⁾، إذ كانت هذه الجزئيات بديهة لدى مؤرخي ومحدثي تلك الفترة من التونسيين، فلم يعيروها أي اهتمام.

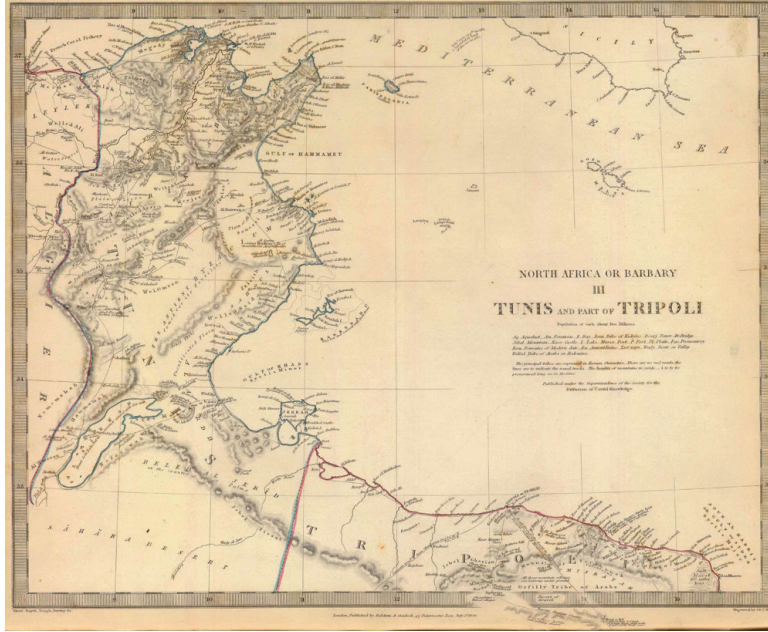
(4) يذكر Desfontaines الذي زار الإيالة التونسية سنة 1783 أنه خطط لزيارة مدينة قابس وجزيرة جربة إلا أن فايدي صفاقس حذره من المخاطر التي قد يتعرض لها، لأن الأعراب القاطنين في هذه المناطق، حسب ما جاء في إحدى رسائله «لا يمتثلون لأحد وهم على غاية من الفقر ويمثلون خطرا على المارين من هناك... لذلك عدلت دون تحسّر عن البرنامج الذي سطرته من قبل...» De La Malle D. (1838), t. 2, p. 132. أما الرحالة الإنكليزي Kennedy فقد وجد نفسه سنة 1845 مجبرا على التخلي عن مشروعه الرامي، ضجة أصدقائه، إلى زيارة جزيرة جربة، «نظرا لعدم إمكانية الوصول إليها بحرا وذلك بسبب الرياح العاتية التي تهب بقوة منذ مدة أسابيع... وقد علمت أن سفينة إيطالية بقيت عالقة بالجزيرة عدة أيام وربما يجب أن تنتظر عدة أسابيع أخرى دون إمكانية العودة...» Kennedy C. (1846), p. 11. ملاحظة: (كل نصوص الرحالة الواردة بالعربية هي ترجمة شخصية من الفرنسية والإنكليزية والإيطالية).

(5) على غرار البعثة التي كان يقودها الدكتور Rebatel سنة 1874. فخوفا مما قد يحدث لهذا الفريق من العلماء عند اختراق المناطق التي تسيطر عليها قبيلة الهمامة أو قبيلة ورغمة أو قبيلة بني زيد، مدّهم محمد الصادق باي بأوامر لقياد المناطق الجنوبية ووقر لهم الوزير الأول خير الدين فريقا من الصبايحية لمصاحبتهم، Rebatel & Tiran (1923), p. 292.

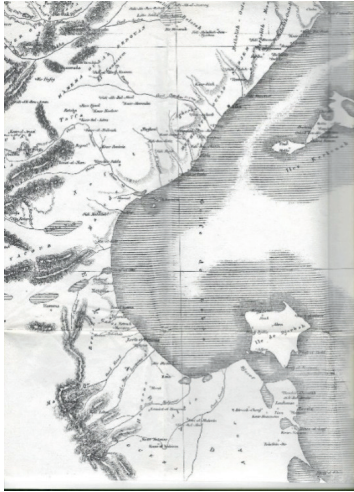
(6) من بين هذه المصادر الأجنبية، تعتبر الدراسة التي قدمها باليسيدي دي راينو (Pellissier Edmond De Reynaud)، الذي تولّى مهمة نائب قنصل فرنسا بسوسة ما بين ماي 1834 وأفريل 1848، تحت عنوان «وصف للإيالة التونسية»، أهم دراسة كتبت عن تونس على الإطلاق. وتكمن أهمية هذه الدراسة في دقة الوصف لكامل مناطق البلاد التونسية على كل المستويات، سياسية واقتصادية واجتماعية، (Pellissier E. 1853).

صورة الجنوب الشرقي التّونسي في الفترة الحديثة:
من خلال آثار الرحّالة الأوروبيين

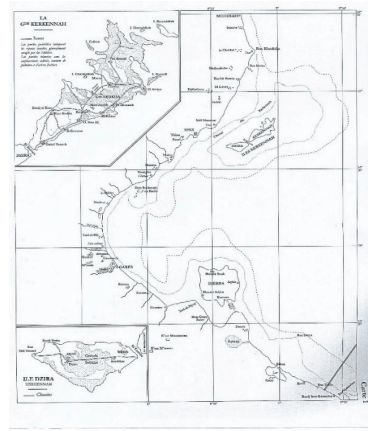
I. خليج «سرت الصغرى» أو الجنوب الشرقي التونسي: دور اجتماعي واقتصادي رائد



البلاد التونسيّ مثلما رسمتها بعض المصادر الإنكليزية (1836)⁽⁷⁾



خليج قابس⁽⁹⁾



خليج قابس⁽⁸⁾

(7) Baldwin & Gradock, (1836).

(8) Pellissier E. (1853),

(9) Servonnet J. Laffite F. (1888), annexes.

عندما زار Marmol Caravajal شمال القارة الإفريقية في بداية القرن 16 كان النفوذ الحفصي يمتد غربا من تخوم «موريتانيا القيسرية»⁽¹⁰⁾ إلى حدود مصر شرقا وسواحل البحر الأبيض المتوسط التي تشمل منطقة سيرتا. أما جنوبا فالتراب التونسي كان يتوغل في الصحراء الكبرى إلى منطقة الزاب وجبال الأطلس الصحراوي. وقسم هذا الرحالة المناطق التابعة للحكم الحفصي إلى «مقاطعات أربعة: قسنطينة وتونس وطرابلس والزاب»⁽¹¹⁾. إلا أنه اكتفى بوصف أكبر المدن الساحلية وأهم المناطق الداخلية «للمملكة التونسية» التي اعتبرها «مناطق شاسعة شبه قاحلة تنتقل فيها مجموعات كبيرة من أشد العرب والأفارقة بطشا، فقد عجز ملوك وسادة هذه البلاد على ترويضهم وضمهم إلى صفوفهم وإرضائهم...»⁽¹²⁾.

وحاول رحالة الفترة الحديثة رسم حدود الإيالة غربا مع الجزائر وجنوبا مع إيالة طرابلس، فعجزوا عن ذلك، إذ أن الحدود مع الجزائر لم تتوضَّح إلا في بداية عهد المشير أحمد باي (1837-1855)، غداة ضم فرنسا لمدينة قسنطينة للمستعمرة الجديدة سنة 1827 والأزمة التي اندلعت حولها⁽¹³⁾. أما الحدود الجنوبية مع إيالة طرابلس، وإن وقع رسمها سنة 1794، في عهد حمودة باشا باي⁽¹⁴⁾، فإنها بقيت إلى بداية الفترة الاستعمارية غير معترف بها من قبل القبائل الضاربة في تخومها.

لذلك، اكتفى جل الرحالة بتقسيم الجنوب التونسي إلى منطقتين: منطقة ساحلية، أو ما عبّروا عنها بمنطقة «سرت الصغرى» اعتمادا على التسمية القديمة، أو خليج قابس، وأخرى داخلية وهي تشمل منطقة الجنوب الغربي وتتألف من منطقة الجريد والصحراء.

1. المنطقة الساحلية

يبدو أن الإنكليزي Thomas Shaw هو أول من ضبط حدود منطقة «خليج سرت الصغرى» في بداية القرن الثامن عشر وذلك بأن عدّل ما ورد في كتب الجغرافيين القدامى وحددها بـ«خليج قابس» الممتد من رأس قبودية إلى

(10) حدود هذه المنطقة غير واضحة وقد ورث الأوروبيون هذه التسمية عن المؤرخين الرومان للدلالة على المناطق الوسطى لشمال القارة الإفريقية، المتاخمة حاليا لمنطقة قسنطينة داخليا وبجاية على سواحل المتوسط.

(11) Marmol C. (1667), p. 430.

(12) Marmol C. (1667), p. 432.

(13) Chater K. (1984), p. 501

(14) Chater K. (1984), p. 56.

جزيرة جربة»⁽¹⁵⁾، بينما حدّده من سبقوه بين جزر قرقنة وجزيرة جربة، معتبرا أنّ «السواحل الفاصلة بين رأس قبودية وجزيرة جربة لها نفس الخصوصيات الطبيعية، فهي سواحل ترابية وقليلة العمق...»⁽¹⁶⁾.

أما عن الحدود الجنوبية مع إيالة طرابلس، فلم تكن بعد واضحة المعالم في بداية سنة 1881 عندما نشر الجغرافي Henri Duveyrier كتابه حول «البلاد التونسية»، وقسم فيه منطقة الجنوب التونسي إلى أوطان أربعة: وطن قفصة ووطن الجريد ووطن الأعراض الذي يوجد داخل «سرت الصغرى» وجزيرة جربة. وأضاف أنّ الحدود الجنوبية للبلاد التونسية مع إيالة طرابلس ليست واضحة حيث أنّ «سلطة الباي في هذه المناطق صوريّة... فالورغميون، وهم رعاة ومقاتلين وقطاع طرق جريئون، لا يكتفون ببثّ الرعب في قيادة الأعراض، بل يتوغّلون في الأراضي الطرابلسيّة، ويفرضون الضرائب على سكان جبال نفوسة والوزان ونالوت...»⁽¹⁷⁾.

ولم يكن Jean Servonnet وFerdinand Laffite سنة 1887، أكثر وضوحا إذ ذكرا أنّ «سواحل خليج قابس أو سرت الصغرى تبلغ 310 أميال بحريّة أو 575 كلم، وتحتوي على جزر قرقنة والخناس وجزيرة جربة الكبرى... ويحدّ الخليج رأس خديجة شمالا لينتهي عند الحدود الليبيّة. وهذه الحدود غير واضحة بصفة رسميّة، وقد تطابق، حسب السكان الأصليين للمنطقة، الحدود الشرقيّة لسبخة المقطة، على بعد كيلومترين شرقي رأس جدير...»⁽¹⁸⁾.

ارتبط مصير هذه المنطقة إذن ارتباطا مباشرا بالبحر إذ مثلّ مصدرا أساسيا لحياة السكّان اليوميّة كما مثل على امتداد العصور بوابة ربطت بينها وبين العالم الخارجي، في فترات السلم كما في فترات التآزم.

أ. البحر ودوره في حياة السكان

✓ حماية للمنطقة

نظرا لتعدّد الأرصفة الرملية في قاع البحر التي ترغم السفن على الإرساء بعيدا عن الشواطئ، لعبت السواحل دورا هاما في حماية المدن التي

(15) في نفس الفترة اعتبر André Peyssonnel سنة 1724 أن مدينة صفاقس وجزر قرقنة هما «مدخل خليج جربة الذي كان يدعى قديما سرت الصغرى».

De La Malle D. (1838), t. 1, p. 98.

(16) Shaw T. (1743), t. 1, p. 236.

(17) Duveyrier H. (1881), p. 127.

(18) Servonnet J. Laffite F. (1888), p. 15.

تشرف على خليج سرت من مخاطر هيجان الأمواج ومن العدوان الخارجي، على غرار عدوان البنادقة على مدينة صفاقس سنة 1787، مثلما ورد في مذكرات ترجمان القنصلية الفرنسية *Venture de paradis*، بقوله أن «البنادقة حاولوا قصف المدينة إلا أن القذائف كانت تسقط بعيدا نظرا لبعد السفن»⁽¹⁹⁾. كما لعب البحر دورا هاما في صمود أهالي نفس المدينة أمام الحصار الذي ضربته السفن الحربية الفرنسية عليهم في جويلية 1881 لمدة تفوق الخمسة عشر يوما، دون إمكانية الوصول إلى شواطئها⁽²⁰⁾.

وقد خصّ عالم النبات الفرنسي Louiché Desfontaines سواحل صفاقس بدراسة دقيقة خلال المدة التي قضّاها في المدينة خلال شهر جويلية وبداية شهر أوت من سنة 1784، فسجّل التغيرات اليومية التي كانت تطرأ على ارتفاع سطح البحر⁽²¹⁾، واستنتج في نهاية الأمر أن قصر عمق البحر وظاهرتي المد والجزر تجبر «... السفن التجارية على البقاء بعيدا بحوالي ميل عن سواحل المدينة. كما أن سكانها يعيشون في مأمن لأن قلة عمق البحر يجعله قليل الهيجان حتى في حالة هبوب الرياح العاتية»⁽²²⁾. وحدّد ارتفاع مستوى البحر بجهة صفاقس بـ 9 أقدام عند فترتي الاعتدال. وهي نفس الظاهرة التي لاحظها القنصل الصاردي في سواحل مدينة قابس في شهر أفريل من سنة 1829. كما حددها Pellissier في منتصف القرن التاسع عشر بـ 4 أقدام وبضعفها قبالة مدينة قابس⁽²³⁾.

(19) Cuoq J. (1983), p. 95.

وأكد ذلك محمود مقديش مطولا في ذكره لمقاومة صفاقس لل«بلنسيان» سنة 1787، (1988)، ج 2، ص 220.

(20) انظر مؤلفنا حول «صفاقس في عيون الآخرين»، وتحديدًا الفصل الخامس: «صفاقس والحملة العسكرية الفرنسية»، الجموسي الحبيب، (2019).

(21) ذكر دي فونتان أنه قام يوم 20 جويلية بقياس عمق مياه البحر على سواحل صفاقس وأعاد القياس لآخر مرة يوم 1 أوت. ما من شأنه أن لفت انتباه السكان وخالوا قياساته لمستوى البحر المتكررة جوسسة لصالح دولة معادية. انظر: الجموسي الحبيب، 2019.

(22) De La Malle D. (1838), t. 2, p. 125.

ذلك ما أكدّه صاحب كتاب «خليج قابس سنة 1887»: «وتكوّن الخليج من مجموعة لا متناهية من الأرصفة الرملية التي تكوّن السواحل... وقليلة هي السواحل على كامل شمال إفريقيا التي تتمتع بالحماية الطبيعية وفي مأمن من تقلبات البحر، مثل سواحل مدينة صفاقس. فالرياح البحرية العاتية لا تهيج الأمواج العالية في وجه السفن مهما كانت حمولتها وبإمكانها أن تنام بكل هدوء داخل مراسيها وسط العواصف الهائجة...» Servonnet J. Laffite F. (1888), p. 48.

(23) انظر:

De La Malle D. (1838), t. 2, p. 126 ; Monchicourt C. (1929), p. 262 ; Pellissier E. (1853), p.107 ; Lallemand C. (1892), p.59.

وحسب الفرنسيان Laffite و Servonnet «تؤثر ظاهرة ارتفاع مستوى البحر في المحيط وعلى سواحل البحر الأبيض المتوسط عموماً، إلا أنها تستثني منطقتي سواحل البحر الأدرياتيكي وخليج سرت حيث يتجاوز ارتفاع مستوى البحر عند اكتمال القمر أو Syzygies، مترين قبالة قابس وجزيرة جربة ويبقى في حدود 1,80 متر في جهة صفاقس. وعندما ينخفض مستوى البحر تمثل الأرصفة البحرية عائقاً خطيراً أمام الملاحة ولا تسمح إلا بإبحار القوارب الصغيرة التي يمكنها دون عناء الوصول إلى السواحل»⁽²⁴⁾.

✓ مصدر للعيش

أكد كل الرحالة، دون استثناء أن البحر هو أهم مصدر لعيش سكان سواحل خليج سرت وتحديدًا من الصيد البحري الذي تعاطاه هؤلاء منذ أقدم العصور. فمنذ بداية القرن السادس عشر، ذكر الحسن الوزان، (ليون الإفريقي)، أن «سكان صفاقس يتعاطون الصيد البحري ويصطادون كميات كبيرة من الأسماك التي يسمونها spares «صبارص» وهي أسماك معروفة لدى اللاتينيين والعرب...»⁽²⁵⁾.

وفي بداية القرن الثامن عشر، أشار الرحالة الإنكليزي الشهير Thomas Shaw إلى أن «سكان المنطقة (صفاقس وجزر قرقنة) يحسنون جيداً التعامل مع ظاهرة المد والجزر إذ أنهم يتقدمون في البحر مشياً على الأقدام، ميلاً أو ميلين، ويضعون في طريقهم سياجات من القصب (الحصر)، التي تمكنهم غالباً من اصطياد كميات كبيرة من الأسماك... أما سكان قرقنة فهم يصطادون الإسفنج قرب سواحلهم. ولهذا الغرض، يستعملون عصياً طويلة جهّزوا أطرافها بمعقّفات من الحديد... وعند إخراجها من البحر يردّمونها في الغبار أو في التراب للقضاء على الحيوانات الصغيرة التي تتحصر داخلها، ثم يغسلونها لإزالة الروائح الكريهة التي تصدر منها. وبما أنها تباع باعتماد وزنها، غالباً ما يملؤونها بالتراب حتى تصبح أثقل، إلا أن هذه الخدعة يسهل التفطن إليها...»⁽²⁶⁾.

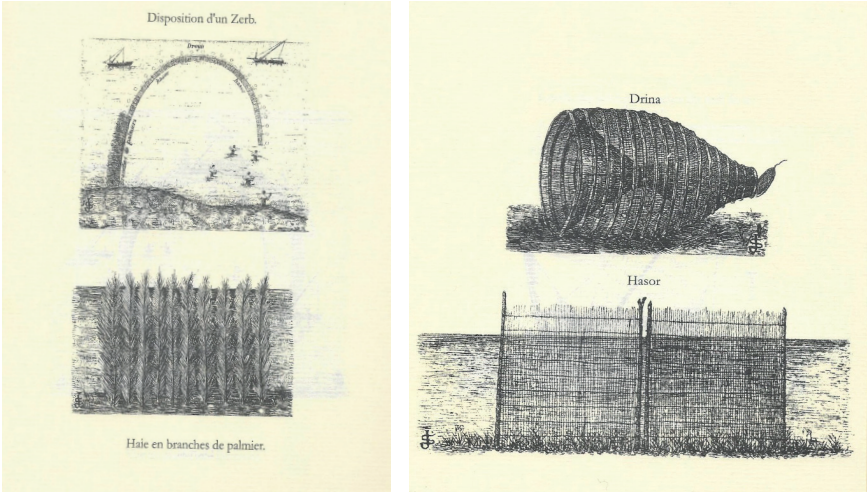
(24) Servonnet J. Laffite F. (1888), p. 48.

(25) نفس هذه المعلومة Marmol Caravajal ونقل عنه الإسباني L' Africain (1830), t. 2, p. 59 Marmol C. (1667).

(26) Shaw T. (1743), t. 1, p. 248. وقدّر القنصل الصاردي، سنة 1829، كميات الإسفنج التي يقع صيدها في محيط جزر قرقنة بـ 3.000 قنطار سنوياً، جزء كبير منها يستهلك محلياً ويقع تصدير ما تبقى من الإنتاج عبر ميناء صفاقس» Monchicourt C. (1929), p. 272.

أمّا الطبيب الألماني نختغال، الذي زار مدينة صفاقس سنة 1863، فقد اعتبر أنّ ثروة أهالي المدينة، شأنهم في ذلك شأن سكان خليج قابس «تعتمد بالأساس على البحر الذي يرزقهم بغزارة الإسفنج بمختلف الأحجام والأسماك التي يسهل صيدها لأنّ البحر هنا قليل العمق. وتلعب المنطقة قاطبة دور الوساطة في تجارة الجريد مع الخارج (مالطا بالخصوص) إذ تصدّر الجهة المذكورة تمرا (وهو أجود أنواع التمور في العالم) والمنسوجات الصوفية بمختلف أنواعها وتستورد بالمقابل لوازم الخياطة والحياسة وأدوات لمختلف الحرف والأواني الفخارية...»⁽²⁷⁾.

ولعلّ أفضل ما ذُكر حول النشاط البحري هو ما قدمه المستشار العسكري للبحريّة الفرنسيّة Servonnet وصديقه Laffite في بداية الفترة الاستعماريّة. فقد وردت في كتابهما أدقّ التفاصيل عن الصيد البحري في كامل منطقة «خليج قابس»، إن كان ذلك على السواحل باستعمال «الدرارين» و«الحصر» أو في الأعماق بمختلف أنواع السفن وآلات الصيد⁽²⁸⁾.



رسوم لوسائل الصيد البحري⁽²⁹⁾

(27) الفندري منير (2003)، ص 207.

(28) انظر الفصلين الأخيرين من كتاب،

Servonnet J. Laffite F. (1888) : « La pêche du poisson », p.177 ; « Pêche des éponges et des poulpes », p.193 ; additions : « cartes et planches ».

(29) Servonnet J. Laffite F. (1888), aditifs.

٧ البحر والقرصنة

غالباً ما ربط الدارسون نشاط القرصنة التونسية خلال الفترة الحديثة بالحاضرة⁽³⁰⁾ في حين أنّ سكان مدن خليج قابس تعاطوا هذا النشاط منذ القرن السادس عشر. وقد أكد ذلك Marmol عندما مرّ بصفاقس وقابس في حدود سنة 1540، فذكر أنّ «عددا كبيرا من سكان صفاقس يخرجون للقرصنة على سواحل بلاد النصارى صحبة قراصنة أتراك⁽³¹⁾، وآخرون يتاجرون في تركيا ومصر...»⁽³²⁾.

تواصل هذا النشاط على امتداد القرنين السابع والثامن عشر، وقد أكد محمود مقديش هذا الأمر إذ ذكر أنّ عادة أهل البلد في غزوهم «مهما سمعوا بخبر بعض سفن العدو ضربوا طبلًا على سور البلد فوق باب البحر وأجرى الرؤساء سفنهم، وتسارع أهل الخير للنزول للبحر، وأخذوا ما تيسر من الزاد وآلة الحرب، وركبوا في السفن، فيسيرون طالبين أثرهم من رأس المخيز قرب طرابلس إلى رأس أدار بتونس فإن وجدوا عدواً حاربوه، وإن قسم فيه النصيب أخذه، وإن قلت تبعوه إلى بلاده أو ما يقرب منه، وإن لم يقسم النصيب أو لم يجدوا عدواً رجعوا لبلادهم سالمين...»⁽³³⁾.

وتوقّفت العمليّات القرصنيّة انطلاقاً من صفاقس وجربة، كما في كامل الإيالة سنة 1816، إثر الحملة العسكريّة الإنكليزيّة، التي استهدفت دول شمال القارة الإفريقيّة، أو «بربيريا» حسب العبارة المتداولة آنذاك، بقيادة الأميرال Ex-Mouth. بيد أنّها تواصلت سرا قبالة سواحل خليج سرت إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر، حسب شهادة نائب القنصل الفرنسي بصفاقس Antoine d'Espina (1849-1856)، إذ ذكر أنّ «أهالي قرقنة يحذقون بعض الصنائع وهم تجار بارعون ويتعاطون في بعض الأحيان القرصنة، مثلما وقع سنة 1849»⁽³⁴⁾.

ونظراً لحاجة سكّان المنطقة إلى السفن التجاريّة كما للعمليّات القرصنيّة، تطورت صناعة السفن في مرسى مدينة صفاقس، منذ أقدم

(30) انظر، (Valensi L. 1967).

(31) استأذن الأخوان عروج وخير الدين بربروس السلطان محمد بن الحسن الحفصي في بداية القرن السادس عشر، السماح لهما «بالإقامة بأسطولهما في بعض مراسي المملكة، فأذن لهما بذلك شريطة أن يرفعا إليه خمس ما يغنمه، فرضيا بذلك وسافرا إلى جربة»، اتحاف، (1989)، ج 1، ص 126.

(32) Marmol C. (1667), p. 529.

(33) مقديش محمود (1988)، ص 214.

(34) Espina A. (1853), p. 142.

العصور. وقد لفت هذا النشاط انتباه بعض الرحّالة، على غرار العالم الفرنسي Desfontaines الذي أعلمنا سنة 1884 أنّ «أهالي صفاقس يصنعون عددا كبيرا من السفن التي تستعمل في التجارة على امتداد السواحل وأخرى صغيرة الحجم يعتمدونها القراصنة في عمليّاتهم على السواحل الإيطالية التي تدرّ عليهم في بعض الأحيان غنائم ثمينة...»⁽³⁵⁾. وأكد ذلك مؤرّخ المدينة، محمود مفديش، في ذكره لـ«حروب صفاقس مع البليسيان (البندقيين)»، عندما «... اتفق أهل الفضل بصفاقس على إنشاء السفن فتعاونوا على الخير وبذلوا أموالهم ابتغاء رضوان الله وأنشؤوا عدّة سفن... وعلموا أنّه لا يُقْمَع شرّ هؤلاء الكفرة الفجرة إلّا بإنشاء غير تلك السفن، فاتفقوا على ذلك وأنشؤوا ثمان سفن، فأمن البحر وانقطعت أذية الكفار...»⁽³⁶⁾.

كما اختصّ أهالي قرقنة في صناعة مراكب صغيرة يعبر عنها بـ«اللّود»، حسب ما ذكره نائب القنصل الفرنسي Edmond Pellissier de Reynaud سنة 1846، إذ تحدّث عن صناعة مراكب صغيرة في جزيرة قرقنة «للملاحة الساحليّة وهي الملاحة الوحيدة التي يستعملها التونسيّون حاليا»⁽³⁷⁾.

ب. جزر خليج سرت

وافتنا مصادر الرحالة الأوروبيّين بأدقّ التفاصيل حول جزر الخليج ممّا يسمح بدراسة تاريخها الاجتماعي وعادات وتقاليدها سكانها التي تغيّرت أو اندثرت في مجملها بحكم عامل الزمن والتطوّر.

✓ جزر قرقنة

اعتبر كلّ الرحالة الذين زاروا الإيالة التونسية أنّ جزر قرقنة تمثل امتدادا بحريا لصفاقس، إذ يمكن «مشاهدتها انطلاقا من السواحل الشمالية للمدينة عندما يكون الأفق صافيا». ولم تتقطع العلاقات بين المركز وآفاقه البحريّة قطّ عبر ممرّ بحريّ يربط بينهما، «تعوّد كلّ الذين يستعملونه للتجارة على الالتجاء إلى مرافقين بحريّين لتسهيل عمليّة الاجتياز...»⁽³⁸⁾. ويعلمنا الإيطالي فينوتي Finotti، سنة 1858، أنّه «عند الوصول إلى جزر قرقنة، وإذا كانت المياه منخفضة يجب النزول على بعد ما يقارب نصف الميل، يقطعها المسافر على ظهور البحّارة. وقد تعوّد هؤلاء على تقديم مثل هذه الخدمات المرهقة بكل إتقان وسرور»⁽³⁹⁾.

(35) De La Malle D. (1838), t. 2, p. 124.

(36) مفديش محمود (1988)، ص 214.

(37) Pellissier E. (1853), p. 107.

(38) Marmol C. (1667), p. 536.

(39) Finotti G. (1856), p. 165.

أمّا عن طبيعة الجزيرة، فهي كانت في نظر جلّ الذين زاروها، «تشكل في مجملها منظرا في منتهى الفتنة والجمال إذ أنها تلوح وكأنها غابة نخيل واحدة متكاملة...»⁽⁴⁰⁾. وأشار Caravajal Marmol منذ القرن السادس عشر إلى بساطة عيش سكّانها التي أشاد بها كل الذين زاروا الجزيرة، على غرار الطبيب الألماني غوستاف نختغال (1863-1868) الذي انبهر أمام «قناعة وتقشّف أهلها... إذ لا تجود عليهم جزيرتهم بعباء زهيد ومع هذا لا يسترزقون من خارجها إلا بما قلّ أو أنهم في غنا عن ذلك تماما. ورغم هذا القحط تراهم متعلقين بموطنهم تعلقا شديدا»⁽⁴¹⁾.

ويشير الرحالة الإيطالي Finotti إلى خيراتها، وإن كانت قليلة فهي متنوعة: «... شتات من اللوز والتين والكروم وتنتشر لديهم أيضا زراعة الدلاع والبطيخ. عندهم لذيذ الطعام وزبيبهم من المؤنات المفضلة... ويكاد ينحصر قوت الأهالي في خيرات البحر أي الأسماك. أما اللحم فيستمدونه من الدجاج وبضعة مائة الأغنام المنتشرة عبر أرجاء الجزيرة بقراها التسع أو العشر... وتتمتاز أحمرة الجزيرة بجمال المظهر حتّى أنها تباع أحيانا بأسعار تضاهي أسعار الجياد الممتازة... وقد شربت كل يوم نبیذا من صنع المكان ولئن أحضر بدون إتيان فإن أهمية نسبة السكر فيه وعطره يدلان على رفعتة. وللأسف أنّ القرآن لا يخوّل لهم صنع الكثير منه لذلك تراهم يبيعون العنب زيبيا»⁽⁴²⁾.

اعتمد أغلب سكّان جزر قرقنة منذ القديم على صيد السمك، كما كانوا، حسب Marmol «أصدقاء للأتراك لأنهم يتعاطون القرصنة معهم...»⁽⁴³⁾. وبرع أهلها من ناحية ثانية في صناعة أدوات مستخرجة من الحلفاء، وقد عدد نائب القنصل الفرنسي Espina البعض منها: «القفاف والبطش للجمال والروينة وهي أكياس صغيرة وإذا كبر حجمها يسمونها برسيل وحبال مختلفة الأحجام وحصر الشرفية وحصر منزلية... وتباع كل هذه المنتجات في كامل أسواق الإيالة وفي مدينة قسنطينة حيث يتم نقلها على ظهور الجمال»⁽⁴⁴⁾.

وعلى إثر توقف القرصنة في بداية القرن التاسع عشر، يبدو أنّ البحريّة التونسيّة أصبحت تعتمد على شبّان جزر قرقنة، نظرا لخبرتهم وتفرّسهم بالبحر، «فكانت حكومة البيليك تجلب من هذه الجزر كافة مجنديها

(40) Finotti G. (1856), p. 165.

(41) الفندري منير (2003)، ص 207.

(42) Finotti G. (1856), p. 165.

(43) Marmol C. (1667), p. 537.

(44) Espina A. (1853), p. 142.

أو تكاد، وهو ما يفسّر أنّه من النادر أن يعترضك فيها رجال في سنّ الشباب وترى النساء يتولين العمل في الحقول وخدمة الأرض»⁽⁴⁵⁾.

لعلّ ما لفت انتباه الرحالة هو هذا الدور الاستثنائي الذي كانت تقوم به المرأة «القرقنيّة» إلى جانب «القرقني» في الحقل وفي البحر، على غرار ما ذكر الرحالة الإيطالي فينوتي: «... وأكثر ما يلفت الانتباه بالجزيرة هي النساء. فأنت تقابل فتيات جميلات تحلّت بخلاخل من الفضّة في أرجلها وفي أيديها وبأقراط. وقد لفّت أجسامها بكلّ أناقة بلحافات قرميضية وهي تقود بنعومة البهيم أو البغل أو الحصان وتحثّ بإرهاق داخل الضيعات...»⁽⁴⁶⁾.

أمّا عن ظاهرة «نفي العاهرات والزانيات إلى جزيرة قرقنة» فالأمر ذكر المرار العديدة منذ نهاية القرن الثامن عشر، مثلما ورد في مذكرات Venture De Paradis، على أنّه «عادة ما يقع نفي المجرمين الذين لا يستحقّون الإعدام وفتيات الشارع اللاتي تحدّثن بعض الشغب إلى جزر قرقنة»⁽⁴⁷⁾. كما ذكر الطبيب الخاص لحمودة باشا باي (Louis Frank 1802-1806) في مقطع مطوّل حول هذا الأمر، نذكر منه تحديداً: «جزر قرقنة أو قرقنو توجد قبالة صفاقس وهي قاحلة تماماً وجرداء لا يقطنها إلا البحارة والمنفيّين... وأكّد لي بعضهم أنّ عددهم يفوق الستين وهو أمر معقول إذ من بينهم من حكم عليه بمدى الحياة. وخلافاً للأحكام القضائية ففي بعض الأحيان يرسل الباي إلى قرقنة نساء بعض الأثرياء اللاتي اقترفن أخطاء خطيرة دون أن تقع محاكمتهنّ وبإشارة من أزواجهنّ فقط...»⁽⁴⁸⁾.

أمّا Pellissier فقد ذكر في كتابه عن «إيالة تونس»: «... وأكبر جزر قرقنة هي مكان لنفي كلّ فتيات الشوارع بالإيالة اللاتي أثرن غضب السلطة... ومنذ أن توقف الحكم بالإغراق من أجل الزناء، يقع كذلك إرسال النساء اللاتي تتّهمن من قبل أزواجهنّ...»⁽⁴⁹⁾. وذكر الرحالة الإيطالي Finotti سنة 1855 من ناحيته «... ما يؤسف له، أنّك تجد كذلك نساء في حالة سكر وعريدة بالليل صحبة مسيحيين، وهي اللاتي وقع تهجيرهنّ إلى قرقنة من كافة المناطق الساحليّة ومن تونس كذلك...»⁽⁵⁰⁾.

(45) الفندري منير (2003)، ص 207.

(46) Finotti G. (1856), p. 165.

(47) Cuoq J. (1983), p.

(48) Marcel J.-J. (1850), p. 112.

(49) Pellissier E. (1853), p. 108.

(50) Finotti G. (1856), p. 168.

وآخرهم العالم في الآثار Victor Guérin الذي أكد سنة 1860 أنه «في جزر قرقنة يتم عادة نفي النساء اللاتي ثبتت إدانتهم بالزنا وفتيات الشوارع اللاتي تتعرضن إلى عقاب السلطة. ومنذ سنوات لم يقع نفي إلا عدد قليل من هته المسكينات...»⁽⁵¹⁾.

هل يجب أن نعتمد حرفياً ما قاله هؤلاء الأجانب حول هذه الظاهرة
تحديداً؟

لا بد من الإشارة إلى أن بعضهم لم يتنقل خارج العاصمة وأعاد حرفياً ما «ذكر له» بمبالغات واضحة أمثال De Paradis و Frank. إلا أنه تكرر ذكر أمر كان يحصل في زمن تجنّت فيه السلطة على شريحة من المجتمع امتهنت أقدم مهن الإنسانية، وليس من الغريب أن توجد أمثالهم في الحاضرة والمدن الكبرى. كما نعلم أن الأزواج كثيراً ما كانوا يتهمون زوجاتهم بالخيانة اعتباطاً ويكفي أن يشار إلى «الخيانة» المفترضة حتى يبت القضاء مباشرة لصالح الأزواج دون تثبّت.

لماذا جزيرة قرقنة بالذات؟

لا غرابة في ذلك! فالجزيرة بعيدة عن الحاضرة ويعسر الهروب منها لكل من وقع نفيه. بيد أنه تجدر الإشارة إلى أن الرحالة الذين زاروا الجزيرة في غضون القرنين السابع والثامن عشر لم يذكروا هذا الأمر اللافت للانتباه. كما أن الرحالة الذين زاروا الإيالة بعد السنوات الستين للقرن التاسع عشر لم يذكروا هذا الأمر بتاتاً. بل تحدّثوا عن النساء الكادحات برّاً وبحراً، على غرار ما ذكره طبيب المحلة نختغال أن «النساء يتولّين العمل في الحقول وخدمة الأرض...»⁽⁵²⁾.

لا يمكن، إذن، أن نفهم من هذه الظاهرة تعميماً وأن الأمر لم يطل إلا عدداً من النساء حوكت وفي ظروف حالكة. كما أن هذه الظاهرة انحصرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتحديدًا في عهد حمودة باشا باي (1782-1814)، وقد تمّ العدول عنها في حدود منتصف القرن.

(51) Guérin V. (1862), p.168.

(52) الفندري منير (2003)، ص 207، ولعل أطرف ما ذكر حول جزر قرقنة على الإطلاق ورد في كتاب Servonnet و Laffite وبالتالي يمكن اعتماده لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكانها إلى حدود الاستعمار الفرنسي. فقد قدّم وصفاً شاملاً للجزر، وأحصيا كل قرى قرقنة ودرسها دراسة اجتماعية دقيقة.

✓ جزيرة جربة

أولى الرحالة الأوروبيين اهتماما خاصا بجزيرة جربة نظرا لأنها سليلة جزيرة الأساطير التي زارها البطل الإغريقي أوليس Ulysse وسكنها «اللطوفاجيون» «Lotofagiens» حسب العبارة التي أطلقها عليهم الجغرافيون القدامى أمثال Pline و Ptolémée⁽⁵³⁾، وقدموا لنا معطيات دقيقة عن مختلف قراها ونمط عيش سكانها.

وانفرد Marmol من ناحيته بسرد مطول للحرب التي خاضها أهالي جربة ضد الاحتلال الإسباني⁽⁵⁴⁾. وفي هذا الصدد، أشار كل الرحالة الذين زاروا الجزيرة إلى حدود منتصف القرن التاسع عشر، إلى النصب الذي أقامه سكانها تخليدا لانتصارهم النهائي ضد الجيش الإسباني بقيادة درغوث باشا سنة 1560، قادما إليها من طرابلس. وتمثل هذا النصب، مثلما وصفه Alphonse Rousseau في كتابه «حوليات تونسية»⁽⁵⁵⁾، في «شكل برج أو هرم، يبلغ طوله أربعة أو خمسة أمتار بُني سنة 1560 لكن ليس من الحجارة مثل قصر الجم بل من جماجم وعظام المسيحيين الإسبان... وكي يخلدوا انتصارهم ويذكروا به الأجيال القادمة، أقام أهالي الجزيرة على مسرح انتصاراتهم هذه الاهرامات التي تعتبر مفخرة لهم»⁽⁵⁶⁾. ويُعبّر أهالي الجزيرة عن هذا المعلم، حسب القنصل الصاردي، «ببرج الرؤوس ويتباهون أمام المسيحيين الذين يدخلون الجزيرة بهذا المشهد المريع الذي ينم عن تعصب ووحشية، ويحافظون عليه بكل عناية بأن يبلطونه كل سنة من الخارج...»⁽⁵⁷⁾.

ويعلمنا الأب Anselme Des Arcs ملحق البعثة التبشيرية «للكابوتشين» (Les Capucins) بالإيالة التونسية، أن الأسقف Mgr Sutter رئيس البعثة والقنصل الفرنسي De Lagau (1840-1848) تدخل لدى المشير أحمد باي حتى يقع هدم هذا الصرح الذي اعتبره إهانة للديانة المسيحية والمسيحيين، فأمر الباي بهدمه في بداية سنة 1848، ثم جمعت هذه الجماجم وحملت إلى مقبرة المسيحيين بالجزيرة»⁽⁵⁸⁾.

(53) أي أكلو le Lotus وهي ثمرة وصفها Desfontaines بكونها «نوع من العنّاب الطبيعي كروي الشكل في حجم ثمرة الخوخ... وعندما ينضج يميل نحو اللون الأشقر...» De La Malle D. (1838), t. 2, p. 309.

(54) Marmol C. (1667), p. 540-560.

(55) وهو مترجم القنصلية الفرنسية ما بين 1850 و1858.

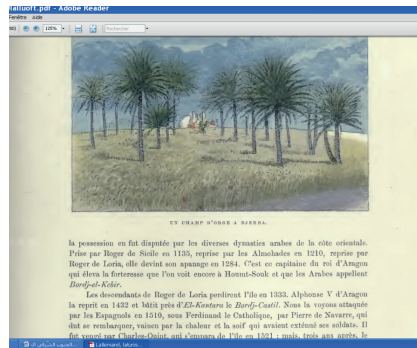
(56) Rousseau A. (1864), p. 26.

(57) Monchicourt C. (1929), p. 270.

(58) Des Arcs A. (1889), p. 123.

قسّم الرحّالة الجزيرة حسب التجمّعات السكّنيّة التي تمثل «حومات» وهي ستّ تجمّعات كبرى، مثلما قدّمها Duveyrier عند زيارته لجربة قبيل الاستعمار الفرنسي: «حومة السوق في الشمال قرب الساحل ويحميها برج، وحومة سدريان Cedriân داخل الجزء الشرقي للجزيرة، وحومة سدويكش Sedouïkech جنوبا وحومة فلاله Galâla وسط المنطقة الجنوبية، ما بين رأس تبالة Ras Tabella ورأس أجيم وأخيرا حومة أجيم Adjim في الجنوب الغربي للجزيرة، تُضاف إليها قرية مليّة Mellita على الساحل الغربي. و إلى جانب هذه التجمّعات السكّنيّة الكبرى توجد تجمّعات أخرى قليلة الأهميّة وتتمثل في بعض المنازل المتناثرة، مثل حومة سيدي البشير وحومة الكشّاشين (ou Qachâin) El-Kachâin (الخشّاشين) وحومة تافرماسة Taguermasa والارح Ouâlerh ؟ وحومة بن مومن... وتحتل كل هذه التجمّعات وسط الجزيرة»⁽⁵⁹⁾.

أمّا من حيث عدد سكانها، فقد صعب على جلّ الرحالة تقديم إحصائيّات دقيقة على امتداد الفترة الحديثة، نظرا لتشتّت السكّن على كامل أرجائها، إذ أنّ «عادة أهل الجزيرة، حسب ملاحظة وردت في نصّ القنصل الصاردي Filippi، أن ينفرد الجربي في قطعة أرض يبني عليها منزله وورشته...»⁽⁶⁰⁾. وقد سبق أن وردت نفس الملاحظة لدى ترجمان القنصليّة الفرنسيّة Venture de Paradis في نهاية القرن الثامن عشر عندما ذكر أنّ «عدد سكّان جربة كبير وهم مشتّتون في منازل جميلة جدّا حيث توجد ورشاتهم وكثير من الزوج والزنجيات يشغلونهم في غزل الصوف...»⁽⁶¹⁾.



مشهد لجزيرة جربة⁽⁶²⁾

كساء الجربيات

(59) Duveyrier H. (1881), p. 131.

(60) Monchicourt C. (1929), p. 268.

(61) Cuoq J. (1983), p. 93

(62) Lallemant C. (1892), p. 101.

كما أورد frank الطبيب الخاص لعمودة باشا نفس الملاحظة، بأنّ «الجزيرة تنقسم إلى مقاطع متباعدة حيث يقيم كل ملاك منزله المحاذي لحديقة. وهذه المنازل تبنى غالبا من الطين بينما تبنى أخريات من الآجر...»⁽⁶³⁾. ويظلّ التقدير الوحيد لسكان الجزيرة لما قبل الفترة الاستعماريّة، هو ما قدّمه نائب القنصل الفرنسي Pellissier، في منتصف القرن التاسع عشر، وكان في حدود 40.000 ساكن⁽⁶⁴⁾.

تبقى إذن التقديرات التي قدّمها الرحالة الأوروبيّين شبه وحيدة، في ظلّ شحّ الدراسات العلميّة الدقيقة لإحصاء عدد سكان الجزيرة خلال الفترة الحديثة، بما في ذلك الدراسة التي قام بها Jean Ganiage حول «سكان البلاد التونسيّة في حدود 1860...»⁽⁶⁵⁾ والتي قدّم فيها إحصائيّات شبه رسميّة لسكان خليج قابس من خلال الدفاتر الجبائيّة، إلا أنّه استثنى سكان جزيرة جربة.

وإضافة لما قدّمته هذه المصادر الغربيّة من وصف لجزيرة جربة ومعطيات عن السكن داخلها، ركّز أغلب الرحّالة على الجذور العرقيّة لسكانها وعلى معتقداتهم ومختلف الحرف التي يحذقونها والتي ميّزتهم عن غيرهم من أرباب الصناعات بالإيالة.

لفت انتباه جلّ الرحالة الأوروبيّين، النسبة الهامّة من سكان الجزيرة ذوي الأصول البربرية منذ أقدم العصور. ومثّل هؤلاء، حسب بعض المصادر، أكثر من 10 % من السكان خلال كامل الفترة الحديثة، مثلما أشار إلى ذلك Louis Frank: «وسكان الجزيرة من أصول مختلفة نجد من بينها العنصر العربيّ الغالب. بينما لا يسكن بالجهة الغربية للجزيرة إلا مجموعة يطلق عليها اسم «أجيم»، وهي نفس تسمية الميناء المحاذي لها. ومثلما تدلّ على ذلك تسميتهم، فهم يتكلمون البربريّة ونساؤهم تضعن اللّحاف بأكثر صرامة (plus strictement) من بقية النساء اللّاتي يقطنن الجزيرة... تختلف معتقداتهم الدينيّة عن بقية سكان الجزيرة، وإن كانوا يعترفون بقدسيّة القرآن ويبيحون قراءته، فشعائهم بعيدة عن الإسلام المالكي الرسميّ ويميلون أكثر إلى الوهابيّة...»⁽⁶⁶⁾. وهي نفس المعلومة التي

(63) Marcel J.-J. (1850), p. 40.

(64) Pellissier E. (1853), p. 173.

وبلغ عددهم في بداية الفترة الاستعماريّة 45.000 ساكن حسب Charles Lallemand Lallemand C. (1892), p. 103. وقدّر Duveyrier من ناحيته، عدد اليهود بـ 5.000 ساكن «وموزّعين على كامل أرجاء الجزيرة وخاصة في حومة السوق حيث تتجمع متاجرهم» Duveyrier H. (1881), p. 136.

(65) Ganiage J. (1966).

(66) Marcel J.-J. (1850), p. 40.

قدّمها الفرنسيان Laffite و Servonnet في نهاية القرن، مضيفان أنّ البربر بحرية «لا ينتمون إلى أيّ مذهب من المذاهب الأربعة الأصلية للإسلام، بل يعتبرهم بقية المسلمين، إلى جانب سكان «المزاب»، من الخوارج، أو المنشقين...»⁽⁶⁷⁾.

أمّا من حيث نشاطاتهم المهنية، فقد حصر جلّ الرحالة أعمال «الجربة» في مجالات أربعة: «الفلاحة والحياسة وصناعة الفخار والصيد البحري»⁽⁶⁸⁾. ويبدو أنّ قطاع النسيج كان أبرزها وأكثرها انتشارا وشهرة بالبلاد التونسية. فقد اعتبر القنصل الصاردي أنّه لا يوجد بالإيالة مكان يماثل جربة في الصناعات النسيجية اليدوية. الكل هنا حاذق في صناعة «الشال» والأغطية والأحزمة والسفساري واليرنس ومصنوعات أخرى من الصوف أو من الحرير. والجربيون يبدعون في كل هذه المنتجات التي يقومون ببيعها في كل أرجاء الإيالة»⁽⁶⁹⁾.

وركز البعض الآخر على نجاح تجارة «الجربة» في كامل البلاد. فمئذ القرن السادس عشر، أشاد Marmol بـ«فطنتهم وقدرتهم على تسيير تجارتهم بحكمة وتفوقهم في هذا المجال على بقية تجار البلاد»⁽⁷⁰⁾. ويضيف Duveyrier في بداية الفترة الاستعمارية، أنّهم «رغم اختلاف معتقداتهم واتهامهم بالزندقة، فهم يتجرّؤون على الاستقرار بالعاصمة حيث يدفعهم نجاحهم في مجال جُبلوا عليه...»⁽⁷¹⁾.

أمّا عن عادات «الجربة»، فأطرف ما لفت انتباه الرحالة جاء على لسان de Paradis الذي ذكر أنّهم «يأكلون لحم الكلاب... ويحبّذونه على لحم الخروف... وأنّ هذه الجزيرة تحتوي على أجمل ما نعرف من الأحمرة التي تباع بأثمان تضاهي أو تفوق أثمان الخيول. ويقع تصديرها إلى مصر للتجويد...»⁽⁷²⁾. وفي هذا المجال، علّها تنافس أحمرة جزيرة قرقنة التي سبق أن أشرنا إلى ما ذكره طبيب المحلّة نختغال، الذي يعتبرها «تمتاز بجمال المظهر وتباع أحيانا بأثمان تضاهي أسعار الجياد الممتازة...»⁽⁷³⁾.

(67) Servonnet J. Laffite F. (1888), p. 156.

(68) Monchicourt C. (1929), p. 268.

(69) Monchicourt C. (1929), p. 268.

(70) Marmol C. (1667), p. 539.

(71) Duveyrier H. (1881), p. 131.

(72) Cuoq J. (1983), p. 93.

(73) الفندري منير (2003)، ص 207.

2. المنطقة الداخلية: امتداد طبيعي وتواصل بشري للمنطقة الساحلية

إلى حدود القرن التاسع عشر، لم يرد ذكر الجنوب التونسي بصفة دقيقة في آثار الرحالة الأوروبيين، عدا ما ورد في مذكرات البعض منهم وبصفة عرضية مثلما لاحظنا آنفا. كما أنّ تحديد هذه المنطقة جغرافياً جاء غامضاً في ملاحظات جلّ الأوروبيين الذين قاموا برحلات استطلاعية لهذه المناطق النائية من الإيالة التونسية.

فقد اعتبر جلّ الأوروبيين الذين زاروا الإيالة التونسية منذ نهاية القرن السابع عشر أنّ منطقة شط الجريد تمثل الثغور الجنوبية للبلاد بحيث تمتد جنوبها صحراء مترامية الأطراف. ولم يتسنّ لهؤلاء الأجانب أن يصفوها وصفا دقيقاً إذ لم يقدم إلا البعض منهم على التوغّل داخلها. وقد حاول (Shaw) في بداية القرن الثامن عشر أن يقدم بعض التفاصيل عن المناطق الصحراوية إلا أنّ وصفه كان سطحيّاً لأنّ هذا الرحالة الشهير قطع المناطق الساحلية للبلاد التونسية في طريقه إلى طرابلس ثمّ مصر واكتفى بذكر بعض المعلومات حول المناطق الداخلية حسب ما سمعه عن السكان.

47

في بداية القرن التاسع عشر تعددت الرحلات نحو الجنوب التونسي دونما إشارة دقيقة للحدود الجنوبية للإيالة التونسية، إذ اعتبر Frank آنذاك أنّ «مدينة الحامة هي أقصى الحدود الجنوبية للإيالة، ولهذا السبب شيد التونسيون هنالك رباطاً حيث يقيم فيلقاً من الجيش النظامي»⁽⁷⁴⁾.

أمّا بالنسبة لـ Pellissier فلم يكن همّه الأصلي في حقيقة الأمر تقديم دراسة على غاية من الدقّة للوسط والجنوب التونسي، فقد شغل هذا الأخير خطة عسكرية مرموقة في الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي سنة 1830، وقدّم خلال تقلده لهذه المهامّ دراسة ضافية للجيش الفرنسي عن الجزائر تحت عنوان: «رحلة استطلاع علمية للجزائر خلال السنوات: 1841، 1842، 1843»⁽⁷⁵⁾. وبنفس الطريقة ولنفس الغاية، قدّم Pellissier، إثر إقامته في تونس لمدة أربعة عشر سنة، دراسة عن تونس وضعها بين يدي المسؤولين العسكريين بالجزائر⁽⁷⁶⁾.

(74) Marcel J.-J. (1850), p. 46.

(75) «Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années : 1841-1842-1843».

(76) ولعلّ ذلك يدخل في إطار الإستراتيجية الجديدة للحكومة الفرنسية التي أصبحت منذ احتلالها للجزائر تنظر لمنطقة المغرب العربي نظرة مغايرة وتحاول جمع أكثر معلومات جغرافية وتاريخية واجتماعية وسياسية عن المناطق المتاخمة لمستعمراتها الجديدة، إذ يقول باليساي في مقدّمة الباب الخامس عشر: «عندما وقع تعيني قنصلاً لفرنسا

وقامت الفكرة الأساسية لدراسته على اعتبار إيالة تونس جزءاً لا يتجزأ من الجزائر بل إنها، حسب رأيه، تمثل تواصلاً طبيعياً للمستعمرة الجديدة. وقد دعم Pellissier فكرته بخريطة لتضاريس البلاد التونسية حرص فيها على تغييب الحدود الجزائرية التونسية⁽⁷⁷⁾.

وفي نفس التوجه، اعتبر Pellissier منطقة شطّ الجريد «الحدّ الفاصل بين البلاد التونسية الفعلية والأهله بالسكان والمناطق الصحراوية التي تخرج عن السيطرة المباشرة للسلطة المركزية...». ويضيف أنه: «بصفة عامة تتقلص سيطرة السلطة المركزية على البلاد كلما تنقلنا من السواحل التونسية نحو داخلها وجنوبها»⁽⁷⁸⁾.

وبذلك، وحسب هذا المسؤول القنصلي، وكلّ الرحالة الذين استقوا عنه هذه الفكرة، ترتبط المنطقة الداخلية للجنوب التونسي مباشرة بسواحل خليج قابس دون انقطاع، وبالتالي يرتبط مصيرها ومصير سكانها بالسواحل والبحر ارتباطاً وثيقاً حيث يتم التفاعل والتبادل بين منطقتين مختلفتين طبيعياً ومتناقضتين بشرياً، إلا أنهما، في حقيقة الأمر، متكاملتين اقتصادياً.

ذلك ما ورد واضحاً في تقسيم الجغرافي Duveyrier للجنوب التونسي في بداية الفترة الاستعمارية، إذ اعتبر آنذاك أنّ «الصحراء التونسية»⁽⁷⁹⁾ تحتوي على أربع مقاطعات إدارية: «وطن قفصة» و«وطن الجريد» شمال سبخة فرعون وشطّ الجريد، مع نفاوذة التي تتواصل مع المنطقة الجنوبية للشطّ في «وطن الجريد» و«وطن الأعراض» المفتوح مباشرة على خليج سرت الصغرى وشرقي الشطّ وأخيراً «جزيرة جربة». وإن بدت الحدود بين الأوطان في منطقة التل غير مؤكدة، فهي شبه منعدمة بين أوطان المنطقة الصحراوية التونسية. ولا ينطبق ذلك للأوطان المتاخمة للحدود فحسب، بل للمناطق الداخلية كذلك»⁽⁸⁰⁾.

بسوسة في ماي 1843، شرعت في نهاية نفس السنة في دراسة المنطقة المجاورة لمدينة سوسة والمستير وقدّمت على اثر ذلك مذكرة أولية لوزارة الخارجية مصحوبة بخريطة للمنطقة التي درستها وتصميماً للمدينتين المذكورتين أعلاه، وقدمت هذا العمل للوزارة التي طلبت منّي القيام باستطلاع عامّ لكامل الإيالة التونسية...».
Pellissier E. (1853), introduction.

(77) أنظر ملحق الكتاب، (Pellissier E. 1853).

(78) Pellissier E. (1853), p. 7.

(79) وهو يتحدّث عن «الجنوب التونسي».

(80) Duveyrier H. (1881), p. 92.

ودعّم هذا الأمر القائد العسكري Rebillet في تقرير قدمه للإقامة العامة في بداية الفترة الاستعمارية (أوت 1895)، أكد فيه على التواصل الطبيعي والتجاري بين المناطق الصحراوية المؤدية إلى بلاد السودان والسواحل الجنوبية للبلاد التونسية⁽⁸¹⁾. وفي حديثه عن سكان المنطقة، يذكر القائد العسكري أنهم يتميزون بذكاء حاد وإتقان لصناعاتهم ودينامكية مثالية في تجارتهم، تلك التي تقوم أساساً على «نقل البضائع الأوروبية (من السواحل نحو دواخل البلاد) والسودانية (في الاتجاه المعاكس)⁽⁸²⁾. كما أن سكان المنطقة يستهلكون جزءاً هاماً من هذه البضائع وتحديدًا البشيرة التي يقع جلبها من بلاد السودان عن طريق طواوير قوافل العبيد. ويستهلكون كذلك كميات هامة من البضائع الأخرى التي يتم جلبها في صناعات محلية كالصوف والحريز والقطن التي تستعمل في صناعة الأغذية والثياب حسب ذوق المجتمعات الإفريقية...». وعن القوافل التجارية القادمة من بلاد السودان، يذكر Rebillet أنه كان شاهداً سنة 1893، على وصول «19 قافلة غدامسية إلى تطاوين يقودها توارف وتتكون من 90 رجل و414 جملاً...»⁽⁸³⁾.

II. السكن والسكان بالجنوب الشرقي التونسي خلال الفترة الحديثة

وقع تعمير الجنوب الشرقي التونسي عن طريق هجرات جماعية قدمت من قلب الصحراء ومن الجبال المتاخمة لها، على امتداد الأحقاب التاريخية: جبال نفوسة الحدودية بين إيالتي طرابلس وتونس وجبل دمر الذي ينهي سلسلة ممتدة من المغرب الأقصى عبر الأطلس الصحراوي إلى حدود غمراسن، وهو مقر سكنى البربر منذ أقدم العصور، وجبال مطماطة التي كانت بدورها تدفع بقاطنيها إلى السهل ليستقرّوا على السواحل. ثم اختلطت هذه المجموعات تدريجياً بالمهاجرين برّاً من الشرق أو القادمين عبر البحر من القارة الأوروبية.

لذلك، صعب على الرحالة الأوروبيين خلال كامل الفترة الحديثة تحديد الأصول والجذور التاريخية لسكانة خليج سرت عموماً، إذ وجدوا أنفسهم تجاه خليط من الشعوب ومشهد غريب عمّا عهدوه، تميّز بخصوصياته الطبيعية ونمط عيش سكانه المتراوح بين الاستقرار والترحال في ربوع المناطق الصحراوية.

(81) Rebillet, (1895), Préface.

(82) «تمثل البضائع القادمة من بلاد السودان في العاج ومسحوق الذهب وريش النعام والصبغ وجلود الحيوانات الطبيعية والمذبوغة والخشب وبعض المواد العطرية. وتمثل البضائع المصنوعة القادمة من أوروبا في الأغذية والأقمشة الصوفية والقطنية والحريزة وأدوات تجهيز المنازل والسكر والتوابل...» Rebillet, (1895), p. 19.

(83) Rebillet, (1895), p. 54.

1. البدو بمنطقة خليج سرت: من الترحال إلى الاستقرار

أ. تقديرات شبه منعدمة

أكد جلّ الرحالة اختلاف ساكنة مناطق الجنوب الشرقي التونسي عن بقية سكان البلاد من حيث جذورهم التاريخية وسكنهم المشتت ما بين المناطق السهلية والجبلية. وتمثلت الصورة السائدة التي بقيت عالقة بأذهان أغلبهم في فقر الأهالي ونمط عيشهم الذي يغلب عليه الطابع البدوي ووعورة المسالك المؤدية إلى تجمعاتهم وخطورتها.

ونظرا لهذه الظروف الطبيعية وعدم استقرار السكان، عجز جلّ الرحالة، رغم محاولاتهم، على تقديم إحصائيات دقيقة لسكان البوادي والجنوب الشرقي التونسي عموما. وتبقى التقديرات التي قدّمها نائب القنصل الفرنسي Pellissier في حدود أربعينات القرن التاسع عشر شبه وحيدة. فقد حدّد عدد سكان «وطن صفاقس» بـ 25 ألف ساكن وزّعها بين سكان المدينة وضواحيها (18.000) وجزر قرقنة (7.000)⁽⁸⁴⁾. وقدّر عدد سكان «وطن الأعراض» بـ 68.800، بما في ذلك مدينة قابس ومنطقة جرجيس والقبائل المنتشرة بدواخل المنطقة وجزيرة جربة⁽⁸⁵⁾.

50

علما وأنّ رحالتنا لم يأخذوا بعين الاعتبار أقلية السود، ضحايا تجارة الرقّ الذين تنامي عددهم خلال الفترة الحديثة ارتبطا بنشاط «قوافل غدامس»⁽⁸⁶⁾. وقد تواصلت تجارة العبيد خلسة إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر، رغم منع الرقّ وتحرير العبيد سنة 1846 في عهد المشير أحمد باي. وحسب Charles Lallemand، لم تتراجع تجارة الرقيق السود وامتلاكهم «إلا» إثر صدور أمر عليّ في 28 ماي 1890، يقضي تجريم كل مالك لعبد وإجباره على تحريره بشهادة قانونية... إلا أنّ أهالي الجنوب تلكّوا في تحرير عبيدهم وخاصة في جزيرة جربة التي تتوافد عليها أكبر القوافل القادمة من جنوب الصحراء، فإنك تلتقي بسود جلبوا من السنغال ومن بورنو وكانو ووداي ودرفور

(84) Pellissier E. (1853), p. 108.

(85) Pellissier E. (1853), p. 172.

(86) خلافا لليهود القاطنين بالجنوب الشرقي التونسي، الذين اعتبروهم أصيلي المنطقة وأحصوهم من بين السكان عامة، على غرار التقديرات التي قدّمها القنصل الصاردي Filippi في شأن مدينة قابس التي قدّر عدد سكانها سنة 1829 بـ 15.000 «بما في ذلك بعض اليهود»، Monchicourt C. (1929), p. 226، بينما يتحدّث Duveyrier في بداية الفترة الاستعمارية عن «جالية من اليهود هامة من حيث العدد وثرية، يمكن التحويل عليها في مساندة الاستعمار» Duveyrier H. (1881), p. 92.

وفزّان... وبذلك وضع قانون تحرير العبيد حداً لأيّام السعادة التي كان تجار العبيد ينعمون بها...»⁽⁸⁷⁾.

ت. «نجع ورغمة»: سيطرة كنفدرالية⁽⁸⁸⁾

نُعنى بهذه القبيلة لسببين اثنين: لانتشارها خلال الفترة الحديثة على أكبر رقعة داخلية للجنوب الشرقي للبلاد التونسية إذ احتلت سهل الجفارة واستوطنته، ولسيطرتها على بقية القبائل والتجمّعات التي كانت تجاورها، إن كان ذلك في التراب التونسي أو الأراضي الشرقية التابعة لإيالة طرابلس.

كيف تأسست هذه الكنفدرالية وما الذي أهلها عن غيرها من القبائل الأخرى لتسيطر على أكبر رقعة من المنطقة الداخلية للجنوب الشرقي التونسي خلال الفترة الحديثة؟

في حقيقة الأمر لم نعثر لدى الرحالة الأوروبيين أثراً لأسطورة تأسيس واستقرار القبائل المكوّنة لنجع ورغمة، مع كون هؤلاء الأجانب اضطلعوا في جمع الروايات الشعبية والأساطير التي ساقوها في آثارهم مثلما سمعوها عن مخبريهم. إلا أنهم لم يتمكنوا من جمع المعلومات الدقيقة للروايات الشعبية المتعلقة بالجدور التاريخية لقبيلة ورغمة نظراً للبعد الجغرافي للمنطقة المتاخمة للصحاري الجنوبية ولاقتصار أغلب الرحالة على المرور بالرقعة الجغرافية التي تسيطر عليها هذه القبيلة وعدم الإقامة مطوّلاً بين أهاليها.

ثمّ ظهرت الأسطورة حسب روايات أهالي المنطقة في بداية الفترة الاستعمارية عندما انكبّت السلط الفرنسية على جمع الأساطير الشعبية للتعرف على جذور مختلف القبائل، نظراً لغياب دراسات علمية دقيقة، بأن كلّفت عسكريين للقيام بهذه المهمة عن طريق استدعاء كبار شيوخ القبائل. ومن بينهم، كلّفت الملازم Tardy سنة 1900 بالتحقيق في الجدور التاريخية لقبيلة ورغمة. وقد اعترف صاحب المهمة بأنه رغم الجهود التي بذلها خلال سنتين عديدة لم يتمكن إلا من جمع معطيات عامة عن تاريخ هذه القبيلة والمتمثلة أساساً في روايات خلّدتها الذاكرة الشعبية، «كانت تروى في كلّ المناسبات وخلال الليالي الشتوية الطويلة تحت الخيام والتي تعلق بها كل الجبالية من شيوخ وصغار»⁽⁸⁹⁾.

(87) Lallemand C. (1892), p. 96.

(88) استعمل الأوروبيون عبارة اتّحاد (confédération) ورغمة نظراً للوحدة القبلية التي كانت تفرضها هذه القبيلة على بقية القبائل الموالية لها.

(89) انظر تفاصيل الأسطورة في، Maquart Cap. (1937), pp. 253-297.

بينما أطنب جلّ رحالة الفترة الحديثة في ذكر ما عاينوه مباشرة على أرض الواقع من تنظيم لهذه القبائل الداخلية وانتشارها في المنطقة التي تشرف عليها القبيلة الأم، وخاصة منطقة القصور⁽⁹⁰⁾. وقد قدّم Pellissier قبيلة ورغمة في منتصف القرن التاسع عشر، على أنها أكبر وأقوى التجمّعات القبليّة، وهي «تحتلّ منطقة الجفارة قاطبة وتمتلك قرى كثيرة تحيط بها حدائق تقطنها خلال فصل الغلال. وفيما تبقى من السنة، ترعى بماشيتها في السهول وتقطن تحت الخيام، أو غالب الأحيان في أكواخ محمولة صنعت ببراعة من الحصير... وقصّر مدنين هو مركز هذه القبيلة. وتسمية «القصر» التي تطلق على هذه القرية تعني في حقيقة الأمر مكانا محصّنا لحفظ مؤونتهم عندما يرحلون بعيدا، أكثر من كونه مقرا لسكناهم»⁽⁹¹⁾.

ويبدو أنّ هذه القبيلة سيطرت بشكل كليّ على كامل المنطقة إلى حدود الاستعمار الفرنسي. وقد لخص Rebillet سنة 1885 الدور الذي كانت تضطلع به في المنطقة الداخلية للجنوب الشرقي التونسي، بأنّ «أهل ورغمة (الورغميين) يشكّلون قبيلة تونسيّة شبه مرتحلة»⁽⁹²⁾. وهي خليط من العرب والبربر، كثيرة الحركة وعدائيّة ولم تكن يوما تابعة لحكومة الباي إلا بصفة شكلية. مقرّها الأساسي مدنين وتسيطر على المنطقة الغربية للساحل التونسي والظهر من الجهة الغربية للجبال. وبالتالي، هي تسيطر على طريق غدامس وكانت من قبل تفرض على مستعمليها ضريبة التنقل...»⁽⁹³⁾.

وحّد Duveyrier عدد أبنائها وأتباعها، في بداية الفترة الاستعماريّة، بـ31,000، وأضاف أنّ أبنائها هم «رعاة وفرسان محاربون وقطاع طرق شجعان لا يكتفون ببثّ الرعب في قيادة الأعراض، بل يقطعون الطرق في الأراضي الطرابلسيّة كما في الجفارة حيث يفرضون ضرائب على سكان الواحة الصغيرة في رمادة وسكان جبل نفوسة معتمدين على صداقاتهم وتحالفاتهم وتواطؤ سكان الوزان ونالوت»⁽⁹⁴⁾.

احتلّت قبيلة ورغمة إذن، موقعا استراتيجيا حول «قصر مدنين»، وأصبحت، انطلاقا منه، تشرف على كامل المنطقة وتسيطر عليها مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عبر مواليتها من القبائل التابعة لها. و«قصر مدنين، حسب Pellissier، هو المركز الرئيسي لقبيلة ورغمة... حيث تقام أسبوعيا سوق كبيرة

(90) يجب نطقها «القصور»، ج: «قصر»، مثلما ينطقها أهل المنطقة.

(91) Pellissier E. (1853), p. 163.

(92) استعمل عبارة semi nomade.

(93) Rebillet (1885), p. 48.

(94) Duveyrier H. (1881), p. 127.

تستقطب سكان المناطق المجاورة لها، ولا تتحمل السلع المعروضة داخلها أيّ ضريبة. كما نجد جنوب القصر حدائق كبيرة في مكان يدعى بآبار مدنين أو حاسي المدنين»⁽⁹⁵⁾.

هذا الوصف المقتضب لمنطقة مدنين يبرز لنا ثلاثة عناصر متكاملة: القصر والسوق والحدائق حول الآبار.

أمّا القصر فهو حسب شهادة نائب القنصل الفرنسي أهمّ قصور المنطقة: «... بنايته غريبة وفريدة. منازل مرتفعة وتتكوّن من عدّة طوابق ذات مغارات منضّدة. يصل السكان إلى هذه الغرف من الخارج عن طريق حِجارات أو قطع من الخشب وقع تثبيتها على الجدران» وإن كان هذا القصر يتوسّط عدّة قصور أخرى أبرزها «قصر وجان وقصر دمرّ وقصر بني زليطن وقصر مطمار...»⁽⁹⁶⁾، إلا أنّه أعظمها وأكثرها استقطابا لسكان المنطقة. ويضيف في إطار ذكره لمنطقة مدنين، بأنّ تسمية هذه القرى «بالقصور تدلّ على أنّ العرب يعتبرونها مقرّات دفاعيّة أكثر من اعتبارها منازل للسكنى، حيث يخزنون مؤوناتهم عند رحيلهم بعيدا. وهي نفس العادة التي توجد في الوسط الجزائري»⁽⁹⁷⁾.

53

أمّا وجود سوق أسبوعيّة فذلك يبرز لنا الدور التجاري النشط الذي كان يلعبه قصر مدنين وسط منطقة شاسعة تربط بين منطقة الشطوط غربا والسّاحل من الجهة الشرقية نحو منطقة الأعراض وجرجيس وجزيرة جربة وجنوبا نحو نفزاوة وجبال نفوسة والطريق المؤدّية إلى غدامس⁽⁹⁸⁾. وتتمثّل أهمّ البضائع المعروضة في «منتجات فلاحية كالتمور والحبوب وريش النّعام الذي يقع صيده في نفس المنطقة».

وأخيرا، وجود حدائق كبيرة قرب «آبار مدنين أو حاسي مدنين» فهو يبرز الدور الاقتصادي الذي كانت تلعبه منطقة مدنين خلال الفترة الحديثة. فحسب شهادة بعض سكّان المنطقة مثلما دوّنه الضبّاط العسكريين في بداية الفترة الاستعماريّة، تقوم حياة أهالي قرية مدنين على: «رعي الأغنام وحرّاث

(95) Pellissier E. (1853), p. 163

(96) يركّز بالسياسي على وعورة الطرق المؤدّية لهذه القصور بحيث لا يمكن الوصول لها إلا «مترجّلين نقود خيولنا مدّة طويلة...» Pellissier E. (1853), p. 163.

(97) Pellissier E. (1853), p. 163.

تعدّدت الدّراسات حول القصور الصحراويّة، ولعلّ أبرزها دراسة Jean Despois في بداية القرن العشرين حول منطقة نفوسة، (Despois J. 1933).

(98) ذلك ما أبرزه الأستاذ فتحي ليسير عندما اعتبر أنّ النظام الاقتصادي والاجتماعي لهذه العروش هو «حصيلة للتفاعل والتلاحم بين ثلاث بيئات جغرافيّة مختلفة ولكن متكاملة هي: الجفارة و الجبل والظاهر»، ليسير فتحي. (1998)، ص 19.

الأرض وإنتاج الحبوب وغراسة الكروم والزيتات والنخيل... وعندما تنتهي فترة الحصاد يعود أفراد القبيلة إلى مقرهم الأصلي حيث يوجد القصر المتكون من مخازن الحبوب... تقوم العائلات بخزن حبوبها وتحفظ داخل القصر بآلات الحرث التي لا يمكن نقلها...»⁽⁹⁹⁾.

كما اعتمد أهالي هذه الربوع النائية على الصيد في الفترات الانتقالية، خاصة وأن المناطق الصحراوية كانت ثرية بمختلف أنواع الحيوانات خلافا لما يروج عن فراغها من مظاهر الحياة البرية. وقد قدمها De Paradis في نهاية القرن الثامن عشر على أنها «مناطق ثرية بمختلف أنواع الحيوانات، كالأرانب البرية والغزلان الصحراوية والجواميس الوحشية والأسود والنمور»⁽¹⁰⁰⁾. أما العصافير فهي عديدة ومتنوعة وخاصة منها هذا النوع الضخم أو «الجمال المجنح»⁽¹⁰¹⁾ الذي تتحلى بريشه الأرستقراطيات الأوروبيات ويلعب لحمه وبيضه دورا أساسيا في الدورة الغذائية لسكان المناطق الصحراوية الرحّل»⁽¹⁰²⁾.

وفي نفس الفترة، يحدثنا Louis Frank مطولا عن صيد النعام فيقول: «يركب الصيادون خيولهم بعد التزوّد بالماء الصالح للشرب. ثم تبدأ عملية الصيد في حدود منتصف النهار في الفترة التي تتجمع فيها النعائم في مجموعات تعدّ بالمئات. وعندما تنفطن الطيور بوجودهم تفرّ في كل الاتجاهات وعندها ينطلق الصيادون خلفها. تتواصل عملية التسابق هذه في بعض الأحيان أربع ساعات بدون انقطاع إلى أن تنهار الحيوانات من شدة الإرهاق وتشل حركتها وتتوقف نهائيا عن الجري. عندها ينزل الصياد من حصانه ويقطع رأس النعامة ويضع الجثة على ظهر جملة ثم يعود للبحث عن طريدة ثانية. وقل أن يتحصّل الصياد على أقل من نعامين. ثم يتمّ سلخ جلودها «بضرب الجسم بقبضة اليد حتى ينفصل عن العظام. ثم يقع إخراج شحم النعام أولا في شكل سائل ويوضع في وعاء. وعندما يجمد يستعمل كدواء لجبر الكسر ولبعض الأمراض الجلدية الأخرى»⁽¹⁰³⁾.

(99) Chater (K), *Dépendance*, p.110.

(100) ولعلّه يعني بالفهود أو الضباع وهي، كما الأسود، اندثرت في حدود منتصف القرن التاسع عشر. ولعل آخر من تحدّث عن الأسود والفهود في تونس هو Henri Dunant الذي أقام في تونس في نهاية ستينات القرن. وحسب بعضهم قتل آخر فهد في جبال خمير في بداية القرن العشرين.

(101) هي تسمية أطلقها الأوروبيون على طائر النعام منذ القديم.

(102) Cuoq J. (1983), p. 51.

(103) Marcel J.-J. (1850), p. 123.

ت. العلاقات العدائية بين القبائل: «الغارة» أو «الحاربة»

اتّسمت العلاقات بين بعض القبائل التّونسيّة بالاحتداد بل بصّراع شبه متواصل على امتداد عدّة قرون. وقد حاولت مختلف الدّراسات المعاصرة أن تجد تفسيراً لهذه الصّراعات القبليّة. ففي حين يرى بعض المؤرّخين أنّها تعود بالدرّجة الأولى إلى أسباب اقتصاديّة مرجعها الأصلي التّناحر للسيطرة على الأراضي الخصبة والمراعي⁽¹⁰⁴⁾ أو أنّها مصادمات بين دوّار وآخر حول منابع المياه والمراعي أو غارات كانت تستهدف الماشية بالدرّجة الأولى⁽¹⁰⁵⁾، ركّز البعض الآخر على النّظريّة الخلدونيّة التي تعتمد ظاهرة «العصبية القبليّة»، في اتحاد والتحام وتقاتل المجموعات البدويّة⁽¹⁰⁶⁾.

إلا أنّ الأوروبيّين الذين زاروا الإيالة التّونسيّة خلال الفترة الحديثة اكتفوا بذكر هذه الصّراعات دون تقديم تفسيرات شافية لهذه الظّاهرة وعلّقوا عليها بكثير من الاستغراب خاصّة إذا تمثّلت في مصادمات بين فرعين من نفس القبيلة. وإن حاولوا في بعض الأحيان التحقيق في الأمر، فإنّ تحاليلهم كانت غالباً سطحيّة أو تشوبها بعض الأفكار المسبّقة حول طبائع البدو المتوحّشة. ومع ذلك، فإنّ شهاداتهم انفردت بالتفرقة الواضحة بين مظاهر ثلاثة من تمرّد البدو وطباعهم العدوانية⁽¹⁰⁷⁾: «عصيانهم» للسلطة، و«الصراعات» التي كانت تتدلّع من حين لآخر بين بعض القبائل و«الغارات» التي تقوم بها قبائل أو مجموعات بدوية توارثت هذا النوع من «القرصنة البريّة»⁽¹⁰⁸⁾ والتسلط الجماعي. أي أنّهم فرّقوا بين «الصراعات» التي كانت تتدلّع بين القبائل لأسباب تتوارثها الأجيال دون الوقوف على أسبابها ومسبباتها، و«الغارات» التي تعتمد على بعض القبائل «المغيرة»، متّخذة سبل قطاع الطرق.

(104) Jean Ganiage يعتبر أنّ ظاهرة الصّراع القبلي «ظاهرة عاديّة تعود بالدرّجة الأولى إلى الحدود الطبيعيّة لكل قبيلة... ذلك ما يجيئ النعرات القديمة...» Ganiage J. (1956), p. 142.

(105) كانت الإبل والأغنام المطمع الأوّل للمغيرين على عروش السباسب التي تقدّم بها الاستقرار... الباهي مبروك (2005)، ص 184. انظر كذلك Despois J. (1955), p. 162. Cherif M.-H. (1980), p. 25.

يقول ابن خلدون في هذا الصدد «أمّا جُلّهم (البدو) فإنّما يذود عنها من خارج حامية الحيّ من أنجادهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدّق دفاعهم وزيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد...» المقدمة... ص 159.

(107) فسّر صاحب المقدّمة هذه الطباع بأن «صار البأس للبدو خلقاً والشجاعة سجيّة... فكانوا لذلك أشدّ الناس توحشاً» المقدمة... ص 155.

(108) حسب العبارة التي استعملها Marmol في بداية القرن 16 في حديثه عن سكان المناطق الداخلية للبلاد التّونسيّة، فهم «فقراء بسبب ما يدفعونه للملك كما أنّهم يعانون من قرصنة العرب التي تروّعهم من حين لآخر...» Marmol C. (1667), t. 1, p. 531.

ولعلّ أبرز أوجه الصراعات هي تلك المواجهات التي كانت تندلع «دون سبب واضح»، بالنسبة إلى هؤلاء الأجانب إذ تعرّس عليهم فهم عمق الصراعات القبليّة التي تحتدّ بين قبيلتين أو أكثر حسب قانون الموالة أو العداءات القديمة المتوارثة والقائمة على أسس روابط وخلافات حدّتها طبيعة عيش البدو الماديّة وتراكمات ثقافية تعود في غالب الأحيان إلى زمن قدومها واستقرارها في شمال إفريقيا. ويعلّق Pellissier على هذه الصراعات معتبرا أنّ أسبابها غالبا ما تكون «تافهة»، كأن تتقاتل قبيلتان «حول مقتل حصان»⁽¹⁰⁹⁾.

وقد تتخذ هذه الصراعات في بعض الأحيان شكل حرب ضارية تتوارثها الأجيال فتشتعل تارة وتخمد أخرى وتتداخل فيها المصالح الماديّة والصراعات السياسية والأعراف القبليّة كقانون الموالة والأخذ بالنثار والتزواج... وقد عايش Pellissier أحد هذه الصراعات بل كان طرفا فيها عندما حاول أن يصالح بين قبيلتي بني زيد وورغمّة اللتين تتقاسمان السيطرة على الجنوب الشرقي للبلاد التونسية.

كان ذلك في شهر جويلية من سنة 1846 عندما كانت القافلة المرافقة لنائب القنصل الفرنسي تقطع منطقة مدنين، فعلم أنّ «القبيلتين دخلتا في صراع منذ يومين» ولم يتوقف الصراع على الطرفين المتعادين فحسب بل جرّ مجموعة من القبائل الموالية لهذه أو لتلك، بحيث أصبحت كامل المنطقة الجنوبية الشرقية في حالة حرب واستنفار قصوى. وفي خضمّ هذه الوضعية المتوترة عبّر «خليفة ورغمّة» لنائب القنصل الفرنسي عن «استعداد أهله لمصالحة أعدائه» وطلب منه التدخل لدى الباي «حتى يستقبل ممثلين عن القبيلتين المتعاديتين ليصالح بينهما على أسس صلبة». وتقدّم «شيخ الحامة» عن قبيلة بني زيد لممثل الدولة الفرنسية بنفس الطلب. وقد حاول Pellissier القيام بدور الوساطة، إلا أنّ مساعيه لم تكن مجدية ولم يعر الباي الوساطة الفرنسية أيّ اهتمام وتواصل الصراع لبضعة أشهر. ولم تهدأ الأوضاع إلا نظرا لطول مدة الصراع وتزايد عدد القتلى من بين الطرفين المتعادين.

أمّا «الغارات» التي احترفتها بعض القبائل «المغيرة» المتمردة أو «قطاع طرق» الذين ينهبون العامّة لصالحهم الخاص، فقد أبهرت الجميع وأطنب جلّ الرحّالة الأوروبيين في ذكرها ومدّونا بأدقّ التفاصيل عن وقوعها. ويبدو أنّ ظاهرة الإغارة أو «الحرابة» كانت أكثر انتشارا في أوائل العهد الحديث ولم تقتصر على «الغارات المنظمة» بل تمثلت في عمليّات «قطع الطريق» الجماعية أو الفرديّة وخاصة في المناطق الصحراوية النائية حيث تعيش مجموعات تشكو

(109) Pellissier E. (1853), p. 129.

الخصاصة والفقر، على غرار أولئك الذين اعترضوا سبيل أبي الحسن الوزان في بداية القرن 16 في المناطق الصحراوية الفاصلة بين تونس وطرابلس حيث «يعيش سكانهم أقرب إلى الحيوانات، حفاة عراة هلكهم الجوع... فكانوا يرسلون أطفالهم للقيام بأشبع عمليات السطو التي تقع على وجه البسيطة ونهب المازين من هذه المناطق»⁽¹¹⁰⁾. وتواصلت الغارات أو ما يعبر عنها بـ «التغريبات» خلال القرن 19 إلا أنها اقتصرت على بعض القبائل، أبرزها قبيلتي النمامشة والحنانشة على امتداد المناطق المتاخمة للحدود الجزائرية التونسية وقبيلة أولاد سعيد بالمناطق الشمالية وقبيلة الهمامة في وسط البلاد التونسية ومنطقة الجريد وقبيلة أولاد زيد بالجنوب الشرقي⁽¹¹¹⁾.

وقد أجمع كل الرحالة على أن هذه الغارات التي تقوم بها بعض القبائل على جيرانها «لا تعدو أن تكون أمرا عاديا للغاية يجد فيه البدوي الفرصة للتباهي باستعماله للسلاح»⁽¹¹²⁾. أو أنها «مزمنة ومتأصلة في البدو نظرا لطبيعتهم المتوحشة»⁽¹¹³⁾. إلا أن تفاقم الأوضاع المادية لسكان البوادي خلال القرن 19 شجع بعض القبائل التي تمرست بمثل هذه العمليات وورثت مهاجمة القبائل المجاورة والقوافل التجارية المارة من المناطق التي تسيطر عليها منذ قرون⁽¹¹⁴⁾.

وللغارة أعرافها ونواميسها يمكن أن نستشفها من خلال الوصف الدقيق الذي مدنا بها بعض الرحالة لغارات عاشوا وقائعها وسجلوا أحداثها، على غرار ما حصل في 15 مارس 1860 تحديدا، عندما كان Guérin يقضي ليلته في قرية جرجيس واستفاق فجأة على «صياح تعالي في أرجاء القرية من حناجر النسوة والأطفال، وهو بمثابة المنبه»⁽¹¹⁵⁾ للسكان في كل الأنحاء معلنا حصول غارة يقوم بها حوالي خمسين فارس ينتمون إلى قبيلة قريبة. وقد تمكن هؤلاء من نهب بضعة مئات من الأغنام وثلاثين بقرة... وقد منعت الظلمة سكان القرية من تتبع الناهبين. وبقي كل السكان على أهبة الدفاع في حال أن يعيد الغزاة الكرة...»⁽¹¹⁶⁾.

ويطرفنا بليسيائي من ناحيته بالدور الذي كانت تقوم به المرأة في هذه الصراعات، على غرار Ralia «الغالية»، هذه المرأة الغربية التي تنسب إلى قرية جرجيس، وهي تحديدا بنت شيخ جرجيس. وقد قابلها المزارع العديدة وانبهر

(110) L'Africain L. (1830), p. 92.

(111) Cherif M.H. (1980), p.28.

(112) Rebatel & Tiran (1923), p. 306.

(113) Guérin V. (1862), p. 218.

(114) Mayet V. (1887), p. 354.

(115) وهذا الصياح المنبه يعبر عنه المحليون «بالفزة» أو «الفزاعة».

(116) Guérin V. (1862), t. 2, p. 218.

بجمالها وشجاعته، وهي بالنسبة إليه، «تضاهي أقدر الرجال، إذ كثيرا ما كانت تتواجد في الصفوف الأولى من المعارك لتقود فرسان قبيلتها»⁽¹¹⁷⁾. وقد تبرز هذه الشابة صورة مغيرة للمرأة في مثل هذه المواقف، إذ لم يكن دورها يقتصر على إعداد الخيل وإحضار المؤونة وإذكاء روح المحاربة لدى الفرسان بتشجيعهم، بل كانت بعضها تشارك في الغارات إلى جانب فرسان القبيلة.

2. الحُضر بمنطقة الجنوب الشرقي التونسي

تطوّر السكن بمنطقة الجنوب الشرقي التونسي، كما ببقية الإيالة، على امتداد الفترة الحديثة، وتوسعت تدريجيا المناطق الحضرية الكبرى على حساب الأرياف المحيطة بها نتيجة تضاعف عدد سكانها وظاهرة استقرار البدو في ضواحيها. كما شهدت الحواضر الساحلية للجنوب الشرقي التونسي خلال القرن التاسع عشر وصول عدد هام من الأجانب، قادمين من موانئ بعض الدول الأوروبية المشرفة على المتوسط كالموانئ الإيطالية ومالطا والموانئ الجنوبية الفرنسية وبعض الجزر اليونانية. ذلك ما خلق حركية تجارية داخلها ونمى علاقة الإيالة التونسية بال الضفة الشمالية للمتوسط.

ودارس نصوص الرحالة الأوروبيين خلال هذه الفترة، يمكنه أن يتابع توسع الحواضر القديمة وبروز أخرى تدريجيا، على شاكلة مدن الجنوب المتاخمة للحدود الصحراوية كمدنين وتطاوين وجرجيس المشرفة على المنطقة الساحلية.

وفي هذا الصدد نولي اهتماما خاصا بأبرز مدينتين بالمنطقة، صفاقس وفابس نظرا لاستقطابهما أكبر نسبة من السكان وللدور الذي قامت به في ربط منطقة الجنوب الشرقي التونسي بالعالم الخارجي.

أ. مدينة صفاقس: أكبر التجمعات الحضرية⁽¹¹⁸⁾

عرجّ جلّ الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الإيالة التونسية خلال الفترة الحديثة على مدينة صفاقس قادمين إليها شمالا من الطريق الساحلية الرابطة بين المهدية وصفاقس أو عبر الطريق الداخلية من مدينة الجمّ أو من الجنوب التونسي. كما أنّ عددا منهم وصلها بحرا حيث رست السفن التي كانت تقلهم على بعد ميلين بحريين من السواحل، قبالة المدخل الرئيسي للمدينة أو ما عرف على امتداد الأحقاب التاريخية بـ«باب البحر».

(117) Pellissier E. (1853), p. 165-166.

(118) نعتد في هذا الجزء بالذات على كتابنا: صفاقس في عيون الآخرين...، الجموسي الحبيب، (2019).

دخلوا المدينة وجابوا أرجاءها وتوقفوا في الأرياض المحاذية لها وتقتل بعضهم بين «أجنّتها»، ثمّ قدّموا لقرائهم كتباً أو مقالات نشرت في مجلات علميّة، لا تخلو من طرافة لما عاينوه بمدينة صفاقس من حركة داخل أسواقها ولما نقلوه عن أهلها من أخبار عن عاداتهم وتقاليدهم، قد لا نعثر على مثيلها في مصادر أخرى لذات الفترة التاريخيّة. وقد أولى هؤلاء الغربيّين مدينة صفاقس كلّ العناية وخصّوها بصورة تبدو مغايرة لمدن أخرى من البلاد التونسيّة قاموا بزيارتها في نفس الفترة الزمنيّة. فهي في نظر جلمهم «أجمل وأنظف مدينة تونسية وأكثرها حيوية اقتصادية ويمتاز أهلها بطبيعتهم وكرمهم».

قدّم رحّالة القرن التاسع عشر تحديدا تقديرات عدد سكّان مدينة صفاقس⁽¹¹⁹⁾ ومعلومات دقيقة عن حياتهم العائليّة وعاداتهم وتقاليدهم. وإن بدت كل هذه المعلومات، في غالب الأحيان، عاديّة بالنسبة إلينا، إلا أنّها تدلّنا على الصورة التي تحلّى بها الصفاقسيّون عبر العصور، إذ أجمعوا كلهم على تفانيهم في العمل وهدوء طبيعهم وكرمهم.

ومن أبرز هذه الشهادات ما ذكره الرحالة الألماني Von Maltzen سنة 1869 إذ اعتبر «هؤلاء الصفاقسيّة شعبا صغيرا عجيبا... ورغم قلّة عددهم فإنّهم بارعون في أعمالهم على غرار ما يقومون به في مزارعهم التي تعادل في امتدادها ساحل تونس، بل يوسّعونها كل سنة على حساب الأراضي البور الممتدّة. وهم في ذات الوقت فلاحون وحرفيّون في المدينة إذ أنّ كلّ الصفاقسيّين تقريبا يمارسون إلى جانب الأعمال الفلاحيّة حرفة يدويّة أو يشتغلون في فرع من التجارة...»⁽¹²⁰⁾.

ومن اللافت للانتباه، تنامي عدد الأوروبيّين الذين حبّذوا العيش إلى جانب أهالي صفاقس بكلّ طمأنينة على أرواحهم وممتلكاتهم، ووسّعوا مبادلاتهم التجاريّة بين ميناء صفاقس والموانئ الأوروبيّة. فمنذ ثلاثينيّات القرن التاسع عشر، يؤكّد لنا بعض الرحّالة الأوروبيّين بداية استقرار أوّل جالية من المالطيّين والإيطاليّين بمدينة صفاقس⁽¹²¹⁾. ذلك ما حدا بأهالي صفاقس أنّ يهيّؤوا لهم مجالا ساحليّا قبالة المدخل الرّئيسي للمدينة أطلقوا عليه اسم «الربض القبلي»، ما عرف فيما بعد بـ«الحي الإفرنجي». وتكونت هذه الجالية

(119) حدّدهم Pellissier سنة 1845 بـ10.000، و Espina سنة 1852 بـ13.500 و Servonnet سنة 1884 بـ25.000، الجموسي الحبيب، (2019)، ص 115.

(120) غانم عماد الدين (2008)، ص 112.

(121) ذلك ما تؤكّده سجلّات الكنيسة الكاثوليكيّة التي كانت شاهدا على تنامي عدد هذه الجالية خلال فترة ما قبل الاستعمار الفرنسي، انظر، (Jamoussi H. 2008).

في حدود سنة 1866 «من إيطاليين ومالطيين وقلة من اليونانيين، اجتمعوا في هذا الحيّ ودعموا النشاط التجاري للمدينة الذي تمثّل أساسا في تجارة الصوف والتمر والنشاف والفرزدق والزيتون»⁽¹²²⁾. كما أنهم عاشوا داخل هذا الحيّ في مأمن عن أملاكهم وأرواحهم ومارسوا طقوسهم الدينية بكل حرية.

ب. مدينة قابس: بوابة الجنوب الفعلية

لفتت هذه المدينة التي «توسّعت على أنقاض «المدينة الرومانية Tapcapae» انتباه الرحالة جمال غاباتها المتمثلة في واحات صغيرة تحتل المنطقة الداخلية من المدينة. وقد عبّر عن ذلك Duveyrier، بكونها «ليست مدينة بالمفهوم المتعارف عليه، بل هي واحة تمثّل بلدة صغيرة وتتكوّن من قريتين قرب وادي قابس وهي جارة والمنزل». و«جارة هي مركز وطن الأعراض حيث يمتلك الباي قصرا. وفيما عدا ذلك تشتت قرى صغيرة حول واد قابس: سيدي بولبابة والمنارة ومترش وزريق الدخلة وشنني والنالة...»⁽¹²³⁾. وتتعدّد شمالها القرى الصغيرة: «بوشمة وخنوش والزواوية وسيدي بالحسن المطوية ووذرف والعوينات»⁽¹²⁴⁾. وبالتالي، «قابس هي كل هذه القرى مجتمعة»⁽¹²⁵⁾.

وتحتلّ مدينة قابس، حسب Charles Lallemand «موقعا استراتيجيا وسط نصف دائرة في شكل مروحة، بإمكانها أن تحمي وأن تؤمّن غذاء منطقة العكارة وكذلك نفزاوة والجريد ومنطقة ففصة. كما أنها توجد على حافة الشطوط ويمكنها بنفس السهولة مراقبة السواحل الشمالية وغربا إلى حدود نفطة وقبلي جنوبا»⁽¹²⁶⁾. لذلك هي مؤهلة لأن تتولّى دور الوساطة بين داخل البلاد والعالم الخارجي، «فالقوافل القادمة من غدامس تحط رحالها في أوّل مرحلة في قابس حيث يكون أوّل سوق لتجارة العبيد»⁽¹²⁷⁾.

وأكدّ جلّ الرحالة الذين زاروا المدينة قبل القرن الثامن عشر أنّها «محاطة بسور مرتفع وقلعة شاهقة حذو مصب مياه حارة»⁽¹²⁸⁾. بينما لاحظ كل الذين زاروها خلال القرن التاسع عشر بقايا هذا السور الذي انهار وبناء

(122) Jamoussi H. (2008).

(123) Duveyrier H. (1881), p. 160.

(124) وكان Pellissier «قد ذكر سنة 1843 نفس القرى، سيدي بولبابة ومنارة ومترش وزريق الدخلة ونالة؟ وحرشة وكلها تتوزع يمينا ويسرى حول وادي قابس، الذي يعطي تسميته لمجموع هذه القرى». Pellissier E. (1853), p. 160.

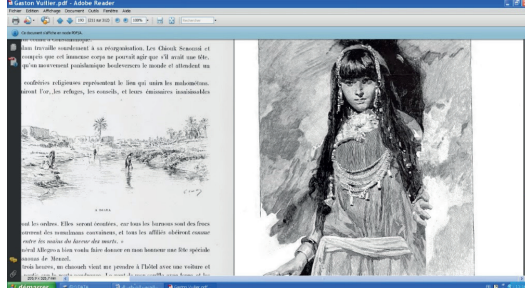
(125) وحّد عدد سكّانها إجمالا بـ 10.000 ساكن، Guerin V. (1862), p. 191.

(126) Lallemand C. (1892), p. 98.

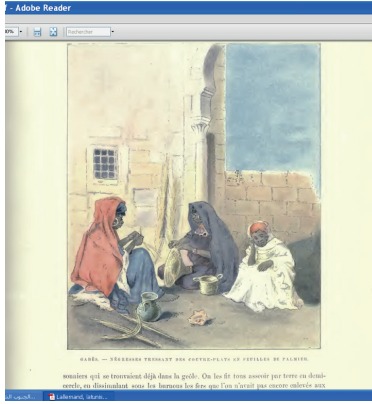
(127) Monchicourt C. (1929), p. 262.

(128) L'Africain (L) (1830), p. 66 ; Marmol C. (1667), p. 535.

«قلعة جديدة ما بين جارة والمنزل في المكان الذي خصّصته سابقا إدارة المخزن لدكاكين تجارية»⁽¹²⁹⁾.



فتاة من قابس⁽¹³⁰⁾



صناعة السعف في قابس⁽¹³¹⁾



أحد أكواخ واحة قابس

أمّا عن واحتها، فقد انبهر كلّ الذي قاموا بزيارتها بخصوصيتها وتعدّد منتجاتها الفلاحية المنضّدة حيث تجمع بين أشجار النخيل الباسقة ثمّ تليها مختلف الأشجار المثمرة، «كالتين واللوز والقوارص والرمّان وأشجار الحناء» وأخيرا يزرع الفلاحون الحبوب بمختلف أنواعها. وما لفت انتباه الرّحالة هي التقسيمات بين الضيعات الفلاحية وتوزيع المياه في جداول بينها على مختلف ساعات اليوم «حسب اتفاق مسبق»⁽¹³²⁾.

(129) Duveyrier H. (1881), p.119.

ويركّز عالم الآثار Guerin سنة 1860 على الصراعات الدموية التي كانت تشب بين القريتين حول السيطرة على هذه السوق التي آلت في نهاية الأمر لأهالي قرية المنزل.
Guérin V. (1862), t.1, p.191

(130) Duveyrier H. (1881), p.120.

(131) Lallemant C. (1892), p.97.

(132) Guérin V. (1862), t. 1, p. 193.

III. منطقة الجنوب الشرقي التونسي وعلاقتها بالسلطة

1. منطقة مستعصية

ارتكز نمط عيش قبائل الجنوب الشرقي التونسي منذ أقدم العصور، على التنقل وعدم الاستقرار داخل مجال جغرافي شاسع أجبرها على الترحال مراوحة بين السهول والجبال دون اعتبار للضوابط الحدودية مع إيالة طرابلس، و«حتمت عليها الحاجة حمل السلاح في وجه بعضها البعض في مناطق قاحلة تصبح فيها بركة ماء أو مرعى مدعاة للحرب والصراعات الدامية...»⁽¹³³⁾. بل شكّلت هذه القبائل خطرا على «العمران» منذ أن أظهرت عصيانها للسلطة المركزية المعادية للحرية المفرطة والتي تسعى لإجبار القبائل المرتحلة على الاستقرار في مناطق محدّدة.

انطلاقا من القرن 17 تغيرت المعطيات السياسية للبلاد التونسية وأظهرت كل الأنظمة التي تالتت على الحكم رغبة ملحّة في إخضاع قبائل الجنوب التونسي لمشيئتها وضبط مجال تحرّكها. فروّجت قاعدة «التخريب» التي «جبل عليها الأعراب» منذ الزحف الهلالي، وهي قاعدة اعتمد عليها أصحاب السلطة لتذنيب الأعراب على «تخريب المناطق الأهلة بالسكان» وذلك لغايتين: لتسويغ سياسة العصا الغليظة المتبعة ضدّهم ولفرض الاستقرار والسيطرة عليهم وإجبارهم على دفع الجباية التي تمثل أحسن تعبيرة لتبعييتهم للسلطة في تونس.

وأصبحت المناطق الحدودية مع إيالة طرابلس خلال الفترة الحديثة تمثّل أبرز بؤر العصيان نظرا لوعورتها في وجه الجند وصعوبة اقتحامها. ذلك ما أشار إليه الرحالة الإنكليزي Shaw في بداية القرن 18 بأن «المجموعات القاطنة بالمناطق المتاخمة للصحراء والبدو الرحّل عموما، أحرار يصعب إجبارهم على دفع الضرائب لأنهم دائمو الحذر وعلى أهبة الفرار أو اللجوء إلى القفار كلما علموا بقدوم حملة»⁽¹³⁴⁾، وأكد القنصل الصاردي Filippi هذا الأمر في بداية القرن 19 معتبرا أنّ «هذه البلاد (الجنوب الشرقي التونسي) تقطنها أسوأ قبائل الإيالة لأنها تحتلّ مناطق شاسعة على مشارف التخوم مع طرابلس حيث تفرّ كلما شعرت بأيّ خطر يداهمها من قبل السلطة...»⁽¹³⁵⁾.

(133) Cuoq (J.), *Venture De Paradis...*, op. cit., p. 51.

(134) Shaw (T.), *Voyages...*, op. cit., p. 4.

(135) Monchicourt C. (1929), p. 263.

ويبدو أن ظاهرة العصيان لم تقتصر خلال القرن 19، بل آل الأمر إلى أشكال أرقى من تمرّد البدو في وجه سلطة البايات وأصبح الحديث عن انتفاضات عمّت أرجاء المنطقة. وتعود هذه الحركات الاحتجاجية بالدرجة الأولى لسياسة الإدارة المخزنية الموغلة في فرض «المغارم»⁽¹³⁶⁾ على القبائل التي نغنى بدراستها، مما دعا مختلف البايات إلى القيام بحملات تأديبية لبعض قبائل المنطقة، على غرار الحملة التي أشار إليها نائب القنصل الفرنسي Pellissier، والمتمثلة في إرسال المشير أحمد باي «300 مائة رجل لجبال توجان كي يرضخ سكانها على دفع، لست أدري أي ضريبة، إلا أنّ هؤلاء أطردهم بالحجارة والبنادق، وتوقفت المسألة على هذا النحو...»⁽¹³⁷⁾.

وتشير آثار الرحالة في هذا الصدد إلى الدور الذي كانت تقوم به القبائل المخزنية في معاضدة الحملات العقابية التي توجهها السلطة المركزية ضد القبائل الثائرة، على غرار وقوف قبيلة بني زيد ضد نجع ورغمة. وقد أشار العالم النباتي Rebatal في منتصف القرن التاسع عشر⁽¹³⁸⁾ للدور الخطير الذي كانت تقوم به هذه القبيلة بتقديم مدد عسكري للمحلة يتمثل في أقدر فرسانها و«لوجستي» في ضبط مواطن القبائل الثائرة الأخرى. فالإيالة، حسب رأيه تنقسم، «إلى حزبين متعادين: الباشية أو العرب الأحرار وهم البدو الحقيقيون والحسينية أو الحزب الحكومي. وتمثل قبيلة بني زيد الكبرى الحزب الأول وتمثل قبيلة الهمامة الحزب الثاني. وحول هاتين القبيلتين تتضوي باقي القبائل الأخرى حسب أفكارها وحسب مصالحها. وأهم القبائل التي تنتمي إلى صف بني زيد، المثاليث قرب صفاقس والسواسي ما بين سوسة والقيروان وحازم ما بين سيدي مذهب وقابس... أما حول الهمامة فتصطف قبائل جلاص قرب القيروان وورغمة قرب الحدود الطرابلسية والعكارة بجرجيس ونفّات في منطقة عقارب... كما يجد كلا الصّفين تحالفات في المدن الكبرى. فنصف مدينة قابس ونصف منطقة الجريد والساحل يتحالف مع بني زيد ونصف المدن الأخرى بما في ذلك صفاقس يتحالف مع الهمامة. والجدير بالذكر، أنّ موالاة صف للباي لا يمثل اعترافا كليا بسلطته دون معارضة. لا شيء يدلّ على ذلك، فالحكومة

(136) حسب عبارة ابن أبي الضياف، في شأن السياسة الجبائية للدولة الحسينية، انظر الاتحاف...، ج 5، ص 129.

(137) Pellissier E. (1853), p. 164.

في حقيقة الأمر، تنقل المشير أحمد الباي مرة واحدة إلى الجنوب التونسي عندما «نهض بنفسه إلى الأعراض يجرّ وراءه عرمرما من العسكر النظامي...» ونجح في إخماد انتفاضة ضد المغالة في فرض «المغارم» على نجع ورغمة من قبل عامل الأعراض، وقضى على قادتها، اتحاف، ج 4، ص 44-45.

(138) قدم إلى تونس في شهر مارس 1874 وقام برحلة عبر الوسط والجنوب التونسي.

لا تساند الهمامة إلا لمقاومة بني زيد. وهكذا يعيش أصحاب السلطة في أمن وسط هذه الصراعات التي لا تنتهي...»⁽¹³⁹⁾.

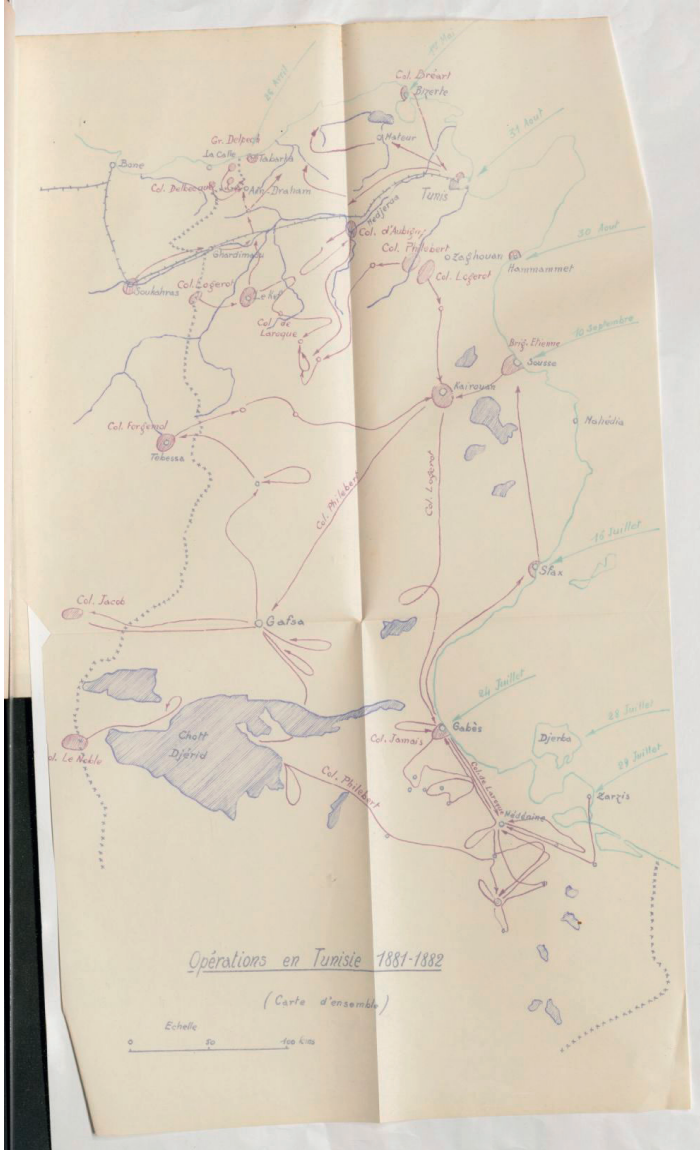
وحول قبيلة بني زيد، يعلمنا Duveyrier في بداية الفترة الاستعمارية، أنها من بين أكبر قبائل المنطقة وهي «تضمّ قرابة 6000 نسمة وتقيم تارة شمال وتارة غرب مدينة قابس محاذية لشط الجريد... وهي في عداوة دائمة لقبيلة الهمامة وورغمّة، إلا أنها غالبا ما تنور مثلها ضدّ سلطة الباي وجور القياد...»⁽¹⁴⁰⁾. أمّا عن قبيلة ورغمّة، فيذكر Rebillet في نفس الفترة أنها «... قبيلة محاربة ولا ترسخ لسلطة البايليك إلا نادرا... تحتل هذه القبيلة الجهة الغربية للساحل التونسي الجنوبي ومنطقة الظاهر حيث تسيطر على طريق غدامس وتفرض على مستعمليها ضريبة العبور...»⁽¹⁴¹⁾.

(139) Rebatel et Tiran (1923), p. 306.

(140) Duveyrier H. (1881), p. 126.

(141) Rebillet (commandant) (1895), p. 48.

2. مقاومة منطقة الجنوب الشرقي التونسي للحملة العسكرية الفرنسية



العمليات العسكرية الفرنسية في تونس (1881-1882)⁽¹⁴²⁾

(142) Bataille L.-V. (1923), Annexes.

أ. صفاقس والحملة العسكرية الفرنسية (143)

لا تزال انتفاضة أهالي صفاقس في وجه الجيوش الغازية ومقاومتهم للحصار الذي ضربته عليها البحرية الفرنسية مدة خمسة عشر يوما وعملية الإنزال واقتحامها للمدينة، عالقة بالذاكرة الجماعية لأهالي صفاقس وقد تداولتها الأجيال لمدة تجاوزت الآن المائة والأربعين سنة. بل طفت منذ فترة وجيزة بعض التساؤلات عن القائمة الاسمية لكل الذين «استشهدوا» في مقاومتهم للجيش الفرنسي وعن مصيرهم، أو حدة التخریب الذي تعرّضت له المدينة عند اقتحامها من قبل الجيش الفرنسي أو الغرامة الحربية التي وظفت على الأهالي إثر سقوط مدينتهم.

تحملت المدينة بأسرها ويلات حصار البحرية الفرنسية ثم هجوم ما ينيف عن 3000 جندي دفعة واحدة صبيحة يوم 16 جويلية 1881. وقد سجلت هذه المدينة صفحة خاصة من تاريخ تونس ببسالة أهاليها ووقوفهم في وجه الغزو رغم الآلة الحربية المتطورة والجنود المدجّجين بأحدث الأسلحة. ومع ذلك تكبدوا خسائر بشرية عديدة فيما يمكن أن نعبّر عنه بـ«حرب الأزقة» عندما أجبر الجيش الفرنسي على الدخول في معركة قاسية، وأصبحت الحملة عبارة على «مطاردة فعلية للعرب في مدينة شبه فارغة دامت ثلاثة أيام».

66

وفي هذه الظروف، تعرّضت مدينة صفاقس إلى عملية تخریب، جرّاء القصف المكثف طيلة ما يناهز عن عشرة أيام شبه متتالية، فتهشم جانب من السور وهدمت المنازل والمعاليم الدينية، واستباح الجيش الفرنسي المدينة أيام 16 و17 و18 جويلية إذ كان يجوب أنهجها ويقتحم عنوة منازل الصفاقسيين. وانتهت الحملة بسقوط قرابة 1000 ساكن وبتفريغ الأهالي بما قيمته «10 ملايين فرنك»⁽¹⁴⁴⁾.

ب. مقاومة قابس للحملة العسكرية الفرنسية

تداول كل الأوروبيين الذين زاروا البلاد التونسية إثر انتصاب «الحماية الفرنسية» أحداث الحملة العسكرية على الإيالة وحاولوا أن يقللوا من شأن مقاومة سكان مدينة قابس لهجوم القوات الفرنسية على مدينتهم التي انتقلت إليها مباشرة إثر إسقاط مدينة صفاقس، وذلك للقضاء نهائياً على مقاومة المدن الساحلية الجنوبية للتدخل العسكري الفرنسي. بل شاء بعضهم أن يجعلوا

(143) نعتد في هذا الجزء على ما سبق أن أوردناه في كتابنا عن «صفاقس في عيون الآخرين...»، الجموسي الحبيب، (2019).

(144) انظر التفاصيل الحملة في، الجموسي الحبيب، (2019)، ص 135-181.

من الصراع القائم بين قريتي «جارة» و«المنزل» سببا للاختلاف بين معارضين ومساندين لدخول الجيوش الفرنسيّة. فحسب Vuillier «لم يُظهر سكان جارة أيّ عداوة ضدّنا (الفرنسيّين)، بينما أجبر الجيش الفرنسي على قصف المنزل التي لا يفصلها عن جارة إلا واد صغير، ولا تزال آثار هذا القصف بارزة إلى يومنا هذا (بداية سنة 1882)»⁽¹⁴⁵⁾.

بيد أنّ الأرشيفات التونسيّة المتمثّلة في مراسلات «عامل الأعراض» والمصادر الفرنسيّة نفسها والمتمثّلة في تقارير القادة العسكريّين، تؤكّد مقاومة أهالي قابس للهجوم العسكريّ منذ أوّل وهلة وتواصلت عدّة أشهر. فحسب الدراسة التي قدّمها الطالب Bataille في رسالة تخرّجه من المدرسة العسكريّة Saint Cyr⁽¹⁴⁶⁾ «تحرك أهالي قابس ضدّ الحملة العسكريّة الفرنسيّة قبل محاصرة المدينة يوم 24 جويلية. ففي 20 جويلية «عند الإعلان الرسمي على سقوط صفاقس قامت، مجموعة من السكان بحرق مقر الشركة العامة للنقل البحري... وكان الأميرال Garnault، قائد القوات البحريّة في خليج قابس، وحسب الأوامر التي تلقّاها من القيادة العليا للجيش الفرنسي، قد أرسل الباخرة Le Desaix يوم 19 جويلية لتدارس الوضع في مدينة قابس وأرسل مُحاورا عربيا هدّده المتظاهرون بالقتل، وعادت السفينة مساء إلى صفاقس...». وقرّر وزير الحربيّة الفرنسي احتلال قابس في برقيّة وجّهت إلى الأميرال، أبرز ما جاء فيها: «... ضع تحت تصرّف القبطان Jamais كل الإمكانات لاحتلال قابس وجربة بكلّ قوة، تدعّمه في ذلك كلّ البحريّة... نحن لا نؤمن بالمقاومة، وإن ألزم الأمر اصطحبّ مراكب صغيرة ومسطبات... فاكسح قابس أمر ضروري وسريع»⁽¹⁴⁷⁾.

وحسب شهادة القائد العسكر Le Bœuf، اعترضت البواخر الفرنسيّة القادمة من صفاقس يوم 24 جويلية 1881 مقاومة الأهالي الذين تجمهروا على السواحل حيث نصبوا المدافع، إلّا أنّهم لم يتمكنوا من مقاومة قوة الأسلحة المتطوّرة، إذ «سرعان ما تفرّق الجمع أمام قذائف بواخرنا لتسمح بنزول البحّارة الرّماة. وتمكّن طاقم الباخرة Léopard من الاستحواذ على مدفعين نصبهما الأهالي على الضفة اليسرى من مصبّ الوادي بينما سيطرت السريّات الأخرى على القشلة ونُصبت بطاريّات من أربعة مدافع شرعت في رمي قرية المنزل بمختلف أنواع القنابل... وتوغّل طابور صغير مسلح عبر الأنهج حيث وجد نفسه وجها لوجه مع الفرسان المتمرّدين الذين كانوا محتشدين على أهبة القتال... وانطلق قتال ضاري من الجهتين... وانتشر المدافعون على سطوح المنازل

(145) Vuillier G. (1896), p. 190.

(146) Bataille L.-V. (1923), p. 30.

(147) Bataille L.-V. (1923), p. 30.

وأمطروا المجموعة الصغيرة من الجنود بوابل من الرصاص حيث جرح منهم خمسة... فقرر الملازم أول Brem نفس المبنى... وتضاعف عدد المقاومين بمساندة البدو القادمين من خارج المدينة مما أجبر القوات الفرنسية على التراجع، ليعود الهجوم ثانية بتدخل «البواخر الحربية بقنبلة المتمردين»⁽¹⁴⁸⁾.

وحسب التقرير الذي رفعه عامل الأعراض إلى الوزير الأول، بتاريخ 31 أكتوبر 1881، تواصل «العصيان بطلق البارود من أهل المنزل... على العساكر المتمركزين بجارة ليلا ونهارا فكافأهم العساكر بطلق البارود وبعدد 8 من البونبات على بلد المنزل وحواليها...»⁽¹⁴⁹⁾.

الخاتمة

ماذا نستنتج من مجمل قراءتنا لهذه المصادر؟ أي ماذا تضيف هذه المصادر الغربية للمعرفة التاريخية حول منطقة الجنوب الشرقي التونسي خلال الفترة الحديثة تحديداً؟

تتمحور استنتاجاتنا في ملاحظات ثلاث:

1/ لقد حرص الرحالة الأوروبيون حرصا شديدا على التمهّص والتدقيق كـ«رحالة/مشاهدين» من ناحية و«أدباء» من ناحية ثانية. فهم يتميّزون عن غيرهم من الكتّاب بصفتهم شهود عيان لما يعرضونه في صفحات آثارهم من أحداث ومشاهد عايشوها على أرض الواقع. وهم بالتالي يرغبون بما يقدمونه من مادة إخبارية إلى قرائهم في الارتقاء إلى مصاف «النزهاء» من المخبرين معتمدين كل السبل لإقناعهم بحقيقة ما يعرضونه عليهم خاصة وأنهم قد عاينوا عن كثب ما يقومون بوصفه وعايشوا الأحداث التي يُعنون بسردها بكل تفاصيلها. ويقدمون مادتهم في شكل سردي يريدونها في ساحق الأحيان أدبا طريفا وفريدا من نوعه ينأى عما هو دارج في عصرهم، بل عما يكتبونه هم أنفسهم في كتاباتهم الأدبية العادية.

لذا، أضحت هذه الآثار، إلى جانب كونها نصوصا ذات خصوصيات أدبية، تمثل بالنسبة لنا مصدرا من مصادر البحث التاريخي بل ربّما المصدر الأساسي في بعض الأحيان لكتابة التاريخ الاجتماعي للمنطقة خلال الفترة الحديثة، نعتمدها لتدعيم ما قد نعثر عليه في كتابات المؤرخين والمخبرين التونسيين وما تتضمنه الأرشيفات المتعلقة بهذه الفترة. فقد أتت هذه المصادر

(148) منصر عدنان وعميرة عليّة الصغير، (2005)، ص 74.

(149) منصر عدنان وعميرة عليّة الصغير، (2005)، ص 32.

بدقائق الأخبار عن نمط عيش السكان وتحديدًا عن النمط البدوي للقبائل المنتشرة داخل هذه المنطقة والعلاقات بينها.

2/ دُعِمت هذه المصادر صورة الترابط بين المنطقة الساحليّة وظهير خليج سرت من حيث التواصل الجغرافي والتكامل الاقتصادي وإن كان هذا الارتباط ينم عن تناقض بين نمطي عيش «قبلي» من ناحية و«حضري» من ناحية أخرى. ذلك ما لم يكن واضحًا في مصادرنا الأرشيفيّة والأدبيّة المحليّة. فقد ركّز جلّ رحالة الفترة الحديثة على سلاسة تنقل الأشخاص والمبادلات التجاري بين سواحل المنطقة ودواخلها، مما خلق من منطقة سرت أو خليج قابس متكاملة في امتدادها ما بين سواحلها ومنطقة الجريد بما في ذلك المناطق الصحراويّة الممتدّة. وأصبحت بالتالي تلعب دور الوساطة بين العالم المتوسطي والمناطق الداخليّة التونسيّة والجنوب صحراويّة (subsaharienne).

3/ لعلّ هذه الخصوصيّات الطبيعيّة لمنطقة تمتدّ على مساحات هائلة تربط بين الصحاري والسواحل أهّلت سكّانها للشعور بحريّة مطلقة للعيش داخل فضاء جغرافيّ وبشريّ شبه منعزل عن بقيّة البلاد التونسيّة، بل ولّد فيهم شعورًا بالاستقلال عن الحكم المركزي الذي كان على امتداد العصور يفرض عليهم الرضوخ لسلطته بدفع الضرائب والمجّابي بشتّى أشكالها. وأضحت منطقة مستعصية ترفض أي شكل من أشكال الامتثال لعمّال السلطة المركزيّة وذلك إلى حدود الاستعمار الفرنسي.

البليوغرافيا

منشورات التعاضدية العمالية للطباعة
والنشر، صفاقس.

غانم عماد الدين (2008)، في رحاب
طرابلس وتونس مع الرحالة الألماني
البارون هينريش فون مالتزن عام
1869، طرابلس 2008.

ليسير فتحي. (1998)، قبائل أقصى
الجنوب التونسي تحت الإدارة
العسكرية الفرنسية: نجع ورغمة
نموذجاً 1881-1939، منشورات التميمي
للبحث العلمي والمعلومات، زغوان.

مقديش محمود (1988)، نزهة الأنظار في
عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي
الزواوي ومحمد محفوظ، دار الغرب
الإسلامي، بيروت، ج 2.

منصر عدنان وعميرة عليّة الصغير،
(2005)، المقاومة المسلحة في تونس،
ج 1، (1881-1939)، جامعة منوبة، المعهد
الأعلى للحركة الوطنية.

باللغات الأجنبية

Baldwin & Gradock, Londres, Juillet
1836, [http://mitidja.free.fr/cartes/
tunisie_1836.htm](http://mitidja.free.fr/cartes/tunisie_1836.htm).

Bataille L.-V. (1923), *L'expédition de
Tunisie (1881-1883)*, Mémoire,
Ecole de Guerre Navale.

Cherif M.H. (1980), « Les
mouvements paysans dans la
Tunisie du XIX^e s. », in *Revue
de l'Occident musulman et la
Méditerranée*, n° 30, 2^{ème} sem.

Chater K. (1984), *Dépendance et
mutations précoloniales : La
Régence de Tunis de 1815 à 1857*,
Tunis.

باللغة العربية

ابن أبي دينار القيرواني محمد بن قاسم
(1967)، المؤنس في أخبار إفريقيا
وتونس، تحقيق أ. د أحمد الباهي، دار
سحنون للنشر والتوزيع، تونس 2025.

ابن أبي الضياف أحمد (1989)، إتحاف
أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد
الأمان، تحقيق أحمد الطويلي، الدار
التونسية للنشر، تونس.

الباهي مبروك (2005)، القبيلة في تونس
في العهد الحديث (ق 61 ق 91): من
بداوة الجمل إلى بداوة الخروف والحوز،
السياست الوسطى مثالا، منشورات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس.

التيجاني محمد بن أحمد (1985)، رحلة
التيجاني، تقديم حسن حسني عبد
الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس.

الجموسي الحبيب (2015)، « البدو والبادية
في تونس الحديثة من خلال آثار الرحالة
الأوروبيين»، الجمعية المصرية للدراسات
التاريخية، أعمال الندوة العلمية «البدو
والبادية في الوطن العربي»، نشر دار
المعارف، ج 1، القاهرة.

الجموسي الحبيب، (2019)، صفاقس في
عيون الآخرين: نماذج من شهادات
الرحالة الأوروبيين خلال الفترة
الحديثة، مكتبة علاء الدين، صفاقس
2019.

الفندري منير (2003)، طبيب المحلة، البلاد
التونسية فيما بين 1863-1868، من
خلال رسائل الطبيب الألماني غوستاف
نختغال، مركز النشر الجامعي، تونس.
عبد الكافي أبو بكر (1966)، تاريخ
صفاقس: الحياة العمرانية، ج 1،

- Rousseau A. (1864), *Les Annales Tunisiennes*, Bastide, Alger.
- Servonnet J., Laffite F. (1888), *En Tunisie, Le golfe de Gabès en 1888*, Paris.
- Shaw T. (1743), *Travels observations relating to several parts of Barbary and Levant*, t.1, Oxford
- Valensi L. (1967), « Esclaves chrétiens et esclaves noirs à Tunis au XVIII^e siècle ». A.E.S.C, 22^{ème} année, N. 6, p. 1267-1288 ; URL, https://www.persee.fr/doc/ahess_0395-2649_1967_num_22_6_421864
- Vuillier G. (1896), *La Tunisie illustrée*, Tours.
- Percée : https://www.persee.fr/doc/phlou_0776-555x_1923_num_25_97_2334
- Ganiage J. (1956), *Les origines du protectorat français en Tunisie, 1861-1881*, P.U.F, Paris.
- Ganiage J. (1966), « La population de la Tunisie vers 1860 : Essai d'évaluation d'après le registres fiscaux », in *Population*, revue de l'institut national d'études démographiques, n° 5 (septembre-octobre), Paris.
- Guerin V. (1862), *Voyage archéologique dans la Régence de Tunis*, Plon, Paris.
- Jamoussi H. (2008) « Les archives paroissiales, une source d'histoire régionale et locale : les archives paroissiales de Sfax comme exemple », *Recherches sur l'histoire des villages en Tunisie*, publications de la Faculté des Lettres et sciences humaines de Sfax, unité de recherche « Villages et communautés rurales en Tunisie (VICORT).
- Kennedy C. (1846), *An account of journey mad thought the tow*
- Chauvey M. (1876), « La ville de Sfax et les îles de Kerkena (Tunisie) : Topographie, climat et commerce de Sfax (Tunisie) et des îles de kerkena », *L'Explorateur, Journal géographique et commercial*, N°74, 6 juillet 1876.
- Cuoq J. (1983), *Venture De Paradis, Tunis et Alger au XVIII^e s.*, Paris.
- De La Malle D. (1838), Peyssonnel et Desfontaines, *Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger*, t1, Jean André Peyssonnel, *Relation d'un voyage sur les côtes de Barbarie fait par ordre du Roy en 1724-1725*, Paris, librairie de Gide.
- De La Malle D. (1838), Peyssonnel et Desfontaines, *Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger*, t. 2, *Fragmens d'un voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger fait de 1783 à 1786*, Louiché René Desfontaines, Paris, librairie de Gide.
- Des Arcs A. (1889), *Mémoires pour servir à l'histoire de la mission des Capucins dans la Régence de Tunis (1824-1865)*..., Rome.
- Depois J. (1933) « Les déplacements de villages dans le Djebel Neffoussa », in *R.T*, N° 15-16, 3^{ème} tri.
- Duveyrier H. (1881), *Tunisie*, Paris.
- Espina A. (1853), « Notice statistique sur le Caïdat de Sfax », *Revue de l'orient de l'Algérie et des Colonies*, XIII, Paris.
- Finotti G. (1856), *La reggenza di Tunisi considerata nei suoi rapporti geografici-storici-archeologici-idrografici-commerciali-agricoli-statistici*, Malte.
- Marcel J.-J (1850), *Histoire de Tunis par J.J Marcel, précédée d'une description de cette Régence par le D^r Louis Frank*, Paris.

- Regencies by Viscont Feilding and captain Kennedy*, t. 2, London.
- L'Africain L. (1830), *De l'Afrique, Contenant la description de ce pays, Contenant la description de ce pays par Léon l'Africain...* traduction Jean Temporal, t. 2, Paris.
- Lallemand C. (1892), *La Tunisie pays de protectorat français*, Paris, Imprimeries May & Motteroz.
- Le Bœuf Commandant. (1907), « Historique de la conquête pacifique des territoires militaires de Tunisie », *R.T.*, janvier 1907, p. 112-128.
- Marmol C. (1667), *L'Afrique de Marmol*, traduction Nicolas Perrot d'Ablancourt, 1.2, Thomas Jolly, Paris.
- Mayet V. (1887), *Voyage dans le Sud de la Tunisie*, Paris.
- Maquart Cap. (1937), « Etude sur la tribu des *Haouaïa* (territoire de Médnine) », *R.T.*, n° 30, 1^{er} tri. 1937, p. 253-297.
- Monchicourt C. (1929), *Documents historiques sur la Tunisie. Relations inédites de Nyssen, Filippi et Calligaris (1788, 1829, 1834)*, Paris.
- Pellissier E. (1853), *Description de la Régence de Tunis*, Paris.
- Rebatel et Tiran (1923) « Voyage dans la Régence de Tunis par MM. Les D^r Rebatel et Tiran, effectué en 1874 » *Nouvelles annales des voyages de la Géographie et de l'Histoire*, Paris.
- Rebillet (commandant) (1895), *Les Relations commerciales de la Tunisie avec le Sahara et le Soudan*, Nancy.

موانئ سرت الكبرى وتجارة النفط (1958-1990 م) «السدر، رأس لأنوف والبريقة نموذجا»

سمية سالم الشعالي وسالم الصغير اصنان⁽¹⁾

مُلخَص

تُعتبر الموانئ من المرافق الحيوية للدولة، حيث تشكل المنفذ الأساسي للتجارة الخارجية. وقد أسهم اكتشاف احتياطات كبيرة من النفط في تحول البلاد إلى مصدر رئيس له، مما أدى إلى تحسين الاقتصاد وتطوير الموانئ. وتكمن أهمية هذه الدراسة إلى تحليل دور الموانئ النفطية في التحول الاقتصادي بعد اكتشاف النفط، كما تهدف إلى استكشاف نشأة وتطور الموانئ النفطية عبر الفترات المختلفة، قبل وبعد اكتشاف النفط.

الكلمات المفتاحية: سرت الكبرى - موانئ نفطية - الهيكلية الإدارية والتنظيمية - موانئ السدر، رأس لأنوف.

Greater Sirte Ports and Oil Trade (1958-1990): A Case Study of Sidra, Ras Lanuf, and Brega

Abstract

Ports are considered vital facilities for the state, as they represent the primary outlet for foreign trade. The discovery of significant oil reserves has transformed the country into a major source of oil, leading to improvements in the economy and the development of ports. The importance of this study lies in analyzing the role of oil ports in the economic transformation following the discovery of oil. Additionally, it aims to explore the origins and development of oil ports over different periods, both before and after the discovery of oil.

Keywords: Greater Sirte, oil ports, administrative and organizational structure, ports of Sidra, Ras Lanuf.

(1) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة سرت.

المقدمة

تُعَدُّ الموانئ من المرافق الحيوية في الدولة، حيث تمثل المنفذ الأساسي للتجارة الخارجية، فقد كانت ليبيا قبل اكتشاف النفط تعاني من ظروف اقتصادية صعبة، إلا أن اكتشاف احتياطات ضخمة من النفط أدى إلى تحول البلاد إلى مصدر رئيس لهذا المنتج، مما أسهم في تحسين الاقتصاد الوطني وتطوير الموانئ، وتعتبر موانئ البريقة والسدرة ورأس الأنوف العمود الفقري للتجارة النفطية، وذلك بفضل موقعها الجغرافي القريب من حقول النفط.

أهمية الدراسة

تتجلى أهمية الدراسة في تحليل دور هذه الموانئ في التحول الاقتصادي الذي شهدته ليبيا بعد اكتشاف النفط، مما يعكس الأثر الكبير للموارد الطبيعية على النمو الاقتصادي في البلاد.

الهدف من الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف نشأة وتطور الموانئ النفطية عبر الفترات المختلفة، سواء قبل أو بعد اكتشاف النفط.

إشكالية الدراسة

1. كيف نشأت وتطورت الموانئ النفطية؟
2. هل كان لها نشاط تجاري ملحوظ قبل اكتشاف النفط؟
3. ما الخطط التشغيلية المعتمدة في الموانئ التجارية النفطية؟
4. هل أسهمت الهيكلية الإدارية للموانئ في تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية؟
5. ما الدور الذي لعبته الموانئ في التجارة الداخلية والدولية؟

خطة الدراسة

ستتضمن هذه الدراسة شقين شق نظري وشق ميداني لدراسة الموانئ النفطية الواقع خلال نطاق الموانئ، وفيما يخص الشق النظري، تم تحديد المباحث الآتية:

- I- نشأة وتطور موانئ سرت الكبرى ما قبل 1958م.
- II- تطور موانئ سرت الكبرى بعد اكتشاف النفط 1958-1990م.
- 1- تطور نشاط الموانئ بين 1958-1990م.
- 2- دور نشاط النفط في تطور البنية الاقتصادية والاجتماعية «البريقة، السدرة، رأس لأنوف».

I. نشأة وتطور موانئ سرت الكبرى ما قبل 1958م

تُعدُّ دراسة نشأة الموانئ وتطورها قبل اكتشاف النفط مهمة للغاية، حيث يرتبط تاريخ الموانئ ارتباطاً وثيقاً بالموقع الاستراتيجي للبلاد ونشأة الملاحة وتطورها. فمع ازدهار الملاحة وزيادة عدد وحجم السفن، شهدت الموانئ تطوراً متزامناً. ومع ظهور موانئ جديدة، تم تحديث الموانئ القديمة لتصبح قادرة على استيعاب السفن الحديثة والعملاقة. بناءً على ذلك، قررنا تقديم عرض تاريخي للموانئ خلال الفترة من 1951 إلى 1958.

75

كان الاقتصاد الليبي يعاني من الفقر حتى بعد الاستقلال؛ وذلك بسبب الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الثانية فكان أثر ذلك كبير، فاعتمدت خزانة الدولة بعد الاستقلال على المساعدات المالية التي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، مقابل تواجد قواعدها الجوية والبحرية بالأراضي الليبية، ولهذه الفترة التي سبقت اكتشاف النفط لم تشهد أي تطوير للموانئ الليبية، ومع اكتشاف النفط في أواخر الخمسينيات تطلب إنشاء موانئ جديدة لم تكن معروفة مسبقاً، وتتميز هذه الموانئ ببعض الخصائص التي جعلها مختلفة عن الموانئ التقليدية، منها: صغر الحجم، وقلة منشآتها وأرصفتها، ومن هذه الموانئ «ميناء البريقة، وميناء السدرة، وميناء رأس لأنوف»⁽²⁾.

لقد شهدت الموانئ خلال فترات تاريخية بعض النشاط التجاري قبل اكتشاف النفط، ومنها ما حدث خلال العهد العثماني الثاني حركة تجارية نشطة مع الدولة الأوروبية، وكانت معظم عمليات الشحن والتفريغ تتم بمينائي طرابلس الغرب وبنغازي، وعبر هذين المينائين كان يتم تصدير الكثير من البضائع، مواد محلية وأفريقية قادمة من الدول المجاورة أهمها «ريش النعام والعاج، والجلود المدبوغة وغير المدبوغة، والإسفنجة والصوف والسجاد والحصر والملح والشعير، والحمضيات والتمور والحيوانات الحية كالأنعام والماعز والخيول والبغال

(2) غانم، شكري، 1958 م، ص 139.

والحمير»⁽³⁾. وانحصرت صادرات مينائي الخمس وزليتن في تصدير نبات الحلفاء مع بدايات عام 1868 م حتى عام 1888 م، ما بين 60-70 ألف طنّاً في السنة، معظم هذه الكمية تُصدر إلى إنجلترا، كما تصدر موانئ كل من زوارة ومصراتة وسرت ومرسي سوسة ودرنة الحبوب والقمح، أما واردات الموانئ الليبية تمثلت في الملابس والمنسوجات القطنية والصوفية والحريية والحديد والأخشاب والآلات، وسائر البضائع المصنعة، والمواد الغذائية، كالأرز والدقيق والسكر والشاي والقهوة إضافة إلى الأسلحة والتبغ والخمور⁽⁴⁾.

كما تم تطوير وتجهيز بعض الموانئ ببعض المعدات البحرية والبرية، لتواكب التطور الذي شهده النقل البحري، وأهم هذه المعدات هي الرافعات البرية والموانئ، التي تساعد في رسو السفن الكبيرة، مما أدى إلى استخدام الموانئ في شحن وتفريغ البضائع من السفن الراسية في البحر المفتوح أمام الموانئ⁽⁵⁾.

وقد حظيت الموانئ أثناء الاحتلال الإيطالي بعناية كبيرة؛ نظراً لاعتمادهم الكلي عليها في عمليات النقل العسكري بسبب الوضع السيئ التي كانت عليه الطرق البرية، وخشيتهم من العمليات الفدائية التي يقوم بها المجاهدون ضد قواتهم، فقد قام الإيطاليون بتنفيذ سلسلة من الأعمال لتطوير مينائي طرابلس وبنغازي، وتحويلهما إلى موانئ كبيرة ابتداء من عام 1913 حتى عام 1941 م بتكلفة قدرها 2.7 مليون، كما قاموا ببناء رصيفين بميناء درنة أحدهما بطول 350 م والآخر بطول 100 م⁽⁶⁾.

كما أنشئ رصيفاً في خليج طبرق وعدداً من الموانئ الصغيرة، في كل من زوارة والخمس وزليتن ومصراته وبويرات الحسون وسلطان، والبريقة ورأس الهلال وسوسة⁽⁷⁾.

وبتنفيذ شبكة الطرق في الثلاثينيات من هذا القرن فقدت الموانئ الصغيرة أهميتها، حيث أصبح النقل بالسيارات هو أهم وسيلة للنقل الداخلي، ومن خلال الحرب العالمية الثانية تعرضت بعضها الموانئ لأضرار بالغة بسبب العمليات الحربية بين القوات المتحاربة، فقد تعرض الرصيف الخارجي لميناء بنغازي لكثير من الدمار، بفعل البحر ونتيجة للعمليات الحيوية والبحرية خلال الحرب، ومما سارع في حدوث الدمار، فظهرت عيوب كانت قائمة في تصميمه

(3) كاكيا، أنتوني، 1975 م، ص 148.

(4) كورو، فرانيسكو، 1984 م، ص 70.

(5) روسي، اتوري، 1991 م، ص 493.

(6) المهدي، 1990 م، ص 388.

(7) شريف، عبد العزيز طرح، 1963 م، ص 598.

الأصلي، رغم ذلك استمرت الحركة الملاحية بالميناء الأوسط بعد انتهاء الحرب، والذي كان يعاني من عيبين رئيسيين:

أولهما: أنه يتعذر وصول السفن إليه أثناء هبوب العواصف.

ثانياً: أنه لا يستقبل سفناً بغاطس يزيد عن 14.5 قدماً حوالي 5 م⁽⁸⁾.

كما قلّت الحركة الملاحية ببعض الموانئ شرق البلاد بسبب إغراق السفينة الإيطالية بميناء درنة بحمولتها، بسبب المرتفعات بالميناء في عام 1940 م إضافة لتعرض ميناء طبرق لأضرار جسيمة، بسبب القصف الجوي والبحري أثناء الحرب وأغرقت في خليج طبرق 121 قطعة بحرية، وأصبح الميناء غير صالح للملاحة، وبعد الحرب العالمية الثانية صُنّف الميناء من ضمن الموانئ الصغيرة المهمة⁽⁹⁾.

بأن الموانئ تأثرت بالأوضاع السياسية والاقتصادية، التي خلفتها الحرب وأثر ذلك على اقتصاد البلاد المتدني الذي اعتمد على المساعدات الخارجية بعد الاستقلال، حيث لم تشهد الموانئ أي تطور، باستثناء بعض عمليات التطهير والإصلاح لبعض الموانئ وبرز موانئ نفطية بعد الاستقلال، مثل: ميناء البريقة والسدرية ورأس لانوف، وسنوضح ذلك لاحقاً خلال هذه الدراسة.

II. تطور موانئ سرت الكبرى بعد اكتشاف النفط 1958-1990 م «البريقة، السدرية، رأس لانوف»

1. تطور نشاط الموانئ بين 1958-1990 م «البريقة، السدرية، رأس لانوف»

بعد اكتشاف النفط، شهدت ليبيا تحولاً جذرياً من وضع اقتصادي متدهور إلى تحسن ونمو سريع. واتضح أن البلاد تمتلك احتياطات هائلة من الذهب الأسود، ممّا جعل النفط عماد الاقتصاد الليبي، وبفضل هذا المورد تغيرت إمكانيات البلاد، وبدأت تدريجياً في الخروج من دائرة الفقر والمساعدات الأجنبية نحو الاعتماد على صادراتها.

يعود اكتشاف النفط في ليبيا إلى تمكين كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية بعد قيام المملكة الليبية، من الحصول على حق إنشاء قواعد عسكرية في ليبيا، وفي عام 1956 م مُنحت أول امتيازات التنقيب عن النفط للشركات الأجنبية، وفي عام 1959 م تم الإبلاغ عن أولى المحاولات الناجحة في التنقيب، وذلك عند اكتشاف حقل زلطن النفطي، وهو من أكبر الحقول في البلاد بواسطة شركة اسو ليبيا⁽¹⁰⁾، سعت شركة اسو التي سميت لاحقاً باسم

(8) أبو مدينة، حسين مسعود، 2008 م، ص 122.

(9) عز الدين، فاروق كامل محمد، 1976 م، ص 317.

(10) صناعة النفط قبل عام 1969 م، بتاريخ 30 يناير 2013 م، www.countriesguest.com

اكسون بالتتقيب عن النفط بشكل متوالي، وبدأ أصحاب الامتياز بتسريع التنمية الاقتصادية التي عادت نسبة أرباحها 50 % للحكومة الليبية على شكل ضرائب، وتكمن مزايا النفط الليبي في الجودة، وقد ساعد التقارب بين ليبيا وأوروبا بعمل صلة مباشرة إليها عن طريق البحر، وهو من مزايا التسويق المفيدة حول اكتشافه، واستغلال هذا البلد الفقير ذو الكثافة السكانية المنخفضة إلى بلد غني ومستقل يمتلك إمكانيات واسعة النطاق للتنمية، وقد شكلت تلك الفترة نقطة تحول رئيسة في التاريخ الليبي⁽¹¹⁾. وباكتشاف البترول وبكيميائاته تجارية، تبدأ عمليات ما بعد الاستكشاف ومن أهمها تطوير الحقول البترولية، وذلك بحفر مزيد من الآبار للتأكد من توفير كميات كافية، تجعل من هذا الحقل حقلاً تجارياً يتوقع أن يغطي إيراداته المعيارية التي تتطلبها إقامة منشآت نفطية في الحقل لفصل النفط عن الغاز والماء، فتم إنشاء المضخات اللازمة ومد شبكات الإيصال، بعد اختيار مسار خط الأنابيب ثم يتم إقامة الأنابيب التي ستنتقل النفط إلى موانئ التصدير، وفي كثير من الأحيان يحتاج الأمر إلى إقامة مرفأ بترولي، فأنشئت عدة موانئ للتصدير منها في مرسى البريقة بتاريخ 12 سبتمبر 1961 م، وميناء السدرة بتاريخ 25 نوفمبر 1962 م، كما قامت شركة موبيل بعد حوالي 17 عام بالعمل في إنشاء ميناء رأس لأنوف وأفتتح بشهر أبريل 1979 م⁽¹²⁾. ومن خلال الجدول التالي سنوضح عدد الآبار التي تم اكتشافها «الحفر» خلال عامي 1961-1965 م، وعدد الآبار التي أكدت فيها اكتشاف النفط بكميات كبيرة وعدد آبار المنتجة للغاز وسنوضح من خلال ذلك جدول رقم (1) والرسم البياني رقم (1-2) كالاتي:

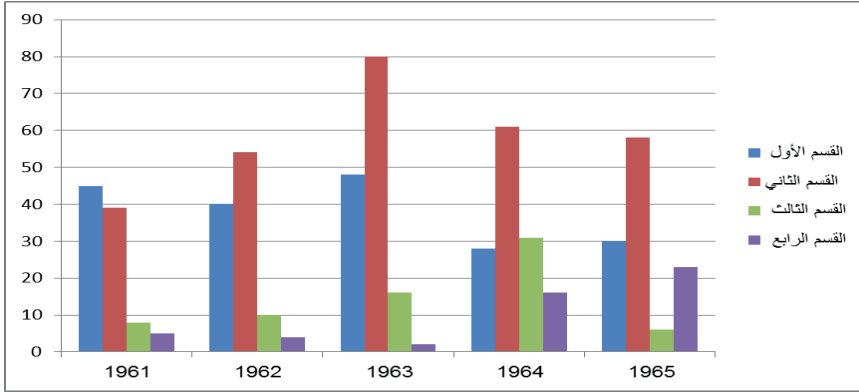
جدول رقم (1): استكشاف الآبار «الحفر» 1961-1965 م

القسم استكشاف تطوير	1961	1962	1963	1964	1965
القسم الأول استكشاف	45	40	48	28	30
تطوير	73	42	76	62	52
القسم الثاني استكشاف	39	54	80	61	58
تطوير	54	74	121	18	142
القسم الثالث استكشاف	8	10	16	31	6
تطوير	2	6	12	21	41
القسم الرابع استكشاف	5	4	2	16	23
تطوير	1	-	2	4	8

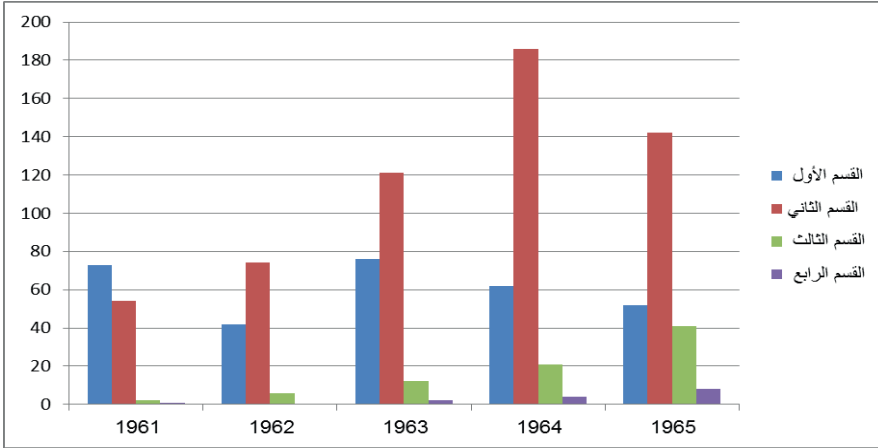
(11) ويكيديا، المملكة الليبية، بتاريخ 6 يونيو 2019 م، www.ar.wikipedia.org.

(12) غانم، 1995 م، ص 707.

رسم بياني رقم (1): استكشاف الآبار «الحفر» 1961-1965 م



رسم بياني رقم (2): تطوير الآبار 1961-1965 م

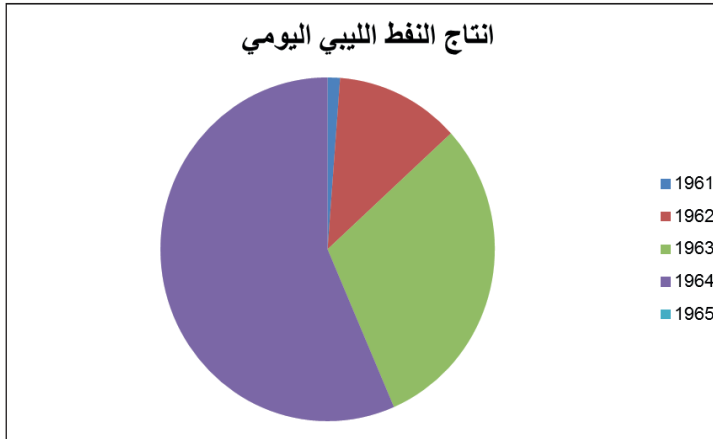


خلال الفترة من 1961 إلى 1965، يمكننا أن نلاحظ أنها كانت فترة استكشاف مستمرة أكدت وجود كميات كبيرة من النفط في مناطق مختلفة من البلاد. ففي عام 1961، تم حفر 97 بئراً استكشافياً، أسفر عن اكتشاف حوالي 18 بئراً نفطياً. وفي عام 1962، تم اكتشاف 22 بئراً منتجة من أصل 109 آبار حُفرت. أما في عام 1963، فقد تم اكتشاف 13 بئراً منتجة من بين 146 بئراً. وفي عام 1965، وُجد 10 آبار منتجة للغاز، بالإضافة إلى 6 آبار في عام 1964، وبئر واحد في عام 1963.

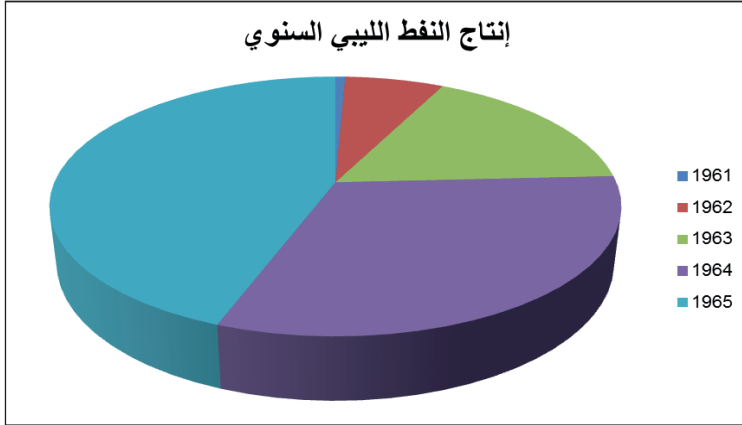
أما بالنسبة للآبار التطويرية، فقد تم حفر 130 بئراً في عام 1961، منها 98 بئراً منتجة. وفي عام 1962، حُفرت 122 بئراً، 84 منها كانت إنتاجية. وفي عام 1963، تم حفر 211 بئراً تطويرياً، 133 منها كانت منتجة. وفي عام 1964، تم إنتاج 213 بئراً من أصل 273 بئراً، بينما في عام 1965، أنتج 195 بئراً من بين 243 بئراً. سيتم توضيح الإنتاج اليومي والسنوي بالبرميل من 1961 إلى 1965 من خلال الجدول رقم (2) والرسم البياني رقم (3-4).

جدول رقم (2): إنتاج النفط الليبي 1961-1965 م⁽¹³⁾

السنة	الإنتاج اليومي بالآلاف البرميل	الإنتاج السنوي بالآلاف البرميل
1961	18.3	6.642
1962	183.9	67.133
1963	463.6	169.235
1964	864.7	315.622
1965	1.220.2	445.374



رسم بياني رقم (3): لإنتاج النفط الليبي اليومي 1961-1965 م



رسم بياني رقم (4): إنتاج النفط الليبي السنوي 1961-1965 م

يمكننا أن نستنتج أن ليبيا بدأت في إنتاج أكثر من مليون برميل من النفط لأول مرة في عام 1965. خلال هذه الفترة، طرأت تغييرات على أهمية الشركات النفطية. حيث كانت شركة «ستاندارد» هي الأولى في اكتشاف النفط وإنتاجه، وظلت في المركز الأول بين الشركات المنتجة حتى عام 1964. في المقابل، احتلت شركة «أويس» المركز الثاني في إنتاج النفط حتى عام 1964، ثم انتقلت إلى المركز الأول في عام 1965. أما شركة «أسو سرت»، فقد كانت في المركز الثالث بين عامي 1963 و1964، لكنها تراجعت إلى المركز الرابع في عام 1965، بينما احتلت شركة «موبيل» المركز الثالث.

وبهذا التطور السريع في الإنتاج أصبحت ليبيا دولة منتجة في الشرق الأوسط وإفريقيا، إذ أصبحت أهم من الجزائر ونيجيريا اللتين بدأ إنتاجهما عام 1958 م، وأهم من قطر وأبو ظبي ومن إندونيسيا، وقارب إنتاجها عام 1965 م إنتاج العراق رغم أن العراق دولة منتجة للبترول منذ عام 1928 م، بذلك تطور إنتاج النفط في ليبيا كان سريع وملحوظ عالمياً. ومع اكتشاف النفط منذ بداية الستينيات، كان لابد لهذه السلعة الجديدة من أخذ طريقها إلى أسواق العالم الخارجية، مما تطلب إنشاء موانئ نفطية جديدة، وتتميز هذه الموانئ ببعض الخصائص التي تجعلها مختلفة عن الموانئ التقليدية منها صغر حجمها، قلة منشآتها، عمق الأرصفة، بعدها عن خط الساحل، الطريق الساحلية (الطريق الأسفلتي)، ولقد كان أحد التطورات الرئيسية بالنسبة للصناعة النفطية في ليبيا في هذه الفترة انضمام ليبيا لمنظمة الدول

المصدرة للنفط «أوبك»، وهذه المنظمة جاءت نتيجة لمؤتمر بغداد الذي انعقد في الفترة الأخيرة ما بين 10-14 سبتمبر 1960 م، وكان الزعيم عبد الكريم قاسم قد دعا إلى هذا المؤتمر لعدة أسباب وأهمها:

- تخفيض الأسعار التي تقوم بها الشركات الكبرى منذ الحرب العالمية الثانية وقبل عام 1950 م.

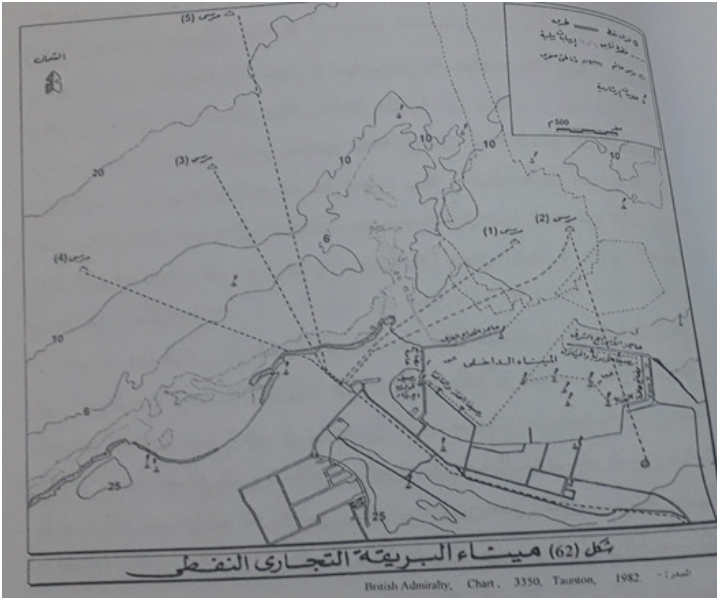
قد استخدمت الشركات عدة حجج لتخفيض الأسعار من بينها ازدياد عرض النفط في العالم، نتيجة الاكتشافات الجديدة في ليبيا، والجزائر، ونيجيريا، وزيادة إنتاج الشرق الأوسط، أنظمت ليبيا لمنظمة الدول المصدرة للبترول الأوبك في أبريل 1962 م، ومنذ البداية كانت هناك توافق وتناقص بين ليبيا والدول الأخرى التي سبقتها في عضوية المنظمة، وذلك بسبب انخفاض الأسعار المعلنة، ودخول ليبيا للسوق العالمي وبيعها للنفط بأسعار منخفضة. من أهم الموانئ التي سنقوم بتوضيح تطورها بعد اكتشاف النفط هي:

1. ميناء البريقة النفطي والتجاري 1961/10/25 م

مرسى البريقة أو ميناء البريقة وهي تعد منطقة صناعية نفطية ليبية تقع في خليج سرت، في أقصى جنوبي البحر المتوسط ويبتعد نحو 600 كم شرق العاصمة طرابلس، وهي تتبع إدارياً مدينة اجدابيا، كانت البريقة عبارة عن سوق صغيرة للمواشي، يجتمع فيه سكان الأرياف المجاورة للذين يعلمون في رعي الأبل والأغنام، وبعد الاحتلال الإيطالي لليبيا حاولت القوات الإيطالية احتلال منطقة البريقة إلا أنها هُزمت في معركة بلال بتاريخ 10/6/1923 م واحتلتها عام 1928 م، فالمنطقة لم تحتوي شيء حتى تم اختيارها كمحطة وصول لأنبوب النفط الواصل من حقل زلطن النفطي في شرق ليبيا الذي يبعد عنها بمسافة 169 كم نحو الجنوب، لتؤسس المنطقة بعد عام 1960 م تقع البريقة على الطريقة السريع المار بين بنغازي وطرابلس وعلى شاطئ خليج السدر.

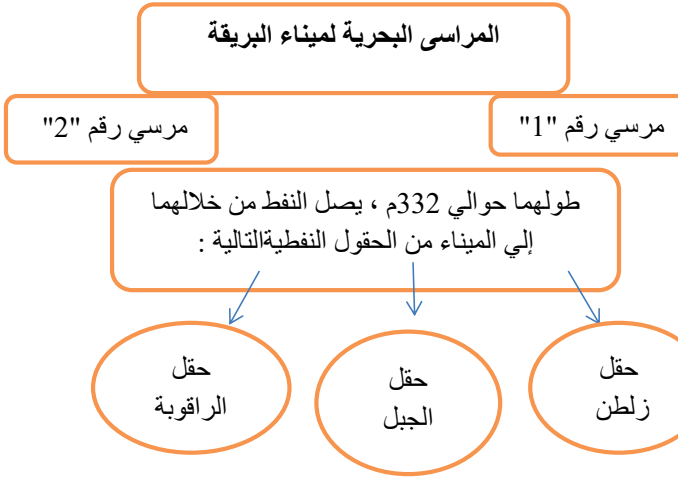
كان مرسى البريقة قبل الحرب العالمية الثانية عبارة عن قرية صغيرة يسكنها حوالي 1500 نسمة، ثم هجرها معظم سكانها أثناء الحرب واكتسب الميناء أهمية كبيرة بعد اكتشاف النفط، هذا ويعد ميناء البريقة أول الموانئ النفطية في ليبيا، الذي قامت بتنفيذه شركة اسواستلندا ESSO الأمريكية لتصدر إنتاجها من حقل زلطن، قد صدرت أول شحنة من النفط الخام عن طريق هذا الميناء بتاريخ 12/9/1961 م، غير أن افتتاحه الرسمي تأخر إلى يوم 25/10/1961 م، وباكتشاف النفط تطور الميناء بشكل ملحوظ وفق البيانات الآتية:

سُمي الميناء بالاسم الرسمي « ميناء مرسى البريقة BREG A PORT MARSA EL، الواقع بين خطي العرض 019.34E، الطول 30.25N، وحُدِّدت منطقة المخطاف الواقع بين خطي العرض 30.28.67 والطول 019.36.15E، وتميز موقع الميناء الواقع جنوب شرق خليج سرت ببناء مرافئ ميزته عن بقية المرافئ الصناعية، فالمرافئ الصناعية عبارة عن مسطحات بحرية محمية من الأمواج والعواصف البحرية، بصورة صناعية عن طريق إنشاءات هندسية تتمثل في حواجز تبدأ من خط الساحل، وتتوغل داخل البحر في اتجاهات تتباين حسب طبيعة وخصائص الميناء المقرر تشغيله، فميناء البريقة ساعدته الظروف الطبيعية على أن يكون مرفئ صناعي بامتياز، وأصبح هذا الميناء أساسياً في تصدير النفط الخام، ثم أدخلت عليه الكثير من الصناعات النفطية، مما ساعد على تطويره من حيث تجهيزه بالأرصفة والحواجز، لكي يقوم بوظيفته الجديدة، فساعد ذلك على تصدير النفط من وإلى حقول الجبل وزلطن والراقوبة، حيث ربط حقلي الجبل وزلطن بخط أنابيب طوله 33.7 م وبقطر 24 بوصة، مخصصة للنفط الخام، ويتصل حقل زلطن بميناء البريقة بواسطة خطي أنابيب طول كل منها 172 كم وبقطر 36 بوصة، وأحدهما مخصص للنفط الخام وآخر للغاز، كما تم ربط حقل الراقوبة بخطي أنابيب زلطن مرسى البريقة.



خريطة رقم (1): ميناء البريقة التجاري النفطي، نقلا عن: أبو مدينة حسين، 2008، ص 311.

أسهم تطور الميناء، بفضل جهود شركة المهندس لودجاني الإيطالية وشركة ستاندارد الأمريكية، في إنشاء عدد من المراسي البحرية، حيث تم تقسيم الميناء إلى قسمين، كما هو موضح في الشكل رقم 1 الآتي:



شكل رقم (1): مراسي ميناء البريقة النفطي

كان عدد الموظفين في الميناء منذ بدايته وحتى عام 1986 حوالي 4 موظفين، ثم ارتفع إلى 2000 موظفاً حتى عام 1990، مما أسهم في تعزيز أهمية توطين الصناعات النفطية في ميناء البريقة. في أوائل عام 1967، وبدأ في إنشاء مصنع لتسييل الغاز الطبيعي بالميناء، وفي عام 1968، وبدأت مصفاة البريقة عملياتها بطاقة تكرير للنفط. كما تم إنشاء ستة مصانع للبتروكيماويات في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، ومن بين هذه المصانع: مصنعين لإنتاج الميثانول، وهما:

- مصنعين لإنتاج الأمونيا.

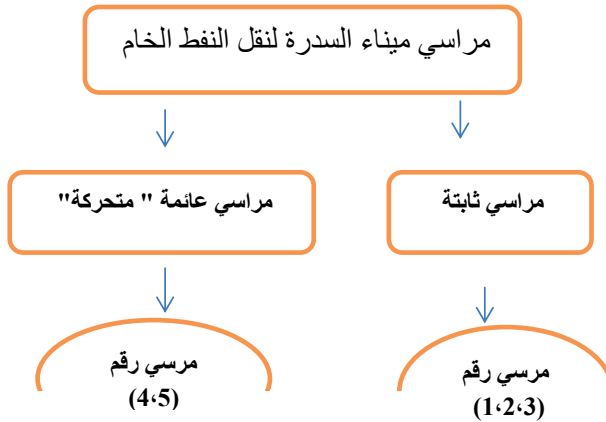
- مصنعين لإنتاج اليوريا.

عملت هذه المصانع على نمو وازدهار مدينة البريقة وضواحيها، كما أنشئ بالبريقة منطقتين سكنيتين تسمى السكنية الأولى والسكنية الثانية وتوجد بها عائلات المستخدمين وكذلك العزاب، حيث تم تنفيذ مئات الوحدات ومرافقها لإقامة العمالة وأهالي المنطقة.

2. ميناء السدرة النفطي 1962/11/25 م

يُعدُّ ميناء السدرة من أوائل الموانئ النفطية في ليبيا من حيث كمية صادرات النفط الخام. يقع هذا الميناء على الساحل الجنوبي لخليج سرت، على بعد 680 كم شرق طرابلس، و20 كم غرب ميناء رأس لانوف. يتكون الميناء من خمس مراسي عائمة تتصل به أنابيب غاطسة تحت البحر لنقل النفط الخام. يستقبل الميناء ناقلات تصل حمولتها إلى 300,000 طنًا، ويبلغ معدل الشحن 44,000 برميلاً في الساعة. كما يوجد على الشاطئ ميناء صغير مخصص لقوارب الإرشاد. وقد أسهمت مجموعة من الشركات في تأسيس هذا الميناء النفطي، ومنها:

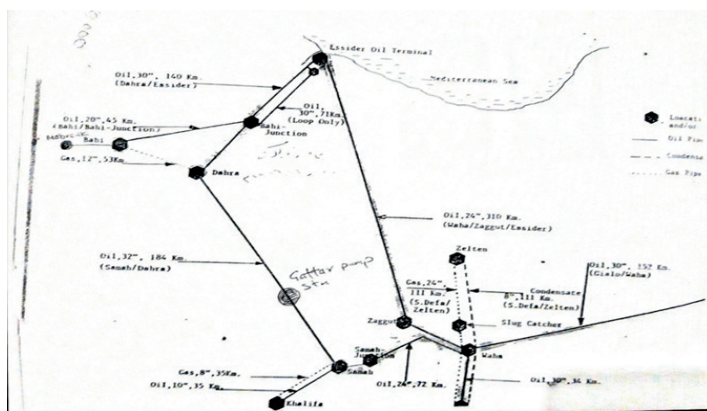
شركة اويزس، وشركة الايمراده، وشركة المترون والكنكو، شركة فيلبس، وشركة والهس. أفتتح الميناء بتاريخ 1962/11/25 م لتصدير أول شحنة من النفط الخام الذي أنتجته الشركة عام 1962 م عبر هذا الميناء إلى الأسواق العالمية، وصلت نسبة الإنتاج لصالح ليبيا إلى 51 % و49 % لصالح الشركات الأجنبية ومع بيع إحدى الشركات حصتها لتتغير النسبة 59 % و41 % لصالح الشركات. ويعتبر ميناء السدرة من أكبر الموانئ الليبية المصدرة للنفط الخام، وهو المجهز ببرجي شحن عائمين قادر على استقبال ناقلات النفط العملاقة التي تزيد عن 2 مليون برميل، ويتم تصدير النفط الخام من حقول تابعة لشركات أخرى عبر أنابيب لخزانات الميناء ومنها لظهر السفينة، ومنها شركتي الهروج والمبروك التابعة مسبقاً لشركة توتال الفرنسية، وقد أنشئ في الميناء عدد خمسة مراسي لنقل النفط الخام من الحقول إلى الميناء ليتم تصديره عبر المراسي الآتية الموضحة بالشكل رقم (2):



شكل رقم (2): مراسي ميناء السدرة النفطي

تُعتبر المراسي رقم (1، 2، 3) مراسي ثابتة تُستخدم لنقل المواد الخام من الحقول إلى الميناء. تعرض المرسى رقم 2 لعطل في عام 1982، مما أدى إلى عرقلة عملية نقل المواد الخام منه. أما المراسي رقم (4 و5)، فهي مراسي متحركة عائمة تتكيف مع الظروف الطبيعية مثل الرياح. كان عدد موظفي ميناء السدرة حوالي 100 موظفًا، وارتفع العدد إلى 300 موظفًا في عام 1990.

كما أسهم عدد من الحقول النفطية والغازية في ضخ النفط الخام والغاز من الحقول إلى الميناء ومن أهم هذه الحقول هي: (حقل الظهر، وحقل جالو، وحقل الواحة، وحقل السماح) الخريطة رقم (2) توضح موقع الميناء والحقول النفطية المغذية له.



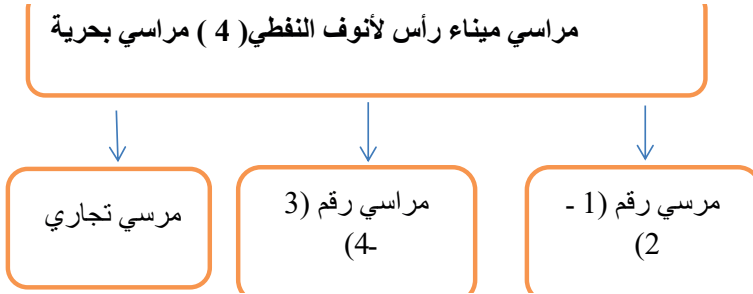
خريطة رقم (2): ميناء السدرة النفطي توضح نقل النفط من الحقول إلى ميناء السدرة،
إدارة ميناء السدرة النفطي

صدر الميناء أول شحنة من النفط الخام عام 1965 م المنتج من الحقول السابق ذكرها، لتابعة لشركة اويزس وحقلي البيضاء والكتلة التابعة لشركة اموسيز، وفي عام 1973 م أبرمت اتفاقية المشاركة بين المؤسسة الوطنية للنفط ومجموعة شركة اويزس والتي بموجبها تم امتلاك المؤسسة لنسبة 51 % من الحقوق، والأصول والمنشآت والحقول التابعة للشركة وأصبحت الشركة تدار بواسطة مجلس إدارة يتكون من ثلاثة أفراد منهم اثنين عن الجانب الليبي وفي عام 1974 م، أصبحت حصة الجانب الليبي في الشركة 59.166 % بعد تأميم حصة شركة شل الهولندية، وتدير شركة الواحة للنفط نشاطاتها على مساحة هائلة تقدر بنحو 52 ألف كم، احتلت المرتبة الأولى من حيث الاحتياطات النفطية ضمن جميع الشركات النفطية في ليبيا.

رغم حيوية ونشاط موقع ميناء السدرة فإنه لم تكن به منطقة سكنية مخصصة لعائلات المستخدمين على غرار البريقة ورأس لأنوف، أنما مجرد «مستخدمين موظفين» عاملين بالميناء وشركة السدرة منهم مستخدمين ليبيين وأجانب، كان وضع المستخدم الليبي سيئ مقارنة بالمستخدم الأجنبي، حيث خصص فالسابق خلال فترة الستينيات والسبعينيات منازل من الصفيح يستقر بها المستخدم الليبي خلاف المستخدمين الأجانب حيث خصصت لهم المنازل الصحية وصالة طعام بالمقر.

3. ميناء رأس لأنوف النفطي التجاري أبريل 1964 م

ميناء رأس لأنوف النفطي يقع في خليج سرت شمال الساحل الأفريقي الشمالي ويبعد مسافة 650 كم شرق مدينة طرابلس ويبعد مسافة 450 كم عن غرب مدينة مصراته، ويبعد الميناء بمسافة حوالي ثلاثة كيلو مترات تقريبا من المكتب الرئيسي للشركة التي أسست عام 1979 م، وكذلك يبعد الميناء ثلاث كيلومترات تقريبا عن الشاطئ يرتفع مستوي سطح البحر بحوالي 20 مترا وهو يتكون من مكاتب إدارية ومساحات صناعية، ومنطقة سكنية وقد بدأ الميناء في إنتاجه عام 1964 م. ويبعد عن الميناء بمسافة حوالي ثلاثة كيلو مترات من مقر الشركة في رأس لأنوف، ومن الشركات المساهمة في إنشاء ميناء رأس لأنوف شركة موبيل جلسبرج وشركة فيلبس، تميز ميناء رأس لأنوف بنشاط نفطي وتجاري، وأستخدم الميناء لتصدير النفط الليبي عبر خطوط أنابيب لنقل النفط من الحقول النفطية تحديدا من الجنوب الليبي من حقلي المسى والسرير تابعين لشركة الخليج العربي، كان عدد الموظفين «المستخدمين» في بداية تأسيس الميناء 50 مستخدم تقريبا ومع تطور نشاط الميناء ازداد عدد المستخدمين ليصل إلى 100 مستخدم خلال عام 1990 م، بدأ الميناء في إنتاجه عام 1964 م حيث خصص للميناء خزانات نفطية واقعه على يابسة الميناء برأس لأنوف بمسافة حوالي 9 كم من الشاطئ، إضافة إلى ثلاثة خطوط أنابيب نفطية رئيسية وعدد 13 صهاريج لتخزين النفط تبلغ سعتها 6.5 مليون برميل من النفط، يتم تحميل النفط بواسطة عدد أربع مراسي بحرية، وهما موضحان بالشكل الآتي رقم (3):



شكل رقم (3): مراسي ميناء رأس لأنوف

يتم تحميل النفط بواسطة عدد 4 مراسي بحرية، المرسى رقم (1) والمرسى رقم (2) من النوع الطبيعي وهما يقعان على مسافة ميل واحد تقريباً من الشاطئ، وهما مصممان لمناولة السفن التي تبلغ حمولتها الإجمالية من (30) ألفاً إلى (100) مائة ألف طنّاً متريّاً من الحمولة الساكنة، مع غاطس يبلغ مداه الأقصى 18 متراً، ويتم التحميل إلى المرسين عن طريق الانسياب الطبيعي من خلال خراطيم يبلغ مقاسها بوصة، وذلك بمعدل تحميل يبلغ 52 ألف برميلاً من النفط يومياً، والمرسيان رقم (3) ورقم (4) من النوع الذي تتم به عملية ربط السفن على شمندورة فردية يقعان على مسافة ميلين تقريباً على اليابسة، ومصممان لمناولة حاملات النفط التي تحمل 30 ألف طنّاً متريّاً من الحمولة الساكنة مع غاطس يبلغ مداه الأقصى (23) متراً، ويتم التحميل إلى SBMs عن طريق الجاذبية وذلك بواسطة خراطيم يبلغ مقاسها 2×16 بوصة، وبمعدل تحميل يبلغ 46,000 برميل من النفط في الساعة، وللميناء مرسى تجاري وهو مرسى خدمي لاستقبال مواد خدمية للشركة ولا يوجد أي تعامل تجاري عدا النفط ومشتقاته وفق ما توضحه الخريطة رقم (3).



خريطة رقم (3): ميناء رأس لانوف النفطي والتجاري، نقلا عن: أبو مدينة، 2008 م، ص 147.

مع اتساع نشاط ميناء رأس لانوف النفطي التجاري تم إنشاء مدينة سكنية صناعية متوسطة ذات بنية تحتية حديثة وبلغ عدد سكانها عند بداية التأسيس بحوالي 27 عائلة تقطن في منازل صغيرة حتي شهر نوفمبر 1984 م تم إنشاء المدينة الحديثة « السكنية الجديدة » وقدر عدد سكانها 40.000 نسمة.

نلاحظ أن اكتشاف النفط أسهم بشكل كبير وسريع في نشأة وتطوير الموانئ النفطية، رغم تميز كل ميناء عن الآخر. يتميز ميناء البريقة بموقعه الجغرافي القريب من الحقول النفطية، حيث يُعتبر أبعد الموانئ النفطية نحو الجنوب، مما يجعله الأقرب لأغلب حقول النفط المهمة في حوض سرت؛ هذا الأمر قلل من نفقات مد خطوط الأنابيب والجهد والوقت، كما أن قربه من الطريق الساحلي الذي يربط بين المدن الساحلية ساعد في مرور معظم المركبات التجارية والركاب، مما أتاح فرصة لخلق تجمع سكاني ثالث يتكون من تجمعين داخل الشركة، يُعرفان بالسكنية الأولى والسكنية الثانية، ويمثلان بعائلات المستخدمين والعزاب.

أما ميناء السدرة، فهو يُعتبر أكبر الموانئ اللبينة المصدرة للنفط الخام، ويتميز بتجهيزه ببرجي شحن عائمين قادرين على استقبال ناقلات النفط العملاقة. ويضم خمسة مراسي لنقل النفط الخام من الحقول إلى الميناء ليتم تصديره فيما بعد. من جهة أخرى، يتميز ميناء رأس لانوف بنشاطه النفطي والتجاري وتصدير المشتقات النفطية، بينما يركز ميناء السدرة على

تصدير النفط الخام فقط. ويحتوي ميناء رأس لأنوف على أربعة مراس تسهل ربط السفن على شمندورة فردية، مما يساعد ناقلات النفط في عملية المناولة. كما يضم الميناء مراس عائمة في المياه العميقة مخصصة لتصدير النفط الخام، بالإضافة إلى أرصفة خاصة لمشتقات النفط المكررة والبضائع العائمة، ورصيف للمنتجات الغازية، ورصيف لقوارب الإرشاد الخاصة بالميناء، بخلاف مينائي البريقة والسدرة.

2. دور نشاط النفط في تطور البنية الاقتصادية والاجتماعية «البريقة، السدرة، رأس لأنوف»

أحدث اكتشاف النفط في ليبيا وتصديره بكميات كبيرة في مطلع الستينيات تحولاً كبيراً في حركة التجارة الخارجية، حيث تمر معظم هذه الحركة عبر الموانئ البحرية. تُصدّر كميات من النفط الخام عبر خمس موانئ نفطية هي «الحريقة، الزيتينة، البريقة، السدرة، ورأس لأنوف». بدأت ليبيا بتصدير النفط في سبتمبر 1961، حيث كانت أول شحنة عن طريق ميناء البريقة. وتوالت الاكتشافات، مما أدى إلى زيادة الكميات المصدرة حتى أصبحت ليبيا ثاني أكبر دولة عربية مصدرة للنفط بعد السعودية في عام 1969، لكن ترتيبها بدأ في التراجع بعد عام 1972.

كما أسهم اكتشاف النفط في تطوير البنية الاقتصادية والاجتماعية في جميع أنحاء البلاد، وخاصة في المناطق التي تضم الموانئ النفطية مثل «البريقة، السدرة، ورأس لأنوف»، نظراً لأهمية مواقعها الاستراتيجية. أسهم النفط في تعزيز الجانب الاقتصادي في مجالات متعددة، بما في ذلك الزراعة، والثروة الحيوانية، والصناعة. كما ساعد في تطوير قطاع الإنشاءات والبناء في المناطق المجاورة للموانئ.

ضمن خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية الأولى، وُضعت أولويات للقطاع الزراعي، حيث تم اتخاذ تدابير للحد من استيراد الأغذية وزيادة الاكتفاء الذاتي. كما تم العمل على تطوير قطاع الزراعة، توحيد ملكية الأراضي الزراعية، وزيادة المساحات الزراعية لحل مشكلات نقص المواد الغذائية. وقد تم وضع خطط للمساحات الزراعية في المناطق الثلاث المجاورة للموانئ، والتي تضمنت:

1. استصلاح الاراضي الزراعية والعمل على تمليكها.

2. تأمين مصادر ووسائل التمويل.

3. توفير المنتجات الزراعية لغرض تطوير الزراعة.

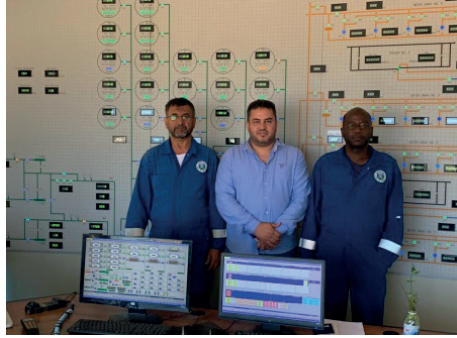
4. ضمان حفظ موارد المياه ومعالجة التربة الصالحة للزراعة.
5. تحفيز الفلاحين على الاشتراك في جمعيات التعاونية للزراعة.
6. توفير الغذاء لكافة سكان المناطق وتحسين مستوى الغذائي والانتاج.

بالإضافة إلى المشاريع التي عملت الحكومة على تنميتها، هناك مشاريع زراعية تم تنفيذها بإشراف وزارة شؤون البترول منها تطوير الزراعة، اهتمت بها شركة اكسيدنتال ضمن طلبها للحصول على عقود امتياز للبترول، وتعدت بأن تخصص قبل خصم لضرائب الليبية 5 % من الأرباح الصافية لمبيعات النفط الخام، فبدأت الشركة عام 1967 م بحفر الآبار للتأكد من توفر كميات المياه الصالحة لتنفيذ المشروع الزراعي تطوير التربة الصالحة للزراعة وتحديث طرق الري من أجل توفير مياه الشرب الصالحة أيضا للأهالي في البريقة والسدرة ورأس لأنوف، فيما يخص مجال الصناعة أسهمت الحكومة من خلال خططها للتنمية تطوير الصناعة في المناطق الثلاثة بحكم مناطق لشركات نفطية، نظرت الحكومة بعين الاعتبار انشاء تجمعات صناعية ومنشآت صناعية ارتبطت بالنفط ومشتقاته، وبعد تنازل بعض الشركات النفطية العاملة عن عقود الامتياز الممنوحة كشركة «إسو»، تم إقامة مصفاة بترولية وبناء معمل لتكرير النفط، صمم المصنع لغرض سد الاستهلاك المحلي من المنتجات النفطية، وتم اختيار منطقة البريقة كموقع لتشييد المصفاة بحكم موقعها ولقربها من مركز تجمع النفط الخام.

وقد أسهم هذا المشروع في تطوير المنتجات البترولية، وشجع على صناعة الغاز باعتباره من أهم مصادر الطاقة التي عرفها الإنسان، وقد خصص مكان لإنشاء مصنع الغاز في منطقة البريقة، وتم اختيار منطقة مرسى البريقة لإقامته ولإنشاء مثل هذا المصنع الضخم، فقد أمنت الشركة فرص العمل من الأهالي، وفرص كمكان للتسويق بعد عقد اتفاقية ثنائية مع شركة (سنام) الإيطالية لمدة عشرين سنة، ومع شركة إسبانية هي (كتلا نادي غاز) لمدة خمسة عشر سنة تزود شركة (إسو) بالغاز السائل.

تشكل الموانئ النفطية شبكة اقتصادية هامة لا يستهان بها، وأحتضن الساحل الليبي الشرقي العديد من الموانئ التجارية والنفطية والصناعية منها «البريقة والسدرة رأس لأنوف» أساس دراستنا العلمية والتي تم بناؤها وتطويرها من خلال خطط التنمية الطموحة بوضع هيكلية إدارية ووظيفية لكيفية إدارتها وتنشيطها وتطويرها وفق خطة تشغيلية للموانئ سالف ذكرها،

فيما يخص ميناء رأس لأنوف النفطى التجارى أسهم في توفير فرص العمل الايدي العاملة بالميناء في غرف المراقبة والاتصالات، مهمتهم الاتصال مع السفن لأخذ حجم السفينة نوعها اسم المالك والدولة التي تتبع لها ومعلومات حول التامين وإجراءات الباخرة ورقمها وسجلها ويتم برمجة المعلومات وأرسال المعلومات إلى إدارة الميناء ومنها إلى الجهات ذات الاختصاص لإعطاء الأذن بالرسو وتكون غرفة المراقبة حلقة وصل بين الباخرة والميناء وإدارة الشركة، وبالنسبة للموظفين هم من الكوادر ليبية وهيكلية الغرفة كالاتي مشرف وحدة ومشغلين لهم نفس الاختصاص للمشرف وكان عدد الموظفين مع بداية التأسيس 4 موظفين وهو نفس العدد عام 1990 م.



صورة رقم (4) فريق العمل بغرفة مينائي رأس لأنوف والبريقة

أسهم النفط في تنمية وتطوير الجانب الاقتصادي، وأثر أيضاً بشكل إيجابي على الجانب الاجتماعي من خلال توفير فرص العمل والقضاء على البطالة في معظم المناطق المجاورة للموانئ. لقد أدى اكتشاف النفط إلى هجرة ملحوظة من الأرياف إلى المدن، حيث بحث الكثيرون عن فرص عمل. توجه العمال وعائلاتهم إلى العمل في مختلف المجالات في هذه المناطق، مما زاد من نسبة السكان في مناطق الموانئ.

نتيجة لذلك، تم إنشاء أحياء سكنية متكاملة تتكون من منازل صحية مجهزة بمرافق متنوعة، مثل: المستوصفات والمدارس والمصارف والأسواق. وهذا زاد من تحفيز السكان على الاستقرار وبناء تجمعات سكنية منظمة، مرتبة وفقاً لترتيب العمال في الوظائف الموكلة لهم بالشركات والموانئ.

الخاتمة

من دراستنا للموانئ النفطية الواقعة في نطاق سرت الكبرى والتي ضمت البريقة والسدرة ورأس لأنوف، نستنتج الآتي:

1. تعود أصول معظم الموانئ التجارية الحالية إلى العصور القديمة، مثل موانئ طبرق، درنة، بنغازي، مصراتة، وطرابلس. بعض هذه الموانئ كانت مزدهرة خلال الفترات القديمة والوسيطة وتطورت في العصر الحديث، مثل: سوسة، طلميثة، توكره، اجدابيا، سرت، بويرات الحسون، لبدة، وصبراتة. أدى اكتشاف النفط في ليبيا إلى ظهور موانئ جديدة لم تكن معروفة سابقاً، وهي الموانئ النفطية المتخصصة في تصدير المشتقات النفطية والبتروكيماويات. كما أسهم هذا الاكتشاف في تحسين الوضع الاقتصادي الوطني، الذي كان يعتمد في السابق على المساعدات الخارجية، من خلال سد العجز في الخزانة العامة. وأسفر ذلك أيضاً عن إنشاء عدد كبير من الموانئ النفطية والتجارية، منها البريقة، السدرة، ورأس لانوف.

2. مع اكتشاف النفط في أوائل الستينيات، كان من الضروري أن تُسوق هذه السلعة الجديدة إلى الأسواق العالمية. وقد تجلّى ذلك في نشاط السوق من خلال انخفاض الواردات نتيجة للظروف الاقتصادية الناجمة عن الأزمة العالمية للنفط. كما لوحظ انخفاض في صادرات النفط الليبية بعد عام 1970 بسبب السياسات السابقة للدولة التي كانت تهدف إلى الحفاظ على الثروة النفطية. وقد أدى هذا الإجراء السياسي إلى زيادة مفاجئة وكبيرة في حركة نقل الركاب في الموانئ الليبية.

3. استنتجنا وجود اختلاف واضح بين الموانئ النفطية من حيث الوظيفة التي يقوم بها كل منها، حيث تركز أرصفتها على شحن النفط الخام والمشتقات النفطية المختلفة. وقد أدى ذلك إلى نقلة نوعية للمنطقة من نمط حياة رعوي إلى مدينة صناعية متطورة، تم إنشاء ثلاث مناطق سكنية فيها، كما أضاف الميناء نقطة جديدة للنقل البحري في المدينة وليبيا بشكل عام.

أما ميناء السدرة، فقد لعب دوراً مهماً في تطوير اقتصاد الدولة من خلال تصدير النفط الخام فقط، دون إسهام في السوق المحلي للاستيراد أو التصدير. من جهة أخرى، أسهم ميناء رأس لانوف في تحويل المنطقة من حياة

صحراوية رعوية إلى مدينة صناعية متخصصة في تصدير المشتقات النفطية، حيث أنشئت فيه منطقة صناعية وإدارية بالإضافة إلى حي سكني، مع الحفاظ على الطابع البدوي. ويتميز ميناء رأس لأنوف بأنه مقتصر على التصدير دون الاستيراد للنفط الليبي.

البليوغرافيا

المهدوي (محمد المبروك) 1990، جغرافية ليبيا البشرية، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.

حسن (محمد إبراهيم) د. ت، دراسات في جغرافية ليبيا والوطن العربي، منشورات جامعة بنغازي.

روسي (اتوري) 1991، ليبيا منذ الفتح العربي حتى 1911 م، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس.

شريف (عبد العزيز) 1963، طرح جغرافية ليبيا، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.

عامر (محمد عبد المجيد)، 1982، مشاكل نقل البترول العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية.

غانم (شكري) 1958، النفط والاقتصاد الليبي 1953-1970 م، معهد الأنماء العربي، بيروت.

غانم (شكري) 1995، النفط، «الجمهورية دراسة في الجغرافيا»، تحقيق: الهادي مصطفى أبو لقمة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، سرت.

كاكيا (أنتوني) 1975، ليبيا خلال العهد العثماني 1835-1911 م، ترجمة: يوسف العسلي، دار الفرجاني، طرابلس.

المصادر

مقابلة الباحثين: د. سالم الصغير محمد ود. سمية سالم الشعال مع بشير صالح بشير مدير ميناء البريقة 1977-1986، مدير فرع شركة البريقة 1986-1988، حول (تطور ميناء البريقة التجاري النفطي وعدد المراسي البحرية للميناء وأهم الحقول النفطية الرابطة بالميناء البحري)، الموافق: يوم الاثنين 2019.7.22 الساعة 10:30 صباحاً.

مقابلة الباحثين: د. سالم الصغير محمد، ود. سمية سالم الشعال مع المهندس. عامر أكنيش عامر، مشرف حركة الزيت في ميناء السدرة، حول (أبرز الشركات المساهمة في تأسيس ميناء السدرة) الموافق الخميس 2019/7/18 الساعة 15:20 مساءً.

وثيقة رقم 1، إدارة شركة الميناء، وثيقة حول (افتتاح ميناء السدرة وخط أنابيب السدرة يوم الصدور الأول بتاريخ 1962/11/25 م)، إدارة شركة ميناء السدرة، 1962.

المراجع

أبو مدينة (حسين مسعود) 2008، الموانئ الليبية دراسة في الجغرافيا الاقتصادية، منشورات جامعة 7 أكتوبر، مصراتة.

كورو (فرانثيسكو) 1984، ليبيا أثناء العهد
العثماني، ترجمة: خليفة محمد التليسي،
المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس.
دليل الموانئ الليبية 2013 م، جداول
واستبيانات أساسية عن الموانئ الليبية
للعام 2013 م، شركة سرت لإنتاج
وتصنيع النفط والغاز.
ميناء رأس لأنوف، مصلحة الموانئ والنقل
البحري، 2013/4/4 م.

المواقع الإلكترونية

- December 2008 www.britannica.com- Marsa.alBuraygah:26
- صناعة النفط قبل عام 1969 م، بتاريخ
30 يناير 2013 م.
www.countriesguest.com
- ويكيبيديا، المملكة الليبية، بتاريخ 6 يونيو
2019 م، www.ar.wikipedia.org.
[/https://ar.wikipedia.org/wiki/أوبك](https://ar.wikipedia.org/wiki/أوبك)
<https://ar.wikipedia.org/wiki/شمندورة>
16 مارس 2019، الساعة 12:54.

طريق الحج المغربي بين قابس وطرابلس خلال العصر الحديث (قسم قابس – برج الملح)

أحمد الباهي⁽¹⁾

ملخص

يهتم هذا البحث بطريق الحج المغربي الذي كان يخترق منطقتي الأعراض والجفارة خلال العصر الحديث انطلاقاً من مدينة قابس ووصولاً إلى برج الملح (بموقع بوكماش بالتراب الليبي حالياً)، وذلك اعتماداً على 29 رحلة حجازية أغلبها لمؤلفين من المغرب الأقصى. قمنا في القسم الأول من البحث بإعادة تركيب مسار الطريق، حيث بينّا أن الركب كان يتبع مسلكاً رئيسياً مباشراً تتخلله ثلاث محطات، أو أنه كان ينحرف شرقاً نحو جربة ثم يواصل طريقه للالتحاق بالمسلك الرئيسي. وفي القسم الثاني بحثنا في المتغيرات التي كانت تتحكم في رسم الطريق ووجدنا أنها ثلاثة: البحث عن الماء، انتظام الأسواق وتواجد ظاهرة الصلاح والولاية.

الكلمات المفتاحية: رحلات حجازية، طريق الحج، الركب المغربي، تهيئة مائية، سوق، زاوية، ولاية، قابس، جربة، بن قردان، الحمارنة.

La route du pèlerinage maghrébin entre Gabès et Tripoli à (l'époque moderne (Section Gabès – Bordj al Milh

Résumé

Cet article s'intéresse à la route du pèlerinage maghrébin qui traversait les régions des *A'râdh* et *Jafâra* à l'époque moderne, et plus précisément entre la ville de Gabès et *Bordj al Milh* (sur le site de *Bou Kammâch* dans l'actuel territoire libyen), et ce, en se basant sur les récits de 29 voyages, dont la plupart de ses auteurs sont originaires du Maghreb extrême. Dans la

(1) كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة القيروان.
وحدة بحث: الجبال والسهول ببلاد المغرب (UR16ES01)

première partie, nous avons essayé de reconstituer l'itinéraire de cette route ; Il y avait une route principale et directe jalonnée par trois stations, et une route secondaire, plus longue, qui déviait vers Djerba pour rejoindre ensuite la route principale. Dans la deuxième partie, nous avons présenté les trois paramètres essentiels qui intervenaient dans l'établissement de cette route, il s'agit de la recherche de l'eau, l'organisation des marchés et la diffusion du phénomène de la sainteté (*walâya*).

Mots-clés : Littérature de voyage, Route du pèlerinage, Caravane maghrébine, Aménagement hydraulique, Marché, Zawiya, Sainteté, Gabès, Djerba, Ben Guerdane, *Hamerina*.

The Maghreb Pilgrimage Route between Gabes and Tripoli in the (Modern Era (Gabes – Bordj al Milh Section

Abstract

This article examines the Maghreb pilgrimage route that crossed the Aradh and Jafara regions in the modern era, and more specifically between the city of Gabes and Bordj al Milh (on the site of Bou Kammash in present-day Libya), depending on the accounts of 29 Hijazi journeys, most of which are for authors from the Far Maghreb. In the first section of the research, we attempted to reconstruct the itinerary of this route; as we demonstrated that the procession was following a direct major course marked by three stations, or that it was deviating east towards Djerba and then continuing its way to join the main route. In the second part, we presented the three essential parameters involved in the establishment of this route: the search for water, the regularity of markets, and the presence of the phenomenon of jurisdiction and spiritual authority.

Keywords: Travel literature, Pilgrimage route, Maghrebian Caravan, Hydraulic development, Market, Zawiya, Holiness, Gabès, Djerba, Ben Guerdane, *Hamerina*.

المقدمة

هذا البحث هو جزء من مشروع انطلقنا في انجازه منذ بضع سنوات ويهدف إلى إعادة تركيب طريق الحج المغربي أو طريق ركب المغاربة بجنوب البلاد التونسية خلال العصر الحديث، وقد قدّمنا للنشر دراسة حول القسم المار بنفزاوة من هذا الطريق، أي الرابط بين قلعة سدادة / سيدي بوهلال وحامة قابس، وفيه عرضنا ظروف تكوّن هذا الطريق وظروف تلاشيّه، وخصوصيّاته البشرية والثقافية والاقتصادية، وقدّمنا جرّدا للرحلات الحجازية التي تمثّل مصدرنا الرئيسي حول هذه المسائل، لذا لا نرى نفعا في إعادة ما كتب وعليه نحيل⁽²⁾. وما نرنو له في هذا المقال هو إعادة تركيب القسم الرابط بين قابس وبرج الملح من هذا الطريق، بمسلكه الرئيسي ومسالكه الفرعية، وهي مسالك تخترق مجالا سهليا في العموم، ذي مناخ جاف وشبه جاف، يشقها وديان موسمية وذات مائدة مائية سطحية متفاوتة الجودة وتكاد الحياة المستقرة به تنحصر بمجموعة من القرى الصغيرة وسط منطقة مُميّزة بانتشار حياة الانتجاع⁽³⁾، وهو ما سيسمح لنا مستقبلا بإعادة النظر في تاريخ منطقتي الأعراس والجفارة وجغرافيتها التاريخية.

I. طريق الحج بين قابس وبرج الملح: المسلك الرئيسي والمسالك الفرعية

تمكّنّا من حصر 29 رحلة مُوثّقة⁽⁴⁾، ما بين مطبوعة ومخطوطة، نثرية وشعرية، من رحلات الحجّ التي سلكت طريق قابس - برج الملح تشرقا وتغربا خلال العصر الحديث، وبالشّبط من سنة 991 هـ/1583 م، تاريخ رحلة ابن عابد الفاسي إلى سنة 1211 هـ/1797 م.

(2) الباهي (أحمد)، طريق الحج المغربي بنفزاوة خلال العصر الحديث، بصدد النشر.

(3) للتوسع في مسألة خصائص الجغرافيا الطبيعية للمنطقة المدروسة من مناخ وتضاريس وشبكة مياه وتربة وغطاء نباتي، يمكن العودة إلى:

Sethom H., Kassab A. (1981), pp. 149-158 ; Mzabi H. (1993), pp. 19-85.

(4) أثبتنا في ملحق لهذا المقال قائمة لنصوص الرحلات الحجازية التي اعتمدها مُرتبة حسب تاريخ مرور الركب بالمنطقة المدروسة بالأشهر الهجرية والعجمية، مع التخصيص على اتجاهها. ونشير إلى أن أسبابا - لا داعي للتوقف عندها - منعنا من استغلال رحلات محمد الرابط الدلائلي والهشتوكي وأبي مدين الدرعي، وهي كلها مخطوطة بالمكتبة الوطنية المغربية.

تاريخ رحلة أبي العباس الفاسي⁽⁵⁾. وقد أُلّف هذه الرحلات 17 مؤلفا، أغلبهم ترك وصفا لرحلتهم ذهابهم وإيابهم، ومنهم من دَوّن أكثر من رحلة واحدة كالعياشي وابن عبد السلام، ومنهم من لم يترك سوى وصفا لاتجاه وحيد لرحلته (ذهابا أو رجوعا). ومكنتنا هذه الشهادات العينية، رغم تباينها في الكم والكيف، من التعرف على المسالك التي اتخذها الركب المغربي في حينها، وضبط محطاتها، لكن مَوْضَعَة هذه المحطات وتحديد المسالك شأن آخر، لأنها عمليات تستوجب تحقيق أو إعادة تحقيق النصوص المتوفرة لكثرة التصحيف والتحريف بها، ثم القيام باستكشافات ميدانية، طوبوغرافية وأثرية، ثموضع أسماء الأماكن في ظل ما يمكن أن يكون قد طرأ على المشهد الجغرافي من تحولات⁽⁶⁾. ونلاحظ هنا أن العمل الميداني الذي أنجزناه أثبت وجود الكثير من أسماء الأماكن التي تُذكر بركب الحاج ومسالكه لم ترد بالخرائط الطوبوغرافية مثل طريق الحجاج، بئر الحجاج، ظهرة الحجاج، دار الركب. كما نؤكد على عدم إمكانية فهم تأسيس الكثير من المنشآت المعمارية، وعدم إمكانية تفسير الكثير من الأحداث السياسية والعسكرية بجنوب الإيالة التونسية دون ربطها بطرق الحج، وهو ما لم يقدّم به دائما المؤرخون التونسيون.

(5) نذكر بأن استعمال طريق قابس - طرابلس لفرض الحج يعود إلى بداية العصر الوسيط، لكنه أصبح من الأهمية بمكان انطلاقا من بداية القرن 10 هـ/16 م، حين استقطب حجاج الطريقين البحري والتلي وحتى الصحراوي لأسباب أمنية بالأساس تخص سيطرة القبائل المحاربة على الطريق التلي المؤدي إلى مدينة تونس وتنامي الصراع الإسباني العثماني بالمتوسط وكذلك القرصنة البحرية، فتحوّلت نسبة هامة من الحجاج المغاربة نحو طريق الجريد الذي كان أكثر أمنا. وتواصلت حيوية هذا الطريق إلى أربعينات القرن 19 م حين أُنمت فرنسا السيطرة على الصحراء الجزائرية فمنعت ركب الحجيج من عبور هذه الأراضي ووقّرت لهم بدلا عنه بواخر تنطلق من موانئ طنجة ووهران والجزائر.

(6) نلاحظ أن منطقتي الأعراس والجفارة لم يشملها المسح الأثري المبرمج من طرف مشروع الخارطة الوطنية للمواقع الأثرية والمعالم التاريخية إلا جزئيا، وهي ورقات قابس (147) وكتانة (157) وكوتين (158) ومارث (169) التي أشرف على إنجازها الأستاذ عبد اللطيف مرابط. كما يُستفاد من رسالتين جامعتين أنجز أصحابها إحصاء أثريا بالمجال وهي لليلي الجابري حول المعالم الإسلامية بجهة قابس وعلي زغدود حول المعالم القديمة بالشريط الساحلي الممتد من قابس إلى رأس جدير. أخيرا استفدنا من بعض الدراسات المحلية التي وثّقت للتراث المادي واللامادي لهذه المناطق رغم ما تحتويه من أخطاء وهنات بحكم عدم تخصص مؤلفيها مثل أعمال سالم لبيض حول قبيلة عكاره ومحمد شندول حول جهة بن قردان ومحمد العيادي العوني حول جهة مدنين وقبيلة ورغمة. راجع: محمد العيادي العوني (2014)؛ سالم لبيض (2017)؛ محمد شندول (2019)؛ Mrabet A. (1998), (200a), (2000b), (2017)؛ Zaghdoud A. (2006)؛ Jebri (2017).

بعد تحليل معطيات الرحلات الحجازية، وجدنا أن 15 رحلة اتّبعَت مسلكاً رئيسياً مباشراً يربط بين قابس وبرج الملح الذي كان يُمثّل «أول عمل الطرابلس» حسب تعبير العياشي في حجّيته الصغرى⁽⁷⁾، تتخلّله ثلاث محطات رئيسية تختلف حسب الزمان والظروف الخاصة بكل رحلة، وهي رحلات كل من : ماء الموائد لأبي سالم العياشي (ذهاباً وإياباً)، نسمة الآس لأحمد القادري (ذهاباً وإياباً)، رحلة اليوسي في تغريبه، رحلة أحمد الناصري في تغريبه، بلوغ المرام للزبادي المنالي في تشريقه، نزهة الأنظار للورثيلاني (ذهاباً وإياباً)، الرحلة الناصرية الكبرى لابن عبد السلام الناصري (ذهاباً وإياباً)، والرحلة الصغرى لابن عبد السلام أيضاً في تشريقه وتغريبه ورحلة أبي العباس الفاسي (ذهاباً وإياباً). لكن بعض الرحلات اتبعت مسلكاً أطول يتجه مباشرة من قابس إلى الجرف عبر مجسر أو ينحرف عادة عند عرّام نحو جرف جربة، قبل الاتجاه من الجرف جنوباً للاتصال بالمسلك الأول في جهة النباش / آبار السلطان أو في جهة بن قردان، وهي 11 رحلة: رحلة ابن عابد الفاسي، رحلة المجاجي، التعريف والإيجاز لأبي سالم العياشي، رحلة اليوسي في تشريقه، رحلة أحمد الناصري في تشريقه، الرحلة الحجازية لابن الطيّب الشرقي (ذهاباً وإياباً)، رحلة الوزير الإسحافي، الرحلة العامرية، رحلة الحضيكي، بلوغ المرام للزبادي المنالي في تغريبه.

101

أخيراً، اتبع ابن أبي محلي طريق البر إلى جربة ومنها بحراً إلى طرابلس⁽⁸⁾، أما العيني فبعد حلوله بقابس، اتجه بحراً إلى جربة، ومنا بحراً كذلك إلى الإسكندرية عبر الجزر اليونانية⁽⁹⁾.

1- المسلك الرئيسي

مثّلت قابس⁽¹⁰⁾ نقطة تجمّع أساسية لركب الحج، فيها يلتحق الركب التونسي والركب القسنطيني وغيرهما بالركب المغربي الذي يواجه البحر لأول مرة في مساره ويتضخّم حجمه بهذه المناسبة. وفي قابس مثّلت زيارة زاوية أبي لبابة الأنصاري محطة شبيهة إجبارية، وقرب الزاوية كان يتجمّع الركب ويبقى استعداداً للسفر، وذلك في «فسحة عظيمة» عند الباب الشرقي على حد تعبير

(7) العياشي، تعداد المنازل، 72 ؛ بينما يعتبر الحضيكي (ص 88) أن الزوارات هي مبدأ عمالة طرابلس. وقد ذكر الورثيلاني (ص 651) أيضاً إلى أن الحدود بين قبيلتي ورغمة والنوايل تمثّل الفاصل بين عمالتي تونس وطرابلس.

(8) ابن أبي محلي، ص 100.

(9) العيني، ص 292-295.

(10) ما زال تاريخ مدينة قابس في العصر الحديث لم يُكتب بعد، وبالذات سيرورة التحول بين المدينة الوسيطة والمدينة الحديثة بمكوّنها: المنزل وجارة، وتلاحظ احتواء رحلة ابن عبد السلام على معطيات شديدة الأهمية تُساعد على دراسة هذا التحول.

الورثيلاني وفي مكان قريب من عين أزريق بشهادة ابن عبد السلام⁽¹¹⁾. وقد حافظت الذاكرة المحلية على تلك العادة حيث يُسمّى ذلك المكان إلى الآن مراح الحُجاج. إلا أن رحلة وحيدة لم تمرّ بهذه المحطة الإجبارية وهي رحلة ذهاب العياشي سنة 1072 هـ/1661 م، الذي انطلق من نفزاوة متجهاً إلى سيدي قناو، وواصل طريقه في اتجاه زريق، وذلك لأسباب متعلقة بتأخر العالم المغربي ورفقته عن الركب.

اختلفت المحطة الأولى للاستراحة بعد قابس عند الرحالة، وهي تُطابق نظرياً المحطة الأخيرة قبل الدخول إلى المدينة في طريق العودة، فهي عين التمول⁽¹²⁾ في رحلة ذهاب اليوسي الذي انطلق من الحامة وتعدي قابس دون التوقّف بها⁽¹³⁾. وهي زريق أو زريق البرّانية⁽¹⁴⁾ عند المجاجي، والعياشي في الحجية الصغرى وفي طريق عودته من رحلته الأخيرة، والقادري في طريق عودته، واليوسي الذي لم يُسمّيها في رحلة عودته⁽¹⁵⁾. وهي سيدي سلام بوغرة عند أبي العباس الفاسي في طريق ذهابه وعودته⁽¹⁶⁾. وهي عرام⁽¹⁷⁾ في طريق ذهاب العياشي في رحلته الأخيرة، وطريق ذهاب الورثيلاني وطريق عودته⁽¹⁸⁾. وهي مارات أو مارت⁽¹⁹⁾ في طريق ذهاب الناصري وطريق عودته، وهو على

(11) الورثيلاني، ص 652 ؛ ابن عبد السلام، 274/1.

(12) ما زالت معروفة بالاسم ذاته مسافة 7 كم جنوب زريق الدخلانية، وقد جفّت العين الآن.

(13) اليوسي، ص 89.

(14) موضع معروف إلى الآن مسافة 20 كم جنوب من قابس وتُعرف بزريق البرانية تمييزاً لها عن زريق الدخلانية الواقعة بأحواز قابس، ذكرت في تراجم أعلام الإباضية انطلاقاً من النصف الأول من القرن 5 هـ/11 م (أبو زكرياء، ص 287 ؛ السنياني، 268/1، 773/3 ؛ الدرجيني، 448/2 ؛ الشماخي، 585/2، 603). كما ذكرت في ثانيا حملة قراقوش بإفريقية سنة 575 هـ/1179 م، (ابن شاهنشاه، 46، 57، 74، 84). وقد مرّ بها التجاني في رحلته بزريق بعد انطلاقه من تلبو في اتجاه مارت، وأشار إلى أن الميوقري أقام به عند محاصرته لأهل قابس سنة 591 هـ/1194 م، وذكر وجود عين عذبة قرب الموضع. (التجاني، ص 105، 180). (15) المجاجي، ص 189 ؛ العياشي، تعداد المنازل، ص 71 ؛ العياشي، ماء الموائد، 532/2 ؛ القادري، ص 78 ؛ اليوسي، ص 186.

(16) الفاسي، ص 141، 176.

(17) لم نجد في المصادر الوسيطة ذكراً لعرّام الواقعة سافة 40 كم جنوب قابس، وتعتبر الحجية الصغرى للعياشي أول مصدر أشار إليها، ونشأة القرية مرتبطت دون شك بصلحاء الحمارنة، ولعلهم مصدر التسمية.

(18) العياشي، ماء الموائد، 129/1 ؛ الورثيلاني، ص 130، 652.

(19) قرية تواصل وجودها إلى الآن بنفس الاسم مسافة 34 كم جنوب قابس. مرّ بها التجاني في طريقه من قابس إلى غمراسن بعد أن تجاوز زريق وقبل الوصول إلى قرية أجاس، وقد وصفها بأنها «قرية حقيرة وعليها غابة نخل يسيرة»، وهي وريثة موقع Martae القديم. راجع: التجاني، ص 181.

الأرجح نفس الموضع شمال قرية عَرَّام الذي لم يُسمَّه ابن الطيب في طريق عودته⁽²⁰⁾. وهي وادي الزَّاس⁽²¹⁾ الذي وصفه القادري في طريق ذهابه بأنه «وادي فيه مَوَيَّة يجري»، وسمَّاه ابن عبد السلام في طريق ذهابه وادي الدواير. وقد بات القادري في رحلة إياه بوادي عَرَّام أي وادي الزاس وكذلك فعل اليوسي في رحلة رجوعه⁽²²⁾. وهي أخيرا وادي السمار⁽²³⁾ في طريق ذهاب ابن الطيب الذي كان متجها نحو جربة وبعد أن مرَّ بعَرَّام⁽²⁴⁾.

والواضح أن الركب لم يتَّبع في طريقه آنذاك الطريق الوطنية رقم 1، فكان يتَّجه انطلاقا من واحة تلبو مباشرة إلى زريق البرانية عبر عين تمولة وذلك بعد قطع وادي السَّرَّاق ووادي مرسيط، وهو مسلك فلاحي مازال مستغل إلى الآن ويُدعى محليا «طريق الحجاج». ثم من زريق يتم قطع وادي الفَرْد للاتجاه نحو مارث مروراً بموقع سيدي سلام ثم وادي الزركين. ومن مارث يتم الاتجاه إلى عَرَّام وبينهما حوالي 6 كم ويتوسطهما وادي زقزاو. وانطلاقاً من عَرَّام يأخذ الطريق اتجاه الجنوب الشرقي للاتجاه نحو سيدي مخلوف فيمر بوادي الزاس ثم بوادي مجسر. ثم يعبر الركب وادي السمار للاتجاه نحو حاسي السلطان أو النيش.

أما المحطة الثانية فقد تباينت حسب الرحَّالة، فهي النيش أو نيش الذيب⁽²⁵⁾ لدى المجاجي، والعياشي في رحلة ذهابه الأخيرة، والناصرى في رحلة إياه، وأبو العباس الفاسي في رحلة إياه⁽²⁶⁾. وهي آبار السلطان⁽²⁷⁾ لدى

(20) الناصري، 1/165، 2/677؛ ابن الطيب، ص 564.

(21) يُعرف حالياً بالاسم ذاته، وهو يبعد مسافة 50 كم جنوب قابس و10 كم جنوب مارث. وقع ذكره في المصادر الوسيطة برسم مُحَرَّف غالبا، فهو «اجاس» في خريطة ابن حوقل (ص 63) حيث أشير إليه كمحطة أولى في طريق يربط قابس بطرابلس قبل محطته الثانية وهي بئر زناته (وعنه ينقل الإدريسي في النزهة، ص 297، أين رُسم «وادي احناس»، وفي الأنس، ص 206، حيث رُسم «احاس»).

(22) القادري، ص 76، 78؛ اليوسي، ص 186؛ ابن عبد السلام، 1/302.

(23) وادي السَّمار حالياً، ينبع من مرتفعات شمال شرق مدينين ويصب في خليج بوغرة مسافة 7 كم جنوب موقع بوغرة / جكتيس. لم يُذكر هذا الوادي في المصادر الوسيطة، وتعتبر رحلة ذهاب العياشي الأخيرة أول مصدر يُشير إليه.

(24) ابن الطيب، ص 247.

(25) يُسمى حالياً «نشير النيش» أو «قصر النيش» ويقع مسافة 35 كم غرب بنقردان. وهو موضع مرَّ به التجاني في رحلة عودته من طرابلس إلى قابس بعد المرور بخنافس وقبل الوصول إلى أجاس ولاحظ عدم وجود الماء به. انظر: التجاني، ص 319.

(26) المجاجي، ص 185؛ العياشي، ماء الموائد، 1/129؛ والناصرى، 2/676؛ الفاسي، ص 142.

(27) تُعرف هذه الآبار الآن بحاسي السلطان وتقع مسافة 30 كم شرق مدينين على طريق بن قردان، ويُؤشَّر اسم المكان على مرجعية رسمية للتسمية قد تعود إلى العهد الحفصي حين انتشر نعت السلطان.

العياشي في رحلة إِيَّابه الأخيرة، ولدى القادري في طريق ذهابه، والورثيلاني في رحلة ذهابه⁽²⁸⁾.

للوصول من جهة عَرَّام - وادي الزاس إلى منطقة النباش - حاسي السلطان وجب على الركب تعدّي مجال تشقّه مجموعة من الأودية الموسمية المنحدرة من سلسلة جبال مطماطة، إضافة إلى مجموعة من السباح، أهمها وادي السمار الذي اجتازه العياشي في رحلتي ذهابه وإِيَّابه الأخيرة، وكذلك القادري في رحلة عودته، والناصر في رحلة عودته. وذكر الناصر اجتيازه لواد أبي حامد⁽²⁹⁾ بين النباش ووادي السمار، ثم العباب⁽³⁰⁾ فشلاكة⁽³¹⁾ بين وادي السمار وعَرَّام. أما ابن عبد السلام فمرّ تباعا في طريق ذهابه بين وادي الزاس وأبار السلطان بسيدي مخلوف ثم واد السعدان⁽³²⁾ ثم واد السمار ثم سبخة «في عرضها أكثر من فرسخ»⁽³³⁾ ثم بمزارع سيدي محمد بن علي الحمدوني⁽³⁴⁾، وأخيرا مرّ أبو العباس الفاسي في طريق ذهابه من وادي الزاس إلى النباش بسيدي مخلوف ثم بوادي السمارة، واتبع في طريق العودة نفس الطريق إلا أنه يذكر أن الدليل أضاع الطريق بعد خروجهم من سيدي مخلوف مما اضطرهم للمرور على وادي الحلوف⁽³⁵⁾ قبل الوصول إلى عَرَّام.

وكانت المحطة الثالثة في محيط بن قردان الحالية أو ما كان يُعرف بسواني ابن قردان⁽³⁶⁾، التي تمتدّ شمالا إلى وادي فسي⁽³⁷⁾ حيث يمكن المبيت، وهي حالة العياشي في رحلة ذهابه الأخيرة⁽³⁸⁾، وقد يكون الموضع المسمى ابن

- (28) العياشي، ماء الموائد، 532/2 : القادري، ص 76 : الورثيلاني، ص 130.
(29) وادي بو حامد حاليا، ينبع من المرتفعات المحاذية لغمراس وبني خدّاش ويصب في سبخة بومعيزر، ويبعد مسافة 54 كم شرق بن قردان وهو الآن الحدّ بين معتمديتي بن قردان ومدنين الجنوبية.
(30) موقع يُدعى حاليا العباب، ولم نتمكن من زيارته.
(31) توجد حاليا سبخة شلاكة مسافة 4 كم شمال سيدي مخلوف.
(32) وادي السعدان حاليا، أحد روافد وادي الفجاء الذي يصبّ مباشرة جنوب موقع بوغرة.
(33) وهي سبخة عين معيزر الحالية.
(34) هي منطقة الغرابيات حاليا غرب حاسي السلطان، وهي منطقة خصبة نسبيا وبها غراسات الزيتون.
(35) وادي الحلوف حاليا، أحد روافد وادي أم جَسَّار.
(36) لم نجد ذكرا لبن قردان فيما هو متوفر من مصادر وسيطة، وتعود أول إشارة لاسم المكان هذا إلى رحلة المجاجي، حيث حُرِّف الاسم إلى : الفراد.
(37) وادي فسي معروف إلى الآن مسافة 15 كم غرب بن قردان وهو يصب في سبخة بوجمل غرب بحيرة البيبان. وقد مرّ التجاني في رحلته سنة 707 هـ/ 1307 م، بأرض فسي «بكسر الفاء وكسر السين المهملة مشددة» شرق غمراسن* في اتجاه طرابلس وبها بئر تعرف ببئر العقلة. انظر: التجاني، ص 205.
(38) العياشي، ماء الموائد، 129/1.

قردان حيث الآبار، أين توقّف المجاجي في رحلة عودته، والقادري في رحلتي ذهابه وإيابه، والناصري في رحلة إياه والورثيلاني في رحلة ذهابه، وأبو العباس الفاسي في رحلتي ذهابه وإياه⁽³⁹⁾، وقد يتجاوز الركب إلى الشوشة⁽⁴⁰⁾ شرق بن قردان أين توقف ابن الطيب في رحلة إياه، والعامري في رحلة ذهابه⁽⁴¹⁾.

وللوصول إلى جهة بن قردان من منطقة النيش - حاسي السلطان، كان على الركب اجتياز مجموعة من الأودية الصغيرة والسباخ حتى الوصول إلى أكبر حاجز طوبوغرافي في المنطقة وهو وادي فسّ. وقبل وادي فسّ اجتاز ابن الطيب في رحلة ذهابه بعقلة آبار تسمى البحيرة⁽⁴²⁾ ثم بئر يقال لها المويلحة⁽⁴³⁾، بينما مرّ ابن عبد السلام في رحلة ذهابه تباعا بكدية بها قبور الصالحين تدعى مصلى الشيخ الصيد⁽⁴⁴⁾، وعلى النحيل «بالحاء المهملة مصغرا»⁽⁴⁵⁾ وبعده من غير بعد لأهدير⁽⁴⁶⁾، ثم بجمل⁽⁴⁷⁾.

أخيرا فإن المحطة الرابعة فكانت برج الملح على ساحل البحر، حذو سبخة الملح غرب قرية زوارة، إذ اتخذ أغلب الرحّالة موضعا بجانب البرج للمبيت. وقد حدّدنا موقع هذا البرج بالتراب الليبي حاليا في موقع بوكماش قبالة جزيرة قرّوة التي كانت تُدعى في العصر الوسيط «رأس المخبز»، وبيننا أهميته في عمل سابق⁽⁴⁸⁾. وقد يبيت الركب في المجرى الذي يوجد منتصف المسافة بين بن قردان والبرج، وهي حالة العياشي في رحلة ذهابه الأخيرة⁽⁴⁹⁾، وقد يبيت بموضع بين الركزة والماجر (كذا وهما تصحيف للزكرة⁽⁵⁰⁾ والمجل) كما هو حال القادري في رحلة إياه⁽⁵¹⁾.

(39) المجاجي، ص 180؛ القادري، ص 76، 78؛ الناصري، 675/2؛ الورثيلاني، ص 130؛ الفاسي، ص 142، 176.

(40) ما زال هذا الموضع معروفا بالاسم ذاته مسافة 20 كم شرق بن قردان.

(41) ابن الطيب، ص 562؛ العامري، ص 94.

(42) لم نهتد إلى موضعها.

(43) قرعة المويلح حاليا، تقع مسافة 18 كم غرب بن قردان في اتجاه مدنين.

(44) المصلّى حاليا ويقع مسافة 12 كم شرق حاسي السلطان.

(45) وادي النحيل حاليا.

(46) بير هدير حاليا.

(47) سبخة بو جمل حاليا وتمتد السبخة إلى الأطراف الغربية لبحيرة البيبان.

(48) أحمد الباهي، «الملح ومقاطع الملح بإفريقية في العصر الوسيط: مقاربة أولية»، بصدد النشر.

(49) العياشي، ماء الموائد، 1/129.

(50) مرّ التجاني سنة 709 هـ/1309 م، ببئر الزكرة في رحلة العودة من طرابلس إلى قابس

بعد أن تجاوز مرسى رأس المخبز وقبل الوصول إلى خنافس. وقد توصل اسم هذا البئر

الآن في موضع يدعى «عقلة الزكرة» ويبعد 12 كم شرق بنقردان. انظر: التجاني، ص 319.

(51) القادري، ص 78.

وللمرور من بن قردان إلى برج الملح كان الركب يتخذ طريقا به مستقيماً، فيمر بالزكرة ثم الشوشة ثم المقطع، ونعتقد أن المقطع كان يوجد في مستوى رأس جدير حالياً باعتبار وجود موقع قطاعية المقطع جنوب بوابة رأس جدير الحالية. ثم يواصل الركب طريقه بمحاذاة ساحل البحر تاركا سبخة البريقة جنوبه للوصول إلى بوكماش حيث برج الملح.

2- المسلك الفرعي

انطلاقاً من المحطة الأولى التي تكون في أغلب الأحيان في جهة عَرام، يمكن للركب المغربي أن ينحرف شرقاً نحو جربة، وهو ما أشار إليه العياشي في حجته الصغرى، وهو المسلك الذي اتبعه أيضاً كلا من اليوسي والناصري وابن الطيب والاسحاقي والعامري والحضيكي في رحلة ذهابهم⁽⁵²⁾. لكن من الرحالة من اتبع طريقاً أقصر يُحاذي الساحل، لكنه أكثر صعوبة بحكم الحواجز الطبوغرافية، وفي هذه الحالة يتوقف الركب بالمجسر⁽⁵³⁾ جنوب الزارات، وهي حالة العامري الذي رُسم اسم الموضع في نظمه: المدرس⁽⁵⁴⁾. وقد مرّ ابن الطيب في طريق عودته بوادي أم جَسار انطلاقاً من جرف جربة وبعد المرور بوادي السمار وقبل الوصول إلى عَرم⁽⁵⁵⁾. وأما ابن عابد الفاسي فقد انفرد بسفره إلى جربة بحراً ودخله إليها ثم مواصلته الرحلة نحو طرابلس بحراً⁽⁵⁶⁾.

106

وتختلف المحطة التي يتوقف بها الركب قبالة جربة، فهي «قبالة أبي غرارة»⁽⁵⁷⁾ لدى الناصري في رحلة ذهابه، وسمى ابن عبد السلام هذا الطريق:

(52) العياشي، تعداد المنازل، 72؛ اليوسي، ص 90؛ الناصري، 165/1؛ ابن الطيب، ص 247؛ الاسحاقي، 314/1؛ العامري، ص 94؛ الحضيكي، ص 88.

(53) المجسر حالياً 14 كم جنوب قرية الزارات وهو تجمع للسبخ الشاطئية يصبّ به وادي المجسر. ذكره التجاني باسم وادي أم جَسار حيث توقف به بعد خروجه من الزارات وقبل مواصلة الطريق نحو مجاز الجرف. وذكر أن مأوّه يتجمع بجبل رأس تاجرا حيث يتفرّع إلى واديين يصبّان في البحر أحدهما جنوبي وهو وادي مجسر والثاني شمالي وهو وادي الفجاء. كما يشير الكاتب إلى أن بعض المواطن بهذا الوادي لا سيما منها القريبة من البحر تحتوي على أنواع من الحوت أما أعلى المجري فلا يمتلئ إلا عند نزول الأمطار (التجاني، ص 120-121). كما مر به مرة ثانية بموضع منه يدعى الطواحين (التجاني، ص 133). ويسمى هذا الوادي الآن وادي أم جَسار وذلك انطلاقاً من نقطة تبعد 4 كم شمال تاجرا ويبلغ طول مجراه 28 كم شرقاً قبل أن يصب في خليج قابس.

(54) العامري، ص 94.

(55) ابن الطيب، ص 563.

(56) ابن عابد، ص 89.

(57) المقصود هو مقام سيدي بوغرة المعروف إلى الآن بموقع جكتيس *Gightis* القديم والمشرّف على خليج بوغرة الذي كان يسمى كذلك منذ بداية القرن 10 هـ/ 16 م على

طريق أبي غرارة⁽⁵⁸⁾. وهي جرف جربة⁽⁵⁹⁾ لدى ابن الطيب في رحلة إيباه، وكذلك الإسحاقى والزبادي⁽⁶⁰⁾. وانطلاقاً من الساحل المواجه لجربة، يتجه المسلك الفرعي جنوباً للاتصال بالمسلك الأول بعد مرحلتين في جهة آبار السلطان كما فعل ركب اليوسى في رحلة الذهاب، أو بالنبش كما فعل الناصري في رحلة ذهابه والعامري في رحلته، أو بعد ثلاث مراحل في جهة بن قردان كما ذكر العياشي في حجّيته الصغرى وابن الطيب في رحلة ذهابه والإسحاقى في رحلة ذهابه⁽⁶¹⁾. وقد تمرّ رحلة العودة من الحج بجربة وهو المسلك الذي اتبعه المجاجي بعد وصوله للنبش، وكذلك الزبادي⁽⁶²⁾.

ويهدف هذا الانحراف نحو جربة إلى تحقيق هدفين، أولهما نصب سوق للتجارة مع أهل جربة، وهو ما سنشير إليه لاحقاً، وثانيهما هو التحاق الركب الجربي بالركب المغربي، أو على الأقل من يُفضّل من الجربة اتباع الطريق البرّي على حساب الطريق البحري للسفر إلى الحرمين أو إلى مصر، وهو ما أشار إليه ابن الطيب في رحلة ذهابه⁽⁶³⁾. وفي حالة اتباع هذا المسلك الفرعي يُصبح العدد الحُملي لمراحله خمسة بدل أربعة للوصول إلى برج الملح.

وما من شك أن الثقل البشري والاقتصادي والديني وحتى السياسي لركب المغاربة قد طبع المشهد الجغرافي لمنطقتي الأعراس والجفارة خلال العصر الحديث، تأثراً وتأثيراً، وهي مسألة لم يقع - في تقديرنا - إيلاؤها ما تستحقّه من بحث. لقد ضُبطت مسالك الحج ومحطاته حسب رصيد قديم من شبكة الطرقات في المنطقة، لكنها ساهمت في إحداث بنية تحتية متكاملة لتلبية

الأقل بشهادة مارمول (مارمول، 144/3). وقد مرّ التجاني في رحلته من سواني خلف الله إلى وادي مجسر سنة 706 هـ/1307 م، بهذا الموقع الذي دعاه تجفت، ووصفه بأنه «بسيط متسع من الأرض» وأن به «آثاراً قديمة ومباني مختلفة الأشكال ومصانع للمياه مصنوعة». انظر: التجاني، ص 133.

(58) الناصري، 165/1؛ ابن عبد السلام، 302/1.

(59) الجرف تسمية متواترة حتى الآن ويقع مسافة 40 كم شمال شرق مدنين. وهو مصطلح جغرافي يدلّ على طبيعة التضاريس الساحلية بهذه المنطقة. فقد ذكر الإدريسي «قصر الجرف» كحلقة من سلسلة التحصينات الساحلية بالجهة، وسَمّي محيط القصر بـ«طرف الجرف» كما قدر المسافة التي تفصله عن جزيرة جربة بـ4 أميال. أما التجاني فيسمّي المضيق البحري الفاصل بين جزيرة جربة والبر «بمجاز الجرف» أو ساحل المجاز. الإدريسي، نزهة، ص 305، 306؛ التجاني، ص 121.

(60) ابن الطيب، ص 563؛ الإسحاقى، 314/1؛ الزبادي، ص 332.

(61) العياشي، تعداد المنازل، ص 72-73؛ اليوسى، ص 90؛ الناصري، 165/1؛ العامري، ص 94؛

ابن الطيب، ص 248؛ الإسحاقى، 321/1.

(62) المجاجي، ص 185؛ الزبادي، ص 332.

(63) ابن الطيب، ص 247.

حاجات الركب، مثل تهيئة محطات الاستراحة والتهيئة المائية وتحبيس العقارات على الركب، وهي أيضا مسائل بحاجة إلى دراسات مُعمّقة. وبالنسبة لقسم قابس - برج الملح، فقد لاحظنا خضوعه إلى ثلاث مؤثرات رئيسية، وهي: مدي توفّر الماء، انتصاب الأسواق وما يتبعها من ظروف أمنيّة، ثم ظاهرة الصّلاح والولاية.

II. طريق الحج والمشهد الجغرافي للأعراض والجفارة : التأثير والتأثر

1- طريق الماء: الأودية والعيون والآبار

مثّل البحث عن الماء هاجسا متواصلا للركب المغربي لدوره الأساسي في شرب الحجاج ووسائل نقلهم، لذلك كانت الرحلات الحجازية التي كتب بعضها واستعمل أغلبها كمرشدات طريق، تُشير إلى مواقع النقاط المائية حتى لو كانت جافة لوجود إمكانية تعبئتها مستقبلا، كما أكد الرحّالة على المراحل التي يُفتقد فيها الماء والتي يستوجب حمل ما يكفي منه قبل قطع هذه المسافة، وأعلموا أيضا بالمواضع المائية التي يمكن أن تمثل حواجز الطوبوغرافية، وهو ما يسمح برسم خارطة لتوزّع الموارد المائية السطحية.

لعلّ من أهم خصائص الطريق الذي نتناوله هو انقسامه إلى قسمين، إذ تميّز قسمه الأول الممتد من قابس إلى عرّام - وادي الزاس بوجود الماء وسهولة تعبئته، أما القسم الثاني الممتد من وادي الزاس إلى الزوارة الغربية شرقي برج الملح، فقد أجمع الرحّالة على فقدان الماء به أو على جودته المتدنية. فانطلاقا من عرّام - وادي الزاس لا يجد الركب ماءً وافرا وعذبا إلا في الزوارتين شرق برج الملح، لذلك نبّه الرحّالة على ذلك، وحثوا الحجاج على التزوّد بما يكفي من الماء انطلاقا من عرّام - وادي الزاس، أو في الزوارتين في طريق العودة.

فقد ذكر القادري في تشريقه عن الزوارة الغربية: «فيها آبار عميقة وماؤها عذب، فسقينا منها»، وذكر في تغريبه: «فبتنا بها وسقينا من آبارها العذبة للمفازة». وذكر اليوسي عند توقّفه بالزوارات مُشرّقا: «وسَقَيْنَا الماء وشربنا وروينا، وماؤهم من أطيب المياه، عذب بارد»، وذكر في تغريبه: «وَفَتَحَ الله تعالى علينا في ماء حلو وبارد، وأبيار هذه الأرض كلها طيبة. وحملنا ماء أربعة أيّام»، وذلك تحسّبا لفقدانه في اتجاه قابس. وأكد الناصري على أن ماء الزوارتين: «من أحسن المياه»، وأشار إلى وجود: «سواني عذبة باردة» بالزوارة الغربية، وأن الركب سقى منها ما احتاجه من الماء في رحلة الإياب إلى سواني بن قردان. وذكر ابن الطيب في رحلة ذهابه أنهم بوصولهم إلى الزوارات الغربية: «سقينا من آبارها العذبة الباردة الفائضة»، وأشار إلى في رحلة الإياب إلى

أن محطة الزوارات مُخصّصة للتزوّد بالماء في طريق العودة، كما أشار إلى عدم وجود الماء بالمحطة التي تلي النيش في اتجاه قابس وكذلك بالجرف قبالة جربة. وعن الزوارتين ذكر الإسحاقى بأن: «بهما ماء عذب أعقب الله لنا به ما كنّا نشربه قبله من الملح الأجاج». وأكد الورثيلاني خبث المياه في المسافة الفاصلة بين عرام والزوارات باستثناء بئر السلطان، وذكر عن ماء الزوارات: «ماؤه عذب حلو أحسن المياه من عرّام إليه، وكلها خبيثة المياه إلا بئر السلطان». ووصف المصعبي زوارة في نظمه بأنها: «ذوات السواقي والنخيل الحسانا»، وذكر ابن عبد السلام في تشريقه جنوب وادي الزاس أو الدواير كما يُسميه وجود: «ماء أمرضر حار مالح»، وذكر حين حلوله بالزوارات الغربية مُشرقاً أن بها: «آبارا كثيرة عذبة معينة»، وذكر أبو العباس الفاسي في تشريقه أن الركب سقى من الزوارة الخالية، كما ذكر في رحلة إيّابه أن الناس استسقوا الماء بالزوارات الخالية: «ما يكفيهم إلى النيش»⁽⁶⁴⁾.

وقد حرص الرحالة على تعداد الأنهار التي يشقّها مسلك الركب مع بيان مدى إمكانية تواجد الماء بها، وهي من الشمال إلى الجنوب: وادي قابس، حيث أشار العياشي في حجّيته الصغرى إلى أن قابس تمثّل: «آخر البلاد التي فيها واد جار»، وجاراه في ذلك الناصري. وعن هذا الوادي ذكر القادري في رحلة ذهابه: «على نحو فرسخ من قابس، فيه أشجار وماء وعيون حوله باردة تصبّ فيه»⁽⁶⁵⁾. ثم في اتجاه الجنوب نجد وادي الزاس الذي مرّ به اليوسي في طريق ذهابه ذاكرة أن: «ماؤه عجيب، وحملنا منه ماء المسافة التي بينه وبين الزوّارات»، وأضاف: «وهو للشرب وطبخ الطعام، وأما الدواب والوضوء ونحو ذلك فالماء موجود إلا أنه أمرّ من الحنضل، ومن هذا الوادي ما ترى ماءً حلوًا يجري على وجه الأرض إلى نيل مصر... وأما الكل فأبيار ومعاطن»، ووصفه في رحلة إيّابه بأن: «ماؤه طيّب عجيب»، كما ذكره أبو العباس الفاسي في رحلة ذهابه حيث رُسم اسمه «وادي زز»، وأشار إلى أنهم تزوّدوا بالماء منه. وهو على الأرجح نفس الوادي جنوب عرّام الذي وصفه القادري في رحلة ذهابه بأنه: «وادي فيه مويّة»، ويسميه في رحلة إيّابه وادي عرّام ويذكر عنه: «وجدنا من الماء ما قضينا به المرام»، وكذلك دعاه ابن الطيب في رحلة عودته، والأكد أنه الوادي الذي عناه المصعبي في نظمه بأنه: «واد زلال فراتيا». وقد سمّاه ابن عبد السلام

(64) القادري، ص 77، 78؛ اليوسي، ص 90، 185؛ الناصري، 670/2، 675؛ ابن الطيب، ص 249، 562؛ الإسحاقى، 322/1؛ الورثيلاني، ص 130؛ المصعبي، ص 77؛ ابن عبد السلام، 311/1؛ الفاسي، ص 142، 176.

(65) العياشي، تعداد المنازل، ص 69؛ القادري، ص 75؛ الناصري، 165/1؛ وهو المعروف بوادي قابس أو وادي العيون. راجع عنه: محمد المرزوقي (1962)، ص 19-25.

«وادي الدوائر» وذكر أن: «ماؤه كثير عذب زمنه يحمل الماء لمرحلتين بعده وهو آخر المياه الجارية إلى النيل بمصر»، وحذر في موضع آخر من رحلته من أن التفريط في حمل ما يكفي من الماء من عرام - وادي الزاس يُفضي بالمسافرين إلى العطش الشديد بناحية بن قردان⁽⁶⁶⁾. وبالاتجاه نحو الجنوب الشرقي نجد وادي أم جसार الذي مرّ به ابن الطيب في طريق عودته والذي يصبّ في مستنقع مياه يُدعى المجسر ورسم العامري اسمه «المدسر»⁽⁶⁷⁾. وفي المجال نفسه أيضا مرّ به أبو العباس الفاسي في رحلة رجوعه بوادي الحلوف وأكد أنه «يكاد أن لا ينقطع منه الخنزير»⁽⁶⁸⁾. أما جنوب وادي الزاس فنجد واد السعدان الذي مرّ به ابن عبد السلام في طريق ذهابه⁽⁶⁹⁾، ثم وادي السمار وقد مرّ به جل متبعي المسلك المباشر⁽⁷⁰⁾، ثم واد أبي حامد الذي مرّ به الناصري في طريق عودته⁽⁷¹⁾، ثم وادي النباش وقد مرّ به الناصري في طريق عودته وكذلك ابن الطيب في رحلة ذهابه، مُشيرًا في رحلة عودته إلى أن الناس استسقوا منه، لكن أبي العباس الفاسي أشار إلى عدم استسقاء الركب منه⁽⁷²⁾. وبين النباش وفسّ كان على الركب عبور ثلاث مسارب مائئة صغيرة ذكرها ابن عبد السلام في رحلة ذهابه وهي: النحِيل ثم أهدير ثم جمل أو بو جمل، ويقول عنها: «وجميعها مياه مالحة في شدة المראה تتجرعها الدواب ومن بلغ حدّ السياق من الآدمي»⁽⁷³⁾. ثم نجد وادي فسي الذي وصف العياشي ماءه في رحلة ذهابه بأنه: «ملح أجاج لا يساغ، ولو مع الضرورة، وقد يجمد أيام الحرّ فيصير صباخا». كما مرّ به الناصري في طريق عودته، وكذلك ابن الطيب في طريق ذهابه أين وجده: «فارغا من الماء»، لكن أبو العباس الفاسي أشار في رحلة إياه إلى وجود: «غدير ماء يقال له وادي فسي»، استسقى منه الركب، وهو على الأرجح نفس الوادي الذي وصفه العياشي في رحلة ذهابه الأخيرة بقوله: «واد كبير أفيح تحف به مزارع كثيرة من الجانبين»⁽⁷⁴⁾. وشرق سواني بن قردان بات العياشي في رحلة ذهابه الأخيرة:

(66) القادري، ص 76 ؛ اليوسي، ص 89 ؛ ابن الطيب، ص 563 ؛ المصعبي، ص 76 ؛ ابن عبد السلام، 302/1 ؛ الفاسي، ص 141.

(67) ابن الطيب، ص 563 ؛ العامري، ص 94.

(68) الفاسي، ص 176.

(69) ابن عبد السلام، 302/1.

(70) العياشي، ماء الموائد، 129/1، 532/2 ؛ القادري، ص 76 ؛ الناصري، 676/2 ؛ ابن الطيب، ص 247، 563 ؛ ابن عبد السلام، 165/1 ؛ الفاسي، ص 142، 176.

(71) الناصري، 676/2.

(72) الناصري، 676/2 ؛ ابن الطيب، ص 248 ؛ الفاسي، ص 176.

(73) ابن عبد السلام، 309/1.

(74) العياشي، ماء الموائد، 129/1 ؛ الناصري، 676/2 ؛ ابن الطيب، ص 248 ؛ الفاسي، ص 176.

«قريبا من المجرى الذي هو في منتصف الطريق بين السواني وبرج الملح، لا يخلو في الغالب من ماء المطر، إلا أن الطريق لما كانت مسلوكة، لا يوجد به غالبا إلا بلل قليل لا يكفي القليل من الناس فضلا عن الركب»، وهو الذي عناه ابن عبد السلام في رحلة ذهابه بقوله: «مجرى ماء بالمقطع على رأس السبخة التي ما مثل ملحها ملح في الكثرة والجودة»، وهو على الأرجح موضع «المقطع» الذي بات به أبو العباس الفاسي في رحلة رجوعه⁽⁷⁵⁾.

أما الأعين والآبار (أو الأحاسي) والمواجل والسواني، فقد توزعت من الشمال إلى الجنوب على النحو التالي: عيون قابس، فقد ذكر القادري في رحلة ذهابه أن قابس: «ذات نخل كثير وأجنة وماء جار طيب غزير»، كما أشار ابن الطيب إلى هذه العيون في رحلة ذهابه، وأكد الورثيلاني وجود: «مياه كثيرة وبساتين» بقابس⁽⁷⁶⁾. ولعل أهم هذه العيون عين أزريق التي وصفها ابن عبد السلام بأنها: «من أطيب مياه البلد»⁽⁷⁷⁾. ثم نجد جنوب قابس عين التمول التي بات بها اليوسي في رحلة ذهابه ووصفها بأن: «ماؤها طيبة»، وهي على الأرجح ال: «موية» القريبة من زاوية زريق التي بات بها القادري في رحلة عودته⁽⁷⁸⁾. إثر ذلك ينفذ الحاج إلى قرى الحمارنة مثل زريق وكتانة ومارث التي وصفها ابن عبد السلام بأنها: «مداسر ذوات النخيل والمياه»⁽⁷⁹⁾، وقد ذكر الناصري انتصاب مارث على «عين غزيرة»⁽⁸⁰⁾، كما وصف القادري عرّام في رحلة ذهابه بأنها: «قرية ذات نخل وآبار»⁽⁸¹⁾.

وفي المجال الفاصل بين عرّام وبن قردان، مرّ الناصري في طريق عودته بموضع شلاكة على ربوة حيث استراح بسانية: «عذب ماؤها تسقي أشجارا قليلة ونخيلات»⁽⁸²⁾. ثم نجد «معطن سيدي مخلوف» الذي توقف فيه ابن عبد السلام ممّا يوحي بوجود تهيئة مائية ما هناك، وقد أشار أبو العباس الفاسي إلى وجود: «نخيل ومياه» حذو قبة سيدي مخلوف⁽⁸³⁾. ثم ذكرت آبار بوادي السمار التي وصفها ابن عبد السلام في رحلة ذهابه بأن: «آبار مائها

(75) العياشي، ماء الموائد، 129/1؛ ابن عبد السلام، 311/1؛ الفاسي، ص 176.

(76) القادري، ص 76؛ الناصري، 165/1؛ ابن الطيب، ص 246؛ الورثيلاني، ص 655.

(77) ابن عبد السلام، 274/1.

(78) القادري، ص 78؛ اليوسي، ص 89.

(79) ابن عبد السلام، 302/1.

(80) الناصري، 676/2.

(81) القادري، ص 76.

(82) الناصري، 677/2.

(83) ابن عبد السلام، 302/1؛ الفاسي، ص 176.

مرّ⁽⁸⁴⁾، ثم آبار في واد أبي حامد التي مرّ بها الناصري في طريق عودته ووصفها بـ: «عذب ماؤها»⁽⁸⁵⁾، ثم ماء النبش الذي عرّفه العياشي بقوله: «أحساء متعددة في أصل واد ولذلك تتردّد كثيرا، قل ما يوجد منها مصلوحا إلا واحد، وقد لا يوجد فيتعب الحجاج في إصلاحه، ومع ذلك فمأؤه ليس بذاك، تغلب عليه الحماة فيتغيّر بها لونا وريحا وطعما. وقد وردناه سنة أربع وستين أول يوم من الصيف فكاد الناس أن يموتا عطشا وهم نزول عليه لقلة الماء وخبثه، وكذلك وردناه قبل ذلك سنة تسع وخمسين ولقينا فيه مثل ذلك وأشد. وفي هذه السنة جئناه أوائل الربيع والبرد غالب فلم يضطرّ الناس إليه كل الاضطراب». كما مرّ الناصري بآبار وادي النبش في طريق عودته واصفا ماءها بأنه: «ماء أطيب وأعذب من ماء ابن قردان»، وذكر ابن عبد السلام ماء النبش واصفا إيّاه بأنه: «قليل لا بأس به»، ومن هذه الآبار بئر سقى منه الحجاج في رحلة أبي العباس الفاسي وذكر أن: «ماؤها عذب»⁽⁸⁶⁾. وقرب النبش يوجد آبار السلطان أو حاسي السلطان الذي ينمّ اسمه على وجود بئر مُستغلة ربما حفرت من قبل سلطة رسمية، وقد سمّاها اليوسي في رحلة ذهابه أبيار السُلطان وذكر عنها: «وماؤها عجيب إلا أنّه قليل، وجُلّ الناس لا يعرفونه»، وأشار الورثيلاني إلى طيبة مياه بئر السلطان وأنها تمثل استثناء في المسافة الفاصلة بين عَرام والزوارات، وأشار ابن عبد السلام في طريق ذهابه إلى: «آبار السلطان وماؤها ليس بذاك»⁽⁸⁷⁾. وجنوب النبش وغير بعيد عن آبار السلطان مرّ ابن الطيب «بعقلة آبار تسمى البحيرة» وصف ماءها بالرداءة والملوحة، ثم بـ «بئر يقال لها المويلحة» التي وُجد بها ماء: «يا ما أبرده، يا ما أغزره، يا ما أعذبه يا ما أميلحه، فجددنا من ذلك الماء النмир الطهر»⁽⁸⁸⁾.

أما سواني بن قردان فقد وصفها العياشي في رحلة ذهابه الأخيرة بقوله: «آبار كثيرة غزيرة الماء في بسيط من الأرض كثيرة المزارع»، وأضاف: «وعادة الحجاج أن يأخذوا ماء يومين فلأجل ذلك وقف الركب فيه برهة ريثما أخذ الناس حاجتهم من الماء وسقوا دوابهم واستقوا». ووصفها القادري في رحلة ذهابه بأنه: «موضعا فيه آبار عميقة شتّى، ماؤها غزير لكنه مرّ»، وفي رحلة عودته بأن: «ماءها مرّ جدا». وقد سماها اليوسي في رحلة ذهابه منهل ابن كِرْدان وقال: «والحجاج

(84) ابن عبد السلام، 302/1.

(85) الناصري، 676/2.

(86) العياشي، ماء الموائد، 129/1؛ الناصري، 676/2؛ ابن عبد السلام، 309/1؛ الفاسي، ص 142.

(87) اليوسي، ص 90؛ الورثيلاني، ص 130؛ ابن عبد السلام، 309/1.

(88) ابن الطيب، ص 248.

يُسَمُّونه ابن قَرَآن لُخُبْ ماء، وفيه أٌبْيَار عديدة، إِلَّا أَن مُرُورَةً مَائِهِمْ شديدة». ووصفها الناصري بأنها: «من أقبح المِياه»، وأضاف عن هذا الموضع: «وبه ماء كثير إِلَّا أَن فيه مرارة ما، وهو لزاوية عَكَارَة في الوقت، وبه آبار لا بأس بها لمن عرفها ووقف عليها». وأشار ابن الطيب في رحلة ذهابه إلى أن كامل الركب استسقى من بن قردان رغم ملوحة مائه وردائه. وذكر ابن عبد السلام أن بين قردان: «آبار كثيرة مالحة مرّة»، وأشار أبو العباس الفاسي إلى أن بغال الركب شربت من: «آبار بن قردان»، ووصف ماء هذه الآبار بأنه: «غير عذب مُغَيَّر اللون»⁽⁸⁹⁾.

أما شرق بن قردان في اتجاه برج الملح، فقد ذكر القادري في رحلة عودته «المجل» (وردت الماجر في النص المطبوع) قرب الزكرة بين بن قردان وبرج الملح، وهو على الأرجح ماجن بالرجا الذي مرّ به الناصري في طريق العودة⁽⁹⁰⁾. وأخيرا أشار ابن الطيب في رحلة ذهابه إلى توفر الماء غير العذب قرب برج الملح⁽⁹¹⁾.

2- الأسواق

مثّل التزوّد بالموونة هاجسا أساسيا لدى الحجاج خلال سفرهم، فلأسباب لوجستية لم تكن وسائل نقلهم تسمح بحمل سوى مؤونة ومتاع أيام معدودة، لذا كانت الأسواق ضرورية لتلبية حاجياتهم الحياتية وللصيرفة كذلك. لا شك أن المدن الهامة كانت تمثل أسواقا مثالية على طريق الحج. وفي حالتنا، كانت مدينتي قابس وطرابلس التجمّعين السكنيين الكبيرين الوحيدتين اللذين يضمنان التسوّق للحجيج، لكن المسافة بينهما كانت تُناهز عشر مراحل، لذلك حتّ العياشي الحجاج في حجّيته الصغرى على أن يأخذوا من قابس الزاد وما يحتاجون إليه إلى طرابلس. وبالفعل، نجد في الكثير من نصوص الرحلة إشارات إلى تسوّق الركب بقابس وبقائه بالمدينة أكثر من يوم لأجل ذلك، فقد أشار الزبادي مثلا إلى الركب نزل قابس ليرتفق منها، وذكر الورثيلاني في رحلة ذهابه أن أهل قابس أتوا يتسوّقون مع الركب، وأكد في رحلة إيباه احتواء المدينة: «أسواقا كثيرة ودكاكين عظيمة»، وأشار ابن عبد السلام إلى أن وقوف الركب بقابس كان فرصة للمهادنة بين قبائل بني زيد والحزم ومن والاهما من أهل البلد حيث: «قامت بين الفرق مع الركب سوق في المحتاج للكل»⁽⁹²⁾.

(89) العياشي، ماء الموائد، 129/1 : القادري، ص 76، 78 : اليوسي، ص 90 : الناصري،

675/2 : ابن الطيب، ص 248 : ابن عبد السلام، 309/1 : الفاسي، ص 176.

(90) القادري، ص 78 : الناصري، 675/2.

(91) ابن الطيب، ص 249.

(92) العياشي، تعداد المنازل، ص 70 : الزبادي، ص 26 : الورثيلاني، ص 127، 655 : ابن

عبد السلام، 288/2.

وأثناء المسافة الفاصلة بين قابس والزوارات، حرص الرحّالة على الإشارة إلى مقدار خلوّ المناطق من العمران، ممّا يعني ضرورة اعتماد الركب على نفسه وعدم التعويل على احتمال وجود سوق، فقد أكد العياشي في حجّيته الصغرى أن مسافة الثلاثة أيام الفاصلة بين جربة وبين قردان: «خلاء»، وذكر في رحلة ذهابه الأخير وجود: «آثار قرى خالية» بسواني ابن كردان، وأكد الناصري ذلك في رحلة ذهابه إذ شهد بأن: «آثار العمارة قد دثرت» بهذه السواني. وذكر ابن عبد السلام عن بن قردان أن بها: «آثار عمارة سالفة»، وأن أمير تونس حاول بناء مدرسة بالموضع لتعميره. وذكر ابن الطيب في رحلة ذهابه عن وادي السمار أنه: «على غير عمارة»، وأن المسافة بين هذا الوادي والساحل المطل على جربة مليئة ب: «الغدران الملحة الغرارة»، وفي وصفه لنبتش الذيب أشار إلى وجوده في أرض قفراء كما: «استولى على الأبنية التي حوالها الخراب»، وذكر ما رآه في نواحي بن قردان: «من الآثار التي استولى عليها الاندثار وعظيم الأبنية والمقابر والقباب... وعلى الجوامع وعالي الصوامع ما يُنبئ عن تقدّم عمران عظيم كان بتلك الناحية الفسيحة المساحة»، وفي طريق عودته ذكر عن الشوشة شرق بن قردان أنها: «أرض متسعة سميت بذلك لكثرة ما بها من النبات المسمّى بالشوشة». وذكر ابن عبد السلام في رحلة ذهابه أن المسافة الفاصلة بين وادي السمار وآبار السلطان عبارة عن سبخة يتجاوز عرضها الفرسخ (حوالي 5 كم)⁽⁹³⁾.

لكننا لاحظنا انتصاب أسواقا موسمية بمناسبة مرور الركب في القسم الذي نهتم به، لعل أهمّهما تلك التي كانت تقام بجرف جربة أو بأبي غرارة على الساحل والتي تُفسّر انحراف مسلك الركب أحيانا نحو الجزيرة. ونجد في نصوص الرحّالة تفاصيل عن ظروف انتصاب هذا السوق والسلع المتبادلة فيه، فقد نصح العياشي الحجاج في حجّيته الصغرى بقوله: «وبها فبيعوا ما وجدتم قيمته من دوابكم، فإنهم يرغبون في اشتراء الدواب أكثر من غيرهم، وكل ما وجدتم من الإبل الرخيصة من بسكرة إلى طرابلس فاشتروها، واشتروا من جربة ما تحتاجون إليه من زبيب وزيت، وأكثروا من شراء الثياب من هناك فإنكم تحتاجون إليها كثيرا في برقة». كما أشار ابن الطيب في رحلة إيباه إلى نزول الركب بجرف جربة وانتصاب السوق به بقوله: «وخرجت المراكب الموسوقة والأقوام الموسوقة، وقامت هناك سوق عظيمة بين أهلها وبين الحجاج»، وأضاف: «وامتلأت بكل ما ينفع ويحتاج ولا سيما السمك والزيت والفواكه». وفي نفس الموضوع ذكر الإسحاق: «وخرجت الجربة بقصد عمارة السوق مع الركب»، ويضيف عن جربة عموما أن بها: «فواكه كثيرة طيبة يتعرّضون للحجاج

(93) العياشي، تعداد المنازل، ص 73 : العياشي، ماء الموائد، 1/129 : الناصري، 1/165 : ابن الطيب، ص 247-248 : ابن عبد السلام، 1/302.

بها في أوقاتها». ويذكر ابن عبد السلام عن موقع أبي غرارة: «وبه يقع التسوق غالبا مع أهل جربة لقربه من جزيرتهم»⁽⁹⁴⁾.

أما بقية الأسواق الموسمية أو الظرفية، فنذكر منها ما أشار إليه الفاسي بموقع سيدي سلام بقوله: «أتى أهل تلك البلاد بالغنم للبيع وبالسمن والشعير، ووجدنا الزرع عندهم في السبيل»⁽⁹⁵⁾، أو تلك التي عاينها الناصري في رحلة ذهابه بين قردان وبين الركب وقبائل عكارة وأولاد سيدي عبد النبي وأولاد ابن مريم وأولاد نوير (وهم فرع من عكارة) الذين: «أتوا بكثرة الإبل واشترى الناس واشترينا نحو خمسة عشر بعيرا»⁽⁹⁶⁾، وكذلك السوق المنصوصة في رحلة ذهاب ابن عبد السلام، وهي التي قامت بمزارع سيدي محمد بن علي الحمدوني قرب آبار السلطان والذي نصبته قبيلتنا ورغمة وابن مريم وبعض من أهل جربة الذين كانوا: «يأتون بكثرة الفواكه والبرانس والثياب الرفيعة البالغة النهاية في الرقة والرطوبة»⁽⁹⁷⁾. كما أن توقف الركب بالزوارات كان فرصة للتبادل التجاري حيث ذكر ابن الطيب في رحلة ذهابه: «واشترينا من أهلها الزبيب والتين وقضينا منهم بعض المصالح»، وذكر ابن عبد السلام في رحلة إياه أن أهل البلد: «خرجوا لتسويق الركب ومكاتل التين على رؤوسهم»⁽⁹⁸⁾.

115

ولا نستبعد أن تمارس القبائل التي تعترض ركب الحج الممارسة نفسها، ولعله أحد أسباب ذكرها من طرف الرحالة مثل الحمارنة الذين التقاهم العياشي في رحلة ذهابه الأخيرة بين قردان، أو عكارة وأولاد سيدي عبد النبي وأولاد ابن مريم وأولاد نوير التي ذكرها الناصري في جهة بن قردان أيضا، وكذلك نجع الحمارنة الذي التقاه بوادي السمار، وبني مريم الذين ذكرهم ابن الطيب في رحلة ذهابه بعقلة آبار البحيرة، وقبائل النوايل وأولاد مريم وأولاد عبد النبي التي ذكرها كل من الورثياني وابن عبد السلام وأبو العباس الفاسي غرب برج الملح⁽⁹⁹⁾.

أخيرا فكان يتم في أغلب الأحيان التقاء ركبَي الحج المشرق والمغرب في المسافة الفاصلة بين قابس وطر ابلس، وهو ما أشار إليه مثلا العياشي في

(94) العياشي، تعداد المنازل، ص 72 ؛ ابن الطيب، ص 563 ؛ الإسحافي، 314/1 ؛ ابن عبد السلام، 302/1.

(95) الفاسي، ص 176.

(96) الناصري، 165/1.

(97) ابن عبد السلام، 305/1.

(98) ابن الطيب، ص 249 ؛ ابن عبد السلام، 888/2.

(99) العياشي، ماء الموائد، 129/1 ؛ الناصري، 165/1 ؛ ابن الطيب، ص 248 ؛ الورثياني، ص 650 ؛ ابن عبد السلام، 311/1.

حجّيته الصغرى وفي رحلة ذهابه الأخيرة⁽¹⁰⁰⁾، ولا نستبعد أن تنتصب سوقا للمبادلات بين الركبين بهذه المناسبة.

ونشير إلى أن وجود هذه الأسواق، موسمية كانت أو ظرفية، مؤشّر على استتباب نسبي للأمن بالطريق، نتج في تقديرنا عن وعي القبائل بقدرتها على الاستفادة من عمليات التسوّق أكثر من ممارستها للنهب. لكن الحراة والسرقة لم تنقطع تماما من هذه الطريق حسب شهادات الرّحالة أنفسهم، فقد ذكر العياشي في رحلة ذهابه بعد مجاوزة النّيش سلب اللصوص لأوّل الركب، وذكر الورثيلاني غارات الأعراب على إبل الركب، وذكر الفاسي أن النوايل معروفين بالنّهب للحجّيج⁽¹⁰¹⁾، ورغم ذلك فإن الشهادات حول الأمن وعدم تعرض الركب في جل المراحل التي نهتم بها للقلائل كانت أكثر، فالإسحافي مثلاً وصف جهة بن قردان برج الملح كالتالي: «أما اليوم فهذه البلاد كلها مأمونة»، وذلك بعد تذكيره باشتهار منطقة وزدر - برج الملح بسرقة متاع الحجّاج⁽¹⁰²⁾.

3- طريق الصّلاح والولاية

كانت الزوايا معالما للطريق، كما تحوّلت قبور بعض الحجّاج إلى مزارات وزوايا. وقد حرص الرّحالة على زيارتها والمبيت بها خاصة وأنهم ينتمون إلى فئة الفقهاء أو العلماء المتأثرين بفكر الصّوف، ويُشير العياشي في حجّيته الصغرى إلى أن زوايا الحجّاج تزداد في الكثرة انطلاقاً من توزر في رحلة التشريق⁽¹⁰³⁾، لكن نُبّه هنا إلى أن مصطلح الزاوية بالجنوب التونسي في بداية العصر الحديث لا يعني بالضرورة المعالم الولائية كما نعرفها اليوم، بل قد تشير إلى صنف من التجمّعات السكنية أو إلى المجالات الولائية التي تستوجب بحثاً منفرداً لم يُفرد بالدراسة إلى حدّ الآن. ويمكن تعداد مزارات الحجّاج من الشمال نحو الجنوب كالتالي.

كانت أهمية قابس مُقترنة بضريح أبي لبابة الأنصاري الواقع بمقبرة المدينة، حيث زاره جلّ الرّحالة وفي رحلتي تشريقهم وتغريبهم في أغلب الأحيان⁽¹⁰⁴⁾، ونعتقد أن توقف الركب به كان أحد الأسباب التي دفعت السلطة

(100) العياشي، تعداد المنازل، ص 73 : العياشي، ماء الموائد، 129/1.

(101) العياشي، ماء الموائد، 129/1 : الورثيلاني، ص 127 : الفاسي، ص 175.

(102) الإسحافي، 322/1.

(103) العياشي، تعداد المنازل، ص 68.

(104) وذلك بدءاً بالعياشي، تعداد المنازل، ص 69. ونلاحظ أن اليوسي (ص 187) لم يمتن من

زيارته في رحلة الإياب بسبب تفشي الطاعون بقابس آنذاك، وكذلك ابن عبد السلام في رحلة ذهابه الصغرى.

إلى إحداث مُركَّب معماري ديني به يتكوّن من الضريح والمسجد الملاصق له والمدرسة التي يسكنها الطلبة⁽¹⁰⁵⁾. ولم يكن أبا لبابة المزار الوحيد بقابس حيث حثّ العياشي في حجّيته الصغرى على زيارة من بقابس من الصالحين، وبالفعل، فقد ذكر منهم ابن الطيب في رحلة إياه أضرحة سيدي علي التواتي وسيدي عبد الله ناجي، وذكر عن هذا الأخير أنه كان من الصلحاء وكان أمير ركب الحاج، كما ذكر روضة سيد عبد الله ونقل رواية الأهالي من أنه حجام الرسول، كما ذكر وجود قبة أخرى على ربوة لم يعرف اسم صاحبها فزارها بالنية⁽¹⁰⁶⁾. ولم يكتف علماء الركب بزيارة الأضرحة، بل كان توقفهم بقابس مناسبة للالتقاء بفقهاء المدينة وصلحائها وطلبة العلم بها، مثلما أكد على ذلك العياشي في رحلة إياه، وابن الطيب في رحلة إياه، والورثيلاني في رحلتي ذهابه وإياه، وابن عبد السلام في رحلتي ذهابه وإياه⁽¹⁰⁷⁾.

أما جنوب قابس، فيدخل الركب في مجال الحمارنة الذين ارتبط اسمهم بالصلاح، فقد نعت العياشي في حجّيته الصغرى كلا من زريق وعرام بأنهما: «من بلاد السادات الحمارنة، وهم أهل خير وبركة»، ومدح الناصري «ساداتنا الحمارنة» الذين رافقوا ركبه من قابس إلى مارت، كما مدح الورثيلاني «فضلاء الحمارنة»، مُشيدا بمكانتهم لدى ركب الحجّ ومحلّة الأعراض على حد السواء. وأشاد ابن عبد السلام بالحمارنة وذكر أنهم: «ينتسبون للساقية الحمراء من سوس الأقصى، ولهم بهذا الساحل زوايا كثيرة، منها زريق البراني ومارت وعرام، وهو أهل زواياهم، وبها قبور أسلافهم مُعظمون عند الخاصة والعامة»⁽¹⁰⁸⁾.

ودقّق في العياشي في رحلة ذهابه الأخيرة بأن زريق تضمّ: «زاوية سيدي عبد الله بن عبد العزيز بن يحيى بن عبد الرحمان بن جابر، أحد السادات الحمارنة»⁽¹⁰⁹⁾، وقد حثّ في حجّيته الصغرى الحجاج على زيارته إن ما زال حياّ ونعته بأنه: «كبيرهم»، واجتمع في رحلة عودته الأخيرة بزريق ب: «سيدي محمد الصالح سيدي عبد الله بن عبد العزيز الحمروني»، الذي أدخله إلى محلّ تعبّد والده وبات عنده، كما ذكر الناصري في رحلة إياه: «قبر عبد

(105) انظر مثلا: الإسحاق، 303/1، 313؛ الزبادي، ص 26.

(106) العياشي، تعداد المنازل، ص 69؛ ابن الطيب، ص 564.

(107) العياشي، ماء الموائد، 533/2؛ ابن الطيب، ص 564؛ الورثيلاني، ص 129، 652؛ ابن عبد السلام، 288-289، 891/2.

(108) العياشي، تعداد المنازل، ص 71؛ الناصري، 165/1؛ الورثيلاني، ص 129، 651؛ ابن عبد السلام، 302/1.

(109) يظهر أنه المعروف الآن بسيدي عبد الله بوعجاجة.

اللَّهُ بن عبد العزيز الحمروني» بزريق⁽¹¹⁰⁾. وقد نعت القادري زريق في رحلة إِيَّابه بالزاوية⁽¹¹¹⁾ ولا نعلم عن أي زاوية يتحدّث. لكن الزاوية التي سيُصبح لها شأن في المنطقة فهي لسيدى سلام التي توجد مباشرة جنوب قرية زريق والذي لم تكن له علاقة نسبيّة بالحمارنة⁽¹¹²⁾، فقد تحدّث اليوسي عنها مُعرِّفاً إيَّاهَا بأنها: «رَوْضَة يُقال لصاحبها الشَّيخ سَلام»، لكن الحسن اليوسي رفض زيارتها لعدم اعتقاده في صلاح مُنتسبها، بينما زارها ابن عبد السلام وسَمَّاهَا «زاوية سيدي سلام أبو غرارة»، وزارها كذلك أبو العباس الفاسي في رحلتي ذهابه وإيَّابه⁽¹¹³⁾.

أما مارث فقد زار بها ابن الطيب في رحلة ذهابه جملة من صلحائها مثل سيدي سالم قبيلة وسيدي عبد الله المغربي، الذين لا يظهر عليهم صلة قرابة بالحمارنة⁽¹¹⁴⁾. ونجد مُباشرة جنوب مارث قرية عَرَّام معقل الحمارنة بامتياز، إذ وصف العياشي عَرَّام في رحلة ذهابه الأخيرة بأنها: «قرية صغيرة فيها مزارات كثيرة غالبها من السادات الحمارنة إذ بها مقابر أسلافهم سيدي يحيى وغيره من أكابرهم، وهم إلى الآن يقصدونها للدفن من الأماكن البعيدة إلا سيدي عبد العزيز المتقدّم فإنه دُفن بجانب زاويته بزريق»، وقد حثّ في حجّيته الصغرى الحجاج على زيارة أسلاف الحمارنة بعَرَّام، وأشار الناصري في رحلة إِيَّابه إلى مقبرتها التي دُفن بها أسلاف الحمارنة وإلى دعائه الله عندها. وزار ابن الطيب في رحلة ذهابه: «مقبرتها الحفيلة المشتملة على قباب»، وسأل أهل البلد عن أسماء من شملته قبابها فعرض في كتابه أسماء 15 من السادات الحمارنة إضافة إلى وليّ آخر وهو سيدي ميدون المراكشي. وفي رحلة عودته، عرّف هذه القرية بأنها: «ذات المقبرة الحافلة بالأعلام». وعرّف الزيايدي عَرَّام بأنها: «مزارات كثيرة متقاربة في أرض كثيرة الرمل»، ويُضيف: «ويقال للمزارات سادات عَرَّام وهي قباب كثيرة، وهم الآن يقصدونها للدفن من الأماكن البعيدة»⁽¹¹⁵⁾، وسَمَّى الورثيلاني المجال المحيط بعَرَّام: «بلد الحمارنة»، وذكر عن عَرَّام أنها: «محلّ أجدادهم وموضع خزائنهم، يسكنها من لا يقدر على البادية منهم... ومن مات منهم دُفن فيها، وفيها مزارات كثيرة وروضات مبنية». وتحدّث ابن عبد السلام عن زيارته: «للصالحين من أسلاف الحمارنة بعَرَّام»، وقام أبو

(110) العياشي، تعداد المنازل، ص 71 : العياشي، ماء الموائد، 532/2 : الناصري، 676/2.

(111) القادري، ص 78.

(112) حول زاوية سيدي سلام بزريق، انظر:

Othman A. (2017), pp. 249-263.

(113) اليوسي، ص 186 : ابن عبد السلام، 302/1 : الفاسي، ص 141، 176.

(114) ابن الطيب، ص 247.

(115) الزيايدي، ص 29.

العباس الفاسي في رحلتي ذهابه وإيابه بزيارة: «رجال العرّام (كذا)»، وعرفهم بأنهم: «عدة من الصالحين من الحمامنة عليهم قب»⁽¹¹⁶⁾.

وانطلاقاً من عرّام في اتجاه بن قردان، عدّدت بعض الرحلات أسماء أولياء أو صالحين كان الركب يمرّ بهم أو يتوقّف عندهم، فقد توقّف ابن عبد السلام في طريق ذهابه بـ«معطن سيدي مخلوف»⁽¹¹⁷⁾، ثم بمزارع «سيدي محمد بن علي الحمدوني»⁽¹¹⁸⁾، ثم بـ«كدية بها قبور الصالحين تدعى مصلى الشيخ الصيد»⁽¹¹⁹⁾. وعن سيدي مخلوف الذي يبدو أنه تحول إلى محطة للحجيج في مدّة متأخرة فقد توقّف به أبو العباس الفاسي في رحلتي ذهابه وإيابه وسماه سيدي مخلوف البهلول، وذكر أن: «عليه قبّة مبنية»⁽¹²⁰⁾.

وعند الوصول إلى سواني بن قردان، كان للحجّاج موعد آخر مع المعالم الولائية، إذ احتوى هذا الموقع حسب العياشي في رحلة ذهابه الأخيرة: «آثار قرى خالية ومسجد ومزارعة»، وعندما مرّ به الناصري في طريق عودته ذكر أنه: «لزواية عكارّة». أما الورثيلاني فأشار إلى نزوله في طريق ذهابه عند: «الشيخ الصياح»⁽¹²¹⁾ وزيارته له، وقد بات به أيضاً أبو العباس الفاسي في رحلة ذهابه، وقدم تفاصيل مهمة عن هذا المعلم بقوله: «هناك قب ثلاث، في إحداها قبور ثلاثة، على كل واحد دريز من خشب مكتوب بأحد الدراييز الذي هو بالصفّ الأول عن يمين المحراب: هذا ضريح المكرّم الأجل سيدي أحمد البكي (وقد يكون المكني) نفع الله به، وبالقبتين الباقيتين عدة مقابر من غير دريز»⁽¹²²⁾.

(116) العياشي، تعداد المنازل، ص 71 : العياشي، ماء الموائد، 1/128 : الناصري، 2/676 : ابن الطيب، ص 247 : الزبّادي، ص 29 : الورثيلاني، ص 652 : ابن عبد السلام، 1/302 : الفاسي، ص 141، 176.

(117) سيدي مخلوف المهبولي، وذكر في وثائق أخرى باسم سيدي مخلوف الفوّاري. تُرجع الرواية الشفوية قدمه إلى المكان لأواخر القرن السادس عشر صخبة بسيدي الصياح، أما الزاوية الحالية للولي فهي مُعادة البناء بصفة كليّة، ولم نجد بالمعلم سوى نقيشة بتابوت الولي تذكر تاريخ جمادى الثانية 1325 هـ/جويلية - أوت 1907 م.

(118) كذا ورد الاسم في المطبوع، ونرجح أن الحمدوني تصحيف للحمروني، لكن اسم المكان مندرج حالياً.

(119) اندثر اسم الشيخ الصيد حالياً، وأصبح اسم المكان يُدعى المصلّى.

(120) ابن عبد السلام، 1/302، 305، 309 : الفاسي، ص 142، 176.

(121) حول سيدي الصياح العكاري بين قردان، الذي تسبب الرواية الشفوية قدمه إلى الجهة من الساقية الحمراء، انظر: فتحي الجراي (2003)، ص 214-231.

(122) العياشي، ماء الموائد، 1/129 : الناصري، 2/675 : الورثيلاني، ص 130 : الفاسي، ص 142.

إن نصوص الرحالة شهادة ثمينة عن الوضعية المذهبية في منطقتي الأعراس والجفارة، فانطلاقاً من القرن 10 هـ/16 م، تراجع وجود الإباضية في هذه المناطق تماماً لفائدة المالكية، وبقيت الإباضية منحسرة في جزيرة جربة، حيث لم يُمَوِّث الرحالة الفرصة للإشارة إلى غلبة من نعتوهم بالخوارج هناك، وعددوا البعض ممّا اعتبروه شعائر غير لائقة من طرف فرعي الإباضية أي الوهيبية والنكارة، ومنهم من وصفهم بأهل الاعتزال أو الروافض⁽¹²³⁾. كما شهدت هذه النصوص بانتشار التصوّف وظاهرة الولاية بهذه المناطق، وهي ظاهرة بلغت حداً سمحت فيه للولي أو الصالح بتعويض الدولة في المجالات التي تغيب عنها، مثل ما أشار إليه الورثيلاني في رحلة ذهابه من تدخل «فضلاء الحمارنة» لإرجاع جمل سرقها البدو من الركب بجهة قابس⁽¹²⁴⁾. وفي كل الحالات فلا شك أن دورية طريق الحج بهذا المجال كان سبباً في انتشار ظاهرة الصلاح والولاية، بل إن الأصول المغربية لهذا الركب ساهم في تقديرنا في نشأة الكثير من الأساطير المؤسسة التي تجعل من جذور الكثير من الأولياء والقبائل المرابطية وحتى القبائل الأخرى مرتبطة بالشرف وبجهة الساقية الحمراء.

خلاصة

تمكّنّا في نهاية هذا البحث من ضبط مسالك طريق الحج المغربي ومحطاته بمنطقتي الأعراس والجفارة، أي بالقسم الرابط بين قابس وبرج الملح، ومعرفة مدى ارتباطه بشبكات الماء والتهئية المائية بالمنطقة، إضافة إلى دور الأسواق وشبكة التصوّف والولاية في تشكيله. وهي نتيجة تُيسّر متابعة البحث في تاريخ هذه الجهة وجغرافيتها التاريخية عبر العصور. ومن أهم الملفات التي قد تفتح أو يُعاد فتحها بهذه المناسبة، ملف مدى تطابق طريق الحج الحديث مع الطريق (أو الطرق) الرابطة بين قابس وطرابلس التي أشار إليها الجغرافيون والرحالة في العهد الوسيط مثل اليعقوبي وابن حوقل والبكري والإدريسي والعبدي والتجاني، وكذلك الطرق التي اتبعتها الغزاة والجنود القادمين من وإلى قابس. وبالإمكان أيضاً البحث في إمكانية التطابق بين طريق الحج هذه مع الطريق الرومانية الرابطة بين «تاكاباس» و«لبدة الكبرى»، مع الملاحظة أن موقع جل المحطات في الطرق القديمة والوسيلة المشار إليها ما زال مجهولاً.

(123) ابن عابد، ص 89؛ الناصري، 1/163؛ الإسحافي، 1/315؛ الحضيكي، ص 88؛ ابن عبد السلام، 1/305.

(124) الورثيلاني، ص 127، 128.

ملحق : الترتيب الزمني لرحلات الحج التي سلكت طريق قابس - برج الملح

المرحلة	تاريخ مروره بطريق قابس برج الملح	الاتجاه	المصدر
1 ابن عابد	رمضان-شوال 991 هـ/أكتوبر 1583 م	مُشرق	رحلة ابن عابد، ص 86-89.
2 ابن أبي محلي	1001 هـ/ 1592 م	مُشرق	أصليت الخريت، ص 100.
3 المجاجي	جمادى الأولى 1064 هـ/مارس 1653 م	مُغرب	رحلة المجاجي، ص 180-190.
4 العياشي	1064 هـ/ 1653 م	مُشرق	تعداد المنازل، ص 69-73.
5 العياشي	رجب 1072 هـ/فيفري-مارس 1662 م	مُشرق	ماء الموائد، ج 1، ص 127-131.
6 العياشي	شعبان 1074 هـ/مارس 1664 م	مُغرب	ماء الموائد، ج 2، ص 532-533.
7 القادري	شعبان 1100 هـ/ماي-جوان 1689 م	مُشرق	نسمة الأس، ص 75-77.
8 القادري	رمضان 1101 هـ/جوان 1690 م	مُغرب	نسمة الأس، ص 78.
9 اليوسي	شعبان 1101 هـ/ماي 1690 م	مُشرق	رحلة اليوسي، ص 89-90.
10 اليوسي	رمضان 1102 هـ/ماي-جوان 1691 م	مُغرب	رحلة اليوسي، ص 185-187.
11 الناصري	شعبان 1121 هـ/أكتوبر 1709 م	مُشرق	الرحلة الناصرية، ص 163-166.
12 الناصري	جمادى الثانية 1123 هـ/جويلية 1711 م	مُغرب	الرحلة الناصرية، ص 670-691.
13 ابن الطيب	شعبان 1139 هـ/ماي 1727 م	مُشرق	الرحلة الحجازية، ص 246-249.
14 ابن الطيب	رمضان 1140 هـ/أفريل-ماي 1728 م	مُغرب	الرحلة الحجازية، ص 562-566.

15	الإسحافي	شعبان 1143 هـ / فيفري 1731 م	مُشرق	رحلة الوزير، ج 1، ص 309-322.
16	العامري	1152 هـ / 1739 م	مُشرق	الرحلة العامرية، ص 94.
17	الحضيكى	شعبان 1152 هـ / نوفمبر 1739 م	مُشرق	الرحلة الحجازية، ص 87-88.
18	الزيادي	شعبان-رمضان 1158 هـ / سبتمبر 1745 م	مُشرق	بلوغ المرام، ص 26-29.
19	الزيادي	رمضان-شوال 1159 هـ / أكتوبر 1746 م	مُغرب	بلوغ المرام، ص 332.
20	الورثيلاني	رجب 1179 هـ / جانفي 1766 م	مُشرق	نزهة الأنظار، ص 127-130.
21	الورثيلاني	شوال 1181 هـ / فيفري 1768 م	مُغرب	نزهة الأنظار، ص 649-655.
22	المصعبي	شعبان 1196 هـ / جويلية 1782 م	مُشرق	رحلة المصعبي، ص 76-77.
23	ابن عبد السلام	شعبان 1196 هـ / جويلية 1782 م	مُشرق	الرحلة الناصرية الكبرى، 1/ 274-311.
24	ابن عبد السلام	رجب 1197 هـ / جوان 1783 م	مُغرب	الرحلة الناصرية الكبرى، 2/ 887-892.
25	العيني	شعبان 1198 هـ / جويلية 1784 م	مُشرق	رحلة لحج بيت الله، ص 292-295.
26	ابن عبد السلام	شعبان 1211 هـ / فيفري 1797 م	مُشرق	الرحلة الناصرية الصغرى، ص 110-112.
27	ابن عبد السلام	رمضان 1212 هـ / فيفري-مارس 1798 م	مُغرب	الرحلة الناصرية الصغرى، ص 234-237.
28	الفاصي	شعبان 1211 هـ / فيفري 1797 م	مُشرق	رحلة، ص 141-142.
29	الفاصي	رمضان 1212 هـ / فيفري-مارس 1798 م	مُغرب	رحلة، ص 175-176.

البليوغرافيا

1- المصادر

أ- أدب الرحلة الحجازية في العصر الحديث

ابن أبي محلي (أبو العباس أحمد بن عبد الله السجلمسي)، ت 1022 هـ/ 1613 م، الإصليت الخريت بقطع بلعوم العفريت النفريت، الباب الخامس، والمعروف ب: عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج إلى سادة مصر وقادة العصر، حققه عبد المجيد القدوري ونشره في كتاب: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، الرباط، 1991.

ابن الطيب (أبو عبد الله محمد الشرقي الفاسي)، ت 1170 هـ/ 1757 م، الرحلة الحجازية، تحقيق نورد الدين شوبد، أبو ظبي، 2013.

ابن عابد (أبو المحاسن يوسف بن عابد الفاسي)، ت 1048 هـ/ 1638 م، رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب إلى حضر موت، تحقيق إبراهيم السامرائي وعبد الله محمد الحبشي، بيروت، 1993.

ابن عبد السلام (محمد بن عبد السلام بن عبد الله الدرعي)، ت 1239 هـ/ 1823 م، الرحلة الناصرية الكبرى (جزآن)، تحقيق المهدي الغالي، الرباط، 2013.

_____، الرحلة الناصرية الصغرى، تحقيق محسن أخريف، الرباط، 2019. الإسحاق (الوزير أبو محمد عبد القادر بن محمد الشرقي)، ت بعد 1150 هـ/ 1737 م، رحلة الوزير الإسحاق الحجازية (جزآن)، تحقيق محمد الأندلسي، الرباط، 2017. الحُصَيكي (أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي)، ت 1189 هـ/ 1775 م،

الرحلة الحجازية، تحقيق عبد العالي لمدير، الرباط، 2011.

الزبادي (عبد المجيد بن علي المنالي الحسني المرادي)، ت 1163 هـ/ 1750 م، بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، 2006.

العامري (أبو عبد الله محمد بن الحاج التلمساني التازي)، ت حوالي 1170 هـ/ 1757 م، الرحلة العامرية، حققها محمد المنوني ونشرها في كتاب: من حديث الركب المغربي، تطوان، 1953، ص 88-104.

العياشي (أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر)، ت 1090 هـ/ 1679 م، رحلة العياشي الحجة الصغرى الموسومة ب: تعداد المنازل الحجازية أو التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز، تحقيق عبد الله الحمادي الإدريسي، بيروت، 2013.

الرحلة العياشية: ماء الموائد (جزآن)، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، أبو ظبي، 2006.

العيني (إبراهيم بن محمد التوماناري المسكداي السوسي)، ت حوالي 1199 هـ/ 1785 م، رحلة لحج بيت الله الحرام، لخصها محمد بن مسعود المعدري البونعامي، ت 1330 هـ/ 1912 م، أثبت الملخص محمد المختار السوسي في: المعسول، الدار البيضاء، 1963، ج 13، ص 283-300.

الفاسي (أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد القادر الفهري)، ت 1214 هـ/ 1799 م، رحلة، نشر علي فهمي

اليوسي (محمّد العياشي بن الحسن بن مسعود)، ت 1131 هـ/1719 م، رحلة اليوسي (1101-1102 هـ/1690-1691 م)، تحقيق أحمد الباهي، تونس، 2018.

ب- المصادر الأخرى

ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبي)، ت 367 هـ/977 م، صورة الأرض، تحقيق م. ج. دي خوي، ليدن، 1967.

ابن شاهنشاه (محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي صاحب حماة)، ت 617 هـ/1220 م، مضمار الحقائق وسر الخلائق، حقق مراد عرعار الفقرات الخاصة بحملة قراقوش على إفريقية (575-584 هـ/1180-1188 م)، تونس، 2012.

أبو زكرياء (يحيى بن أبي بكر الورجلاني)، ت 474 هـ/1081 م، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمان أيوب، تونس، الدار التونسية للنشر، 1985.

الإدريسي (أبو عبد الله محمد الحمودي الشريف)، ت 560 هـ/1166 م، نزهة المشتاق في إختراق الأفاق (جزآن)، تحقيق قابريالي وآخرون، نابولي، 1970-1978.

_____، أسس المهج وروض الفرج، حقق الوافي نوحى قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان، الرباط، 2007.

البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز)، ت 487 هـ/1094 م، المسالك والممالك (جزآن)، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، تونس، 1992.

التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد)، ت بعد 717 هـ/1317 م، رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1981.

خشيم الجزء الخاص بليبيا في: الحاجية من ثلاث رحلات، الرحلة الناصرية، الرحلة المنالية، الرحلة الفاسية، طرابلس، 1974.

القادري (أبو العباس أحمد بن عبد القادر الحسني الفاسي)، ت 1113 هـ/1721 م، نسمة الأس في حجة سيدنا أبي العباس، مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم ك 1418، الجزء العاشر ضمن مجموع، ورقة 106 و158 و. وحقق أحمد الباهي القسم الرابط بين بسكرة وطرابلس ذهابا وإيابا، ونشره في مقال: «جنوب الإيالة التونسية في رحلة القادري الموسومة بنسمة الأس في حجة سيدنا أبي العباس (1101-1100 هـ/1689-1690 م)»، في جعفر بن نصر ومراد عرعار والنوري بوخشيم (نشر)، الأرياف والآثار الريفية ببلاد المغرب والمتوسط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. أعمال الندوة العلمية الدولية السادسة (القيروان: 14، 15 و16 أفريل 2016)، تونس، 2017، ص 69-82.

المجاجي (عبدالرحمن بن محمد بن الخروب)، ت 1063 هـ/1653 م، رحلة المجاجي، تحقيق سعاد آل سيد الشيخ، دبي، 2017.

المصعبي (إبراهيم بن بجمان بن أبي محمد الثميني اليسجني)، ت 1232 هـ/1817 م، رحلة المصعبي، تحقيق يحيى بن بهون حاج امحمد، غرداية، 2006.

الناصرى (أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد الدرعي)، ت 1129 هـ/1717 م، الرحلة الناصرية (جزآن)، حققها عبد الحفيظ ملوكي المغربي، أبو ظبي، 2011. الورثيلاني (الحسين بن محمد السعيد)، ت 1193 هـ/1782 م، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب، بيروت، 1974.

التازي (عبد الهادي)، رحلة الرحلات. مكة
في مائة رحلة مغربية ورحلة (جزآن)،
لندن، 2005.

الجراي (فتحي)، «ملاحظات حول المركب
الجنائزي بسيدي الصياح ونشأة مدينة
بنقردان»، في سالم لبيض (إشراف)،
أعمال منتدى جرجيس العلمي للتاريخ
الاجتماعي : تاريخ المجتمع المحلي
وثقافته «الجنوب التونسي نموذجاً»
دورنا 2000-2001، جرجيس، 2003،
ص 214-231.

الحمد (محمد بن سعود بن عبد الله)،
موسوعة الرحلات العربية والعربية
المخطوطة والمطبوعة معجم
بيبلوجرافي، القاهرة، 2007.

شندول (محمد)، بن قردان الهوية والتاريخ،
تونس، 2019.

عبد المالك (سامي صالح)، درب الحجاج
المصري همزة وصل غرب العالم
الإسلامي بالحرمين الشريفين. دراسة
تاريخية - آثارية، جامعة أم القرى،
2005.

العوني (محمد العيادي)، قصر مدنين
الحضن الدافئ لورغمة، البناة والبنون،
تونس، 2014.

لبيض (سالم)، عكارة. في سوسولوجيا
القبيلة المغاربية، تونس، 2017.

لوياف (جيل)، تخوم ورغمة، تعريب منصور
بوليفة والهادي بودريالة، تونس، 2016.

مارتال (أندري)، تخوم تونس الصحراوية -
الطرابلسية (1881-1911)، الجزء الأول،
ترجمة الطيب النفاتي، تونس، 2015.

ماكمن (محمد)، الرحلات المغربية (ق).
12-11 هـ/17-18 م)، الرباط، 2014.

المرزوقي (محمد)، قابس جنة الدنيا،
القاهرة، 1962.

الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد)،
ت 670 هـ/1271 م، طبقات المشائخ
بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي
بمساعدة لجنة من الأساتذة، السيب /
سلطنة عُمان، 2016.

الشمأخي (أبو العباس أحمد بن سعيد بن
عبد الواحد)، ت 928 هـ/1522 م،
كتاب السير (3 أجزاء)، تحقيق محمد
حسن، بيروت، 2009.

مارمول كريخال، ت 1009 هـ/1600 م،
إفريقيا (3 أجزاء)، ترجمه عن الفرنسية
محمد حجي ومحمد الأخضر وأحمد
التوفيق وأحمد بنجلون، الرباط، 1989.

الوسيان (أبو الربيع سليمان بن عبد السلام
بن حسان)، عاش في النصف الثاني
من القرن 6 هـ/12 م، سير الوسياني
(3 أجزاء)، تحقيق عمر بن لقمان حمو
سليمان بوعصبانة، مسقط، 2009.

2- المراجع

أ- باللغة العربية

الباهي (أحمد)، «الملح ومقاطع الملح بإفريقية
في العصر الوسيط: مقاربة أولية»، بصدد
النشر في أعمال ندوة المناجم والمقاطع
بشمال إفريقيا من العصر القديم إلى
الآن (الحمامات، 19-21 أفريل 2018)،
تنظيم مخبر التراث، التاريخ والمجتمع:
تونس/المغرب/المتوسط، بكلية الآداب
والفنون والإنسانيات بمنوبة.

«طريق الحج المغربي بنفزاوة
خلال العصر الحديث»، بصدد النشر
في أعمال الندوة الثانية عن نفزاوة،
نفزاوة : مجال وتنمية وتراث (دور،
22-24 نوفمبر 2018)، تنظيم مخبر
النخب والمعارف والمؤسسات الثقافية
في المتوسط، بكلية الآداب والفنون
والإنسانيات بمنوبة والندوبية الجهوية
للشؤون الثقافية بقبلي.

ب- باللغات الأجنبية

- Jebri L. (2017), *Recherches archéologiques et historiques sur les établissements islamiques dans la ville de Gabès et de sa région* (3 vol.), Thèse de Doctorat en Sciences du Patrimoine, Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis.
- Lakhdar M. (1939), « Les étapes du pèlerin de Sijilmassa à La Mecque et Medine, in *Quatrième congrès d la fédération des Société savantes de l'Afrique du Nord. Rabat 18-20 Avril 1938*, Alger, II, pp. 671-688.
- Mrabet A. (1998), *Carte nationale des sites archéologiques et des monuments historiques, Gabes 147*, Tunis.
- Mrabet A. (2000a), *Carte nationale des sites archéologiques et des monuments historiques, Kettana 157*, Tunis.
- Mrabet A. (2000b), *Carte nationale des sites archéologiques et des monuments historiques, Mareth 158*, Tunis.
- Mrabet A. (2017), *Carte nationale des sites archéologiques et des monuments historiques, Koutine 169*, Tunis.
- Mzabi H. (1993), *La Tunisie du Sud-Est. Géographie d'une région fragile, marginale et dépendante*, Tunis.
- Othman A. (2017), « A propos d'un saint berbère et de son mausolée : Sidi Sallâm Boughrâra », in *Africa*, 24, pp. 249-263.
- Sethom H., Kassab A. (1981), *Les régions géographiques de la Tunisie*, Tunis.
- Zaghdoud A. (2006), *La Tripolitaine littorale tunisienne : L'occupation du sol dans l'antiquité*, Mémoire de D.E.A. en Histoire ancienne, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Sousse.

قرية برشانة والطريق بين الجم وصفاقس خلال الفترة الحفصية

جهاد الصويد⁽¹⁾

Résumé

“Borchana”, un petit village méconnu sur la route El Jem-Sfax à l’époque Hafside. Les sources nous informent qu’il s’agit d’une station qui se trouve non loin de la ville de Sfax et qu’il se distingue par un habitat éparpillé. Grâce à une prospection archéologique et une approche de géographie historique on a pu localiser ce petit village avec l’actuel marabout de Sidi Abd el Kefi.

Mots clés : Borchana, village, réseau routier, Hafside.

Abstract

“Borchana,” is a small unknown village on the El Jem-Sfax road during the Hafsid era. Sources inform us that it was a settlement not far from the city of Sfax and that it was distinguished by its dispersed habitat. Thanks to an archaeological exploration and a historical geography approach, we were able to locate this small village along with the existent marabout of Sidi Abd el Kefi.

Keywords: Borchana, village, road network, Hafsid.

المقدمة

تزخر المصادر التاريخية بمختلف أصنافها بالعديد من أسماء المواقع والقرى التي لا يزال الحسم في تحديد مواضعها بحاجة إلى مجهود مُضاعف يكون عبر المراجعة والاستفادة من إشارات النصوص التاريخية وعبر الأخذ بنتائج العمل الميداني والمسح الأثري. وتمثل برشانة أحد هذه المواقع التي لم يقع الحسم النهائي في تحديد موضعها، وهي موقع مفتاح في شبكة المسالك يمكن عبر تحديدها تحديد جزء من مسلك هام يمتد بين اللجم وصفاقس سلكه

(1) المعهد الوطني للتراث.

التجاني في رحلته خلال الفترة الحفصية وتواصل استغلاله على ما يبدو خلال الفترة الحديثة⁽²⁾.

1- برشانة في النصوص التاريخية

وردت تسمية برشانة بشكل متأخر في مصادر الفترة الوسيطة فقد ذكرها التجاني لأول مرة في رحلته عند وصفه لشبكة المعالم والمواقع والقرى في الجزء الممتد بين الجم وصفاقس وذلك مطلع القرن 8 هـ / 14 م وقد اعتبرها «قرية صغيرة ذات قصور مفترقة»⁽³⁾، وبقدر ما كانت إشارة التجاني مقتضبة بقدر ما كان تحديدها لبرشانة دقيقا من خلال توصيفها «بالقرية الصغيرة» ومن خلال تحديد موضعها الجغرافي بمجال إفريقية عامة وفي المسلك الممتد بين لجم وصفاقس بشكل أدق.

وقد برزت تسمية برشانة في مصدر ثان خلال القرن 9 هـ / 15 م، حيث أشار البرزلي في نوازه ضمن «مسائل الدماء والحدود والجنابات والعقوبات» إلى مسألة نصّها «سئل البرقي عن شرورة وقعت بين أهل برشانة حتى تصافوا فأحد الصفيين محمد بن عبد الحميد وبنو عمه (أولاد عمر) وصف آخر يقوم يعرفون بأولاد مرق الأرض ووقعت بينهم جراحات...»⁽⁴⁾.

128

ولا يقدم البرزلي في هذه المسألة أيّ توصيف لبرشانة إن كانت قرية أو شيء آخر كما أنّ نصّ النازلة لا يحتوي على أي مؤشر قد يساعد في فهم طبيعة برشانة المذكورة، وحتى «الصفيين» الذين تحدّث عنهم النازلة لا يمكن الاستفادة منهما في التحديد الجغرافي لبرشانة. غير أنّ محقق كتاب نوازل البرزلي يفيد في أحد هوامشه معلقا على الاسم قائلا «برشانة: من حصون الأندلس»، فهل الأمر يخص برشانة إفريقية التي تحدّث عنها التجاني أم أننا إزاء برشانه أخرى بالأندلس؟

توجد ببلاد الأندلس مثملا ذهب إلى ذلك محقق نوازل البرزلي تسمية برشانة، قال عنها الإدريسي عند تقديمه أقاليم الأندلس ومدنها «إقليم بجانة وفيه من المدن المرية وبرجة وحصون كثيرة منها مرشانة وبرشانة وطوجالة وبالش»⁽⁵⁾. تمثل برشانة الواقعة في بجانة من بلاد الأندلس حصنا، غير أنّ هذه

(2) تناول الأستاذ عبد الرزاق قراقب دراسة المسالك الواردة في رحلة التجاني بالجنوب التونسي، أنظر: Gragueb 1976, p. 25-44.

(3) التجاني، 1981، ص 67.

(4) البرزلي 2002، ج 6، ص 97.

(5) الإدريسي 1970-1982، ج 2، ص 537.

المعلومة لا يمكنها أن تساعد في الحسم إن كانت المسألة التي ذكرها البرزلي بشأن أهل برشانة تخص برشانة القرية الصغيرة بإفريقية أم برشانة أحد حصون إقليم بجانة بالأندلس.

إن المعطى الإضافي الذي يمكن تتبعه في هذه المسألة هو الشخصية الفقهية التي ورد عليها السؤال والمذكورة بعبارة «سئل البرقي»، فمن هو البرقي؟

لقدمكننا تتبع اسم «البرقي» في نوازل البرزلي من الوقوف على تواتر اسم هذا الفقيه وعلى تعدد المسائل التي طرحت عليه، وقد كانت العبارة المستعملة غالباً «سئل البرقي...»⁽⁶⁾ بالإضافة إلى الاستشهاد بموقفه الفقهي في مسائل أخرى متعددة يتم اقحام رأيه بعبارة «عن البرقي...»⁽⁷⁾ وأجازه البرقي...⁽⁸⁾ أو «أجاب البرقي...»⁽⁹⁾. ولئن كانت تسمية الفقيه «البرقي» تبدو عامة ولا تساعد في معرفة هذه الشخصية فإن إيراد اسمه في مناسبتين بعبارة «سئل أبو زكرياء البرقي»⁽¹⁰⁾ تحيلنا مباشرة إلى شخصية فقهية بارزة في تاريخ إفريقية خلال الفترة الوسيطة.

حيث يتعلق الأمر «بيحيى بن محمد بن عبد الرحمان أبو زكرياء البرقي المهدوي القاضي، ... قرأ عليه أبو القاسم بن حماد (الليبيدي) شيخ الوادياشي بالمهدية» وكان قاضياً بالمهدية وعُرف بكونه «إمام ورع صلب الأحكام» ولد سنة ست وخمسين وخمس مائة ومات على رأس الأربعين وست مائة⁽¹¹⁾ تتلمذ على يديه أيضاً «أبو محمد عبد السلام المسراتي وأبو موسى عمران بن معمر الطرابلسي وأخوه أبو علي الحسن وامتنح باستدعائه لحاضرة تونس مع تلميذه أبو علي المذكور، ثم رجع المهدية وبها توفي»⁽¹²⁾.

نحن إزاء شخصية فقهية بارزة في المهدية وفي إفريقية عامة عاشت بين النصف الثاني من القرن 6 هـ/12 م والنصف الأول من القرن 7 هـ/13 م تولى القضاء بالمهدية وهو ما يفسر حجم المسائل التي كانت تُعرض عليه من هاته الجهة. والملفت للانتباه أن المسائل التي كانت تُرسل إليه والتي وجدنا بها تحديداً لأماكن مُرسليها كان أصحابها من متساكني المهدية وصفاقس ومن قرى صغيرة

(6) أنظر على سبيل المثال: البرزلي 2002، ج 2، ص 310؛ ج 4، ص 316 و317، ج 5، ص 79.

(7) البرزلي 2002، ج 1، ص 614.

(8) البرزلي 2002، ج 2، ص 434.

(9) البرزلي 2002، ج 5، ص 486.

(10) البرزلي 2002، ج 2، ص 398، ج 3، ص 446.

(11) ابن الجزري 2017، ج 4، ص 123؛ ابن جابر الوادي آشي، 1981، ص 53-54.

(12) مخلوف، د. ت، ج 1، ص 244.

تمتد بينهما، مما يعني أن المجال الفقهي للبرقي كان كامل القسم الممتد بين المهديّة وصفاقس وهو ما يفسّر تولّيه النظر في «مسألة الشُرورة» الحاصلة ببرشانة المذكورة لدى البرزلي فالأمر يتعلق وبشكل مؤكد ببرشانة إفريقية.

واستنادا إلى تاريخ وفاة البرقي فإننا نعتقد أن قرية برشانة كانت موجودة خلال النصف الأول من القرن 7 هـ/ 14 م على الأقل، أي قبل أن يزورها التجاني بقرن من الزمن وأن الصراعات كانت على أشدها بين مجموعتين من متساكنيها وصل بهم الأمر إلى الاقتتال فيما بينهم.

الإشارة المصدرية الثالثة لبرشانة أوردها محمود مقديش في نزّهته، وهي إشارة متأخرة مقارنة بالإشارتين السابقتين فهي تعود إلى مصدر من مصادر الفترة الحديثة أوردها عند تقديمه لترجمة الشيخ علي بن عبد الكافي وهو «من مشايخ أهل صفاقس المشهورين بالفضل والصلاح»⁽¹³⁾ قال فيها «أما الجد الأعلى وهو سيدي عبد الكافي فله ضريح مشهور بقرية برشانة...»⁽¹⁴⁾. وتكمن أهمية هذه الإشارة في أنها ذكرت في إطار أحداث تعود إلى الفترة الحفصية إثر حادثة تعرّض لها الشيخ علي بن عبد الكافي (ابن عبد الكافي المدفون ببرشانة) برزت معها كرامات موثقة على حد قول مقديش بشهادة عدلين «بتاريخ أواخر صفر الخير سنة خمس وسبعمائة (19 سبتمبر 1305) وكتبه محمد بن محمد الرقيق ومحمد التميمي وكانا عدلين من عدول صفاقس»⁽¹⁵⁾ مما يعني أن الشيخ الصالح علي عبد الكافي كان من رجالات القرن 8 هـ/ 14 م فيكون عبد الكافي صاحب الضريح ببرشانة والمذكور في رواية مقديش بعبارة «الجد الأعلى» من رجالات النصف الثاني من القرن 7 هـ/ 13 م.

ولا نستبعد أن عبد الكافي المذكور في رواية مقديش بعبارة «الجد الأعلى»، قد كان من سكان قرية برشانة وعاش بها خلال النصف الثاني من القرن 7 هـ/ 13 م وقد يكون استقراره في برشانة في إطار تهدئة هذه الصراعات التي عرفتها القرية بين صفيين من أهلها والذي تواصل بينهما لسنوات وقد يكون أيضا في علاقة بتولّيه التدريس بالقرية حيث عرّفته الوثيقة الحفصية التي يذكرها مقديش بأنه «الشيخ الامام الخطيب المدرّس التقّي الواعظ... سيدي عبد الكافي»⁽¹⁶⁾ وهذا ما يفسر على الأرجح وجود ضريحه بهذه القرية، وهو ما قد يفيد أيضا بأن برشانة كانت أهلة خلال هذه الفترة وأنها نفس القرية التي

(13) مقديش 1988، ج 2، ص 303.

(14) مقديش 1988، ج 2، ص 306.

(15) مقديش 1988، ج 2، ص 306.

(16) مقديش 1988، ج 2، ص 303.

تمّ ذكرها في الإشارات المصدرية السابقة كقرية بالمجال الواقع بين صفاقس ولجم.

وتتفق بالتالي كل المصادر التي أوردت تسمية برشانة على وجود هذه القرية في المجال الممتد بين المهديّة وصفاقس وهي أقرب إلى مدينة صفاقس فما هي حقيقة المعطيات الميدانية؟

2- برشانة والمعطيات الأثرية

أ- التحديد المجالي لبرشانة

تؤكد المعطيات المصدرية بأن موضع قرية برشانة يكون أقرب إلى مدينة صفاقس وهو على مسافة أقل من نصف يوم تقريبا بحسب سياق حديث التجاني⁽¹⁷⁾ وتبدو المؤشرات التي يفيدنا بها مقديش العارف بمجال صفاقس عامة وبأضرحة وزوايا أوطانها وقراها أكثر دقة حيث أفادنا بأن بها ضريح «سيدي عبد الكافي» وهي توجد «بالقرب من قرية سيدي عيسى بن مسكين» على حد تعبيره⁽¹⁸⁾.

131

وقد أفادت بعض الدراسات حول تاريخ صفاقس بأن «برشانة كانت بطريق قرمدة»⁽¹⁹⁾ (الخريطة عدد 1) شمال المدينة على بعد 20 كلم ولم يبق منها اليوم إلا بعض أطلال» وبأن القرية قد «ذُكرت في بعض حجج عادلة بقصر برشانة وشريفات برشانة» مؤكدة⁽²⁰⁾ على غرار دراسات أخرى بأن بعض أسرها قد تحولوا إلى صفاقس مع اندثارها ابتداء من أوسط القرن 8 هـ/ 14 م⁽²¹⁾.

بالاعتماد على مجمل هذه المؤشرات وبالعودة إلى الخرائط الطبوغرافية⁽²²⁾ وبعد المسح الأثري للمنطقة والمعاينة الميدانية أمكن الوقوف على مجموعة من المعطيات:

(17) التجاني 1981، ص 67-68، ذكر التجاني «فاجتزنا صباحا على قرية صغيرة... تعرف ببرشانة» ثم يضيف «... ووصلنا إلى صفاقس ظهرا...».

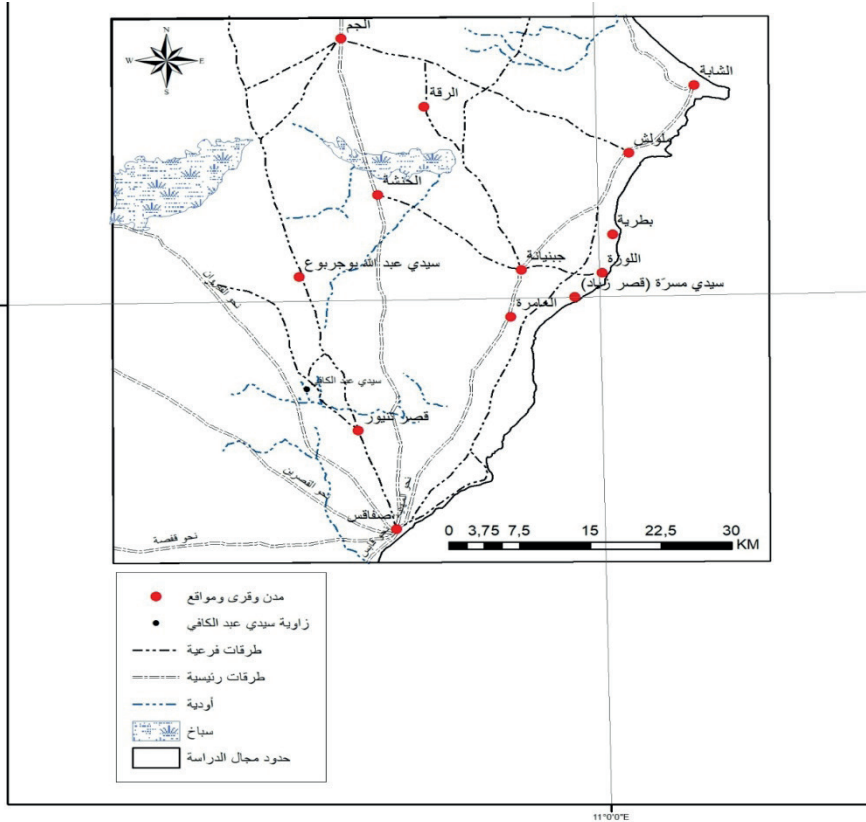
(18) مقديش 1988، ج 2، ص 306.

(19) هي الطريق الرابطة بين مدينة صفاقس ومدينة القيروان.

(20) عبد الكافي 1966، ج 1، ص 209-210، قدّم الكاتب صورة لما سماه «أطلال قصر برشانة»؛ وقد اعتبر روبر برنشفيك أن قرية برشانة لم تعد موجودة، أنظر برنشفيك 1988، ج 1، ص 341.

(21) حسن 1999، ج 1، ص 235-236.

(22) الخريطة الطبوغرافية سيدي اليتيم 1/50.000.



الخريطة عدد 1: سيدي عبد الكافي وشبكة الطرقات المعاصرة والقرى حول مدينة صفافس.

أولها، أن برشانة تمثل حالياً مجالا ترابيا له حدود مضبوطة ومتداولة لدى الأهالي (الخريطة عدد 2) يحدها من الجهة الغربية في مستوى الكلم 20 طريق قرمدة الرابط بين صفافس والقيروان ومن الجنوب «واد برشانة» ومن الشرق «واد بوفارس» ومسلك فلاحي يفصل بينها وبين «حماید البدارنة» وهو مسلك ينطلق من قصر تنيور ليتواصل بشكل متوازي معه⁽²³⁾ ويحدها من الشمال مسلك فلاحي يصل بين طريق قرمدة والمسلك المتفرع عن طريق تنيور اتجاهه شرق غرب وهو يفصل بين برشانة و«هنشير المهسهس»، وبوسط برشانة يمتد مجرى «واد سيدي عبد الكافي» الذي يقسم المنطقة إلى نصفين

(23) تسمية طريق تنيور تتواصل إلى مستوى قصر تنيور بعدها تصبح التسمية طريق أو ثنية مركز كمون بوجربوع.

تقريبا نصف شرقي ونصف غربي. وتتميز هذه المنطقة بوجود تربة خصبة وبوفرة للمجاري المائية مما جعلها أرضا فلاحية بامتياز⁽²⁴⁾.

ثانيا، تمثل برشانة تسمية لمنطقة ومجال وهي أيضا اسم لأحد أوديتها (واد برشانة) والذي يمثل حدّها الجنوبي، وبرشانة أيضا اسم لمعلم يُعرف «بقصر برشانة» هو أشهر معالمها بل إنّ هذا القصر قد كان يختزل عند الأهالي كلّ برشانة حيث مثل أحد أهم معالمها وأشهرها إلى حدود سبعينات القرن الماضي تقريبا وقد أفاد أبو بكر عبد الكافي بوجود تسمية «قصر برشانة» في بعض الوثائق العدلية دون أن يحدّد تواريخها ونشر صورة فريدة لهذا القصر (الصورة عدد 1)⁽²⁵⁾، كما ذكر هذا القصر في الخريطة الطوبوغرافية «سيدي اليتيم» بعبارة «قصر البشارنة» ksar Becharna⁽²⁶⁾.

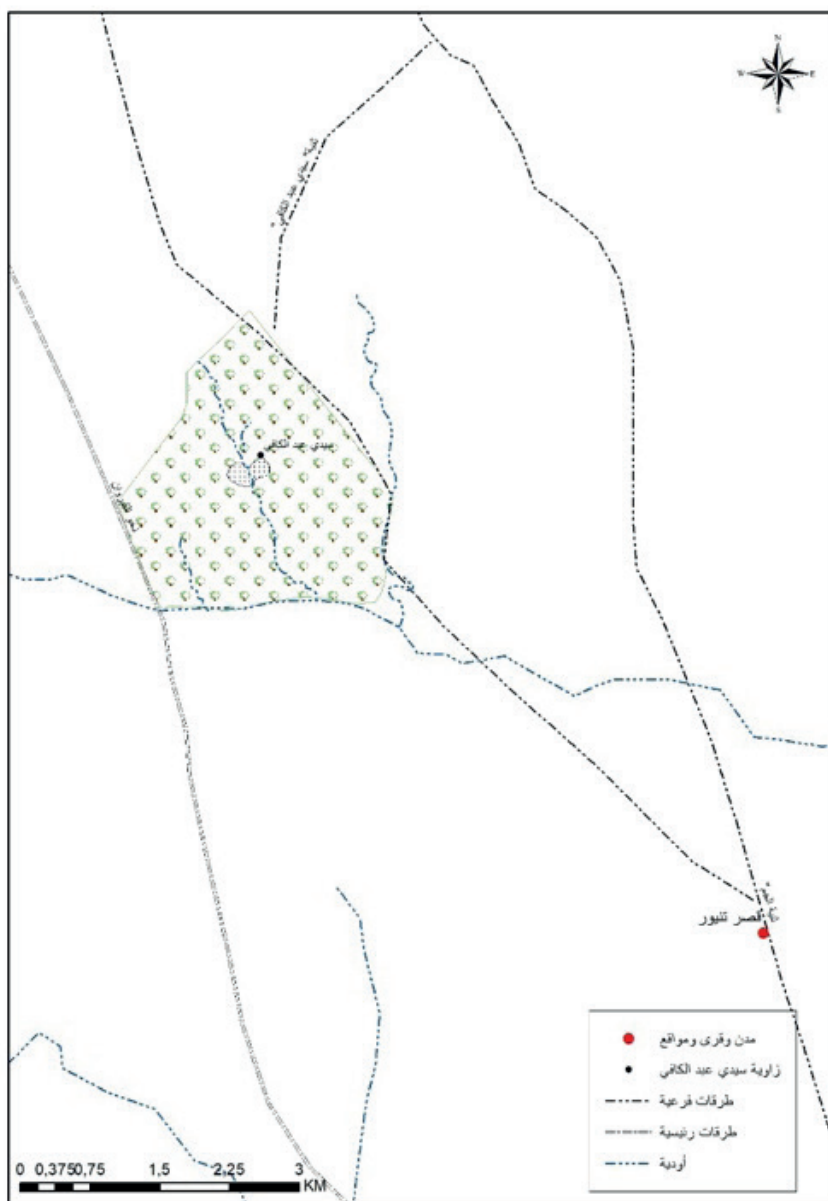
وقد مكّنا العمل الميداني من الوقوف على موقع «قصر برشانة» وهو موقع يمتدّ في الطرف الشمالي الغربي لمنطقة برشانة على بعد حوالي 200 م شرقي طريق قرمدة في وسط أرض فلاحية، ولم يبق من «القصر» سوى أسسه التي تأخذ شلا مستطيلا لها امتداد طولي بين الشمال والجنوب (3,5 X 5,5 م) حيث تعرّض المعلم على ما يبدو إلى أعمال تجريف انهارت بسببها جدرانها وبقيت شواهد وأجزاء منها على شاكلة كتل من الحجارة والجير (الصورة عدد 2).

ويمكن القول استنادا إلى ما أمكن العثور عليه واستنادا إلى ارتفاع وشكل نفس المعلم في الصورة التي نشرها عبد الكافي بأن الأمر يتعلق بمعلم معزول يُورّخ بالفترة القديمة حيث تنتشر حوله لقى خزفية مؤرخة بالفترة القديمة وهو ما يجعلنا نرجّح أن يكون قصر برشانة ضريبا من أضرحة الفترة القديمة ونستبعد بالتالي أن يكون هذا المعلم المعزول قرية برشانة الوسيطة.

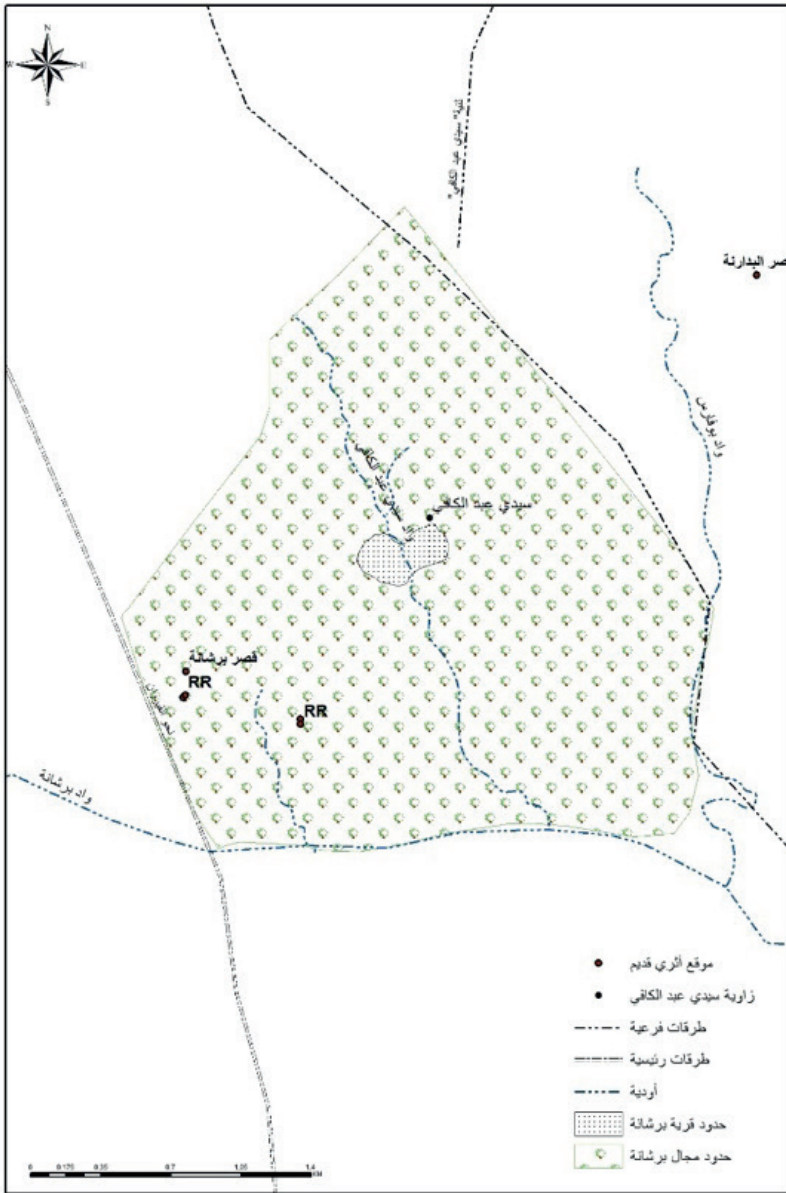
(24) تبلغ المساحة الجمليّة التقريبية لمنطقة برشانة حوالي 614 هكتار بحسب الحدود التي استقيناها من بعض الأهالي بالمنطقة

(25) عبد الكافي 1966، ج 1، ص 209-210.

(26) الخريطة الطوبوغرافية عدد 97 سيدي اليتيم 1/50.000.



الخريطة عدد 2: قرية برشانة ومجالها.



الخريطة عدد 3: حدود منطقة برشانة.

وقد أمكن أيضا العثور بهذا القسم الغربي بالقرب من قصر برشانة على موقعين أثريين آخرين مؤرخان بالفترة القديمة أيضا، يوجد الموقع الأول على بعد أكثر من 100 م جنوب «قصر برشانة» وهو موقع محدود الامتداد تعرض لعمليات حراثة عميقة ولا يبرز به إلا حجارة وبقايا من الملاط الجيري بالإضافة إلى خزف الفترة القديمة. ويوجد الموقع الثاني على بعد حوالي 1 كلم شرق الموقع السابق وهو موقع يمتد على مساحة تناهز الهكتار يخترقه مسلك فلاحي تبرز به أسس بعض الجدران التي تتواصل غربيه في حين تبرز شرقيّه تربة رمادية بها آثار حرق، وتنتشر بكامل الموقع لقى خزفية مؤرخة بالفترة القديمة.

ثالثا، إن المؤشر الأساسي الذي أفادنا به مقديش والمتمثل في وجود ضريح سيدي عبد الكافي بقرية برشانة يبقى المؤشر الأكثر دقة، وهو المفتاح الأساسي لتحديد موقع برشانة. وتؤكد الخريطة الطوبغرافية ما أفادنا به مقديش حيث يوجد ضريح يحمل تسمية «سيدي عبد الكافي» في وسط منطقة برشانة كما يوجد واد يمر بالقرب من المعلم المذكور يحمل اسم الضريح.

وقد مكنتنا المعاينة الميدانية من التحقق من وجود المعلم المذكور (الصورة عدد 3)، وهو بمثابة الزاوية متعددة المرافق لها امتداد طولي بين القبلة والجوف مدخلها الرئيس قبلي المفتح يفضي إلى صحن فسيح بضلعيه الشرقي والغربي غرف إقامة مختلفة الأحجام وبمحور واجهته الجوفية غرفة ضريح مربعة الشكل (الصورة عدد 4)، بجدرانها الداخلية أقواس جدارية (صماء) تنتهي في مستوى أركانها العلوية بصدفات تعلوها رقبة تحمل قبة نصف دائرية لمساء (الصورة عدد 5). وتحتوي الزاوية بالجهة الغربية منها على مرافق أخرى بعضها غرف إضافية للسكن وبعضها مخصصة للدواب والماشية وبالضلع الشرقي منها توجد مرافق سكنية إضافية مداخلها مستقلة عن مدخل صحن الزاوية. وتتوزع بالزاوية وبالقرب منها مجموعة هامة من الفسقيات بعضها بالزاوية الشمالية الشرقية وبعضها الآخر - وهي الأهم على مستوى الحجم والعدد- تتقدم الزاوية من الجهة الجنوبية الشرقية، كما تبرز بالقرب من الزاوية بالجهة الشمالية الشرقية مقبرة محدودة الامتداد.

وتحتل زاوية سيدي عبد الكافي الركن الشمالي الشرقي من موقع تبلغ مساحته الجمالية خمسة هكتارات يخترقه واد سيدي عبد الكافي الذي يقسمه إلى قسمين (الصورة عدد 6). يمتد القسم الأول للموقع شرقي الواد على مساحة تناهز الأربع هكتارات تبرز به آثار حجارة وأسس بعض الجدران بالإضافة إلى تواجد كثيف للخزف الإسلامي المؤرخ بالفترة الحفصية بين القرنين 13 م و15 م (الصورة عدد 7).

يمتد القسم الثاني للموقع غربي وادي سيدي عبد الكافي على بعد حوالي 50 م من الأول تبلغ مساحته حوالي الهكتار الواحد يكون أكثر ارتفاعاً من الموقع السابق وأكثر تضرراً على المستوى الأثري نتيجة أعمال الحراثة المتتالية وتبرز به بقايا حجارة وآثار ملاط جيري على كامل الموقع بالإضافة إلى تواجد كثيف للخزف المؤرخ بالفترة القديمة وبعض اللقى الخزفية المؤرخة بالفترة الحفصية. ويمتد بهذا القسم من الموقع معلمين مائيين بالقرب من واد سيدي عبد الكافي يأخذ الجنوبي شكلاً أقرب إلى الاستطالة ويكون الشمالي دائري الشكل (الصورة عدد 8).



الصورة عدد 1: قصر برشانة خلال الستينات⁽²⁷⁾



الصورة عدد 2: ما بقي من قصر برشانة حالياً

(27) الصورة من كتاب: عبد الكافي، ن.م.، ج 1، ص 209.



الصورة عدد 3: زاوية سيدي عبد الكافي



الصورة عدد 4: الأقواس الجدارية بغرفة الضريح



الصورة عدد 5: الواجهة الخارجية لغرفة الضريح



الصورة عدد 6: زاوية سيد عبد الكافي وموقع برشانة بقسميه الشرقي والغربي.



الصورة عدد 7: مُنشأة مائية



الصورة عدد 8: خزف حفصي بموقع برشانة

إن وجود زاوية سيدي عبد الكافي بالموقع واللقى الخزفية المؤرخة بالفترة الحفصية تجعلنا نعتبر أن هذا الموقع بقسميه الذين يفصل بينهما وادي سيدي عبد الكافي هو موقع قرية برشانة المذكورة في المصادر الحفصية، وهي قرية وريثة موقع يعود للفترة القديمة مثلما يؤكد ذلك الخزف القديم بالموقع. ولا نستبعد أن هذه القرية قد مثلت في السابق جزءا من أملاك الامبراطور الروماني، فاللاحقة «انة» في كلمة برشانة قريبة من اللاحقة «يانة» التي عادة ما تكون في علاقة بملكيات الامبراطور الروماني⁽²⁸⁾. وتتواتر هذه «اللاحقة» في تسميات العديد من القرى القريبة من برشانة في وطن صفاقس مثل قليانة وشريانة وبليانة وفريانة⁽²⁹⁾ وجريانة وجبنيانة وزليانة⁽³⁰⁾، وأصبحت بعض هذه القرى خلال الفترة الوسيطة ضيعات أميرية وتواصلت ملكيات بعضها الآخر لرجال الدولة خلال نفس الفترة⁽³¹⁾.

ولئن بدت قرية برشانة صغيرة ومحدودة الامتداد مثلما وصفها التجاني، فإننا لم نتبين أثريا ما قصده صاحب الرحلة في وصفه للقرية بقوله «ذات قصور مفترقة»⁽³²⁾ فما القصر وما معنى مفترقة؟

(28) حسن 1999، ج 1، 236.

(29) El Behi 2008, p. 254.

(30) عبد الكافي 1966، ج 1، ص 204-205؛ حسن 1999، ج 1، 236؛ الصويد 2003، ص 74.

(31) حسن 1999، ج 1، ص 236.

(32) التجاني 1981، ص 67.

ب- برشانة القرية القصر

تواتر استعمال التجاني لمصطلح «القصر» في رحلته فوردت بصيغة الفرد أحيانا مثل «أم الأصابع» التي قال عنها «... قصر شيد في سالف الزمن بنيانه»⁽³³⁾ وبصيغة الجمع في أحيان أخرى مثل «قصور الوردانين» أو قصور برشانة موضوع الدراسة، وكانت هذه القصور أبرز سمات المشهد التعميري بالساحل القديم خلال القرن 8 هـ/14 م حيث أفاد التجاني بعد مغادرته مدينة سوسة قائلا «واكتفنا في أثناء هذه المرحلة من اليمين والشمال قصور متفرقة وقرى كثيرة قد أخلتها العرب وأجلت ناسها»⁽³⁴⁾.

ويأخذ مصطلح القصر في البلاد التونسية عدة معاني فهو يعني أحيانا ضريحا أو بناية قديمة وفي أحيان أخرى قصرا أميريا أو قرية حول رباط (مثل قصر زياد وقصر قبودية...) أو سكنا محصنا منعزلا كان أو مجمعا سواء كان في الجبال أو في السهول مثل قصور المهدية وقصور الوردانين⁽³⁵⁾. وقد ظهر القصر كسكن مُحصّن منذ العصر الوسيط المبكر، وانتشر خاصة انطلاقا من القرن 6 هـ/12 م بالتزامن مع انخراط الأوضاع الأمنية ببادية إفريقية، وهو يتميز بوجود سور خارجي يحيط بمنازل متراصة حول ساحة متوسطة يكون لها مدخل وحيد⁽³⁶⁾.

وقد كان التجاني شاهدا خلال القرن 8 هـ/14 م على تقنيات البناء المعتمدة في تشييد مثل هذه القصور، فخلال حديثه عن القرى التي مر بها بعد سوسة ذكر «بزرمدين حصن حصين أسفله حجارة وأعلاه طين يأوي إليه أهله وبخارجه مقبرة...». ويبدو أن ما وصفه الكاتب هي تقنية الطابية (التراب المدكوك) والتي ظلت متوارثة إلى سنوات قريبة بكل قرى الساحل تقريبا، وهي تعتمد على تشييد قاعدة وأسس من الحجارة يعلوها جدار من التربة المدكوكة (أو من الطين)، وميزة هذه التقنية هي سرعة الإنجاز ومحدودية التكلفة عبر الاعتماد على أكثر المواد الطبيعية وفرة.

ولا نستبعد أن تكون تقنية الطابية هي التي وقع اعتمادها في بناء قصور برشانة، حيث يقدم القسم الشرقي للموقع في مستوى أطرافه الجنوبية والجنوبية الغربية آثارا لأكداس تربة مدكوكة ممزوجة ببعض شظايا الفخار

(33) التجاني 1981، ص 67.

(34) التجاني 1981، ص 56.

(35) Mahfoudh 2003, p. 201.

(36) حسن 2004، ص 28-29؛ حول مفهوم القصر والسكن المحصن خلال الفترة الوسيطة راجع الصفحة 28 من الكتاب وما بعدها.

ربما هي جزء من السور الخارجي لأحد قصور برشانة. فالقرية وكما وصفها صاحب الرحلة كانت بها «قصور مفترقة»، أي كانت بها «قصور منقسمة»⁽³⁷⁾ وغير متصلة ببعضها البعض. وينطبق هذا الوصف الدقيق مع خصوصية موقع برشانة الأثري الذي ينقسم إلى قسمين قسم شرقي وقسم غربي يفصل بينهما واد سيدي عبد الكافي.

وتؤكد عبارة «قصور برشانة» بأننا أمام موقع كان به أكثر من قصرين تتوزع بين قسميه الشرقي والغربي، وتقطن بكل قصر منها فرقة أو مجموعة مستقلة عن الأخرى، وبهذا المعطى الأثري يمكن أن نفهم النازلة التي عُرِضت على البرقي «عن شرورة وقعت بين أهل برشانة حتى تصافوا فأحد الصفين... (أولاد عمر) وصف آخر يقوم يعرفون بأولاد مرق الأرض...»⁽³⁸⁾، فقرية برشانة بهذا المعنى تتكون من قصرين على الأقل منقسمين ومستقلين عن بعضهما رغم تجاورهما يفصل بينهما واد سيدي عبد الكافي، قصر «لأولاد عمر» وقصر «لأولاد مرق الأرض».

هذا ونشير إلى أن الخريطة الطبغرافية احتفظت بتسميات لقصور أخرى غير بعيدة عن موقع برشانة الأثري مثل «قصر البدارنة» الواقع على بعد حوالي 2 كلم شمال شرقي برشانة أو «قصر تتيور» الواقع جنوبها على بعد 7 كلم، لكن لا نعلم إن كانت هي أيضا من بين القصور التي قصدها التجاني بعبارته أم لا.

وتؤكد المعطيات الميدانية أن قرية برشانة لم تتمكن من الصمود وتجاوز أزمة أواخر الفترة الوسيطة، فاللقى الخزفية التي أمكن العثور عليها لا تتجاوز القرن 9 هـ/ 15 م على أقصى تقدير. ولم تستطع زاوية سيدي عبد الكافي التي انتصبت بالمكان من ضمان استقرار أهل برشانة بقصورهم، خلافا لقرى أخرى بجهة صفاقس والساحل تمكنت الزاوية بها من لعب دور حاسم في حماية السكان من تعديات البدو واستطاعت تجاوز هذه الأزمة بفضل مثل هذه الزوايا والشخصيات الرمزية لأصحابها الذين تأسست حولهم قرى وتجمعات سكانية. وقد هاجر أغلب أهل برشانة إلى مدينة صفاقس بالأساس، وحملوا لقب «البرشاني» وسكن بعضهم بحومة الحميدية داخل مدينة صفاقس⁽³⁹⁾ في

(37) «مفترقة» من الجذر «فرق، والفرق خلاف الجمع... وانفرق الشيء وتفرّق وافترق» أنظر ابن منظور، ج 10، ص 299؛ وفي المعاجم «افترق يفترق افتراقا فهو مفترق، وافترق الطريق أي انقسم...».

(38) البرزلي 2002، ج 6، ص 97.

(39) عبد الكافي 1966، ج 1، ص 210؛ حسن 1999، ج 1، ص 236.

حين هاجرت مجموعة أخرى على الأرجح إلى مدينة القيروان حيث يحمل أحد أرباض المدينة تسمية «ربض البراشنة»⁽⁴⁰⁾ نسبة إلى «أهل برشانة» على ما يبدو⁽⁴¹⁾.

3- برشانة ومسلك جديد بين الجم و صفاقس خلال الفترة الحفصية

يمر الطريق الذي اتبعه التجاني في رحلته بعد خروجه من الجم في اتجاه صفاقس عبر قرية برشانة، ولئن كانت نقطة الانطلاق والوصول لا تستحقان إلى تحديد فإن مسار المسلك بين المحطتين فيه نظر ويستحق التدقيق والتفصيل.

أ- إشكالية مسار طريق الرحلة بين الجم و صفاقس

ينقسم مسار طريق الرحلة بين الجم و صفاقس وفق وصف التجاني إلى مرحلتين تمتد المرحلة الأولى من الجم إلى موقع يُعرف «بأم الأصابع» ثم المرحلة الثانية من «أم الأصابع» إلى صفاقس عبر قرية برشانة حيث قال التجاني «وارتحلنا عن الجم يوم الأربعاء... وانتهى السير بنا... إلى منزلة تعرف بأم الأصابع... ثم سرينا منها آخر ليلتنا فاجتزنا صباحا على قرية صغيرة ذات قصور مفترقة تعرف ببرشانة... ووصلنا إلى صفاقس ظهرا»⁽⁴²⁾.

واستادا إلى موقع قرية برشانة يبدو مسار مسلك رحلة التجاني أكثر انحيازا نحو الغرب، وبعيدا عن المسلك الساحلي الموروث عن الفترة الرومانية والذي كان مرتبطا بمسلك يمتد نحو الجم يمر عبر موقع رقّة الأثري (براروس BARARUS خلال الفترة القديمة)⁽⁴³⁾. وقد تحدثت المصادر خلال الفترة الوسيطة عن هذا المسلك الساحلي وعن القصور والحصون الساحلية التي يمر بها قبل الوصول إلى صفاقس⁽⁴⁴⁾. وقد عاين هذا المسلك الساحلي أيضا واتبعه عالم الآثار Victor Guérin في النصف الثاني من القرن 19 م، حيث انطلق من

(40) Kerrou 1998, p. 65.

(41) لا نستبعد أن تكون الوجهة نحو صفاقس قد كانت لأحد المجموعتين المكونتين لأهل برشانة (أولاد عمر أو أولاد مرق الأرض) في حين مثلت القيروان وجهة المجموعة الثانية.

(42) التجاني 1981، ص 65-68.

(43) هناك طريق يعود للفترة الرومانية بين الجم ورقّة ومنها يتواصل في اتجاه ساحل البحر إلى مرسى إنشلة Usilla والتي اشتهرت ابتداء من القرن 8 هـ/ 14 م بضريح مخلوف الشرياني، أنظر: حسن 1999، ج 2، ص 238 ؛

Trousset 1977, p. 198 et p. 206.

(44) يقدم الادريسي خلال القرن 6 هـ/ 12 م مختلف القصور والرباطات التي يمر بها هذا المسلك الساحلي، الادريسي 2002، ج 1، ص 303-304.

صفاقس واتبع هذا المسلك الساحلي قبل المرور بموقع رقّة الأثري والوصول إلى الجم⁽⁴⁵⁾.

فالطريق الذي يذكره التجاني هو طريق داخلي بعيد عن الشريط الساحلي وهو بالتالي لا يمرّ بموقع رقّة الأثري التي أخطأ محقق رحلة التجاني حين اعتبرها تتطابق مع «أم الأصابع» لأن رقّة (براروس BARARUS) توجد جنوب شرقي الجم⁽⁴⁶⁾.

ويقدّم التجاني معطيات إضافية يمكن أن تساعد في تحديد مسار المسلك وفي تدقيق المسافات بينه وبين الشاطئ حيث أورد قائلاً «وحاذانا على بعد ساحل البحر القصر المعروف بقصر زياد...»⁽⁴⁷⁾، وتؤكد عبارة «على بعد ساحل البحر» أن المسلك بعيد عن البحر وأنه ذكر قصر زياد لشهرته لكنه لم يجتزئه⁽⁴⁸⁾. فالكاتب لا يصف في رحلته المواقع التي لم يزرها فقط بل أيضا يقدّم المواقع المشهورة في الجهة التي يمرّ بها رغم كونه لم يلمحها لكنه عارف بمكانها. حيث يشير مثلا بعد حديثه عن قصر زياد إلى جزيرة قرقنة التي لم «تظهر» حسب عبارته من هذا المسلك، لكنه قدّم وصفا لها ولموقعها قائلاً «سامتنا من البحر جزيرة قرقنة على مسافة بعيدة لا يمكن ظهورها منها وموضعها بين هذا القصر وصفاقس وسطا...»⁽⁴⁹⁾. وتتكرر مثل هذه العبارات لدى التجاني للمواقع التي لم يزرها ولكنه يسعى إلى إقحامها في نص رحلته مثل مدينة الحمامات التي قال عنها «وترأت في هذه المرحلة على بعد منا منازل البلدة المعروفة

(45) Guérin 1862, p. 160-166.

اتبع الكاتب في طريق عودته من الجم إلى صفاقس مسلكا مغايرا عن طريق الذهاب يمرّ عبر بير الشعبة والحشّة حاليا أي تقريبا الطريق الوطنية عدد 1 حاليا. (46) التجاني 1981، ص 66، (الهامش عدد 3) ؛ بالإضافة إلى دور موقع قرية برشانة في فهم وتحديد مسار هذا المسلك فإن المعطيات الميدانية تجعل من الصعب اعتبار أم الأصابع المذكورة في التجاني هي نفسها الرقّة (براروس BARARUS) لأن أم الأصابع تبعد عن اللجم مسافة مرحلة في حين أن الرقّة حاليا لا تتجاوز المسافة بينها وبين الجم 10 كلم. حول الرقّة خلال الفترة الوسيطة أنظر: حسن 1999، ج 2، ص 264 ؛ Mahfoudh 1992-1993, p. 109-118.

(47) التجاني 1981، ص 67.

(48) يوجد قصر زياد على الطريق الساحلي بين المهدية وصفاقس يقع حاليا جنوب جبنانة وبالقرب من قرية العامرة (الخربة سابقا) في مستوى موقع «سيدي مسرة»، وهو في الأصل رباط ساحلي أسسه عبد الرحمان الزاهد سنة 212 هـ/827 م وتحول إلى مرسى هام أنشأ به عبيد الله المهدي دار صناعة ونشأت حوله قرية البرج وقد ظل قائما في العهد الحفصي، أنظر: الإدريسي 2002، ج 1، ص 304 ؛ حسن 1999، ج 2، ص 238 ؛ حسن 2004، ص 154-155.

(49) التجاني 1981، ص 67.

بالحمامات وهي على شاطئ البحر»، فالطريق في هذا المثال لا يمرّ بالحمامات لكن الكاتب أراد ذكر المدينة مستعملا عبارة «على بعد منا» للتدليل على عدم اجتيازها لها.

تؤكد مُجمل هذه المعطيات أن المسلك الذي اتبعه التجاني عبر برشانة هو مسلك داخلي يصل بين الجُم وصفاقس خلال الفترة الحفصية. ولئن كان تحديد موقع برشانة قادرا على تحديد جزء من المسار في قسمه الأخير الممتد بينها وبين صفاقس، فإن القسم الأكبر والممتد منها شمالا إلى الجُم عبر مودق «أم الأصابع» يبقى في حاجة إلى صنف آخر من المصادر بما أن المصادر المكتوبة المتاحة حاليا لا تقدّم مثل هذه الجزئيات الميدانية. وفي المقابل تبرز خرائط الفترة الحديثة كوثائق هامة يمكنها أن تفيدنا في تحديد مسارات المسالك التي عاينها مُحَرِّروها وقاموا بتجسيدها في هذه الخرائط، وهي مسالك قد يكون بعضها موروثا عن فترات سابقة سواء كانت وسيطة أو قديمة.

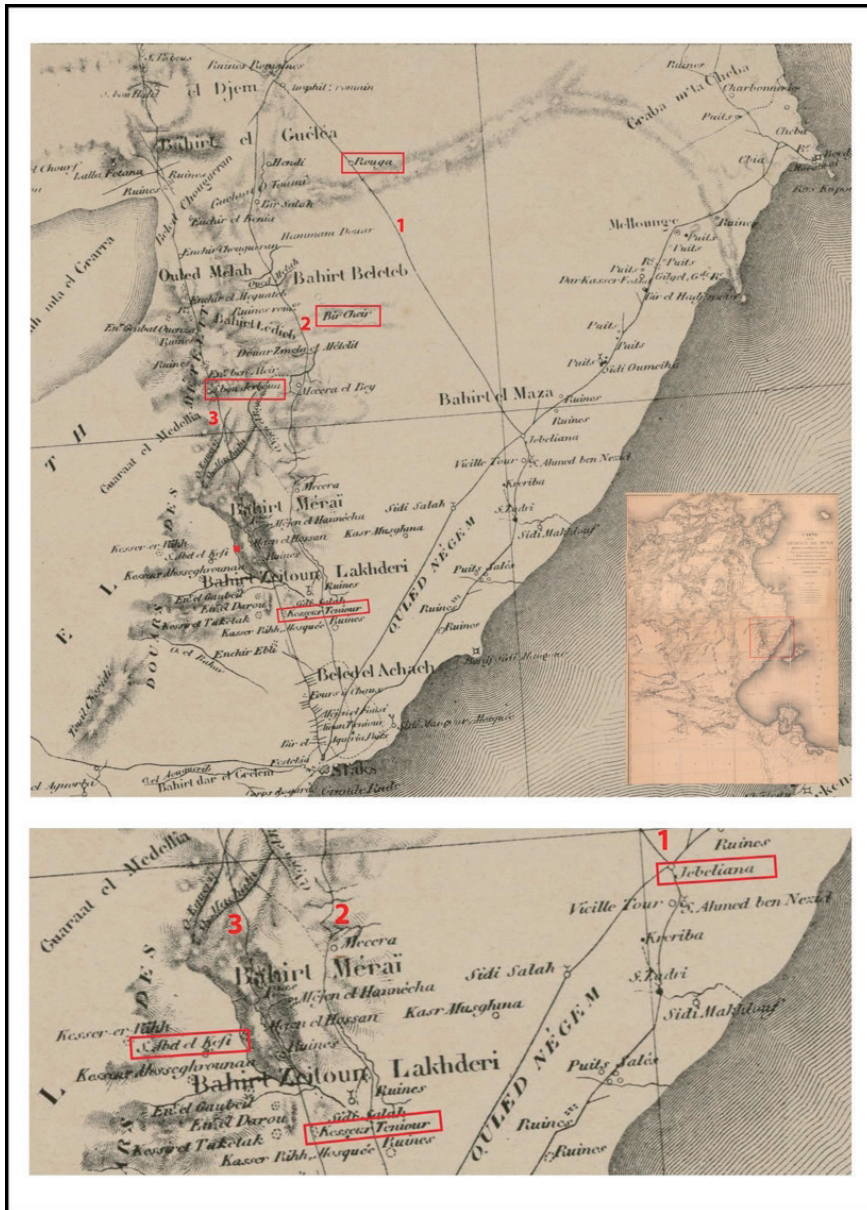
وتفيد بعض الدراسات⁽⁵⁰⁾ أن أهم الخرائط المنجزة للبلاد التونسية خلال القرن 19 م قام بإعدادها رحالة دوّنوا ما عاينوه ورسموا ما رصدوه من مواقع أثرية ومعالم تاريخية وما مرّوا به من طرقات، فأوضحت خرائطهم وثنائ حية لمختلف المسالك التي عبروها في تجوالهم.

ومن بين أهم الخرائط وأكثرها دقة خريطة للبلاد التونسية مؤرخة بسنة 1857 م⁽⁵¹⁾ نجد بها ثلاث مسالك تصل بين صفاقس والجُم (الخريطة عدد 4). المسلك الأول مسلك ساحلي يتجه انطلاقا من صفاقس نحو قرية «الخربة» (العامرة حاليا) ومنها نحو قرية جبنيانة ثم «رقة» وصولا إلى الجُم. أما المسلك الثاني فيكاد يتطابق مع الطريق الوطنية عدد 1 الحالية (عبر الغرابة والحنشة)، في حين يمر المسلك الثالث انطلاقا من صفاقس بالقرب من قصر تنيور ثم برشانة وضريح سيدي عبد الكافي ويتواصل عبر سيدي بوجربوع في اتجاه الشمال عبر مواقع أثرية تحتل أكثر النقاط ارتفاعا في الجهة إلى أن تصل إلى الجُم. ويبدو أن هذا المسلك الأخير هو المسلك الذي اتبعه التجاني في رحلته وهو نفسه الطريق المعروف لدى الأهالي «بثنية الجُم»⁽⁵²⁾ (أنظر الخريطة عدد 2)، لكن هل يمكن فهم الأسباب الكامنة وراء اختيار هذا المسلك دون سواه؟

(50) Baïr 2018, document 868.

(51) Carte de la Régence de Tunis dressée au Dépôt de la Guerre en 1857.

(52) ثنية الجُم تتطوّل بعد قصر تنيور لتمرّ بمركز كمون ثم بوجربوع والعساية فالغظاطسة ثم البياضين ثم شقران ثم الحجارة وصولا إلى الجُم.



الخريطة عدد 4: الطرق الثلاث بين صفاقس والجم في خريطة سنة 1857

ب- الطريق عبر برشانة ودواعي الاختيار

يجب التذكير في البداية بأن الرحلة التي قام بها التجاني هي في الحقيقة حملة عسكرية قام بها الأمير أبو زكرياء يحيى بن اللحياني نحو جربة لمحاربة الإسبان الذين كانوا يسيطرون على الجزيرة. وقد صاحب عبد الله التجاني الأمير اللحياني في هذه الحملة بعد أن أصبح المشرف على رسائل الأمير. وقد انطلقت هذه الحملة من مدينة تونس بتاريخ 14 جمادى الأولى عام 706 هـ/ 29 نوفمبر 1306 وبعد إقامة ببضعة أيام في رادس بهدف استكمال الاستعدادات انطلقت الحملة وبدأت معها رحلة التجاني في 12 ديسمبر 1306⁽⁵³⁾.

يتعلق الأمر بتحرك عسكري له نوااميسه وهواجسه الأمنية مما يعني أن الطريق الذي سيقع اتباعه يجب أن يكون من ناحية طريقا يسمح بحركة سلسلة للجنود ولخيولهم ولعداتهم وآلاتهم الحربية. ومن ناحية أخرى يجب أن يكون طريقا آمنا من مخاطر الطبيعة بحكم أن الرحلة انطلقت في فصل الشتاء وبالتزامن مع موسم التساقطات بالبلاد وموسم سيلان الأودية وامتلاء السبخ والتي يمكن أن تمثل عائقا أمام هذا التحرك⁽⁵⁴⁾، وأن يكون أيضا آمنا من خطر مباغته الأعداء خاصة على السواحل التي شهدت في فترات سابقة غارات وأعمال القرصنة⁽⁵⁵⁾.

ونميل على ضوء مجمل هذه المعطيات إلى اعتبار مسار طريق الرحلة عند التجاني متماثلا مع الطريق الذي رسمته خريطة سنة 1857 م (عدد 3 في الخريطة)، وهو الطريق الذي يمر بكل من قصر تتيور وبالقرب من سيدي عبد الكافي ثم سيدي عبد الله بوجربوع. ويمرّ هذا الطريق بعيدا عن كل العوائق الطبيعية من مجاري أودية وسبخ، حيث يتبع بشكل مستمرل مجموع المرتفعات الممتدة بين الجم وصفاقس مما يسمح بتفادي أهم الأودية بالمنطقة متوسطا المنفذ الوحيد الآمن طبيعيا بين سبخة الجم وسبخة الغرة، فيكون بذلك بمثابة المسلك الشتوي البعيد عن كل العوائق الطبيعية الكبرى سبخا كانت أم أودية.

ولاتزال الذاكرة الجماعية بالجهة تحتفظ بتسمية هذا المسلك «بشية الجم». وهي على المستوى الطبوغرافيا أفضل المسالك وأكثرها اشرافا وارتفاعا بالجهة بحكم كونها تتبع بشكل متواصل تقريبا مجموعة من الرّبي

(53) التجاني 1981، ص 5 ؛ ابن خلدون 2015، ج 12، ص 253.

(54) تحدّث التجاني في موضع آخر عن الصعوبات التي مرّ بها عند مرورهم بالطريق بين المحرس قابس، أنظر حول هذا الطريق زمن الرحلة: الباهي والصوید 2019، ص 9-24.

(55) حسن 1999، ج 1، ص 238 ؛ برنشفيك 1988، ج 1، ص 155.

المرتفعة نسبيا والأمنة طبيعيا، وهي مسائل أساسية في النقل والحركة سيما إذا تعلق الأمر بتحريك حملة عسكرية يمثل ضمان سلامة الجند والمعدات مسألة تُعدّ سلفا ويقع الاعداد لمراحلها ومحطاتها بشكل دقيق، وهو ما لمسناه من طريقة وصف التجاني للرحلة حيث كان سيرها عاديا ولم يشب مسارها أي عائق في هذا الجزء من الطريق الواقع بين الجم وصفاقس. وقد تُفيد عبارة صاحب كتاب الرحلة عند وصوله لأم الأصابع «واحتطب الناس من هذه الشجر (الزيتون) ما استصبحوا لمرحلة الغد لأن الحطب بها معدوم...»⁽⁵⁶⁾ تفيد بأن الاختيار على هذا الطريق كان مدروسا وبأن الاعداد لها كان دقيقا، مما يعني أننا أمام طريق معلومة خلال الفترة الحفصية وربما هي وريثة لحقبات سابقة وقد تكون طريق الشتاء بين كل من مدينة صفاقس والجم.

خاتمة

تؤكد المعطيات المصدرية والشواهد الأثرية أن برشانة قد مثلت قرية صغيرة في الطريق الرابطة بين الجم وصفاقس خلال الفترة الحفصية، وهي قرية تتطابق مع الموقع الحالي لضريح سيدي عبد الكافي الواقع شمال مدينة صفاقس، وقد مكنا تحديد موضع هذه القرية من تحديد مسار جزء من مسلك داخلي كان يصل بين الجم وصفاقس اتبعه التجاني في رحلته خلال القرن 8 هـ/ 14 م وتواصل اعتماده خلال الفترة الحديثة. ولم تتمكن قرية برشانة من الصمود وتجاوز أزمة أواخر الفترة الوسيطة التي شهدتها إفريقية فهاجر أهلها إلى مدينة صفاقس واستقر بعضهم داخل المدينة في حومة الحميدية في حين انتقل البعض الآخر إلى مدينة القيروان وأسسوا بها على الأرجح ربض البراشنة، وكل هذه المعطيات المرتبطة بنشأة القرية واندثارها ووجهات هجرات أهلها تبقى في حاجة إلى تتبع دقيق لوثائق الأرشيف وعقود الملكية لتحديد صورة متكاملة للقرية وأهلها.

(56) التجاني 1981، ص 67.

البليوغرافيا

مخلوف (محمد بن محمد الشريف) د. ت،
شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،
بيروت، دار الفكر.

مقديش (محمود بن سعيد) 1988، نزهة
الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار،
تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ،
بيروت، دار الغرب الإسلامي.

المراجع باللغة العربية

الباهي (أحمد) والصويد (جهاد) 2019،
«فلاقس: محطة مغمورة بطريق قابس
القيروان في العهد الفاطمي الزيري»،
فعاليات المؤتمر الدولي الرابع،
صفاقس 20-22 نوفمبر 2014، من
سرت الصغرى إلى خليج قابس: تاريخ
وتراث، صفاقس، كلية الآداب والعلوم
الإنسانية بصفاقس، ص 9-24.

برنشفيك (روبار) 1988، تاريخ إفريقية
في العهد الحفصي من القرن 13 إلى
القرن 15 م، نقله إلى العربية حمادي
الساحلي، دار الغرب الإسلامي،
بيروت.

حسن (محمد) 2004، الجغرافية
التاريخية لإفريقية من القرن الأول
إلى القرن التاسع XV-VII م.

الصويد (جهاد) 2003، منطقة عقارب:
دراسة اتنو أثرية، شهادة الدراسات
المعمقة، إشراف الأستاذة منيرة
الرمادي شابوطو، كلية العلوم الإنسانية
والاجتماعية بتونس.

عبد الكافي (أبو بكر) 1966، تاريخ
صفاقس، التعاضدية العمالية للطباعة
والنشر، صفاقس.

حسن (محمد) 1999، المدينة والبادية
بإفريقية في العهد الحفصي، تونس.

المصادر

ابن جابر الوادي آشي (شمس الدين
محمد) 1981، برنامج ابن جابر الوادي
آشي، تقديم وتحقيق الدكتور محمد
الحبيب الهيلة، تونس.

ابن الجزري (أبو الخير شمس الدين محمد
المعروف ب) 1438 هـ/2017 م، غاية
النهاية في أسماء رجال القراءات أولى
الرواية، تحقيق أبو إبراهيم عمرو بن
عبد الله، القاهرة.

ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمان بن
محمد) 2015، العبر وديوان المبتدأ
والخبر في أيام العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان
الأكبر، قرأه وعارضه بأصول المؤلف
إبراهيم شبوح، القيروان للنشر،
تونس.

ابن منظور (محمد بن مكرم الأنصاري)،
لسان العرب، دار صادر، بيروت.

الادريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد
الحمودي) 2002، نزهة المشتاق في
اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية،
القاهرة.

البرزلي (أبو القاسم بن أحمد بن إسماعيل
القيرواني) 2002، جامع مسائل
الأحكام لما نزل من القضايا بالفتن
والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة،
بيروت، دار الغرب الإسلامي.

التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن
أحمد) 1981، رحلة التجاني، تحقيق
حسن حسني عبد الوهاب، تونس،
الدار العربية للكتاب.

الخريطة الطوبوغرافية عدد 97 سيدي
اليتيم 1/50.000.

المراجع باللغات الأجنبية

- Baïr H., « Hybridation du savoir cartographique et du savoir vernaculaire dans la Tunisie du XIX^e siècle », *Cybergeo: European Journal of Geography* [En ligne], Epistémologie, Histoire de la Géographie, Didactique, document 868, mis en ligne le 05 novembre 2018. URL : <http://journals.openedition.org/cybergeo/29581> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/cybergeo.29581>
- Carte de la Régence de Tunis dressée au Dépôt de la Guerre en 1857.** Source : Collection de la cartothèque de l'IGN, Paris, série Tunisie, cartons n°517 et 1 363. Cette carte a été établie, à l'échelle 1/400 000, d'après les observations et les reconnaissances de Falbe et de Pricot de Sainte-Marie. URL : <http://journals.openedition.org/cybergeo/docannexe/image/29581/img-1.jpg>
- El Behi A. 2008, « Feriana (Furriyana) à l'époque médiévale : questions de toponymie », in F. BEJAOU (ed.), *Actes du 5^{ème} colloque international sur l'Histoire des Steppes tunisiennes*, Tunis, I.N.P., p. 249-258.
- Gragueb A. 1976, « Notes sur le voyage de Tijani dans le Sud Tunisien », *Cahier de Tunisie*, T. XXIV, 1- 2^{ème} trimestre, p. 25-44.
- Kerrou M. 1998, « Quartiers et faubourgs de la médina de Kairouan. Des mots aux modes de spatialisation », in *Genèses*, 33, p. 49-76.
- Guérin V. 1862, *Voyage archéologique dans la régence de Tunis*, Paris.
- Mahfoudh F. 1992-1993, « A propos de Rougga (BARARUS) à l'époque médiévale: analyse d'un passage peu connu d'Al-Bakri », *Cahier de Tunisie*, n° 162-163, p. 109-118.
- Mahfoudh F. 2003, *Architecture et urbanisme en Ifriqiya médiévale (proposition pour une nouvelle approche)*, C.P.U. et Faculté des lettres de la Manouba, Tunis.
- Trousset P. 1977, « Nouvelles observations sur la centuriation romaine à l'est d'El Jem », *Antiquités africaines*, 11, 1977, p. 175-207.

«الفتار» بساحل سرت الصغرى خلال الفترة الحديثة؛ علامة تاريخية بحرية

الصغيرة بنحميدة⁽¹⁾

ملخص

يمثل البحث حول «الفتار» كعلامة تاريخية بحرية من البحوث التي تقوم على قراءة المعطيات التاريخية من خلال ملامح الأثر البحري واستنادا لما هو مكتوب حوله. وقد توصلنا إثر دراسة عينة من «الفتارات» بسواحل سرت الصغرى إلى تحديد التوزع المجالي «للفتار» بالمنطقة وأهميته في معرفة جوانب من التاريخ البحري للبلاد التونسية وما يختزله كمعلم أثري بحري لأكثر من حقبة تاريخية.

151

وإن تشير المصادر إلى اختلاف أنواع العلامات البحرية عبر التاريخ وتطورها فإن «الفتار» يختزل كل تلك العلامات، فهو المحرس والرباط والبرج وهو مبنى عالي برا وعوامات حديدية وأعمدة ضوئية داخل البحر. ويختزل «الفتار» أبعاد تاريخية وسياسية واقتصادية داخلية وخارجية، وهو على أهمية من حيث الهندسة والبناء تستدعي تكثيف الدراسات حوله كعلامة تاريخية بحرية.

الكلمات المفتاحية: الفتار-علامة ضوئية-التاريخ البحري-البلاد التونسية-سرت الصغرى.

Le phare dans la petite syrte à l'Epoque Moderne : signe d'histoire maritime

Résumé

La recherche historique sur le phare comme système de signalisation maritime est considérée comme l'un des travaux basés sur l'analyse de données historiques de ce monument maritime, en s'appuyant bien évidemment sur les sources écrites. Après avoir étudié des exemples de phares sur le littoral

(1) المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بتوزر، جامعة قفصة.

de la petite Syrte, nous avons déterminé la répartition spatiale de ces signalisations maritimes, tout en mettant l'accent sur l'importance de l'étude de ce monument d'archéologie navale, dans le but de dévoiler certains aspects de l'histoire maritime de la Tunisie.

Bien que les sources mentionnent la différence entre les signalisations maritimes à travers l'histoire, le phare reflète en effet, l'ensemble de ces systèmes en tant que *borj*, *hisn*, *tūr*, haut bâtiment terrestre, balises et feux en mer.

L'étude des caractéristiques spécifiques du phare relève les dimensions politiques et économiques de l'histoire de la Tunisie aux niveaux intérieur et extérieur, d'où la nécessité de l'élaboration de travaux approfondis concernant cette signalisation maritime à travers l'histoire.

Mots clés : phare- signe lumineux- histoire maritime- la Tunisie- petite syrte

The lighthouse in the Lesser Syrtis in modern era: sign of maritime history

Abstract

Historical research on the lighthouse as a maritime signaling system is considered among the studies that rely on the analysis of historical informations with reference to the features of the maritime monument itself and what was written about it. Following the study of a sample of lighthouses on the coastline of Lesser Syrtis, we have managed to determine the spatial distribution of these navigational aids in the region. We have also come to recognize their significance as archeological monuments in revealing aspects of the maritime history of Tunisia, as well as their role to encompass more than a historical era.

Although, sources point to a variety of marine signs throughout history, the lighthouse can be said to incorporate the totality of these systems, as it stands for a fort and a watchtower. It is also a tall onshore building, iron buoys, and beacons in the sea. Apart from the myriad characteristics of the lighthouse, which highlight political and economic dimensions relating to the history of Tunisia internally and externally, it is also no less important for it to be viewed, architecturally, as a maritime legacy worthy of more research attention.

Keywords: lighthouse- light sign- maritime history- Tunisia- Lesser Syrtis.

مقدمة

تمثل إشكالية البحث في التاريخ البحري أحد أبرز إشكاليات البحث في التاريخ عامة. حيث اهتمت عديد الشعوب بتاريخها البحري وأولته العناية اللازمة سواء بتكثيف الأعمال البحثية أو إقامة الندوات ونشرها...، ووقعت في تونس بعض المحاولات في دراسة جوانب من التاريخ البحري المحلي على غرار اللهجات والألفاظ البحرية، والمراكب والموانئ وذلك في التاريخ والأنثروبولوجيا⁽²⁾.

وتمثل دراسة «الفنار» كواحد من العلامات التاريخية البحرية بالسواحل التونسية إلى جانب عديد العلامات الأخرى، استكمالاً لما سبق من البحوث والدراسات وحرصاً على الإلمام بأغلب جوانب التاريخ البحري في تونس. ونقدم هذه الورقة كمحاولة للتعرف على أهم «الفنارات» بساحل سرت الصغرى وجذورها التاريخية وخريطة توزعها وما شهدته من تحولات.

I- الفنار بساحل سرت الصغرى: السياق التاريخي

1- في تحديد معنى «الفنار» وأصل التسمية

الفنار في المعاجم التي تهتم بالمفردات البحرية هو بناء يحمل في قمته فانوساً لإنارة الطريق، وهو كل مصدر ضوء سواء على الساحل أو على الرصيف أو في مداخل الموانئ أو على سطح المركب. وهي مفردة عامية وردت تحريفاً للكلمة الفرنسية phare، واللاتينية pharus واللاغريقية Pharos والتي ترجع المصادر أن أصل تسميتها يعود إلى الجزيرة المصرية Pharos حيث موضع منارة الإسكندرية⁽³⁾. وتشترك أغلب مدن الضفة الجنوبية للمتوسط على غرار تونس والمغرب في نطق لفظ «فنار»⁽⁴⁾. كما تتداول كلمة «ناظور» أو منارة للدلالة على نفس المعنى. وحسب التيجاني في رحلته يكون المحرس أو القصر موضع «الفنار» أو المنارة وجمع في وصف وظيفة المحرس أو القصر بين مراقبة السواحل والإنارة⁽⁵⁾.

وكما حاز الميناء على اهتمام الباحثين والدارسين منذ الفترة القديمة، فللفنار نفس الأهمية. وإن ارتبط الميناء تاريخياً بالمدن التجارية الكبرى، ارتبط «الفنار» بهذه الموانئ. لذلك نقدم هذا المعلم كأحد أهم عناصر التاريخ البحري بالبلاد التونسية.

(2) انظر مثلاً: بنحميدة 2024.

(3) البكري 2002، ج 1، ص 518-519.

<http://www.mandragore2.net/dico/lexique1/lexique1.php?page=phare>

(4) Amili 2011.

(5) التيجاني 1981، ص 23.

2- تاريخية «الفنار» بسواحل سرت الصغرى

قام الفينيقيون منذ قدومهم إلى تونس بتركيز المدن الساحلية كقواعد تجارية نذكر منها جكتيس، ومينانكس، وهنشير بطرية بسرت الصغرى⁽⁶⁾. واحتلت هذه المدن مكانة مهمة على الطرق التجارية التي كانت تربط بين قرطاج و«لبتيس الكبرى» والتي تمر بـ «تاكاباي» و«جىقتي» و«مينانكس» وجرجيس وبحيرة الببيان وصبراتة⁽⁷⁾. وأثبت الشواهد الأثرية والكتابات وجود قلاع وأبراج مراقبة بميناء جرجيس (جكتيس) وميناء بحيرة الببيان⁽⁸⁾، ويرجح وجود منارتين فوق هذه الأبراج في مداخل الميناءين. كما وردت الإشارة إلى وجود أثر برج بيزنطي ببرج خديجة (كابوت فادا)، الذي يمثل منارة ساحلية لا تزال موجودة إلى اليوم والحال أن البرج البيزنطي تحول إلى رباط وبقي إلى أواخر القرن 19 برج مراقبة للسواحل البحرية⁽⁹⁾. أما في قرقنة فوجد برج بملية وآخر بالحصار، كما وجدت آثار برج أو حصن جنوب الصخيرة، والجرف بمدين، وغيرها من العلامات التي تفيد بتوزع الأبراج في الفترة القديمة. ومع تواصل دور قرطاج التجاري في العهد الروماني، تزايد الاهتمام بالموانئ والمدن الساحلية وتدعمت تجهيزاتها من أرصفة وخزانات⁽¹⁰⁾ وجدت آثارها وبقاياها. وكان للفنار حضور من خلال بعض الشواهد الأثرية التي تصور شكله في عديد المحامل على غرار اللوحات الفسيفسائية⁽¹¹⁾.

154

وتزامنا مع تنامي حركة التجارة مع مدن جنوة وليفورنا ومرسيليا ومصر والشام، تضاعف الاهتمام بدعم التجهيزات البحرية بافريقية في العصر الوسيط، فوَقعت تهيئة الموانئ وبعث دور الصناعة وبناء الأساطيل⁽¹²⁾. وخلال هذه الفترة ارتبط ذكر الفنار أو المنارة في الدراسات التاريخية بالرباطات والقصور والقلاع والأبراج والحصون والمحارس، فتحدثت عن قصور بساحل افريقية وبخليج سرت الصغرى وعن المنارات مثل منارة برج خديجة بقصر قبوذية ومنارة قصر بطرية وجدت حسب البكري على موقع الميناء القديم المغمور والذي

(6) Fantar 1997, p. 81.

(7) درين 2005، ص 165.

(8) نفس المرجع، ص 164.

(9) جلول 1999، ص 130.

(10) Fantar 1997, p. 83.

(11) الفضلاوي 2014، ص 66.

(12) النيفر 2008، ص 178-179 وفيها ذكر مختلف دور الصناعة بافريقية والمغرب وأهميتها في دعم الأساطيل الحربية والتجارية.

اعتبره من أقدم الرباطات⁽¹³⁾، وفي هذه منارة 166 درجة⁽¹⁴⁾. وببرج اللوزة وجد رباط وقصر سمي قصر اللوزة، ولا تزال آثار برج دائري باقية. أما المنارة فبقيت غير محددة رغم ذكر المصادر لها ورغم بقائها قائمة للعهد الحديث. كما ذكرت المصادر قصر زياد الذي يعود للقرن 9 ميلادي الذي بناه عبد الرحيم بن عبد ربّه وبه صومعة أو منارة⁽¹⁵⁾. ويذكر أيضا أن آثار الرباط باقية إلى الزمن الراهن تشاهد بالعين المجردة في شكل كتل حجرية يبلغ ارتفاعها مترين تقريبا، بجهة ما يعرف بسيدي مسرة⁽¹⁶⁾. كما ذكرت منارة بقصر رباط جبنيانة أو قصر لبيدة، يعود إنشاؤها للعهد الأغلي⁽¹⁷⁾، وبالرغم من أنه قصر داخلي كانت منارته تتصل بمنارة قصر زياد⁽¹⁸⁾. وذكرت الدراسات أيضا قصر صفاقس ومقره القصبة أي الجهة الغربية من سور المدينة الأغلي ولكنه سبقه في الإنشاء، وقصر قزل بسيدي منصور وهو الرباط الذي يقام الآن بجانب الضريح، كانت به منارة تعود للعهد العثماني «يعكس بها على البحر من الأعلى»⁽¹⁹⁾.

وعموما، تتحدد القصور والرباطات بمجال عملنا سرت الصغرى على النحو التالي: قصر قبودية وقصر مليان وقصر الريحانة وقصر بطرية وقصر قنّاطة وقصر اللوزة وقصر/رباط زياد، ثم قصر/رباط أنشلة وقصر النوبة ثم قصر مجدول/مجدونس وقصر قساس وقصر قزل وقصر صفاقس⁽²⁰⁾. ثم قصر يونقا وقصر المحرس وقصر إنشلة. ورباط نقطة⁽²¹⁾. ثم تنيدة أو هنشير فلاقس وقصر الروم أو ناظور الصخيرة. كما توجد بقابس عديد القصور مثل قصور كتانة وقصور الزارات وبها رباط بحري يتصل بالمنارة⁽²²⁾ التي توجد في موضع المنارة الآن⁽²³⁾. كما يوجد قصر الجرف بمدنين وقصر جرجيس⁽²⁴⁾. أما بجربة فيوجد برج الغازي مصطفى وبرج مرسى جليج وبرج الأحجار⁽²⁵⁾.

(13) البكري 2002، الطبعة الأولى، ج 1، ص 191-192.

(14) نفس المصدر، ص 191.

(15) ذكرت المصادر أن عبد الله بن مالك هو من قام ببنائها وهو أحد متساكني قرية عمروس المجاورة لقرية اللوزة، انظر حسن 2003، ص 154.

(16) حسن، نفس المرجع والصفحة.

(17) التيجاني، نفس المصدر، ص 23.

(18) جلّول، نفس المرجع، ص 157.

(19) نفس المرجع، ص 167.

(20) بلمبروك، 2020، ج 2، ص 536-537.

(21) التيجاني، نفس المرجع، ص 137.

(22) جلّول، نفس المرجع، ص 178.

(23) التيجاني، نفس المرجع، ص 146.

(24) جلّول، نفس المرجع، ص 180.

(25) جلّول، نفس المرجع، خريطة ص 182 والخريطة ص 225.

واجمالاً ورد ذكر هذه القصور واحتساب المسافات بينها⁽²⁶⁾ باعتبارها معالم ساحلية يرجح أن تكون محامل الانارة في العصور الوسطى.

وعموماً ارتبطت أساليب الانارة بتطور أساليب الملاحة أي منذ أن كانت هذه الأخيرة تعتمد على موضع النجوم ودوران الأرض والشمس، إلى أن تطورت بداية القرن 15 وأصبحت تعتمد على البوصلة والابر المغناطيسية⁽²⁷⁾ ليلحقها تطور نظام الانارة إلى نهاية القرن 19 من حيث تركيبها ومن حيث شكلها وأجزائها.

3- الفنار بسرت الصغرى من القرن 19 إلى بداية القرن 20

نتجت إقامة «الفنارات» بتونس خلال القرن 19 وبداية القرن 20 عن عدة عوامل خارجية وداخلية أهمها ما عرفته الإيالة من استقرار أمني خلال النصف الأول من القرن 19 مما دعم التجارة البحرية وأمن الأساطيل الداخلة والخارجة من وإلى سواحل الإيالة. أما خارجياً فأبرمت اتفاقيات ومعاهدات تجارية مع القوى المتوسطة تضمنت تحرك السفن المحملة بالبضائع وسلامتها عند الدخول والخروج أو عند المساحلة على الشواطئ التونسية وسلامة الأفراد وحرية التنقل والإقامة وحرية الملكية⁽²⁸⁾، فكان في هذا السياق إنشاء المنارات والأضواء الساحلية وإنارة مداخل الموانئ. ومنذ الربع الأول من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وتحديدًا بين 1840 و1933، فكانت البداية بإرسال ملك فرنسا لـ «فنار» كهديّة للباي أحمد باي الحسيني⁽²⁹⁾ لتتویر مدخل ميناء سيدي بوسعيد سنة 1840 لتسهيل التنقل البحري ولتجنب وقوع حوادث بحرية على غرار حادثة الاصطدام التي وقعت برصيف ميناء جزيرة «قاني» في 05 جويلية 1856 لطاقم بحرية انكليزي قادم من مالطا. بالإضافة إلى كثرة التّشكّيات التي تقدّمت بها البحرية البريطانية سنة 1875⁽³⁰⁾، أو التي وردت حول ضعف الإنارة في الموانئ أو غيابها كلياً⁽³¹⁾. ثم شرعت فرنسا في تجهيز نظام تنوير السواحل التونسية عبر مراحل ليشمل جميع المناطق بما في ذلك الجزر لضمان مصالح تجارها ولإحكام السيطرة شيئاً فشيئاً على المجال البحري.

(26) انظر الادريسي 2002، ص 303-307.

(27) عبد العليم 1978، ص 47.

(28) انظر في هذا: كراسات الأرشيف 2011.

(29) عاشر البايات الحسينيون، حكم بين 1837-1855 م.

(30) Fichou. 2010, p. 252.

(31) الأرشيف الوطني بتونس، السلسلة التاريخية، الصندوق 187، ملف 1087، حول إشعال بعض الفنارات أو إقامتها.

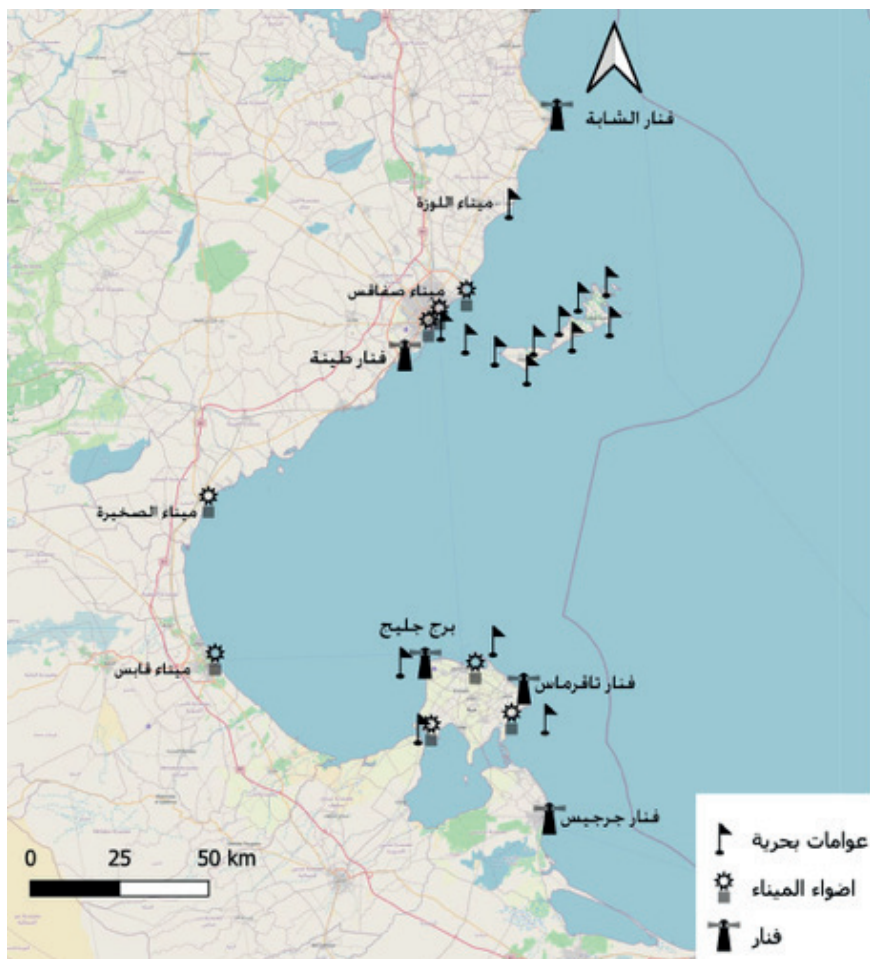
من جهة أخرى، كانت الإمبراطورية العثمانية قد عملت خلال نفس الفترة على تدعيم رصيدها من المنارات على ضفاف المتوسط وعلى سواحل الإيالات التي تتبعها، بغاية السيطرة وفرض النظام على كل المراكب التي تنشط في حركة التجارة والملاحة وحازت سواحل إيالتي تونس وطرابلس على أهمية كبرى في هذا الشأن وتبلور عنها إقامة عدد من المنارات بسرت الكبرى والصغرى⁽³²⁾.

أما بالنسبة لتوزيع هذه المناورات فمهم أن نشير إلى أن تمركزها خلال القرن 19 لم يتجاوز حدود الوطن القبلي على امتداد 40 سنة تقريبا أي بين 1835-1877⁽³³⁾، بعدد جملي يساوي 7 منارات تتفاوت في الحجم وتختلف في البناء والهندسة. ليرتفع العدد في نهاية نفس القرن إلى الضعف مرتين على الأقل. أما بسواحل سرت الصغرى، فتمثل العوامات البحرية أول «الفنارات» التي وقعت تهيئتها خلال القرن 19، وكان تركيزها سنة 1888 بمقترح من الإدارة العامة للأشغال العمومية يعود لسنة 1884. ووجدت مواقع هذه العلامات بمدخل ميناء صفاقس وبمحيط قرقنة حيث تصعب الملاحة في محيطها بسبب خطورة تضاريسها⁽³⁴⁾. ثم وقع إقامة «فنار» بالشابة سنة 1890، ثم «فنار» بجرجيس سنة 1894، يليه «فنار» طينة و«فنار» قابس و«فنار» تاقرماس بجربة سنة 1895، ثم «فنار» ببرج جليج بجربة سنة 1896⁽³⁵⁾.

(32) الأرشيف الوطني بتونس، السلسلة التاريخية، الصندوق 187، ملف 1087، وثيقة عدد 110 حول توزيع المنارات بالإمبراطورية العثمانية.

(33) الفضلاوي 2014، خريطة عدد 27، ص 34.
(34) Direction générale des travaux publics. 1900, carte d'éclairage, p. 42.

(35) Ibid., p. 38.



خريطة توضح توزع الفتار بسواحل سرت الصغرى أواخر القرن 19.

المصدر: إنجاز الباحثة

II- «الفنار» بسرت الصغرى وملاحه في الذاكرة البحرية

1- خصوصية «الفنار» بمنطقة سرت الصغرى

تتتمي سواحل سرت الصغرى إلى المنطقة الجنوبية الشرقية للسواحل التونسية، والتي تمتد من الحدود مع المهدية إلى الحدود الليبية وتشمل جزيرتي جربة وقرقنة⁽³⁶⁾. وارتبط «الفنار» بسرت الصغرى بالمعطى الطبيعي لهذه المنطقة التي تحتوي على أرخبيل من الجزر وساحل قاري وجرف وبها تضاريس بحرية مختلفة عن بقية السواحل التونسية، كما تعرف هذه المنطقة تركيبة جيولوجية فريدة وذات خصوصية تساعد على الرسو والملاحة، وسمحت بوجود موانئ طبيعية مختلفة الأحجام. وصاحب وجود هذه الموانئ تنامي التجارة البحرية وارتفاع عدد المراكب بالميناء وما يفرضه من اهتمام بتجهيز السواحل وتزويدها. فاحتوت هذه المنطقة على مدى التاريخ إشارات وعلامات ضوئية من شمالها إلى جنوبها لا تزال تحضر علاماتها في الزمن الراهن، وعبر محطات كرونولوجية مختلفة توسعت خريطة توزع هذه العلامات وشملت المنارات المبنية والعوامات وأعمدة الإضاءة.

ويختزل هذا العنصر الأثري البحري عديد الأبعاد التاريخية والتقنية في شكله وفي نظام الإنارة به، وفي المهن والرتب داخله. حيث ذكرت المصادر التاريخية أن «الفنار» يكون في شكل فانوس يقام في أعلى قمم القصور والأبراج والرباطات والمحارس، كما وصفت محيط المبنى ومدى إشعاعه. وكما أتى بعضها على ذكر نوع النشاط الذي يؤمنه الرباط أو القصر أو المحرس، ومن يشرف عليه ووظيفة المبنى وخريطة توزيعها⁽³⁷⁾. تضمنت أخرى إشارات على طريقة تسيير هذه القصور والرباطات من قبل الأعيان وكبار الفلاحين، الذين يعملون على حسن استغلال الفضاء الزراعي المحيط بالرباط أو بالقصر وتوفير المحاصيل منه. وأشادت نفس المصادر بدور مستغلي تلك البناءات والقائمين عليها في إبعاد خطر الفساد الأخلاقي والسهر على حسن حراسة المعلم. ووقع ذكر عدد 10 حراس لكل حصن أو قصر على الأقل يقومون بفتح الأبواب صباحا وغلقها في المساء⁽³⁸⁾. وأشارت أيضا إلى أن القصر اتخذ في البداية مقام الرباط الذي يقيم فيه المرابطون من مشايخ ورجال الدين، ثم أصبح يشرف عليه الشيوخ واتخذ مقام الزوايا ومقر التعبد⁽³⁹⁾.

(36) Slim Trouset. Paskoff. Ouslati avec la collaboration de Bonifloy. lenne. 2004, p. 16-17.

(37) حسن، نفس المرجع، ص 153.

(38) نفس المرجع، ص 154.

(39) نفس المرجع والصفحة.

وبداية من القرن 19 تغيرت ملامح الفتار بسواحل سرت الصغرى شيئاً فشيئاً، وبين 1835-1878 أصبح بناء اسطوانيا على سطح البحر، يتراوح ارتفاعه بين 11 و20 متر. ويحتوي الفتار في داخله على مدارج ويتميز باللونين الأبيض والأسود أو الأبيض والأحمر وفي محيطه غرف للحراسة والخدمات. وفي الفترة التي تليها، أي بين 1884-1896، تميز شكل الفتار بارتفاع بين 50 إلى أكثر من 60 متراً مع المحافظة على الشكل الاسطواني وعلى بقية المكونات المعمارية من غرف للحراسة وأخرى للخدمات ووجدت بالبعض من هذه النماذج مواجل وفستقيات لتجميع مياه الأمطار⁽⁴⁰⁾. لتعوض المباني الاسطوانية في الحقة الأخيرة 1896-1933 عوامات وأعمدة إضاءة تقام إما داخل البحر في عمق 7.5 م تقريباً أو على أرصفة الموانئ، وهي أعمدة معدنية وحديدية حيث وقع الاستغناء فيها على المباني. ووجدت بسرت الصغرى 3 عوامات ضوئية أمام صفاقس بعمق 7 م، توضّح مدخل الميناء وعمامة أمام جربة، و8 عوامات موزعة على قصير قرقة على عمق 12-18 م بإضاءة حمراء أو خضراء⁽⁴¹⁾.

من جهته، يشهد الجزء العلوي من الفتار خصوصية ويختزل تاريخ نظام الإنارة الذي يختلف من حقة تاريخية إلى أخرى. فإن استعملت في العصور القديمة الزيوت الطبيعية لإنارة فوانيس مشيدة فوق مبنى برج معماري، أصبحت فيما بعد تركز على المعادن كمنى وعلى الإنارة الاصطناعية. ومن المواد المستعملة في الإضاءة الفانوس البلوري ولوازم الإشعال من «كتان» و«قطن» و«صابون»⁽⁴²⁾. كما تشير الوثائق إلى اعتماد الإنارة عبر الغاز الطبيعي «هيدريلوتيك» والإشعال ب«الفيلة» الأقدم والأكثر انتشاراً خلال القرن 19⁽⁴³⁾. إلى جانب استخدام الفوانيس عبر الانعكاس الضوئي وهي نموذج فرنسي اعتمد في إنارة سواحل تونس إلى حدود 1863 قبل استبداله بالإنارة عبر العدسات في أواخر القرن 19 وبداية القرن 20⁽⁴⁴⁾. أما العوامات فتقع إنارتها بالغاز وتحتوي كل عوامة على أكثر من 50 م مكعب، تشتعل لمدة 70 يوم بمعدل 25 لتر غاز في

(40) في هذا السياق وجدت دراسات حول هندسة الفتار ومواد بناءه، وذلك في وقت مبكر

يعود لأواخر القرن 19 على غرار: Allard 1889.

(41) Direction générale des travaux publics 1900, carte d'éclairage, p. 48.

(42) الأرشيف الوطني بتونس، السلسلة التاريخية، الصندوق عدد 0187، ملف عدد 1087، الوثيقة عدد 39 بتاريخ 23 محرم، بدون سنة، حول لوازم إقامة منارة بجزيرة الكلاب.

(43) الأرشيف الوطني بتونس، السلسلة التاريخية، الصندوق عدد 0187، ملف عدد 1087، الوثيقة رقم 125. وفيها طريقة ضخ الغاز وإشعال الفتار بمنارة سيدي بوسعيد وبمنارة جزيرة الكلاب والمنارات الموجودة ككل. تشرح هذه الوثيقة طريقة الإعداد لإشعال الفتار في فصول (مراحل).

(44) الفضلاوي، نفس المرجع، ص 48 و49.

الساعة ويقع تزويد هذه العوامات انطلاقا من المخزن الموجود بالميناء عن طريق محمل يسمى «فرسنال» fresnal⁽⁴⁵⁾.

كما تجدر الإشارة إلى أن الفئار يمثل اختزالا لمهن ورتب ارتبطت به في حقبات تاريخية مختلفة على غرار خبراء ومهندسين شاركوا في 1884 في إقامة المنارات⁽⁴⁶⁾، وذلك تزامنا مع إنشاء إدارة الأشغال العمومية في 03 سبتمبر 1882، التي يشملها قطاع التتوير والمنارات إلى حين بعث ديوان مركزي للمنارات بتونس في 14 مارس 1888 Service Central des Phares de la Tunisie⁽⁴⁷⁾.

ومن بين مواضع الانارة أو الفئارات التي توصلنا لمعاينتها بسواحل سرت الصغرى، نذكر «فئار» ببرج خديجة (صورة عدد 1)، وموضع انارة بقصر جبنيانة، وهو في الأصل ركن من القصر المعروف بقصر تليدة وقد سبق التعرض إلى ذكره. هذا الركن كما عاينا في حاجة للترميم والصيانة، وتغيب أي إشارات لوجوده، وهو معلم متروك وسط محيط شركة استغلال وتوزيع المياه تغمره النفايات من كل جانب (صورة عدد 2). أما موضع الإنارة بقصر زياد (صورة عدد 3) فلم يبقى منها إلا بعض الأجزاء، ولم تشهد أعمال ترميم. كما عاينا موقع منارة قصر اللوزة الموجود في «اسقالة اللوزة» فلم نجد إلا بقايا بناء يعود للفترة البورقيبية (صورة عدد 4) ورغم أهميته لم يبقى منه إلا أجزاء⁽⁴⁸⁾. من جهة أخرى عاينا موضع منارة قصر القزل، أو الناظور بسيدي منصور كما يسمى محليا. أما في قرقنة، فقد عاينا البرج العثماني بملية (صورة عدد 6)، وهو بناء مكتمل يرتفع وسط غابة قريبة من البحر بحيث تسهل مراقبة البحر مرجح أن كان يمثل موضع انارة في السابق. من جهة أخرى عاينا نموذج آخر من اضاءة السواحل، وهو فئار طينة الذي يعتبر بناء حديث يعود للحقبة الاستعمارية. يعكس فئار طينة نمودجا هندسيا يقوم أساسا على البناء بمواد إسمنتية ومواد صلبة، كما أن هندسته تختلف عن النوع الأول من الفئارات، أو المنارات التي ارتبطت كما سبق الذكر بالأبراج والرباطات والقصور⁽⁴⁹⁾. كما وجدنا نفس نمودج فئار طينة عند معاينتنا لفئار «تاقرماس»، بمدخل ميناء أغير بجربة، وفي المقابل لاحظنا تشابها بين منارة قابس وجرجيس وبرج جليلج بجربة⁽⁵⁰⁾.

(45) Les travaux publics du protectorat « éclairage des ... », *Ibid.*, p. 49.

(46) الأرشيف الوطني بتونس، السلسلة التاريخية، الصندوق عدد 0187، ملف عدد 1087، الوثيقة عدد 123.

(47) Les travaux publics..., *op. cit.*, p. 37.

(48) الرايس إبراهيم اللوزي، 62 سنة أصيل منطقة اللوزة.

(49) Djelloul 2011, carte p. 182.

(50) انظر مثلا:

Catalogues des phares de la Tunisie, Agence de Protection et d'Aménagement du Littoral, 2016.

والى جانب ما ذكرنا من أنواع الفتارات بهذه المناطق، لاحظنا وجود نوع آخر من العلامات الضوئية البحرية تتمثل في الأعمدة الضوئية على أرصفة الموانئ والعوامات البحرية بمدخل الموانئ وكانت في صفاقس وقرقنة وجربة ومنها ماهو موجود إلى اليوم ومنها ما تحطم في قاع البحر على غرار مدخل سقالة اللوزة أو عوامات واد بوزيد حسب الذاكرة المحلية⁽⁵¹⁾.

وعموما تمكنا من خلال هذه المعاينة من الوقوف عما ذكرته المصادر المكتوبة منذ العصور الوسطى عن نظام الانارة الذي عرفته افريقية وسواحلها الجنوبية الشرقية خاصة أو سرت الصغرى وتطور هذا النظام شيئا فشيئا كلما تقدمنا نحو نهاية الفترة الحديثة أي القرن 19 وبداية القرن 20 إلى بناءات شاهقة في الارتفاع وذات نموذج إضاءة حديث ومتطور فيما بعد يقوم على العدسات العاكسة للضوء إلى العوامات الحديدية التي تنتصب في مداخل الموانئ والتي تحمل نظام إنارة آخر يمثل نظام الانارة في المتوسط ككل. ولا شك أن تاريخية هذا المعلم الأثري البحري تجعله منفرد عن بقية الاثار المعمارية، جعلت له مكانة في ذاكرة البحار.

2- ملامح من حضور الفتار في الذاكرة البحرية

يعكس حضور الفتار في ذاكرة البحار المكانة التي كان يحتلها في حياته اليومية وفي تجربته العملية في البحر والتي أنتجت علاقة تفاعلية بينهما. حيث يعطي الفتار للتجمع السكاني الذي يقابله أو الواقع في ظهيره تسميته فتداول تعبيرات مثل «حي الناظور» و«حي المنارة» ويكون أغلب سكانه من الصيادين والتجار ونجاري السفن. كما يرتبط «الفتار» في ذهن البحار بأسماء المواقع البحرية حيث يعمل في الصيد، مثال تحديد موضع الشباك «نرمي على شور الفتار»، وأيضا «غزل تحت الفتار»، أو «حصيرة على يمين الفتار». أو في معرفة تكاثر السمك، لأن محيط الفتار في البحر يمثل مجمع الأسماك التي تتكاثر بمفعول الضوء وذلك حسب الصيادين.

أما في الملاحة، فالفتار علامة لتحديد الاتجاه في السير ومعرفة طريق العودة للميناء. يقول البحار «طريقي صحيح». ويحتل فتار طينة وفتار برج خديجة وفتار تاقرماس مكانة مهمة في سواحل خليج سرت الصغرى حيث يساعد هذا الثلاثي على الملاحة داخل المنطقة وتعكس تجربة البحار ذلك، حيث يعمل بحارة الشابة على ضوء فتار برج خديجة الذي يصل إلى قرابة 20

(51) الرايس ابراهيم، اللوزة.

ميل بمسافة قدرت بـ 3 ساعات سير بالمركب العادي⁽⁵²⁾. وإن صادف وأطفأ نور الفئار المذكور يستكمل السير أو العمل وفق ضوء فئار طينة وفئار تاقرماس في جربة. فباعتقاد منارة تاقرماس بجربة أو منارة طينة بجنوب صفاقس، يمكن للبحار أن يدخل بمركبه لميناء الشابة مثلا والعكس بالعكس. كذلك يتسنى للبحارة سواحل صفاقس السير وفق ميناء تاقرماس بجربة. وذكر لنا عديد البحارة أنه عند ركوب البحر من صفاقس في اتجاه جربة، يضع الرئيس فئار طينة في «القش» ويبحر، وبمجرد أن يختفي فئار طينة من خلف المركب يبدأ «فئار تاقرماس في الظهور. ويقول البحار: كقاعدة للملاحة بين صفاقس وجربة: «حط فئار طينة في القش وفئار تاقرماس في البروة»، ويتداول البحارة عديد العبارات على غرار: «إذا يتقى فئار طينة بيان فئار تاقرماس» بمعنى إذا غاب عن الأنظار ضوء فئار طينة يبدأ ضوء فئار تاقرماس بجربة في الظهور. وهذه تبدو مثل القاعدة لحساب المسافة فتقريبا عند منتصف الطريق البحرية التي تربط صفاقس بجربة يغيب فئار طينة ويبدأ فئار تاقرماس بالظهور.

كما يحضر الفئار في ذاكرة البحار كمصدر أمن في العمل وفي الطريق ومصدر تأمين الشباك المنصوبة في محيطه من السرقات، فالفئار «ونيس» البحار وهو رمز المنطقة بأكملها⁽⁵³⁾. من جهة أخرى يرتبط الفئار بمهن ورتب على غرار ما ذكرته الوثائق حول خطة «ناظورجي» ومهمته إشعال الناظور وصيانتها الدورية وإبلاغ وزارة البحر بكل ذلك. عوضتها فيما بعد رتبة «عساس الفئار». كما عرفت أسماء عائلات اشتغلت في حراسة «الفئار» في أوقات سابقة.⁽⁵⁴⁾ كما للمرأة في العرش البحري قصة مع الفئار⁽⁵⁵⁾.

(52) حسب السيد صالح شرف الدين، بحار من الشابة. التقيناه في الشابة سبتمبر 2019.

(53) يتغنى الصيادون في طينة بالفئار ويصفونه بالقصر. يردد أحدهم الابيات التالية: «... يا نُصْرَيا فَارَسَ الْأَصْلَ *** لِإِلِي حَبَالًا رَشِيًّا // وَالشَّرْشَرِي مَقَابِلَ الْفُصْرِ (يقصد هنا الفئار) *** وَعَبِيدَ بَنِي السَّرِيَّا...» وهو يستحضر الاولياء الصالحين في منطقة طينة. كما يقول الرئيس سالم الدلنسي أصيل المنطقة: متغنيا بالفئار «ناظور طينة من بعيد يشالي *** تظهر الغابة والبحر المالي».

أيضا في جربة تحفظ الذاكرة المحلية أبيات تتغنى بالفئار، مثال: ناظور تَقْرَمَاسَ فِي اللَّيْلِ يَشْعُشَعُ نُورًا **** يَضْوِي عَلَى شَطِّ الْبَحْرِ كُلَّ دَوْرَةٍ وَدَوْرٍ مَنَارَةٌ دَلِيلُ الْبَحَّارِ لِلْيَاسَةِ وَالْمَعْمُورَةِ **** دَخَلَ تَارِيخَ جَرِبَةٍ مِ الْحَاجَاتِ إِلَي بَيْتِ مَشْهُورَةٍ أَبْيَضَ وَأَحْمَرَ عَلمَ تُونِسَ زَادَا جَمَالَ الصُّورَةِ **** الطُّولُ فَوْقَ 70 وَفَوْقَ 30 يَضْوِي نُورًا (54) في العرش البحري، يقال فلان «عساس الفئار»، أو «دار عساس الفئار»، أو «ولد عساس الفئار».

(55) تتغنى المرأة بالفئار وتطلب منه أن يصدر نوره ليوجه من هو غائب عن أهله ويبدله على طريق العودة بحرا تقول: «ضَوِّي يَا فَتْنَرِ طِينَا *** دَلِ الدَّاهِبِ لِبِلَادَا. ومعناها أن يرسل فئار طينة اشعاعه لأعماق البحار ليؤمن طريق عودة المغترب عن أهله.

وعموما، يبقى هذا المعلم الأثري البحري يغذي الذاكرة المحلية بالمنطقة التي يتواجد بها وكما بينا تتوزع هذه «الفنارات» على أغلب المناطق الساحلية فالأمر يتطلب الاشتغال أكثر فأكثر على هذه العلامات البحرية. أما مجالات البحث حولها فيمكن أن تشمل إعادة توظيف المبنى ومحيطه ومكوناته بتحويل الغرف الموجودة إلى نواتات متاحف تحفظ ذاكرة الفنار ومثال هندسته وأولى العدسات التي استعملت في إنارته بعد ترميمها، يمكن أيضا إعداد قائمة بأسماء من تداولوا على حراسة الفنار أو من عملوا فيه بمختلف الوظائف. يمكن أيضا إقامة عروض في ساحة الفنار وتحديد محيطه الخارجي لاحتواء تلك العروض، أو الورشات التكوينية أو ورشات الرسم، وإقامة مهرجانات ثقافية جهوية ووطنية وتنظيم تظاهرات «ليالي الفنار» على غرار ما يقام في دول متوسطة أخرى⁽⁵⁶⁾.

خاتمة

يمثل الفنار بسواحل سرت الصغرى، علامات تنظم حركة الملاحة، وترشد السفن الداخلة للبحر أو الخارجة منه. وتعود الجذور التاريخية لبعض الفنارات إلى العصور القديمة، وامتدت على مرّ الحقب التاريخية تثير سواحل البلاد التونسية وسرت الصغرى بالخصوص. تحمل هذه الفنارات خصوصية في الهندسة والبناء، بحيث تتطلب مزيدا من الدراسات، لاسيما في التاريخ والاثنوغرافيا. ونشير إلى أن هذه المنارات أصبحت في الربع الأخير من القرن الماضي تتبع رسميا وزارة الدفاع التونسي⁽⁵⁷⁾. وفي الزمن الراهن أصبحت هذه المنارات اختزالا لحقبة تاريخية ولتاريخ الملاحة بسواحل سرت الصغرى، مما يزيد من ضرورة تميمها كإرث معماري بحري تونسي.

إن الاشتغال على عناصر التاريخ البحري لا ينضب، وكل عنصر يوحى بالبحث حول عنصر آخر من ذلك أن الإسقالة كعنصر أثري بحري، بدوره يستحق البحث.

(56) تقام تظاهرة «ليالي المنارات» les nuits des phares، بعيد المدن المتوسطية على غرار فرنسا، المغرب، بيروت...

(57) انظر: الرائد الرسمي للجمهورية التونسية، عدد 15 بتاريخ 24 مارس 1970، الامر عدد 100 لسنة 1970 مؤرخ في 23 مارس 1970.

البليوغرافيا

المصادر الارشيفية

الأرشيف الوطني بتونس، السلسلة التاريخية، الصندوق عدد 187، ملف عدد 1087، حول إشعال بعض الفنارات أو إقامتها. مثال الوثيقة عدد 123، عدد 39 بتاريخ 23 محرم، حول لوازم إقامة منارة بجزيرة الكلاب. والوثيقة عدد 125، وفيها طريقة ضخ الغاز وإشعال الفانار بمنارة سيدي بوسعيد وبمنارة جزيرة الكلاب والمنارات الموجودة ككل، وتشرح هذه الوثيقة طريقة الإعداد لإشعال الفانار في فصول (مراحل). والوثيقة عدد 110 حول توزيع المنارات بالإمبراطورية العثمانية.

المصادر والمراجع باللغة العربية

الإدريسي (أبو عبد الله مُحَمَّد بن محمد الحمودي) 2002، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، نشر مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.

البكري (أبو عبيد عبد الله) 1992، *المسالك والممالك*، بيت الحكمة، تونس.

التيجاني (أبو عبد الله أحمد) 1981، *رحلة التيجاني*، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، نشر الدار العربية للكتاب- طرابلس.

جلّول (ناجي) 1999، *الرياضات البحرية بآفريقية في العهد الوسيط*، السلسلة التاريخية، نشر مركز النشر سراس - تونس.

حسن (محمد) 2003، *الجغرافية التاريخية لآفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع هجري/ ق 7-15 م*، نشر دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس.

درين (علي) 2005، «موانئ منطقة سرت الصغرى»، منتدى المدينة في المجتمع المحلي، إشراف سالم لبيض، منشورات اللجنة الثقافية المحلية بجرجيس.

عبد العلي (أنور) 1978، *الملاحة وعلوم البحار عند العرب*، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة عدد 13.

النيفر (محمد الشاذلي) 2008، *الأسطول في اللغة والأدب والتاريخ*، جمع وتحقيق الطاهر بن محمد النيفر وآمال بن حمزة، منشورات وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة.

كراسات الأرشيف 2011، *معاهدات واتفاقيات دبلوماسية بين البلاد التونسية والقوى الغربية (1626-1955)*، تقديم وتحقيق مهدي جراد، منشورات الأرشيف التونسي.

الرائد الرسمي للجمهورية التونسية، عدد 15 بتاريخ 24 مارس 1970، الامر عدد 100 لسنة 1970 مؤرخ في 23 مارس 1970.

أطروحات ورسائل بحث منشورة

بنحميدة (الصغيرة) 2024، *تاريخ البحر في تونس وذاكرته في الفترة الحديثة بين المنطوق والمكتوب*، نشر المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قسم أطروحات الدكتوراه، قطر.

أطروحات ورسائل بحث غير منشورة

بلمبروك (2020)، *أطروحة دكتوراه بعنوان: المنازل والقرى بجهة جبنيانة في العصر الوسيط: دراسة تاريخية وأثرية*، نوقشت بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، تحت إشراف محمد حسن.

Fichou J.-C. 2010, « La signalisation maritime en Tunisie (1881-1920) ou les phares de la présence coloniale », in *revue du monde musulman et de la méditerranée*, pp. 246-262

Mollat M. 1958 avec la collaboration du Denoix et l'olivier de Prat, *Le navire et l'économie maritime du moyen âge au XVIII^e sc principalement en méditerranée*, collectifs : travaux du deuxième colloque international d'histoire maritime, tenu les 17 et 18 mai 1957, édition bibliothèque générales de l'école pratique des hautes études, VI section, France

Reddé M 1979, La représentation des phares à l'époque romaine. In : *Mélanges de l'École française de Rome. Antiquité*, tome 91, n°2. pp. 845-872.

J. Picard J. (éd.) 1900, « Éclairage des côtes Tunisiennes », in *les travaux publics du protectorat français en Tunisie, Tome 1^{er}*, J. Picard et Cie éditeur, Tunis.

Slim H., Troussat P., Paskoff R. et Ouslati A. avec la collaboration de Bonifloy M. et Lenne J. 2004, *Le littoral de la Tunisie : étude géo-archéologique et historique, Série Etudes d'Antiquités Africaines*, Edition CNRS, Paris.

Catalogues des phares de la Tunisie, Agence de Protection et d'Aménagement du Littoral, 2016.

Encyclopédie et dictionnaire

Clingan C. 2019, « Phares », *Encyclopaedia Universalis* (en ligne), consulté le 25 octobre 2019. <http://www.mandragore2.net/dico/lexique1/lexique1.php?page=phare>

الفضلاوي (وجيه) 2014، *المنارات الساحلية ببايالة تونس خلال القرن 19*، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علوم التراث اختصاص آثار إسلامية، تحت إشراف الأستاذ لطفي عيسى، نوقشت بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس.

شهادات شفوية مع صيادين:

الرايس إبراهيم اللوزي، 62 سنة بحار من اللوزة.

الرايس سالم الدلنسي، 66 سنة، بحار من طينة.

المصادر والمراجع باللغات الأجنبية

Allard É. 1889, *Les phares : histoire, construction, éclairage*. J. Rothschild éditeur, Paris

Amili H. 2011, *Lexique maritime et naval, arabe-français-marocain*, édition Université Mohamed V - Souissi, Institut Universitaire de la Recherche Scientifique.

Barkaoui A. 2014 et Rieth E., *Histoire et Mémoire de la construction navale vernaculaire aux îles Kerkenna-Tunisie*, édition Med Ali, Sfax-Tunisie.

Catalogues des phares de la Tunisie 2016, Agence de Protection et d'Aménagement du Littoral.

Djelloul N. 2011, *Les côtes du Maghreb à l'époque médiévale*, Tome I, édition faculté des Lettres, des arts et des Humanités, Mannouba.

Fantar M.-H. 1997, « La Tunisie et la mer. In : Regards sur la Méditerranée ». Actes du 7^{ème} colloque de la Villa Kérylos à Beaulieu-sur-Mer les 4 & 5 octobre 1996. Paris : Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. pp. 79-88. (Cahiers de la Villa Kérylos, 7).

Lexique des termes de marine, en
ligne sur :
[http://www.netmarine.net/guides/
dico/](http://www.netmarine.net/guides/dico/)
[http://seme.cer.free.fr/plaisance/
lexique-marine-a-voile.php](http://seme.cer.free.fr/plaisance/lexique-marine-a-voile.php)

ملآق الصور



168

صورة عءء 1: منارة برآ آءةةة



صورة عدد 2: ركن من قصر لبيدة موضع منارة جبنيانة في العصر الوسيط



صورة عدد 3: ركن من قصر زياد



صورة عدد 4: بقايا من منارة بميناء اللوزة بنيت على انقاض قصر اللوزة



صورة عدد 5: موضع ناظور سيدي منصور: قصر قزل



صورة عدد 6 : البرج العثماني بمليتة- قرقنة

عمارة المسرح الروماني في لبدة الكبرى ودوجا وصبراته «دراسة تحليلية مقارنة»

مصطفى محمد قنديل زايد⁽¹⁾

الملخص

تناقش هذه الورقة البحثية السمات المعمارية لثلاثة مسارح رومانية في لبدة الكبرى، دوجا، وصبراته ؛ والتي تُعد من أهم المسارح الرومانية الباقية في شمال أفريقيا والمحفوظة بحالة جيدة، كما أنها تؤرخ بثلاثة عصور مختلفة ؛ وهي العصر الأغسطسي، الأنطوني، والسيفيري بالترتيب من الأقدم للأحدث. تم اختيار هذه النماذج لمبنى المسرح بعناية طبقاً لاشتمالها على إبداعات هندسية ومعمارية من ناحية ولكونها تعد أنموذجاً متميزاً لعمارة المسرح الروماني في منطقة شمال أفريقيا من ناحية أخرى.

173

تقارن الدراسة بين المكونات المعمارية لمبنى المسرح الروماني في المدن الثلاث سائلة الذكر وتحليلها وأسباب عوامل الاتفاق والاختلاف فيما بينها، فضلاً عن دراسة أهم السمات الحضارية التي يُمكن استنتاجها من عمارة مبنى المسرح في كل منها. كما تناقش الدراسة أهم عوامل التأثير والتأثر في مبنى المسرح، كما تقترح الدراسة إعادة تأريخ مسرح صبراته والذي يُعد من أعظم ليس المسارح الرومانية في شمال أفريقيا فحسب بل في العالم الروماني بأسره.

الكلمات المفتاحية: عمارة - المسرح الروماني - لبدة الكبرى - دوجا - صبراته.

(1) أستاذ الآثار بقسم التاريخ والآثار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة الملك خالد - المملكة العربية السعودية.

***Roman Theater Architecture in Leptis Magna, Dougga and Sabratha
“A Comparative Analytical Study”***

Abstract

This paper discusses the architectural features of three Roman theatres in Leptis Magna, Dougga, and Sabratha, which are among the most important and well-preserved Roman theatres in North Africa, and date from three different eras: the Augustan, Antonine, and Severan, in order from oldest to newest. These models of the theatre building were carefully selected according to their inclusion of engineering and architectural innovations on the one hand, and because they are a distinctive model of Roman theatre architecture in the North African region on the other hand.

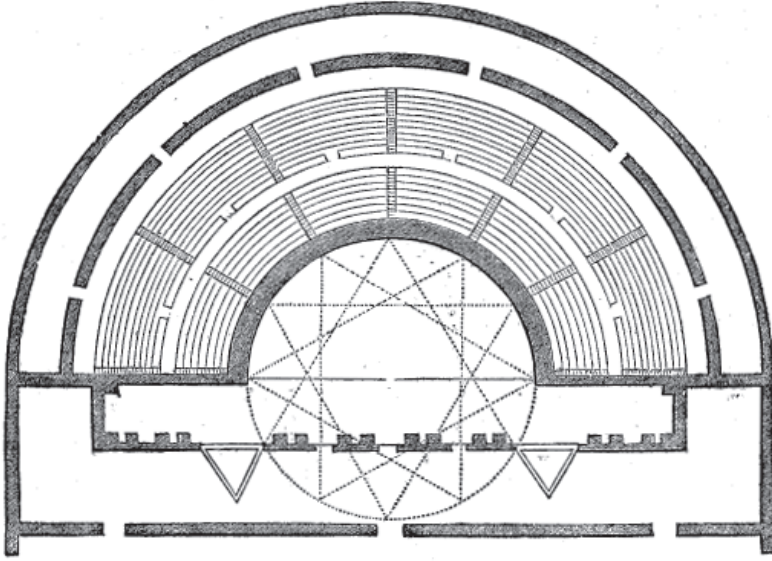
The study compares and analyzes the architectural components of the Roman Theater building in the three aforementioned cities, and the reasons for the factors of agreement and difference between them, in addition to studying the most important cultural features that can be inferred from the architecture of the theater building in each of them. The study also discusses the most important factors of influence and impact on the theater building, and the study proposes re-dating the Sabratha Theater, which is considered one of the greatest Roman theaters not only in North Africa but in the entire Roman world.

Keywords: *Architecture - Roman Theater - Leptis Magna - Dougga – Sabratha.*

المقدمة

ورث الرومان فكرة المسرح عن الإغريق وقاموا بتطويره من حيث تقنية الصوت ووضوح الرؤية، وأصبح المشهد المسرحي لخشبة المسرح *Scaenae Frons* له صفة الديمومة كما أصبح أكثر ثراءً وزخرفة من ذي قبل، كما استطاع الرومان حل إشكالية التراحم في دخول العروض المسرحية والخروج منها - نظرا للإقبال الشديد على المسرح في المدينة الرومانية - من خلال تعدد المداخل والمخارج من داخل مقاعد المشاهدين *Cavea* نفسها.

أما أهم إبداعات الرومان في عمارة المسرح فهي القدرة على اختيار الموقع الأنسب لبناء المسرح والذي يتفق وتخطيط المدينة من خلال بناء المسرح على عقود وقباب، الأمر الذي جعل الرومان يتحكمون في اختيار موقع المسرح وموضعه لا أن يضطروا لنحت المسرح في حوض تل أو جبل أيًا كان موقعه من المدينة كما فعل الإغريق. وبهذا أصبح المسرح ملمحًا أساسيًا من ملامح المدينة الرومانية⁽²⁾.



شكل رقم (1)

نموذج للتخطيط المعماري للمسرح الروماني

(2) عن عمارة المسرح اليوناني والروماني والفرق بينهما، راجع:

Nicoll A., 1959 : 55- 69 ; Bieber M., 1961 : 41-49 ; Harrison J., 1979 : 15-26 ; Small D., 1983 : 55-68 ; Sturgeon M., 2004 : 411-429 ; Phillips L., 2006 : 74- 83.

ابتداء من عصر أغسطس (27 ق. م. - 14 م) تزايدت عدد المسارح في الولايات الرومانية الأمر الذي يشير إلى مدى الرخاء الإقتصادي والثراء الفكري لهذه الولايات في الوقت نفسه. ولعل ما كشف عنه من مسارح رومانية متعددة في الولايات الرومانية بشمال أفريقيا؛ يبرهن على رخائها وارتفاع مستواها الثقافي. فمن الملاحظ أن مساحة المسرح في مدن شمال أفريقية تناسبت طردياً مع عدد سكان هذه المدن؛ وهذا ما أوصى به فيتروفيوس⁽³⁾.

كان للمسرح وظائف متعددة في المدينة الرومانية فكان بمثابة الوسيلة الإعلامية للشعب - بمفهوم العصر - ولذا لا يستبعد أنه كان يستخدم كوسيلة للدعاية السياسية، كما كان للمسرح في الوقت نفسه دور تثقيفي وتعليمي للمجتمع، ولا يمكن إنكار الجانب الترفيهي للمسرح ليشترك مبنى الأمفيثيتر هذا الدور في المدينة الرومانية.

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على الملامح المعمارية لثلاثة مسارح رومانية في لبة الكبرى، دوجا، وصبراته؛ تُعد من أهم المسارح الرومانية الباقية في شمال أفريقيا والمحفوظة بحالة جيدة. تم اختيارها بعناية طبقاً لاشتمالها على إبداعات هندسية ومعمارية من ناحية ولكونها تعد أنموذجاً متميزاً لعمارة المسرح الروماني في منطقة شمال أفريقيا من ناحية أخرى. تم ترتيب هذه المسارح الثلاثة في الدراسة طبقاً لتأريخها من الأقدم للأحدث، كما تناقش الدراسة المكونات المعمارية لمبنى المسرح الروماني في المدن الثلاث سالف الذكر وتحليلها ومقارنتها في كل منها.

- مسرح لبة الكبرى

يُعد مسرح لبة الكبرى *Leptis Magna*⁽⁴⁾ (شكل رقم 2) من أهم

(3) Vitruvius, V, II.

(4) ارتبط اسم لبة أو لبكي *Lpqy* بمؤسسيها الفينيقيين الذين جاءوا إليها من موطنهم الأصلي صيدا في لبنان بعد تأسيس مدينة قرطاج في 814 ق. م.، والأرجح أن المدينة لم تؤسس قبل القرن السابع قبل الميلاد؛ إذ كانت بمثابة محطة تجارية يتزود منها الفينيقيون في غدوهم ورواحهم أثناء تجارتهم البحرية هذا، وقد ورد اسم المدينة بصيغتين في المصادر الكلاسيكية وهما ليبكيس ماجنا (*Lepcis Magna*)، و لبيتيس ماجنا (*Leptis Magna*) وكانت الصيغة الأولى هي المستخدمة في النقوش داخل المدينة، واستمر استخدامها حتى القرن الرابع الميلادي، أما الصيغة الثانية (*Leptis*) فقد ورد ذكرها في المصادر المكتوبة خاصة باليونانية منها لبيتيس وأغلب الظن أن الصيغة الأولى قد اشتقت من الاسم الأصلي للمدينة لبكي-ليبقي (*Lipay-Lpqy*)، كما صوّرت على العملات الفينيقية في شكل هراوة وترس متقاطعين وأربعة حروف تمثل اسم المدينة (*Lipqy*)، أما صفة الكبرى (*Magna*) فقد بدئ باستخدامها منذ نهاية القرن الأول

المسارح في شمال أفريقيا نظراً لموقعه وموضعه المتميز من المدينة، وهو طبقاً لتأريخه يقترب من قلب المدينة حينذاك (صور رقم 1)؛ حيث يقع إلى الغرب من وسط المدينة القديمة، أما عن موضعه فمقاعد المشاهدين تواجه البحر في مشهد خلاب (صورة رقم 2). المسرح ليس فقط محفوظ بحالة جيدة ولكن لكونه مؤرخاً بشكل دقيق من خلال نقش باللغة اللاتينية على مدخل المسرح (صورة رقم 3)، والنقش على النحو التالي:

*Imp(eratore) Caesare divi f(ilio) Aug(usto) pont(ifice)
max(imo) tr(ibunicia) pot(estate) XXIV co(n)s(ule) XIII patre patr(iae)
Annobal Rufus ornator patriae amator concordiae
flamen sufes praef(ectus) sacr(or)um Himilchonis Tapapi f(ilius) d(e)
s(ua) p(ecunia) fac(iendum) coer(avit)
idemq(ue) dedicavi*

والذي يشير بشكل واضح أن الذي قام بإهداء المبنى أحد أثرياء المدينة هو حنبعل روفس للإمبراطور أغسطس في مطلع القرن الأول الميلادي⁽⁵⁾، وتحديدًا في عامي 1-2 م. جدير بالذكر أنه في ذلك الحين⁽⁶⁾ حدث تطور كبير في عمارة المسرح الروماني من حيث تقنية الصوت وعبقيرية الموقع والموضع لمبنى المسرح كما حدد فيتروفياس⁽⁷⁾.

يعد مسرح لبدة الكبرى ثاني أكبر مسرح في شمال أفريقيا من حيث الاتساع؛ حيث بلغ قطر مساحة مقاعد المشاهدين *Cavea* له نحو 87.60 م؛ ليسع من 5500 إلى 6800 مشاهد في العرض الواحد. جدير بالذكر أن مقاعد المشاهدين تواجه شمال شرق المدينة⁽⁸⁾، لتواجه في الوقت نفسه رؤية خلاصة لساحل المتوسط (صورة رقم 4). تتكون مقاعد المشاهدين من ثلاثة طوابق؛ الطابق السفلي مكون من 14 صف مقسمة إلى 6 قطاعات مخروطية *Cunes*، بينما يتكون الطابق الأوسط من 16 صف مقسمة إلى 12 قطاعات مخروطية، ثم الطابق الأعلى ومكون من 5 صفوف بدون قطاعات يستند على رواق اتساعه 2.9 م في نهايته حائط يشتمل على أعمدة؛ يصل ارتفاعها نحو 2.25 م، وهو

الميلادي وبداية القرن الثاني الميلادي، وذلك تمييزاً لها عن مدينة لبيتس الصغرى التي أسسها الفينيقيون عند خليج قابس (حالياً مدينة لمطة بتونس). راجع:

Romanelli P., 1925 : 8, 17 ; Mattingly D., 1995 : 116 ; Di vita-Evard G., Fontana S., Mallegni F., Munzi M., Mussol L., 1996 : 120-123 ; Matthews K., 1957 : 33-47.

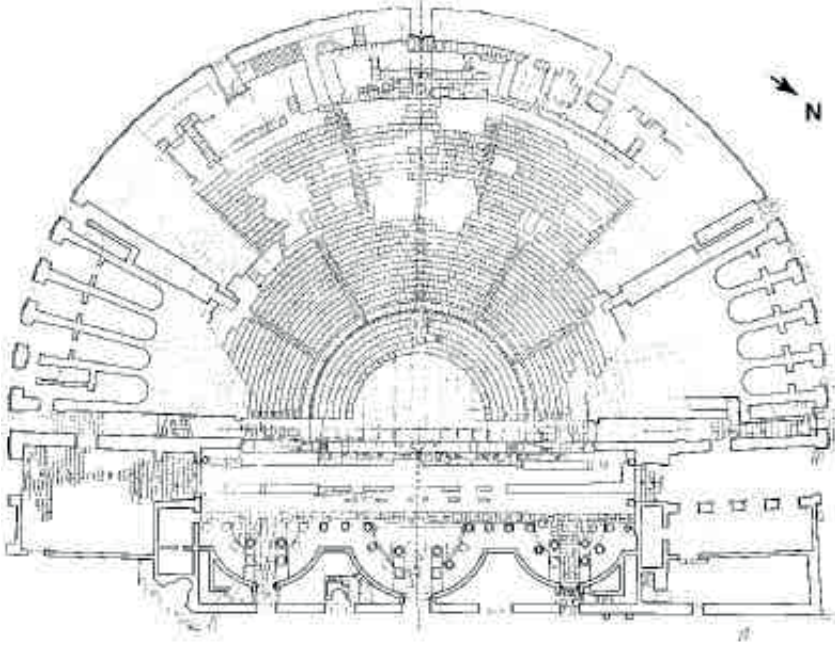
(5) Sear, F., 2006 : 282.

(6) Gros, P., 2007 : 290-291

(7) Vitruvius, V, VI, II, III.

(8) Lachaux J., 1979 : 16 ; Sear F., 2006 : 281.

على الأرجح بقايا معبد سداسي الطراز *Hexastyle* ومبني على منصة *Podium* من المرجح أنه للثالوث كيريس وأبوللو ومنيرفا (صورة رقم 5).



شكل رقم (2)

رسم تخطيطي لمسرح ليبّيس ماجنا (لبدة الكبرى)

تأخذ الأوركسترا شكل نصف الدائرة (صورة رقم 6)، ويبلغ قطرها نحو 24.80 م يوجد بها 6 صفوف منخفضة من المقاعد، كان يوضع عليها مقاعد خشبية لعلية القوم، ويفصلها عن مقاعد المشاهدين منصة ارتفاعها نحو 1.3م به ثلاثة أبواب تؤدي إلى مقاعد المشاهدين جميعها خط مقابل للأبواب الثلاثة في الخلفية المسرحية *Scaenae Frons*. كما تحتوي الأوركسترا على مذبح ثماني الأضلاع يبلغ ارتفاعه نحو 74 م ووضع المذبح في المنتصف تماما بالقرب من الباب الأوسط في الأوركسترا المؤدي إلى مقاعد المشاهدين. كما أن جدار خشبة المسرح المواجه للأوركسترا يشتمل على 9 من المحاريب أو التجاويف؛ المحراب الأوسط هو الأكثر اتساعا وهو في منتصف الأوركسترا تماما يحيط به من كل جانب أربعة محاريب أقل منه اتساعا وجميعها متساوية، هذه المحاريب إمتازت بها مسارح شمال أفريقيا كما هو في مسرحي صبراته

ودوجا. ترجح الدراسة أن هذه المحاريب في مسرح لبدة الكبرى ربما كانت تتزين بتمائيل ربات الفنون والعلوم الموساي التسع وهن راعيات للمسرح الذي كان يلعب دورا بارزا في خلق الوعي الفكري والثقافي للمجتمع.

كما هو نمط المسرح الروماني تتصل مقاعد المشاهدين بخشبة المسرح *Pulpitum* التي يصل طولها نحو 45.70 م (صورة رقم 7)، بينما يبلغ اتساعها نحو 7.35 م. أما عن الخلفية المسرحية *Scaenae Frons*، فتشير الدلائل الأثرية أن ارتفاعها كان 3 طوابق؛ لتماثل نظيرتها بمسرح صبراتة؛ وذلك بعدد مقاعد المشاهدين كما هو ثابت في تخطيط المسرح الروماني، كما يوجد بها ثلاثة أبواب، ومقامة في هيئة بواكي على الطراز الكورنثي⁽⁹⁾.

لا يتجلى الإبداع الهندسي لمسرح لبدة الكبرى فقط في موقعه وموضعه، ولا في جمعه بين الخطوط المستقيمة والمنحنية والمنكسرة، ولكن يتجلى كذلك في مبدأ السيميترية في كل مكونات المسرح؛ حيث تقسم سلالم المنتصف في مقاعد المشاهدين للمسرح إلى قسمين متماثلين تماما (صورة رقم 8 أ، ب) فتقع كل من *vomitorium* - المدخل والمخرج الرئيس - وسلالم المنتصف والباب الرئيس في منتصف الأوركسترا وحلقة الوصل بينها ومقاعد المشاهد والمحراب الأكبر والأوسط في حائط خشبة المسرح المواجه للأوركسترا وأخيرا الباب الملكي *Regia porta* أو الرئيس في الخلفية المسرحية *Scaenae Frons* جميعها تقع على خط مستقيم.

التناسق الرقمي أيضًا يعد واحداً من أهم إبداعات الرومان في مسرح لبدة الكبرى؛ من حيث تكرار الرقم 3 والذي ربما يشير إلى المعبودات الثلاث الحاميات للمسرح (كيريس - أبولو - باخوس)، والتي تتجلى في عدد الأبواب في كل من الخلفية المسرحية والحائط أو المنصة التي تفصل الأوركسترا عن الكافيا، وعدد الطوابق في كل من الكافية والخلفية المسرحية.

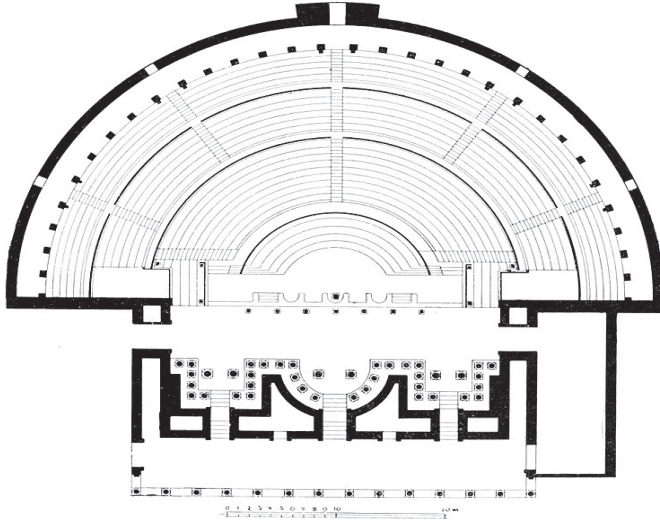
- مسرح دوجا

تميز مسرح دوجا⁽¹⁰⁾ (شكل رقم 3) بكونه أحد أهم النماذج المحفوظة

(9) Lachaux J., 1979 : 22 ; Sear F., 2006 : 281-282.

(10) من أهم المدن الأثرية في الشمال الغربي لدولة تونس؛ حيث تقع على بعد نحو خمسة كيلومترات من معتمدية تبرسق و حوالي 108 كم من العاصمة تونس، وتطلق باللهجة المحلية «دقة» وربما هذا الإسم مستمد من اسمها الأمازيغي القديم Thugga أو Dougga والذي يعني الجبل الصخري. شيدت المدينة على هضبة يبلغ ارتفاعها نحو 571 متراً، تشرف على واد خصب ذي مناظر طبيعية خلابة، يحيط بها من جهة الشمال الشرقي جرف شديد الانحدار يسمى جرف كاف دقة، ولذا أضافتها منظمة اليونسكو كموقع

وأفضلها للمسارح الرومانية في شمال أفريقيا. يؤرخ المبنى بعصر ماركوس أوريليوس (161-180 م)، وتحديداً في عام 169 م. يبلغ قطر مقاعد المشاهدين لهذا المسرح نحو 63.50 م وهي تواجه جنوب وجنوب غرب المدينة، وتقابل من عل الوادي الخصيب (صورة رقم 9)⁽¹¹⁾.



شكل رقم (3)

رسم تخطيطي لمسرح دوجا

تتكون مقاعد المشاهدين، مثل نظيرتها بمسرح لبة الكبرى ومسرح صبراته، من ثلاثة طوابق (صورة رقم 10) ؛ يشتمل الطابق السفلي على 9 صفوف من المقاعد مقسمة في قطاعين مخروطيين، بينما يشتمل الطابق الأوسط على 6 صفوف مقسمة في 6 قطاعات مخروطية، أما الطابق الأعلى فيشتمل على 4 صفوف في 6 قطاعات مخروطية، ولذا يمكن أن تستوعب من 2550 إلى 3150 مشاهد في العرض الواحد ؛ على الرغم من أن تعداد السكان لبلدة دوجا حينذاك كان يقدر بحوالي 5000 نسمة⁽¹²⁾.

من أهم المواقع التراثية العالمية عام 1997 م، وتم اعتبارها أفضل بلدة رومانية صغيرة محفوظة في شمال إفريقيا. يزخر الموقع الأثري لهذه البلدة بالعديد من المنشآت المتنوعة تاريخياً ووظيفياً ؛ حيث تتبى عن تاريخها النوميدي والروماني والبيزنطي، وتنوع بين منشآت دينية ودينية وعسكرية وجنازية، لمزيد من التفاصيل راجع:

Camps G., 1992 : 22-25 ; Khanoussi M., 2003 : 131-155.

(11) Lachaux J., 1979 : 130 ; Sear F., 2006 : 287-288.

(12) Khanoussi M., 2003 : 145-146.

يبلغ قطر الأوركسترا نحو 20.70 م، تغطي أرضيتها بألواح من الحجر الجيري وتشتمل على 5 صفوف من المقاعد المنخفضة لتوضع عليها مقاعد خشبية لعلية القوم (صورة رقم 11). حائط خشبة المسرح المواجه للأوركسترا يشتمل في المنتصف على خمس مشكاوات والتي تتفق مع السمة الرئيسة لمسارح شمال أفريقيا بشكل عام ومسرحي ليبتيس ماجنا وصبراتة على وجه الخصوص، وتختلف عن مثيلتيها في المسرحين فقط في العدد، ثم على طرفها من الجانبين سلالم تؤدي إلى خشبة المسرح يتكون كل منهما أربع درجات.

تتصل خشبة المسرح بمقاعد المشاهدين (صورة رقم 12)، يبلغ اتساعها نحو 6.1 م وطولها 32.35 م؛ جدير بالذكر أن خشبة المسرح مرفوعة على عقود مقامة على 16 دعامة⁽¹³⁾.

أما عن الخلفية المسرحية فكانت مكونة من ثلاثة طوابق تشتمل على محاريب عميقة، ومقسمة إلى أربعة قطاعات رأسية يتخللها ثلاثة أبواب، كما أن البواكي المقامة عليها الخلفية المسرحية عبارة عن أعمدة على الطراز الكورنثي⁽¹⁴⁾.

رغم صغر مساحة مسرح دوجا مقارنة بمسرحي لبدة الكبرى وصبراتة ؛ وهذا يتفق لكونه في بلدة صغيرة وليست مدينتين كبيرتين كما هو الحال في أكبر مدن إقليم تريبولوتانيا، وهذا يتفق مع معايير فيتروفيوس لمبنى المسرح؛ من ضرورة التناسب الطردي بين عدد السكان ومساحة المسرح، إلا أن العناصر المعمارية في هذا المسرح مكتملة إلى حد كبير، ويتسم بالسيمية (صورة رقم 13) والتناسق بين مكوناته. والإبداع الهندسي يتجلى في اختيار موقع مقاعد المشاهدين لتطل على الوادي الخصيب من فوق الهضبة التي شيد عليها مسرح دوجا.

- مسرح صبراتة⁽¹⁵⁾

انفرد مسرح مدينة صبراتة⁽¹⁶⁾ بالعديد من الملامح المعمارية (شكل

(13) Golfito A., 1961 : 32 ; Lachaux J., 1979 : 134.

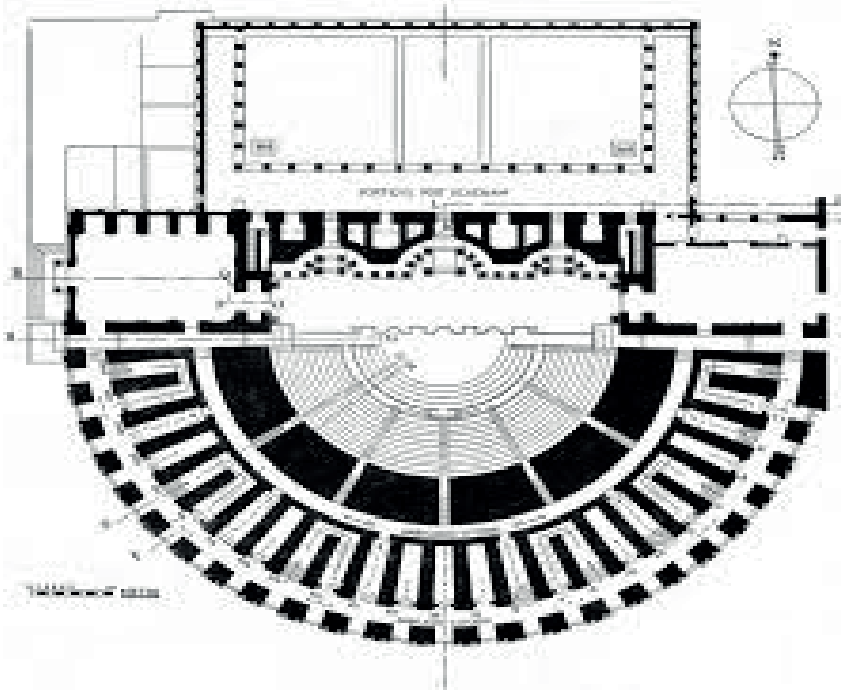
(14) Sear F., 2006 : 288.

(15) كشفت البعثة الإيطالية عن هذا المسرح عام 1927 واستمر العمل به حتى عام 1932، وتم ترميم المبنى واستكمال ما فقد منه وتم انجاز المهمة في عام 1937، لمزيد من التفاصيل راجع:

Caputo G., 1959 ; Altekamp S., 2004 : 62-64 ; Lachaux J., 1979 : 22.

(16) تقع مدينة صبراتة على الساحل الشمالي الغربي بليبيا غرب مدينة طرابلس الحالية نحو 68 كم وهي إحدى مدن إقليم تريبوليتانيا وإحدى المدن الثلاث (لبدة - أويا «طرابلس حالياً» - صبراتة) وأسست من قبل الفينيقيين حوالي نهاية القرن السادس ق م وبدايات القرن الخامس قبل الميلاد لتكون إحدى المحطات التجارية - الأمبريوم - للأسطول الفينيقي على ساحل المتوسط ، ثم ما لبثت أن أخذت هذه المحطات التجارية

رقم 4) ؛ من حيث عبقرية الموقع والموضع (صورة رقم 14 أ، ب) ومن حيث تخطيطه المعماري ومن حيث مبدأ التوازن بين العناصر المعمارية والزخرفية التي يزخر بها، فضلاً عن تطابق مقاييس الهندسة المعمارية التي أوصى بها فيتروفياس فيما يخص عمارة المسرح في كتابه الشهير «عن العمارة» ومسرح صبراته⁽¹⁷⁾.



شكل رقم (4)
رسم تخطيطي لمسرح صبراته

صفة المدن وكانت مدينة صبراته من أهم هذه المدن التي غدت مدينة لها خصوصيتها. أصبحت تحت حكم الرومان في عهد يوليوس قيصر عندما أنشأ ولاية أسماها أفريقيا الجديدة Africa Nova وكانت تضم نوميديا الشرقية بالإضافة إلى المدن الثلاث، بينما رفعت إلى مرتبة المستعمرة تحت حكم أنطونينوس بيوس حوالي عام 157 م، أما ذروة مجد المدينة فقد شهدته في عصر الأسرة السيفيرية (193-235 م) والتي شهدت المدن الثلاث ظهيراً دفاعياً غير مسبوق حيث كانت هناك ثلاثة خطوط دفاعية حفظت لهذه المدن الأمن والأمان ومن ثم الاستقرار والازدهار، راجع :

Raven, 2003 : 9 ; Mattingly D., 1994 : 50 ; Mattingly D. & Hitchner R., 1995 : 165-213.
(17) Vitruvius, V, VI, II.

كما زين المسرح على الواجهة المسرحية لخشبة المسرح في الجهة المقابلة للاوركسترا بمجموعة من المنحوتات البارزة؛ حيث زينت خشبة المسرح بحافة رخامية عبارة عن أنصاف دوائر نحت بداخلها مشاهد متنوعة تتسم بتنوع موضوعاتها وعلو قيمتها الفنية، كما يفصل بين هذه المشاهد زخارف معمارية ونباتية متنوعة؛ كما تزخر الواجهة المسرحية بمجموعة من الأعمدة المتنوعة الطرز والتي تمثل عناصر زخرفية تتسم بالتنوع والجمال والثراء، كما تشتمل كلا من الواجهة المسرحية وساحة الاوركسترا بعناصر زخرفية لها دلالتها، فضلاً عن العناصر الزخرفية التي تزين مداخل المسرح. كما - لحسن الطالع - يعد مسرح صبراته من أكمل مسارح شمال أفريقيا كما يمتلك مشهداً مسرحياً منقطع النظير في العالم الروماني بأسره، ولا يضاهيه في ذلك سوى مسرح بصرى بجنوب سوريا⁽¹⁸⁾.

يتميز المسرح كذلك بأنه الأضخم من نوعه في أفريقيا، كما يعد من المسارح الضخمة في الإمبراطورية الرومانية كافة؛ إذ يبلغ ارتفاعه نحو 22 م، ومن ثم يمكن مقارنته بالمسارح الكبرى في الإمبراطورية الرومانية من حيث المعالم المعمارية والخصائص الفنية؛ فيمكن مقارنته من حيث الضخامة بمسرح مدينة أورانج في بلاد الغال (فرنسا الحالية)، ومسرح اسبندوس في آسيا الصغرى ومسرح بصرى بالشام.

- مقاعد المشاهدين *Cavea* ⁽¹⁹⁾

بنيت مقاعد المشاهدين من الحجر الرملي - المتوفر في المدينة (صورة رقم 15)⁽²⁰⁾ - ثم غطيت الأحجار بطبقة من الستكو⁽²¹⁾. تكونت مقاعد المشاهدين (صورة رقم 16) من ثلاثة طوابق تأخذ شكل نصف الدائرة، وبلغ قطرها نحو 92.60 م. يتكون الطابق الأول أو الأسفل *ima Cavea* من إحدى عشر صفاً

(18) عن مسرح بصرى راجع:

Patricio T. & Stevens T., 2003 : 20.

(19) وردت هذه التسمية في المصادر الأدبية الرومانية للدلالة عن أماكن جلوس المشاهدين في المسرح، راجع:

Plautus Amph. 66 ; Cicero Amic. 24.

(20) بنيت جميع المباني المكتشفة في مدينة صبراته من الحجر الرملي وأهمها الضريح البونيقي ومعبد إيزيس والمعبد الأنطونيوني والميدان السيفيري وغيرها، وترجع الدراسة أن موقع الأمفيثياتر وما حوله كان بمثابة محجراً لبناء المدينة سيما الحي الجديد في المدينة، لمزيد من التفاصيل راجع:

Altekamp, 2004 : 60-62 ; Munzi M., 2004 : 97-98.

(21) Haynes D., 1965 : 130.

من المقاعد بعرض 33 سم وارتفاع 77 سم⁽²²⁾، يفصل فيما بينها سبعة سلالم رأسية⁽²³⁾ مقسمة صفوف مقاعد الطابق الأول إلى ستة قطاعات مخروطية الشكل *cunei*⁽²⁴⁾، وإذا اعتبرنا أن مساحة كل من القطاعين فوق ممري المسرح تساوي قطاع مخروطي واحد ؛ بذلك يمكن اعتبار عدد القطاعات المخروطية في الطابق الأول سبعة أيضاً بعدد السلالم في الطابق نفسه ؛ حيث إن مقاعد المشاهدين تتصل اتصالاً معمارياً بخشبة المسرح وهي سمة تميزت بها عمارة المسرح الروماني، ولم يتبق من الطابق الثاني أو الأوسط *Media Cavea* سوى جزء من ستة صفوف في الجانب الغربي من المسرح قسمت إلى سبعة قطاعات مخروطية كما يقترح كلا من *Di Vita*⁽²⁵⁾ و *Sear*⁽²⁶⁾. كما لم يتبق سوى أربعة صفوف من مقاعد الطابق الثالث أو الأعلى *Summa Cavia* أيضاً في الجانب الغربي منه. يرجح *Di Vita*⁽²⁷⁾ أن قطاعات الطابق الثالث كانت قسمت إلى ثمانية قطاعات، بينما ذكر *Sear*⁽²⁸⁾ أنها مقسمة إلى ستة قطاعات مخروطية دون أن يذكر عدد السلالم في كل من الطابقين الثاني والثالث، ولكن فيما يبدو أن رأي كل منهما - في رأيي - لا يعدو عن كونه احتمالاً لا دليل له على أرض الواقع أو ثمة مقارنة بمسارح رومانية أخرى، فضلاً عن أن الجزء المتبقى من مدرجات الطابقين الثاني والثالث لا يشير قطعاً بعدد القطاعات المخروطية أو حتى السلالم بهما.

تشير الطبقة العليا للطابق الثالث ثمة بقايا رواق أو ممر معمد *porticus* (صورة رقم 17)، ولذا من المرجح أن مسرح صبراته كان يشتمل على ممر معمد أعلى الكافيا كما أشار بذلك فيتروفيوس⁽²⁹⁾ لغالبية المسارح الرومانية، وربما كان الطابق الثالث يشتمل على معبد صغير ورواق أيضاً على نحو ما كشف عنه في مسرح مدينة لبة الكبرى⁽³⁰⁾.

(22) تم قياس عرض المقاعد وارتفاعها في الطوابق الثلاثة من قبل الباحث ووجد أنها بالمقاييس نفسها التي ذكرت في المتن ولم تختلف من طابق إلى آخر مطلقاً، الأمر الذي يشير إلى الدقة المتناهية في العمل.

(23) Vitruvius, V, VI, 3.

(24) Vitruvius, V, VI, 2.

(25) Di Vita, 1999 : 173.

(26) Lachaux J., 1979 : 100 ; Sear, 2006 : 283.

(27) Di Vita 1999 : 173.

(28) Sear 2006 : 283.

(29) Vitruvius, V. VI. 4.

(30) تشتمل بعض المسارح على معبد في أعلى الكافيا ولعل أشهرها معبد فينوس بمسرح بومبي، بينما تشتمل بعض المسارح على ممر معمد ولعل أشهرها معبد مسرح بصرى بجنوب سوريا، كما تشتمل بعض المسارح على الممر المعمد والمعبد كليهما وهذا ما عثر عليه بمسرح لبة الكبرى، راجع: 2 : Sear, 2006.

تتجه مقاعد المشاهدين تماما ناحية الشمال، الأمر الذي يحمي المشاهدين من الرياح الصحراوية الحارة وفي الوقت نفسه يتمتع المشاهدين برؤية خلابة ومتجددة لشاطئ المتوسط؛ إذ لا يبعد المسرح عن شاطئ البحر أكثر من مائة وخمسين متراً (صورة رقم 14 أ، ب)، ويمكن للمشاهدين في الطابقين الثاني والثالث رؤية العرض المسرحي على خلفية البحر بشكل مباشر، أما المشاهدون في الطابق الأول فلا يحرمون رؤية البحر كخلفية للعرض المسرحي، إذ يتسنى لهم ذلك من خلال الأبواب الثلاثة في *Frons Scaenae* ⁽³¹⁾.

يبلغ قطر الكافيا 6.92 م؛ الأمر الذي يشير إلى اتساع هذه المقاعد لعدد من المشاهدين لا يقل عن خمسة آلاف مشاهد في العرض الواحد ⁽³²⁾، أو ستة آلاف مشاهد وخمسمائة على أفضل تقدير ⁽³³⁾.

تستند مقاعد المشاهدين على حلقتين *Ambulacrum* إحداهما خارجية والأخرى داخلية، وتتشابه الخارجية منهما من حيث الشكل مع الكثير من مباني المجالدة الرومانية (صورة رقم 5)، إلا إنها تأخذ شكل الممرات المدعمة بالأقواس ذات الصروح الضخمة (صورة رقم 18)، تسبق هذه الأقواس من الخارج ثلاث دعائم الوسطى منها أكبر وأعلى وعلى جانبيها دعائتان أصغر، وتحتوي الدعامة الوسطى على تيجان كورنثية للدعامتين الكبيرتين وتيجان دورية للدعامتين الجانبيتين، كما تحمل الدعامة الوسطى كورنيشا يرتفع فوق الطابق الأول بينما تحمل الدعائتان الجانبيتان الأقواس، ويتكرر هذا النسق في الطابقين الثاني والثالث.

– الأوركسترا *Orchestra* ⁽³⁴⁾

بطبيعة الحال تأخذ الأوركسترا شكل نصف الدائرة مثل الكافيا ⁽³⁵⁾، يبلغ قطر الأوركسترا نحو 22.4 م، تخلو الأوركسترا من وجود مذبح شأن أوركسترا المسرح اليوناني أو عدة مذابح شأن بعض الأوركسترا في المسرح

(31) من واقع دراسة ميدانية للباحث بمدينة صبراتة الأثرية.

(32) Di Vita A., 1999 : 173.

(33) Sear F.-B., 2006 : 284.

(34) عبرت المصادر معظم المصادر الأدبية الرومانية عن هذا المصطلح في المسرح الروماني للدلالة على المساحة التي تتوسط ما بين مقاعد المشاهدين وخشبة المسرح وهو المصطلح ذاته في عمارة المسرح اليوناني؛ الأمر الذي يشير إلى أن المسرح الروماني قد ورث العديد من المفردات المعمارية لسلفه اليوناني، لمزيد من التفاصيل راجع:

Vitruvius, De Arch. 5. 6. 2 ; Quintilian, Inst. 6. 3. 71 ; Suetonius, Nero 12. 3 ; Juvenal 3. 178 ; Sear, 2006 : 7.

(35) Vitruvius, 5. 6. 2.

الروماني⁽³⁶⁾، بل اشتملت الأوركسترا على أربعة صفوف رخامية لتوضع عليها مقاعد خشبية على الأرجح لجلوس على القوم (صورة رقم 19) ؛ وهذا ما أشار إليه فيتروفيوس؛ حيث أشار إلى وجوب ألا يزيد ارتفاع خشبة المسرح عن خمسة أقدام حتى يتسنى للوجهاء وعالية القوم رؤية العرض المسرحي بوضوح من موقعهم داخل الأوركسترا⁽³⁷⁾، جدير بالذكر أن مساحة عرض الصف الواحد لهذه المدرجات بلغ نحو 96 سم، بينما بلغ ارتفاعه نحو 12 سم⁽³⁸⁾؛ الأمر الذي يشير إلى وجوب مقاعد خشبية فوق هذه الصفوف الرخامية لا تقل ارتفاعها عن 40 سم⁽³⁹⁾ للتمكن من الرؤية الواضحة في ضوء ما حدده فيتروفيوس لارتفاع خشبة المسرح. كما عبت أرضية الأوركسترا بلوحات رخامية شبيهة بلوحات السور الرخامي يرجح دي فيتا⁽⁴⁰⁾ أن هذا الرخام من بروكونيسوس.

يحاط بالأوركسترا سور رخامي أطلق عليه البعض⁽⁴¹⁾ *Balteus*، بينما ورد في نقش من مسرح لبدة الكبرى تحت مسمى *Podium*⁽⁴²⁾ يبلغ ارتفاعه نحو 1,5 م يفصل الأوركسترا عن الكافيا ينتهي كل من طرفيه بقاعدة زخرفت بمنحوتات للدرفيل الذي يبلغ ارتفاع كل منهما ارتفاع السور نفسه ويتجهان برأسيهما إلى الداخل ومثبتان على الدرجات الثلاث العليا من مدرجات الأوركسترا، يتشابه هذان الدرفيلان بنظيرهما في مبنى المجادلة بقراطاج، كما يتخلل هذا السور ثلاث فتحات أو بالأحرى ثلاثة أبواب كل باب يفتح على ثلاثة سلالم من السبعة سلالم الكائنة بالطابق السفلي من الكافيا، جدير بالملاحظة أن هذه الأبواب تماثل الأبواب الثلاثة في جدار الخلفية المسرحية كما أنها على خط توازٍ معها.

يوجد بئر في نهاية الأوركسترا تجاه خشبة المسرح، وتحديدًا في المنتصف في الجهة المقابلة للبواب الرئيسي في حائط الخلفية المسرحية من ناحية، وحائط المنتصف في الجدار الرخامي للأوركسترا من ناحية أخرى؛ وموضع هذا البئر يقع على خط وهمي يقسم المسرح نصفين طولًا وعرضًا، الأمر الذي يشير إلى مبدأ التماثل للعناصر المعمارية لمبنى المسرح، كما يشير

(36) وجد عدة مسارح رومانية اشتملت الأوركسترا فيها على عدة مذابح مثل مسرح آليس لمزيد من التفاصيل راجع: 7 : Sear F., 2006.

(37) Vitruvius, V. VI. II.

(38) جدير بالذكر أن الباحث قام بقياس هذه المدرجات في مسرح لبدة الكبرى وتبين أنها تتطابق في المقاييس نفسها التي وردت في المتن أعلاه.

(39) Sear F., 2006 : 6 ; Caputo G., 1987 : pls. 49-51.

(40) Di Vita A., 1999 : 173.

(41) Dumasy F., 1975 : 1015.14.

(42) IRT 347 ; Sear F., 2006 : 6.

إلى أهمية هذا البئر وهو على الأغلب كان مستخدماً لتصريف مياه المطر من ناحية وكثنية من تقنيات الصوت من ناحية أخرى؛ إذ ربما كان متصلاً بنفق أو عدة أنفاق والذي من شأنه تضخيم الصوت ليصل إلى كافة المشاهدين.

خشبة المسرح *Pulpitum* ⁽⁴³⁾

ترتفع خشبة المسرح عن أرضية الأوركسترا 1,37 م أو 4,66 قدم وهي بذلك تتفق ومعايير فيتروفيوس في الارتفاع المثالي لخشبة المسرح عن أرضية الأوركسترا؛ إذ يجب ألا تزيد عن خمسة أقدام ⁽⁴⁴⁾. كما بلغ طول خشبة المسرح 24,70 م أما عرضها أو عمقها حتى حائط الخلفية المسرحية *Scaenae Frons* بلغ 10,43 م أي وصلت نسبة طول خشبة المسرح إلى عرضها 1:4,09؛ الأمر الذي يشير إلى مثالية خشبة المسرح من حيث وضوح الرؤية ⁽⁴⁵⁾.

تتصل خشبة المسرح بساحة الأوركسترا اتصالاً وثيقاً بمقاعد المشاهدين (صورة رقم 20)؛ إذ أضيفت مقاعد فوق مدخلي المسرح من الأوركسترا، كما تتصل بالأوركسترا عن طريق سلالم على جانبي خشبة المسرح غير مرئية للمشاهدين إذ يفصلها حاجز في مواجهة الأوركسترا ليتم الصعود لخشبة المسرح عن طريق أربع درجات بالوضع الجانبي في نهايتي خشبة المسرح؛ يمكن من خلالهما الصعود والنزول من وإلى خشبة المسرح لساحة الأوركسترا.

كما يتميز مسرح صبراته بوجود ردهة تؤدي إلى غرفة تقع أسفل خشبة المسرح؛ يمكن النزول إليها من كل جانب من جانبي خشبة المسرح، ويبدو أن هذه الغرفة السفلية كانت تستخدم لاستراحة فريق التمثيل؛ حيث عثر بها على بقايا فسيفساء كانت تزين أرضيتها وكذلك جدرانها.

تميزت خشبة المسرح بوجود حافة رخامية في مواجهة الأوركسترا عبارة عن مشكاوات *Exedrae* متتالية بلغ عددها سبع، نحت بداخلها مشاهد متنوعة بالنحت البارز تشتمل على 21 لوحة أو مشهد بما يعني أن كل حنية تشتمل على ثلاثة مشاهد ⁽⁴⁶⁾ يفصل بين المشكاوات السبع جدار مستطيل في

(43) وردت هذه التسمية في المصادر الأدبية الرومانية للدلالة على منصة العرض المسرحي أو خشبة المسرح وغالباً ما يكون سقفها من الخشب، ونادراً ما تشتمل على حجرة أسفل المنصة، وغالباً ما تتصل بالأوركسترا عن طريق سلالم على الجانبين، لمزيد من التفاصيل راجع:

Vitruvius, V. VII. II ; Horace, Ars Poetica, 279.

(44) Vitruvius, V, VI, II

(45) Sear F., 2006 : 35-36.

(46) تناقش هذه المنحوتات ماهيتها ودلالاتها بالجزء الثاني من البحث.

نهايته زخرفة أو دعامة تأخذ هيئة العمود الإيوني يشتمل البدن على قنوات. ويبدو أنه قد اتسمت مسارح شمال أفريقيا بوجود مشكاوات داخل الجدار المواجه للاوركسترا؛ فتكررت هذه الظاهرة المعمارية - دون نحت بارز في أحيان كثيرة - في المسارح المكتشفة في شمال أفريقيا مثل مسرح لبة الكبرى، ومسرح دوجا⁽⁴⁷⁾، ومسرح جميلة، ومسرح تمجاد⁽⁴⁸⁾.

الخلفية المسرحية *Scaenae Frons* ⁽⁴⁹⁾

أهم ما يميز مسرح صبراته هو واجهته المسرحية أو الخلفية المسرحية والمقصود هو حائط خشبة المسرح المواجه للمشاهدين وفي الوقت نفسه خلفية دائمة لخشبة المسرح (صورة رقم 19).

قسم المشهد المسرحي لمسرح صبراته إلى سبع بواكي أو حنايا رأسية في ثلاثة طوابق لمجموعة متنوعة من الأعمدة الرخامية المتناسقة؛ إذ إن يتكون الطابق من 32 عموداً أو بالأحرى طرازاً؛ حيث يتكون الطابق من قاعدة *Podium* وعموداً *Column* وتكنة *Entablature* أو ما فوق العمود؛ أي تشتمل الواجهة على 96 عموداً تمتاز بتيجانها المركبة حيث تتكون من أوراق الأكانثوس وأقنعة مسرحية ورؤوس أسود.

يبلغ ارتفاع الطابق الأول من المشهد المسرحي نحو 8,8 م؛ حيث يبلغ ارتفاع القاعدة نحو 1,91 م، أما ارتفاع العمود فيصل إلى 5,54 م، بينما ارتفعت التكنة في الطابق الأول نحو 1,35 م، أما الطابق الثاني فقد ارتفع نحو 7,06 م؛ حيث بلغ ارتفاع القاعدة نحو 0,96 م، بينما وصل ارتفاع العمود 4,90 م، أما التكنة فقد بلغ ارتفاعها 1,20 م، أما الطابق الثالث والأخير فقد ارتفع نحو 5,74 م، حيث بلغ ارتفاع القاعدة نحو 0,86 م، بينما وصل ارتفاع العمود 3,65 م، أما التكنة فقد بلغ ارتفاعها 1,23 م، وبهذا يكون ارتفاع الواجهة المسرحية لمسرح صبراته 21,60 م⁽⁵⁰⁾.

(47) Pfeiffer H., 1931: 145-156.

(48) Sear F., 2006 : 273-275.

(49) وردت هذه التسمية عند فيتروفيوس للدلالة على الحائط في خلفية خشبة المسرح والذي يرتفع غالباً بعدد طوابق مقاعد المشاهدين؛ فمن الجائز أن يتكون من طابقين أو ثلاثة، وأشار فيتروفيوس أن هذا الجدار ينبغي أن يشتمل على ثلاثة أبواب؛ تؤدي هذه الأبواب إلى حجرات الكواليس حيث يتم فيها تبديل الملابس والأقنعة، كما أشار أن الباب الأوسط كان يطلق عليه الباب الملكي نظراً لخروج كبار الممثلين منه، أما الباب على يمين المشاهد فكان لخروج الطبقة الثانية من الممثلين حيث حجرات كواليسهم الخاصة بهم، ثم الباب الأخير على يسار المشاهد للطبقة الأدنى أو الكومبارس من الممثلين، لمزيد من التفاصيل راجع:

Vitruvius, De Arch. 5. 6. 6 ; Beare W., 1968 : 285-94.

(50) Sear F., 2006 : 35-36.

المتأمل في المشهد المسرحي يلاحظ التناسق بين أجزاء الطراز في الطابق الواحد والتدرج في الارتفاع بين الطوابق الثلاثة؛ الأمر الذي أضفى على المشهد جمالاً ومهابة، كما أن المعماري أبدع في المشهد المسرحي من خلال التنوع بين أبدان الأعمدة فجاءت أبدان أعمدة الطابق الأول من الرخام الملون المعروف بـ *pavonazetto* الأملس، بينما جاءت أبدان أعمدة الطابق الثاني من الرخام الأبيض؛ ذي القنوات المستقيمة والحلزونية، أما الطابق الثالث فبعض أبدان أعمدته صنعت من الجرانيت الأسود، والبعض الآخر صنعت من الرخام الملون ذي القنوات الحلزونية تارة والمستقيمة تارة أخرى؛ وبهذا فقد رسم المعماري لوحة خلابة من خلال ألوان الرخام المتعددة؛ الأمر الذي يحقق الراحة للرؤية، كما خفف من حدة الخطوط المستقيمة للمشهد بتعدد ألوان الرخام في الطابق الأول والقنوات الحلزونية في الطابق الثاني وتعدد الألوان في الطابق الثالث.

تتميز الحنايا بأنها تحاط بها الأعمدة من الأمام والجانبين بينما يوجد حائط من الخلف ليخلق تجويفاً بين الأعمدة والحائط في ملمح معماري يشبه الشرفات (صورة رقم 19)؛ الأمر الذي يحدث تردد للصوت ومن ثم يقويه مما يتيح للمشاهدين سماع الصوت بوضوح.

189

كما يتميز حائط الخلفية المسرحية بأنه يشتمل على ثلاثة أبواب لخروج الممثلين لحجرات الكواليس؛ الباب الأوسط وهو ما أطلق عليه الباب الملكي أو الرئيسي *Regia* ويتسم بالعمق وأكثر اتساعاً حيث بلغ عرضه 1,95م ثم بابين جانبيين يطلق على كل منهما اسم *Hospitalia*⁽⁵¹⁾؛ إذ بلغ اتساع كل منهما 1,37م⁽⁵²⁾، تتسق هذه الأبواب مع الأبواب الثلاثة في حائط الأوركسترا الرخامي في خط مستقيم، الأمر الذي يشير إلى مبدأ التناسق، كما يتسق الباب الملكي مع الباب الأوسط في حائط الأوركسترا مع السلالم الوسطى لمقاعد المشاهدين في الطابق الأول (صورة رقم 18) فتقع جميع هذه المفردات المعمارية على خط مستقيم واحد يقسم المسرح إلى قسمين متماثلين.

رصدت الدراسة ظاهرة جديدة وفريدة في هذا المسرح وهي ظاهرة تكرار الرقم 7 سواء كان ذلك في مجال العمارة أو النحت⁽⁵³⁾؛ فعدد أبواب المسرح سبعة حيث يوجد بابان يميناً ويساراً يمكن الدخول منهما إلى ساحة الأوركسترا من خارج المسرح، كما يوجد بابان يميناً ويساراً يمكن الدخول منهما إلى خشبة المسرح، فضلاً عن الأبواب الثلاثة في حائط الخلفية المسرحية، ويبدو

(51) Vitruvius, V, VI, 6.

(52) Caputo G., 1959 : 94-96.

(53) Zaid M., 2021 : 80- 103.

ان بابي الأوركسترا كانا لدخول المشاهدين وخروجهم، وبابي خشبة المسرح كانا لعلية القوم على ما يبدو حيث تتصل خشبة المسرح بالأوركسترا عن طريق سلمين على طرفي خشبة المسرح يمكن الوصول منهما إلى المقاعد الخشبية في ساحة الأوركسترا بعد أن تملأ المقاعد الشاغرة في مقاعد المشاهدين من عامة الشعب، وقد أبدع المعماري بأن خلق خصوصية لعلية القوم من خلال السور الذي يطوق الأوركسترا والذي ربما استخدم لغرضين اثنين ؛ أولهما أحداث صدى للصوت أو كحائط صد والغرض الآخر هو أحداث خصوصية لعلية القوم في ساحة الأوركسترا. أما عن الأبواب الثلاثة في حائط الخلفية المسرحية كانت تستخدم بطبيعة الحال للمثلين كل حسب أهميته.

كما أن عدد السلالم بين صفوف الطابق الأول من مقاعد المشاهدين سبعة، فضلاً عن أن القطاعات المخروطية في الطابق الثاني عددها سبعة، وربما تكرر العدد سبعة أيضاً في أي ملمح من الملامح المعمارية في الطابق الثالث الذي لم يكتشف منه سوى أجزاء قليلة. أما عن عدد المشكاوات في حافة خشبة المسرح في مواجهة الأوركسترا فعددها أيضاً سبعة، كما أن عدد الحنايا في الحائط الخلفي لخشبة المسرح هو سبعة ؛ إذ قسم إلى سبع بواكي أو حنايا رأسية في ثلاثة طوابق لمجموعة متنوعة من الأعمدة الرخامية المتناسقة، بل إن عدد الأحجار في جميع العقود التي تعلو الأبواب داخل المسرح فيما يعرف بظاهرة *Key Stone* عددها سبعة.

190

هذا التكرار لرقم 7 في المفردات المعمارية والفنية لمسرح صبراته مثير للانتباه وهي بالفعل مقصودة ولم تجئ من قبيل المصادفة خاصة وأن الظاهرة نفسها تكررت غير مرة في المباني السيفيرية في مدينة ليبس ماجنا وأهمها مبنى النيمفايوم *Nymphaeum*⁽⁵⁴⁾ ؛ حيث تكررت ظاهرة الحنايا السبع بها كما أن عدد أحجار العقد بالحنية هو أيضاً سبعة أحجار، الأمر الذي يلفت الإنتباه خاصة وأن عقود المباني الأخرى من عصور رومانية مختلفة لا تشتمل على هذا الرقم في أي من مفرداتها المعمارية، ولعل واحدة من أشهر المباني العامة ليست في لبة الكبرى وحدها بل في العالم الروماني بأسره والمقصود بها الحمامات العامة من عصر هادريان؛ إذ تشتمل على عقود عدة ولم يلاحظ وجود الأحجار السبعة كالتى وجدت في المباني السيفيرية، كما أن مبنى البازيليكا السيفيرية

(54) مبنى مخصص لعبادة الحوريات في المدينة الرومانية وهو فضلاً عن كونه مبنى ديني إلا أنه في الوقت نفسه مبنى تجميلي، ولذا فهو يحتاج لمصدر دائم للماء، تقع نيمفايوم ليبس ماجنا شمال شرق حمامات هادريان وعلى الجهة الجنوبية الشرقية لشارع الأعمدة، تؤرخ بعصر الإمبراطور سبتيموس سيفروس، لمزيد من التفاصيل:

Morgan M., 1960 : 152 ; Haynes D., 1965 : 78 ; Flitcher B., 1975 : 250 ; Ball, 2002 : 426.

في المدينة نفسها وجد أن عدد الحنايا في كل من نهايتها الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية سبعة حنايا⁽⁵⁵⁾.

بناءً على ما تقدم يمكن القول أن الرقم 7 كان مقدساً في العصر السيفيري نظراً لارتباط هذا الرقم بأمرين مهمين وهما ديانة ميثرا، وعلم الفلك⁽⁵⁶⁾ والتنجيم⁽⁵⁷⁾، ولكل منهما ارتباط وثيق بالآخر، ومن ثم كانا لهما صيت كبير حينذاك. وقد انتشرت الديانة الميثراوية في العصر السيفيري في أرجاء الإمبراطورية الرومانية⁽⁵⁸⁾ انتشاراً غير مسبوق وخاصة بين صفوف الجيش الروماني⁽⁵⁹⁾، ومن المعلوم قدسية الرقم سبعة في الديانة الميثراوية؛ إذ يمرّ أتباع الديانة الميثراوية بسبع مراحل كل مرحلة يحميها واحد من آلهة الكواكب

(55) تعد هذه البازيليكا من أضخم المباني من نوعها في الشرق وتؤرخ بالعصر السيفيري؛ حيث بدأ البناء في عصر سيبتيموس ثم أكمل البناء وتم بدء العمل بها في عصر كاراكالا، لمزيد من التفاصيل راجع: Ball, 2002 : 428 ; Haynes D., 1965 : 81.

(56) علم الفلك هو الدراسة العلمية للأجرام السماوية (مثل النجوم، والكواكب، والمذنبات، والمجرات) والظواهر التي تحدث خارج نطاق الغلاف الجوي (مثل إشعاع الخلفية الميكروني الكوني). وهو يهتم بالأجسام السماوية من حيث التطور، والفيزياء، والكيمياء، وعلم الأرصاد الجوية، والحركة، بالإضافة إلى تكون وتطور الكون. ويعد علم الفلك أحد العلوم القديمة، لمزيد من التفاصيل، راجع: Berry A., 1961 : 16-22.

(57) علم التنجيم هو مجموعة من الأنظمة، والتقاليد، والاعتقادات حول الأوضاع النسبية للأجرام السماوية والتفاصيل التي يمكن أن توفر معلومات عن الشخصية، والشؤون الإنسانية، وغيرها من الأمور الدنيوية. ومن ثم يختلف علم الفلك في العصر الحديث عن علم التنجيم تماماً على الرغم من أنهما يتشاركان في الأصل وجزء من الوسائل، لمزيد من التفاصيل، راجع: Hoskin M., 1999 : 34-37.

(58) عن الدلائل الأثرية لانتشار الديانة الميثراوية في روما والولايات راجع:

Griffith A., 1993 : 72-79 ; Godwin J., 1983 : 98-109.

(59) انتقلت الديانة الميثراوية من بلاد فارس أو بالأحرى من منطقة الشرق الأدنى القديم سيما بلاد فارس ومنطقة الرافدين إلى روما عن طريق الجيش لتصبح واحدة من أهم الديانات الشعبية في الإمبراطورية الرومانية في القرون الثلاث الأولى للميلاد والتي لاقت انتشاراً واسعاً وشعبية كبيرة في الجيش الروماني سيما في العصر السيفيري؛ إذ كان سيبتيموس سيفيروس - ومن بعده كاراكالا - من أكثر الأباطرة تشجيعاً لهذه الديانة وبشكل عام تعتبر فترة العصر السيفيري هي ذروة ازدهار عبادته، حيث ترسخت فيها أسرار ميثرا ووجدت معابده في كافة أنحاء الإمبراطورية سيما روما وأوستيا؛ ولعل أشهر المعابد التي أقيمت لعبادة ميثرا قصر ماركوس أوبيوس ترايانوس (97-117 م) الذي خصصه سيبتيموس ليكون معبداً رسمياً لميثرا، والذي صار فيما بعد معبد الإمبراطورية الميثراوي الرئيسي. وتوجد بقايا هذا المعبد الآن تحت قبة كنيسة القديسة بريسكا Santa Orisca على تل الأفنتين Aventinus بروما، راجع: Dowden K., 1992 : 76-79.

السبعة، إذا ما أراد الدخول في الديانة، ربما تكون إشارة إلى الكواكب السبعة التي تعبرها الروح أثناء صعودها⁽⁶⁰⁾.

خاتمة

تشير الدراسة المقارنة للمسارح الثلاثة في المدن؛ لبة الكبرى ودوجا وصبراته؛ إلى تميزها من حيث الملامح الحضارية التي رصدتها الدراسة (جدول رقم 1)، لعل أهمها؛ اتجاهات مقاعد المشاهدين في كل منها التي تتم عن دراية هندسية ومعمارية وجغرافية منقطعة النظير من حيث تميز موقعها وموضعها في المدن الثلاث، فضلا عن اتجاه مقاعد المشاهدين في كل منها إلى مشهد مفتوح يعطي أريحية في الرؤية للمشاهدين؛ حيث يتوجه المشاهد في كل من مسرحي لبة الكبرى وصبراته لرؤية البحر المتوسط، ورؤية الوادي الخصيب في مسرح دوجا أثناء العرض المسرحي، ليجمع المشاهد بين الاستمتاع بالمشاهد الخلابة للماء والزرع من ناحية والأحداث الدرامية المثيرة من ناحية أخرى.

لعل من أهم الملامح الحضارية والتي وضحت من الدراسة هو تأثير النشأة الدينية للمسرح في مسرح لبة الكبرى؛ حيث تميزت الأوركسترا بوجود مذبح بها (جدول رقم 1) ولا يوجد في نظيرتها بمسرحي دوجا وصبراته، ونظراً لتأريخ المسرح بنهاية القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي فربما ما زال هناك تأثير المسرح الإغريقي، حيث اختفى المذبح في المسارح الرومانية بعد هذا التاريخ بشكل عام ومسارح شمال إفريقيا بشكل خاص، ومن ثم يشير إلى تقديم القرابين للمعبود ديونيسوس/باخوس رب المسرح في العالم الإغريقي والروماني قبل بداية العروض المسرحية، فضلا عن وجود بقايا لمعبد للثالوث كيريس، أبوللو، ومنيرفا أعلى مقاعد المشاهدين. كما تم الكشف عن العديد من تماثيل المعبودات الأوليمبية في المسرح؛ لعل أهمها أفروديتي/فينوس، أرتميس/ديانا، أبوللون/أبوللو، وأثينا/منيرفا وغيرها⁽⁶¹⁾، الأمر الذي يرجح وقوع المسرح تحت تأثير النشأة الدينية للمسرح مع تعدد المعبودات في مدينة لبة الكبرى وتأثير المسرح بكافة بالمفردات الحضارية حينذاك.

(60) تسمى هذه المراحل كما يلي: الغراب أو Corax؛ العريس أو Nymphus؛ الجندي أو Miles، ويرمز إلى الجهاد ضد الشر خدمة للآلهة؛ الأسد أو Leo، ويرمز لعنصر النار؛ الفارسي أو Perses، رسول الشمس Heliodromus، وهو رسول من الشمس وإليه؛ والأب أو Pater، وهي درجة دخول المتعب في عداد أولئك الذين يمكنهم توجيه الديانة حتى نهاية حياتهم. وهذا هو الترتيب الروماني للميثراوية. لمزيد من التفاصيل راجع:

Beck R., 1988 : 1-3 ; Dowden K., 1992 : 76-77.

(61) Sear F., 2006 : 281.

جدول رقم 1: دراسة مقارنة لأهم الملامح الحضارية لمسارح لبدة ودوجا وصبراته⁽⁶²⁾.

م	أهم الملامح الحضارية	مسرح لبدة الكبرى	مسرح دوجا	مسرح صبراته	ملاحظات
1	اتجاه مقاعد المشاهدين	شمال شرق المدينة	جنوب وجنوب غرب المدينة	شمال المدينة	-
2	المذبح	يوجد	لا يوجد	لا يوجد	-
3	النحت البارز في المحاريب	لا يوجد	لا يوجد	يوجد	-
4	العثور على تماثيل في المسرح	يوجد	لا يوجد	لا يوجد	-
5	النص التأسيسي	يوجد	لا يوجد	لا يوجد	-
6	تأريخ المسرح	عصر أغسطس	عصر ماركوس أوريليوس	العصر السيفيري	-

193

يعبر النص التأسيسي في مسرح لبدة الكبرى عن روح العصر الذي كان لأعيان المدينة دور بارز في رعاية المنشآت العامة التي تخدم الفنون والثقافة في المدينة ؛ الأمر الذي يشير إلى تقرب هؤلاء الأعيان من السلطة العليا في روما طمعاً في اسناد مناصب مرموقة لهم في المدينة، ولعل كتابة النص باللغة اللاتينية من ناحية وإهداء المسرح من قبل حنبعل روفس للإمبراطور أغسطس نفسه من ناحية أخرى قرينة قوية لذلك. ربما اختفاء النص التأسيسي في كل من مسرحي دوجا وصبراته يشير إلى المؤسسة في الإدارة حينذاك لتتناسب مع تطور النظم في الإدارة الرومانية في الولايات.

انفرد مسرح صبراته بوجود النحت البارز في محاريب جدار خشبة المسرح المواجه للأوركسترا ليس في إقليم تريبولتانيا فقط وإنما في مسارح شمال أفريقيا كاملة، وترجع الدراسة أن سبب ذلك هو إعادة بناء المسرح بمناسبة زيارة الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس (193-211 م) للمنطقة في عام 203 م وهو تاريخ زيارة سيبتيموس التاريخية للمنطقة، خلافاً لما قامت به الدراسات السابقة⁽⁶³⁾ والتي أرخت مبنى المسرح بالربع الأخير من القرن الثاني الميلادي، ولذا صور

(62) تم تصميم الجدول من قبل الباحث استناداً إلى المراجع:

Sear F., 2006 : 281-282 ; 287-288 ; Di Vita, 1999, 173 ; Caputo G., 1959 : 94-96.
(63) Haynes, 1965 : 129 ; Small, 1983 : 63 ; Baccchielli, 1999 : 173 ; Di Vita 1999 : 158 ; Raabe, 2007 : 9.

سيتميموس سيفيروس في المشكاة الرئيسة من محاريب الجدار السبعة، كما جاء النحت البارز في هذه المحاريب معبراً عن زيارة سيتميموس سيفيروس للمنطقة⁽⁶⁴⁾. تناسبت مساحة مقاعد المشاهدين مع عدد السكان للمدينة مع الأخذ في الاعتبار المرحلة الزمنية التي يؤرخ بها المسارح الثلاثة؛ فكان أكثرها اتساعاً هي مقاعد مشاهدين لمسرح صبراته (جدول رقم 2)، يليها مقاعد مشاهدين لمسرح لبة الكبرى، ثم مقاعد مشاهدين لمسرح دوجا. كما جاء عدد الطوابق لمقاعد المشاهدين في كل من المسارح الثلاثة واحدة وهو ثلاثة طوابق؛ الأمر الذي يشير إلى أهمية هذه المدن، إذ إن المسارح الرومانية ذات الطوابق الثلاثة لمقاعد المشاهدين كشفت في المدن الكبرى من حيث الأهمية الاقتصادية، مثل مسرح Augusta Emerita في ميرينا بأسبانيا، مسرح بصرى بجنوب سوريا، ومسرح عمان بالأردن⁽⁶⁵⁾.

جدول رقم 2: مقارنة رقمية للملامح المعمارية

لمسارح لبة ودوجا وصبراته⁽⁶⁶⁾.

م	اللامح المعمارية	مسرح لبة الكبرى	مسرح دوجا	مسرح صبراته	ملاحظات
1	قطر مقاعد المشاهدين	m 87.60	m 63.50	m 92.60	صبراته الأكبر
2	عدد طوابق مقاعد المشاهدين	3	3	3	نفسها
3	عدد المشاهدين	6000	3150	6500	صبراته الأكبر
4	قطر الأوركسترا	m 24.80	m 20.70	m 22.40	لبدة الأكبر
5	عدد صفوف مقاعد الأوركسترا	6	5	4	لبدة الأكبر
6	ارتفاع جدار الأوركسترا	m 1.3	m 1.3	m 1.5	-
7	طول خشبة المسرح	m 45.70	m 32.35	m 42.70	-
8	عرض خشبة المسرح	m 7.35	m 6.1	m 10.43	-
9	عدد محاريب جدار خشبة المسرح المواجه للأوركسترا	9	5	7	المحاريب أكثر في مسرح لبة الكبرى
10	ارتفاع خشبة المسرح	m 1.37	m 1.37	m 1.37	المقاييس نفسها
11	عدد طوابق الخلفية المسرحية	3	3	3	نفسها

(64) Zaid M., 2021 : 80-103.

(65) Patricio T. & Stevens T., 2003 : 20.

(66) تم تصميم الجدول من قبل الباحث استناداً إلى المراجع:

Sear F., 2006 : 281-282 ; 287-288 ; Di Vita, 1999 : 173 ; Caputo G., 1959 : 94-96.

اتسقت عمارة المسرح في المدن الثلاث-محل الدراسة- مع سمات عمارة المسرح الروماني في شمال أفريقيا؛ من حيث وجود الأبواب الثلاثة في حائط الخلفية المسرحية من ناحية، كما زينت حافة خشبة المسرح في مواجهة الأوركسترا بمشكاوات بعضها مستطيل والبعض الآخر ذات حنيات، وهذا ما اتسمت به مسارح ليبتس ماجنا، تمجاد، دوجا، جميلة. وجاءت عدد مشكاوات جدار خشبة المسرح المواجه للأوركسترا تسع مشكاوات (شكل رقم 5) لترمز لربات الفنون التسع عند الإغريق وهذه سمة أخرى من تأثير المسرح الإغريقي على مسرح لبدة الكبرى، بينما كان عدد مشكاوات له في مسرح دوجا خمس فقط لتتناسب مع مساحة الأوركسترا من ناحية وطول خشبة المسرح من ناحية أخرى وليست لها ثمة دلالة غير ذلك، أما مشكاوات هذا الجدار في مسرح صبراته فكان عددها سبع مشكاوات لتتناسب مع رمزية هذا الرقم الذي يتضح في كثير من الملامح المعمارية والفنية في المسرح؛ والتي تعبر عن اسم الإمبراطور سيبتيموس والذي يعني اسمه في اللاتينية «السابع»، وتشير في الوقت نفسه إلى الميثرواية وأهمية هذا الرقم في مراحل عبادتها والتي انتشرت مظاهرها في عهده بشكل غير مسبوق.

رسم بياني يوضح المقارنة بين الملامح المعمارية للمسارح الثلاثة



أكدت الدراسة على تميز مسرح صبراته؛ إذ جاء مطابقاً لمواصفات فيتروفيوس للمسرح النموذج من حيث ارتفاع خشبة المسرح، واتجاه مقاعد المشاهدين واستخدام محسنات الصوت سواء كان ذلك في تجويفات الشرفات في حائط المشهد المسرحي، أو البئر الذي يتقدم المشكاة الوسطى لخشبة المسرح، ويقع في منتصف الخط المستقيم للأوركسترا التي تأخذ شكل نصف الدائرة. كما تميز المسرح بأنه جاء كذلك مطابقاً لمواصفات المسرح الروماني الصرف⁽⁶⁷⁾ فلا يوجد به ثمة تأثيرات يونانية أو هيلينستية مثلما جاء المذبح في أوركسترا مسرح لبة الكبرى على سبيل المثال لا الحصر. كما جاءت سالام المنتصف في الطابق الأول من مقاعد المشاهدين لتقسمها نصفين متساويين، كما غطيت الممرات الفاصلة Parodoi بأسقف برميلية ثم وضعت فوقها مقاعد المشاهدين لتتصل بخشبة المسرح، فضلاً عن ديمومة الخلفية المسرحية، واتساع عرض خشبة المسرح وانخفاضها.

أثبتت الدراسة أن التفوق الرقمي جاء للمكونات المعمارية لمسرح صبراته (شكل رقم 5) سواء في اتساع مساحة مقاعد المشاهدين ومن ثم زيادة عدد المشاهدين بها عن نظيرتها، ولعل أهم تطور معماري لمسرح صبراته هو اتساع مساحة خشبة المسرح عن نظيرتها أيضاً؛ الأمر الذي ربما يشير إلى زيادة عدد الممثلين والجوقة في المسرح إبان العصر السيفيري، فقد بلغت مساحة خشبة 42.70 م طولاً، 10.43 م (جدول رقم 2) لتبلغ مساحتها 445.36 م بينما جاءت مساحة خشبة المسرح 335.89 م بينما بلغت مساحة خشبة المسرح في دوجا 197.33 م أي بزيادة عن خشبة مسرح لبة الكبرى بنحو 24.6 %، كما تزيد عن خشبة مسرح دوجا بنحو 55.7 %.

(67) Phillips, L., 2006 : 13.

البليوغرافيا

Strabo, *Geographika*, Translated by Jones, H. L., Harvard University Press, 1917.
Suetonius, *The Twelve Caesars*. Trans. Robert Graves. Rev. Michael Grant. New York: Penguin, 1979.
Vitruvius, *De Architectura*, translated by Frank Granger; Cambridge (Mass.): Harvard University Press, 1931.

المراجع باللغات الأجنبية

Altekamp. S. 2004 : "Italian Colonial Archaeology in Libya 1912-1942". In *Archaeology under Dictatorship*, ed. by M. Galaty & C. Watkinson, New York.
Bacchielli L., 1999, *Libya, the Lost Cities of Roman Empire*, Cambridge.
Baharal D., 1989, "Portraits of The Emperor Septimius Severus (193-211 A.D) As An Expression of His Propaganda", *Latomus*, Vol. 48.
Ball W., 2002, *Rome in the East: The Transformation of An Empire*, London & New York.
Bates O., 1970, *The Eastern Libyans*, London.
Beare W., 1968, *The Roman Stage, Stage: A Short History of Latin Drama in the Time of the Republic*. London.
Beck R., 1988, *The Planetary Gods and Planetary Orders in the Mysteries of Mithras*, Leiden.
Beck R., 2007, *The Religion of the Mithras Cult in the Roman Empire*. London: Oxford University Press.

المصادر

Apollodorus, *The Library*, Translated by Frazer, J.-G., London, 1939.
Apuleius, *The Golden Ass*, Translated by Adlington, W., Revised by Gaselee, S., London, 1947.
Cassius, Dio, *Roman History*, Translated by Herbert Baldwin Foster, New York, 1905.
Cicero, *various works collected in: The Basic Works of Cicero*. Ed. Moses Hadas. New York: Random House, 1951.
Herodian, *History of The Empire After Marcus Aurelius to The Accession of Gordian III*, Translated by Edward, C.-E., University of California, 1961.
Hesiod, *Theogony*, Loeb Classical Library volume, ed. by M. L. West, Oxford, 1966.
Horace, *Ars Poetica*. Trans. H. Rushton Fairclough. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1966.
Juvenal, *Satires, published as The Sixteen Satires*. Trans. Peter Green. New York: Penguin, 1974.
Pausanias, *Description of Greece*, Translated by Jones, W., Ormerod, H., London, 1926.
Plautus, *plays excerpted in Plautus: The Rope and Other Plays*. Trans. E.F. Watling. New York: Penguin, 1964.
Quintilian, *The Education of an Orator*. Trans. H. E. Butler. Cambridge MA: Harvard University Press, 1963.
Siculus, Diodorus, *Bibliotheca Historica*, Translated by Oldfather, C. H., Harvard University Press, 1935.

- Di Vita A., 1999, *Libya: the Lost Cities of the Roman Empire*. Cologne, Germany.
- Dillon S., 2006. *Ancient Greek Portrait Sculpture*, Cambridge University Press.
- Dowden K., 1992, *Religion and The Romans*, London
- Dumasy F., 1975, "Les difices théâtraux de type gallo-romain", *Latomus*, 34 , 1015, n° 14.
- Edgar M., 1974, *Catalogue General des Antiquités Egyptiennes du Musée du Caire*, N°s 27425-27630, Greek Sculpture, Otto Zeller Verlag- Osnabruck.
- Ferguson J., 1982, *The Religion of Roman Empire*, London.
- Fletcher B., 1975, *A History of Architecture*, London.
- Fuchs M., 1987, *Untersuchungen zur Ausstattung römischer Theater in Italien und den Westprovinzen des Imperium Romanum*. Mainz am Rhein.
- Gardener E., 1924, *A Handbook of Greek Sculpture*, London.
- Gardner E., 1910, *Six Greek Sculptors*, London.
- Gawlikowski M., 2007, "The Mithraeum at Hawarte and its paintings", *Journal of Roman Archaeology*, Vol. 20, N° 1.
- Gillman K., 1997, "Twelve Gods and Seven Planets", *Considerations*, volume XI number 4, 63-95
- Godwin J., 1983, *Mystery Religions in Ancient World*, London.
- Goldstein B., 1997, "Saving the phenomena : the background to Ptolemy's planetary theory", in *Journal for the History of Astronomy*, 28 (1) : 1-12.
- Granger F., 1903, "The Gods of the Seven Days", *The Classical Review*, Vol. 17, No. 1,
- Berry A., 1961, *A Short History of Astronomy from Earliest Times Through the Nineteenth Century*. New York.
- Bieber M., 1961, *History of Greece & Roman Theatre*, Princeton University Press.
- Birley A., 2002, *Septimius Severus the African Emperor*, London
- Boatwright M., Gargola D. & Talbert R., 2004, *The Romans, From Village to Empire*, Oxford.
- Bonanno A., 1976, *Portraits and Other Heads on Roman Historical Relief up to The Age of Septimius Severus*, Oxford.
- Bouchier E., 1926, *Syria as A Roman Province*, New York.
- Broquier R., 1992, *Temples et cultes de Tripolitane*, Paris.
- Camps G. 1992, « Dougga », *L'Encyclopédie berbère*, tome XVI, éd. Edisud, Aix-en-Provence.
- Caputo G. 1940. "Il tempio oense al genio della colonia". *AfrIt* 7:35-45.
- Caputo G., 1959, *Il teatro di Sabratha e l'architettura teatrale Africana*, Rome.
- Caputo G., 1987, *Il teatro augusteo di Leptis Magna*, Rome.
- Cherry D. & Kyle D., 2005, *A History of Rome*, Blackwell.
- Chomiak A., 2008, *Eastern Religious Influence in the Imperial Roman Army*, Canada.
- Lachaux J., 1979, *Théâtres et amphithéâtres d'Afrique pro-consulaire*, Paris.
- Cook R., 1997, *Greek Painted Pottery*, London.
- Davies G. 1985. "The Significance of the Handshake Motif in Classical Funerary Art". *AJA*.

- MacKendrick P., 1980. *The North African Stones Speak*. Chapel Hill.
- Mattingly D., 1994, *Tripolitania*, London.
- Mattingly D. & Hitchner R., 1995, "Roman Africa: an Archaeological Review", in *JRS*, 85:165-213.
- McCann A., 1968, *The Portraits of Septimius Severus*. Rome.
- Moede K., 2007, *Reliefs, Public and Private At the Altar: The Peculiar Religious*
- Morgan M., 1960, *Vitruvius, The Ten Books of Architecture*, New York.
- Munzi M., 2004, "Italian Archaeology in Libya: From Colonial Romanità to Decolonization of the Past." In *Archaeology under Dictatorship*, ed. by M. Galaty, Rome.
- Nardo D., 2002, *Ancient Rome*, Green haven Press, USA.
- Neugebauer O. & Van Hoesen H., 1959, *Greek Horoscopes*, London.
- Nillson P., 1955, "The Bacchic Mysteries of the Roman Age", *Harvard Theological Review*, Vol. 46, n° 4.
- Parker H., 1958, *A History of the Roman World from A.D.138 to 337*, London.
- Peterman G., 1994, "Archaeology in Jordan", *AJA*, Vol. 98.
- Pfeiffer H., 1931, "The Ancient Roman Theater at Dugga", *Memoirs of the American Academy in Rome*, Vol. 9, pp. 145-156.
- Phillips L., 2006, *The Architecture of Roman Theater: Origins, Canonization, and Dissemination*, Institute of Fine Arts, New York.
- Pollitt J., 1986, *Art in the Hellenistic Age*, Cambridge.
- Raabe A., 2007, *Imagining Roman-ness: A Study of the Theater Reliefs at Sabratha*, Chapel Hill.
- Grant M., 1979, *The Art and Life of Pompeii and Herculaneum*, New York.
- Graves R., 1967, *Greek myths*, Vol.II, London.
- Griffith A., 1993, *The Archaeological Evidence for Mithraism in Imperial Rome*, The Uni. Michigan Press.
- Grimal P., 1993, *L'empire romaine*, Paris.
- Guidi G. 1930. "Il teatro romano di Sabratha", *Africa Italiana*, VII: 1-52.
- Hannestad N., 1986, *Roman Art and Imperial Policy*, Aarhus University Press.
- Harrison J. A., 1979, *Greek Tragedy & The Greek Theatre*, London.
- Haynes D. 1965, *An Archaeological and Historical Guide to the Pre-Islamic Antiquities of Tripolitania*, London.
- Hekler A., 1912, *Greek and Roman Portraits*, New York.
- Hornbostel W., 1972, "Severiana", in *Jdl*, 87 : 348-387.
- Hornum M., 1993, *Nemesis, the Roman State, and the Games*, Leiden: Brill.
- Hoskin M., 1999, *The Cambridge Concise History of Astronomy*, Cambridge University Press.
- Khanoussi M., 2003, « L'évolution urbaine de Thugga (Dougga) en Afrique proconsulaire : de l'agglomération numide à la ville africo-romaine », *CRAI*.
- Kleiner D., 1992, *Roman Sculpture*, New Haven: Yale University Press.
- L'orange H., 1947, *Apotheosis in Ancient Portraiture*, Oslo.
- Lane A., 1971, *Greek Pottery*, London.
- Mach E., 1905, *A Handbook of Greek and Roman Sculpture*, Boston.

- Vermeule C., 1962, "Greek, Etruscan and Roman Sculpture in the Museum of Fine Arts", in *The Classical Journal*, Vol. 57, N° 4.
- Walker S., 1995, *Greek & Roman Portraits*, London.
- Ward-Perkins J., 1948. "Severan Art and Architecture at Lepcis Magna", in *JRS* 38.
- Ward-Perkins J., 1951, "The Arch of Septimius Severus at Leptis Magna", in *Archaeology*, Vol. 4, n° 4.
- Wegner M., 1966, *Die Musensarkophage*, Berlin.
- Wiles D., 2004, *The Masks of Menander: Sign and Meaning in Greek and Roman*, Cambridge University Press.
- Williams D., 1985, *Greek Vases*, London.
- Wilson R., 2001, "Roman Art and Architecture", in *The Roman World*, ed. J. Boardman and Others, Oxford Uni. Press.
- Zahran Y., 2000, *Septimius Severus Countdown to Death*, London.
- Zaied M., 2021, *The Visiting of Septimius Severus to His Birth place, an Approach*.
- Raven S., 1993, *Rome in Africa*. London.
- Reality of the Images, from A Companion to Roman Religion*, ed. J. Rupke, Blackwell Publishing Ltd, Oxford.
- Richter G. & Milne M., 1935, *Shapes and Names of Athenian Vases*, New York.
- Richter G., 1966, *The Furniture of Greeks, Etruscans, and Romans*, London.
- Scarre C., 1995, *Chronicle of The Roman Emperors*, London.
- Scheid J., 2007, *Sacrifices for Gods and Ancestors, from A Companion to Roman Religion*, ed. J. Rupke, Blackwell Publishing Ltd, Oxford.
- Schimmel A., 1993, *The Mystery of Numbers*, Oxford Uni. Press.
- Schlumberger D., 1960, "Descendants non mediterraneens de l'art grec", *Syria*, 37.
- Sear F., 2006, *Roman Theaters: an Architectural Study*. Oxford.
- Small D., 1983, "Studies in Roman Theater", *AJA*, Vol. 87, N° 1, pp. 55-68.
- Sturgeon M., 2004, "Dedications of Roman Theaters", *Hesperia Supplements*, Vol. 33, pp. 411-429.
- Toomer G., 1998, *Ptolemy's Almagest*. Princeton University Press.
- Unsöld A. & Baschek B., 2001, *The New Cosmos: An Introduction to Astronomy and Astrophysics*, Trans. by W. Brewer, Berlin, New York.

التحكم في مياه الأمطار بجنوب شرق البلاد التونسية منذ العصر الوسيط من خلال الشواهد الأثرية والنصوص المصدريّة

علي الثابتي⁽¹⁾

ملخص

تميزت المناطق الجبلية المتاخمة للصحراء الكبرى بجنوب شرق البلاد التونسية باستتباط عمارة مائية فلاحية تماشت والمعطين الطوبوغرافيا والمناخي فراعته النقيضين في الكميات مع إحكام طرق الإنشاء وضبط الملكية وملحقاتها وكيفيات التقسيم لمياه الأمطار وجلبها مع أخذ الكمية المقدّرة وصرف الزائد للغير وفق قوانين عرفية وموثقة تلافيا لكل المشاكل التي تفرضها الجغرافيا وطبيعة العمارة.

الكلمات المفتاحية: جبل دمر، الجبل الأبيض، الظاهر، الجفارة، المرجع، الكاترة، المنفس، الجسر، السطر، الكتف، الحمالة، الدرع، الطابية.

Résumé

La zone montagneuse la plus proche du désert du sud est tunisien se distingue par le développement d'une architecture hydraulique agricole qui s'adapte aux conditions topographiques et climatiques. Cette architecture a pris en compte les deux extrêmes en quantité en resserrant les méthodes de construction, en contrôlant la propriété et ses dérivés, et les techniques de diviser l'eau pluviale et de la récupérer, en prenant compte la quantité estimée et en dépensant l'excédent aux autres conformément aux lois coutumières et documentées pour éviter toutes sortes de problèmes imposés par la géographie et la nature de l'architecture.

Mots clés : Jbel Dimmer, Jbel Abiadh, Dahar, Jfara, Merjaa, ketra, Event (Menfes), Barrage (jizr), Ligne (Satr), Epaule (Ketif), bretelle (Hemmala), bouclier (Diraa), torchis (Tapia)...

(1) المعهد الوطني للتراث.

*Rainwater control in south-eastern Tunisia
since the middle Ages through archaeological
evidences and source texts*

Abstract

The mountain region near the desert in southeastern Tunisia has developed a unique system for managing agricultural water that fits the area's terrain and climate. This system carefully manages both high and low water levels by improving building methods, setting clear property rights, and using techniques to collect and share rainwater. The amount of water is estimated, and any extra is shared with others based on traditional and documented rules, helping to prevent problems caused by geography and the structure of the water system.

Keywords: Jbel Dimmer, Jbel Abiadh, Dahar, Jfara, Merjaa, Ketra, Vent (Menfes), Dam (Jisr), Line (Satr), Shoulder (Ketif), Ramp (Hemmala), Shield (Diraa), Daub (Tapia).

شكل توفير الماء هاجسا مؤرقا للبشرية منذ أقدم العصور، وهو ما جعله حاضرا بقوة في كافة الحضارات والثقافات بالأقاليم الجغرافية المختلفة من الأرض، ولعل المناخ في تغيراته سواء الزمنية أو الجغرافية، جعل الإنسان يرقى بتصوره إلى تأليه الماء وعبادته في الحضارات القديمة، سيما تلك التي اقترن موطنها بالجبال وبمناخها للصحراء⁽²⁾ مثل جنوب شرق إفريقيا، حيث وقع إنتاج طقوس دينية في طلب الغيث ونشأة أعراف بل وقوانين مدونة تحكم التصرف في الماء وقسمته، مراعية في ذلك النقيضين، في الندرة وفي الكثرة، وتخزينه في منطقة جبل دمر (الوثيقة رقم 01) المتميزة بالانحدارات الحادة والتقطع الشديد، فترجمت ساكنة الجبل ذلك الاحتيال وتلك البراعات على الكميات المطرية بتقنيات لحفظ الماء أثبتت نجاعتها وجدواها عبر العصور.

لعل الاهتمام بدراسة عمارة التحكم في مياه الأمطار بجبل دمر⁽³⁾ في مرحلة اعتناق سكانه المذهب الأباضي مسألة تثير جانبا مهما في تاريخ

(2) المنصوري 2010، ص 27.

(3) حددناه في اطروحة الدكتورا بالقسم الجبلي الفاصل بين مطماطة ونفوسة بل وكان اللفظ يطلق على كافة الجبل بما في ذلك مطماطة ونفوسة اذ ايدير تعني الظاهر الناتئ فحيثما نجد كلمة الظاهر اليوم فهو تعريب لا يدمر. انظر: الثابتي 2006.

أفريقية في العصر الوسيط وتواصلت إلى الفترة الحديثة⁽⁴⁾ والمعاصرة، وهنا يمكن فهم تعامل الإنسان مع المجال وتغيّته وتطويع ما يحويه من مواد ومناخ وفق طرق تقليدية بسيطة - ولكنها واعية - ما جعل التركيز البشري بتجمعات سكانية وفق منظومة راعت حق الفرد وحق الجماعة مع مراعاة حق الجوار وحق القرابة وخاصة عند تناول أغلى مادة أساسية في الكون وفي حياة الإنسان وهي الماء في منطقة متاخمة للصحراء فجاءت هذه العمارة وفق قوانين تضمن الحق في الامتلاك والتوريث والبيع والشراء والتقسيم والتصريف والجلب وكل ذلك وفق منظومة فقهية «اباضية» تتماشى والنقيضين في المنسوب كثرة وندرة عبر تنوع الخاصيات المطرية في مختلف السنوات.

فما هو مفهوم هذه المنشآت المائية الفلاحية المتحكممة في مياه الأمطار؟ وكيف استطاع الساكنة حذق تقنيات معمارية مائية تتلاءم وهذه المنطقة الجبلية؟ وما هو دور جملة هذه القوانين المائية في التنظيم وحل الخلافات والنزاعات؟

I- التعريف بالمنشآت المائية الفلاحية المتحكممة في مياه الأمطار

تتميز منطقة جبل دمر بالانحدارات والتقطع الشديدين ممّا جعل الأراضي صعبة الاستغلال إلا بإيجاد تقنية تمكن من حجز هذه المياه واستغلالها⁽⁵⁾، تجسّدت في إنجاز عمارة تعترض هذه المياه فكانت الجسور⁽⁶⁾. وهي بمثابة السدّ بالواد الفحل⁽⁷⁾ أي الوادي الكبير الذي يصرف كميات كبيرة من مياه الأمطار وبذلك يجب أن تراعي هذه العمارة الخطورة التي يمكن أن تتجرّ عن إنشاء لا يحمل مواصفات ضرورية للجسر وفق قوانين محلية تدقّق الإنشاء وكيفية الاستغلال ممّا جعل عملية إنشاء الجسر تتكوّن من جزأين كما نصت على ذلك وثيقة مؤرخة لسنة 1225 هجري ببلد سدر، بحيث تذكر «... لم يُعرف فيها خدمة ولا طبابة ولا منفس ولا غرس...» (الوثيقة رقم 02).

(4) نجد إلى جانب المعطى الأثري والمكتوب معطيات عرفية متداولة شفويا تؤكد التواصل منذ القرون الوسطى إلى يومنا هذا.

(5) Ben Ouezdou 2000, p. 45-46.

Ben Ouezdou, Abderrahmen, Abbassi ; Ben Fraj ; Calianno ; Fallot, Milano et Reynard 2018, (sous presse).

(6) أطلق على التسمية أيضا السدود وهي معروفة منذ الفترة الرومانية، انظر: Gauckler 1900, p. 26.

Trousset 1974, pp. 57-58, 78-79.

(7) الثابتي 2006، ص 144.

كما يقع الاستغلال للشعبة أو الوادي بطريقة ذكية، إذ يكون التدرج في التعمير من أعلى انحدار الأسفل إلى حد بلوغ المصبّات، وفي ذلك فهم لطبيعة الرخّات المطرية العنيفة أحيانا، فينطلق التعمير من العالية نحو السافلة ليضع التحكّم في حيز الكمية وهي المتبقية وصرف الزائد، وهو ما يتماشى والانحدار واتساع الفجوة بين الجبلين، فصاحب ذلك مصطلحات تدل على هذا التدرّج من الأصغر الضيق العلوي إلى الأكبر الواسع السفلي وفي ذلك منظومة منشآت تدرجت وفق الانحدار للسفوح وانحسارها فكانت مرتبة من العلوي إلى السفلي وقد تناول هذه المسألة عديد الدارسين والمختصين وخاصة الجغرافيين⁽⁸⁾ في عديد الأماكن.

1- المرجع: كلّما تمّ التحكّم في سيلان الماء المنحدر من قنّة الجبل عبر واجهته أكثر ضمنت سلامة العمارة السفليّة في الشّعاب والأودية. ولذلك يحتاج الحفاظ على تربة الجبل إقامة مصدّات ترابية وحجرية لانحدار المياه في شكل صير ممتدّة تتولّى اعتراض الصّيب دون حفظ الماء فمهمّتها الأساسيّة حفظ التربة المنجرّفة، وتسهيل مرور المياه أكثر نقاءً حتّى تصل الكاترة أو الطّابية خالية من الطمي أو تكاد. ويقتضي هذا الجهد «تسديد الجبل» بالعبارة المحليّة بمروج تسمّى المراجع (م. مرجع)⁽⁹⁾، يمكن استغلالها في الزراعة. وقد بين بيرفنيكيار عند قوله: «هكذا ينشئ هؤلاء الفلاحون سلسلة من المدرجات تقسم المنحدر وتجبر المياه على ترسيب كمّيات الطمي التي تجرفها»⁽¹⁰⁾.

يبدو تحكّم الإنسان في قوّة انحدار ماء الجبل، ومنعه من الضّياح في الأودية والسّباح، إلى جانب صون التربة من التبدّد ضربا من الخبرة القادرة على تأمين استمرار نموّ غطاء نباتي، يكون بدوره مساهما في تقليص حدّة الانجراف، وفي توفير نسبة هامّة من السّماد للتربة الفلاحيّة المستغلّة أسفل الجبل في الكاترة. لذلك يوصي الفرستائيّ بتحديد قسمة الماء وفقا لقسمة الأرض حتّى يتمّ الاشتراك في العمارة بتدبير منظم. «إذا أراد قوم أن يعمّروا

(8) Ben Ouezdou, Troussat 2009, p. 1-18.

Ben Ouezdou ; Abderrahmen ; Abbassi ; Ben Fraj ; Calianno ; Fallot ; Milano et Reynard 2018, p. 251-256.

Bonvallot 1979, p. 233-249.

Bonvallot 1986, p. 163-171.

El Amami, 1984, p. 69.

Ben Fraj; Ben Ouezdou ; Boukhchim 2019, pp. 51-102.

(9) المرجع وحدة قيس للحرث وتسمى المرجع لأن الانطلاق في الحرث بها يبدأ بخط اوسط بالمحراث ثم يقع الرجوع عليه من الجهتين يقدر عادة بواحد وعشرين خط للمحراث عشرة خطوط يمين الخط الاول وعشرة يساره فيصبح خطوة.

(10) Pervinquier 1909, p. 446 .

أرضهم على ماء المطر ومساقى الأرض التي أرادوا عمارتها منها، فإنه يكون ذلك بينهم، كما اشتركوا في أرض المساقى»⁽¹¹⁾.

2- الكاترة: هي تعبير محلي يطلق على كل سدّ ترابي صغير يكون في مستوى مرتفع من الجبل ضمن السّواقي وهي حوض مائي محدود السّعة، «فعندما نزل إلى منحدر الوادي نعثر على سلسلة من السدود، تزداد أهميتها شيئاً فشيئاً، وتتميز بطولها أكثر من عرضها. فالبعض منها يدرك 100 متراً طولاً وما بين 4 و5 أمتار ارتفاعاً عاماً»⁽¹²⁾.

وتستغلّ هذه الكواتر غالباً لإنتاج الشّعير. وهو ما يشهد لسكنة الجبل على توزيع الزراعات وبالتالي المنتوجات وكذلك هي شهادة على قدرة هؤلاء على تطويع الصّخر وتجميع التربة في سواقيه الصّغيرة لتكوين حوض مائي نام. «الصخور الجلاميد تبدو عارية تماماً. لقد ناب عناد البربر الرابضين على هذه الأرض عن جفاء الطبيعة: وقطعت كل مجاري المياه بجدر من الحجارة التي تجمعت وراءها على مرّ الأيام كميات من التربة لتنمو على أديمها بعض أشجار النخل والزيتون والتين وتزرع تحت ظلالها بعض الخضروات»⁽¹³⁾. ويبدو أنّ هذا العناد إنما هو ضرب من التحدي يعيد تشكيل وجه المكان من عمارة فلاحية جبلية ذات مردودية لا تتجاوز اقتصاد الكفاف. كما شهد التجاني بإعجابه ببطاح غمراسن واعتبرها من بين ما يسر الناظر إليها فقد شهد لهم من بعده أيضاً بيرفنديك بالبراعة في هذه الحقول فقال: «هذه الحقول التي هيأت أرضها بمشقة كبيرة هي شهادة صادقة على المثابرة والثبات في العمل لدى الجماعات الجبلية»⁽¹⁴⁾.

3- الطابية: وإذا كانت «الكواتر» متحدية للصّخر في السّواقي المرتفعة، فإنّ الطوابي تتحدّى الشّعاب في اتّساع فجوجها واندفاع المياه والرياح إلى تبديد خصوبة تربتها القليلة المنحصرة بين جانبي الجبل. لقد تقطن الإنسان إلى قيمة هذه التربة في ضمان أمنه الغذائي. فراح يحميها بسدود ترابية منظمة وواسعة عالية تقي الشجر وتخزن المياه لتصبح مائدة وقتية. وهذه التقنية قد أعجب بها التجاني كثيراً، «فليس في تلك البقاع ما يرتاح إليه الناظر سوى تلك الأبطح»⁽¹⁵⁾. وحاول تفسيرها متغافلاً عن روافدها في الحمالة والركابة والمرجع

(11) الفرستائي 1997، ص 284.

(12) Pervinquier 1909, p. 446

(13) Pervinquier 1912, p. 36.

(14) الفرستائي 1997، ص 450.

(15) التجاني 1981، ص 186.

بقوله: «وقوّة اعتمادهم في رَيّ الأرض إنّما هو على ما ينحدر من سيول تلك الجبال وقت الأمطار فإنّها تجتمع في أبطح ذي حصباء متناسبة وتربة بيضاء كافورية يحدّق بمزارعهم أحداق السور أو السّوار وتخرقها مذانب متسرّبة إليها منه»⁽¹⁶⁾. لقد ركّز على شكل بناء الكاترة التي تحتاج تكوين التربة على أسطر من الحجارة تحميها من الانهيار عند تجمع كمّيات الماء، وحتى تؤدّي ذلك الدور بفاعلية يتمّ تقويس بناء الأسطر. «تقويس الأسطر الحجرية بغاية وظيفيّة إذ لا يمكن للمياه دفع هذه الحجارة نحو أسفل الجسر مهما قوي منسوبها»⁽¹⁷⁾، مع تدريج ارتفاع اسطر المنفس ما يحدث ميلانا معترضا لاتجاه الجريان.

على أنّ سلامة «الكاترة» في منفسها الذي يصرف النسبة الزائدة من الماء ويحفظ قدر الحاجة ضمانا لسلامة العمارة وتوزيعا لثروة الماء بين مختلف الطوابي في الشّعبة الواحدة لذلك يبنى للمنفس كتفين «الكتف هو بناء بحجارة متوسطة يحيط بالطّابية من ناحية المنفس لمنع تسرّب الماء إليها مع وضع حجارة في شكل لوح كبير بين الكتف والأسطر للصرافة تلعب دور توجيه المياه»⁽¹⁸⁾. وبهذا الشكل يصبح ساكن الجبل بتقنياته البسيطة موجّها لحركة الماء ومنمّيًا لموارد المجال المحدودة، فمحافظا على الثروة المائية ومانعا لكلّ عوامل القفر والإخلاء بتحايّله وبجهد البدنيّ والتقني، فكان التّعمير المقنن الذي يصون الشعاب والسّواقي الضيّقة قبل أن يشغل بتثمين عمارة الأودية الواسعة.

بل إن الساكن هو المستعدّ لإعادة التّعمير وتحويل الجبل موطنًا لإنتاج خصوصيٍّ ما هطلت وان كانت في شكل إعصار فشجّعته⁽¹⁹⁾ على الاستثمار وبالتالي الاستقرار بعكس الجذب.

4- المصرف: تشقّ المجال أودية فحلة تتّجه إلى البحر وتسمى الأودية الجفريّة (الجفارية). وتقابلها أودية أخرى تتّجه إلى وهاد الصّحراء سمّيت الأودية الظهريّة (الظاهرية). هذه الأودية بدورها ترفدها أودية صغيرة تجمع مياه الشعاب والسّواقي. وعلى هذه الأودية الصّغيرة غالبا ما يشيّد المصرف. فتكون مهامه حفظ التربة وتغذية المائدة السّطحيّة بما يساعد على حفر الآبار

(16) التجاني 1981، ص 186.

(17) الثابتي 2006، ص 145.

(18) نفسه، ص 145.

(19) أكثر ما يخشاه ساكن الجبل على عمارته هو الجفاف، لذلك شاع المثل بين الفلاحين طلبا للأمطار الطوفانية وتفضيلها على الجفاف مؤلّد الجذب يقول المثل «خرايها ولا جدابها». أمّا خوفهم من تأثير الجفاف على تفرّق الجماعات فيلخصهم مثلهم «الجذب يفرّق الهوش».

في الطبقات الطينية القريبة عند مشارف الأودية. وقد لاحظ التجاني قبل بيرفنديكار أن كل السواني والآبار قد حفرت عند أطراف الأودية، وهي بالطبع في حاجة إلى تغذية مائدتها بما تحفظه هذه المصارف من ماء متسرب إلى الطبقات السفلية. ولا يمنع ذلك استغلال المصارف بالأودية الصغيرة في بعض الغراسات شريطة أن تتم على جنبات الوادي وتتحاشى مركز صبيبه لكثافة الطمي وقابلية الانهيار والجرف العميق⁽²⁰⁾.

ويمكن صرف الماء من هذه المصارف إلى عمارة جانبية أو أخرى تحتية من صبيب الواد بنسب

ومقادير محدّدة «فإن اشترك قوم في واد فأرادوا أن يرفعوا ماءه لينتفعوا به، فإنهم يجعلون له المصارف، وسواء عامّة كانوا أو خواصّ، وإن علموا ما لكل واحد منهم من ذلك الماء، فليجعلوا لهم المصارف على قدر سهامهم في الماء ويقسمونها»⁽²¹⁾. وهي نسبة محدّدة تتراوح بين العشر والخمس، «ومن العلماء من يرخّص في الوادي الكبير الفحل إذا كان لرجل بجانبه أرضه أن يعمّرها منه ويصرف منه مقدار عشرة أو ثمنه أو خمسه ولا يصرف منه أكثر من ذلك»⁽²²⁾.

207

إنّ في مثل هذه القوانين المنظّمة للعمارة الفلاحية ما يجعل الأودية جسورا وطرقا لها نقاط تزوّد بالماء معلومة. وبذلك تسهّل على المستقر الجمع بين غراسة الأشجار وتربية الماشية. وإن كان جمعا يحتاج مرونة في التوزيع المجالي لعملية الرعي. إذ لا تستقر القطعان بالجبل إلا صيفا لتأمين سلامة الغراسات.

نتبين من أنّ الإنسان بالجنوب الشرقي التونسي، وفي مسار تلاقحه مع الحضارات الوافدة عبر البحار، قد حاول السيطرة على صعوبات المناخ وتغيير وجه الأرض بالتركيز على حفظ المياه بأكبر قدر ممكن. إذ كلما تقدّمت تقنيات الحفظ تطوّرت تجارب التعمير. إنه تحدّي الإنسان لقحط المكان وقد بينت عديد المقالات وبعض الدراسات التي اهتمت بالتاريخ القديم بالجهة من أن هذه العمارة الفلاحية عُرِفَتْ في نوميديا الجنوبية منذ عهد الرومان الذين استحدثوا سدودا

(20) لا يطمئنّ فلاحو المنطقة الجبلية لغدر الوادي بمزروعاتهم لذلك يحذرون من قوّة صبيبه يقول المثل، «دَقْدَقْ يا حجر الواد» و«إخّر الواد واد جيس وإلا رشاد» وكذلك مثل آخر أكثر إشعاعا «ما يدوم في الواد كان حجرو» إقرارا منهم بأنّ الوادي «يحفر بلا فاس» فلا تنفع معه عمارة مبنية بالحجارة أو بالجيس والحجارة معا.

(21) الفرستائي 1997، ص 297.

(22) الثابتي 2006، ص 285.

جديدة بعدة مواضع⁽²³⁾ وهذا يدل على أن التقنية لم تكن جديدة على المنطقة. ثم أثبت الزمان أن تطويع المكان في هذا المجال لمشاريع تنمية لا يعتمد إستراتيجية المنشآت الضخمة ذات الإنتاجية السقيوية الكثيفة، وإنما يحتاج إستراتيجية المنشآت الصغرى المتشابهة ذات الإنتاجية البعلية الطفيفة والمنوعة، وذلك ما يحتاج حفظ الماء من التبخر في محابس وفساق ومواجل⁽²⁴⁾.

II- تقنيات العمارة المائية بالمنطقة الجبلية

يجب مراعاة الانحدار فالجسور العلوية مساحتها ضيقة لصعوبة إنشائها إذ لا يمكن أن تكون عميقة فتصبح غير قادرة على تحمل كمية المياه من جهة وهي محكومة أيضا بقوانين لا تسمح بالاستغلال المنفرد لهذه المياه لذلك كلما اقتربنا من العالية صغر حجم الجسر ليصبح اسمه كاترة⁽²⁵⁾. بل ويستغل السفح بمراتج⁽²⁶⁾ بغية الزراعة، وبحسب أهمية المسقى يكون سمك الطابية وعلوها مع عدد منافسها وذلك للصمود أمام المياه.

1- المعرفة بتقنيات الإنشاء: عند العزم على إنشاء هذا النوع من المعمار يقع اختيار المكان أولا لتحديد نوعية التربة المتماسكة التي تنشأ بها الطابية (الترشة) وكذلك موضع المنفس الذي يجب أن يبنى فوق طبقة صلبة وبحسب أهمية الوادي يكون عدد المنافس فنجد المنفس في الوسط ومعد في ناحية من ناحيتي الطابية ويلعب دور تخفيف عبء منسوب المياه القوي وقد يكون منفسا واحدا ولكن بأسطر طويلة جدا كما هو الحال بالنسبة لجسر الطبايش بجهة غرب سدر (الوثيقة رقم: 03)، وكذلك الدويرات وغيرها كثير حيث يقع اختيار الجسر بعد التواء بالواد حيث يسهم في كسر سرعة الماء وكذلك الانتشار الواسع للمياه بعده فيكون مجالا فيضيا مستغلا يروى بالمياه⁽²⁷⁾.

(23) Khorchani 2017, p. 303-304.

(24) الثابتي 2016، ص 773-782.

(25) الثابتي 2006، ص 145-147.

(26) مراتج، جمع مرتج وهو المساحة المكتسبة على حساب السفح وعادة ما تكون في مكان مكون من التربة بين طبقتين كلسيتين تكون السفلى متقدمة والعلوية متأخرة فتقع التهيئة من قبل الشاب الذي بلغ فهي بمثابة الشرط فمن استطاع ذلك حظ له الزواج. (27) يتركز الجسر على مسافة جنوب الانعطاف بالواد بمقدار يسمح بإمكانية رجوع الماء المحتجز باتجاهه وهو ما يمكن من استغلاله لاحقا غرسا وزرعا - يسمى كليس ويجمع على كليسن - كما أن هذه الانعطافة بالوادي تسمح بتخفيض سرعة المياه لكي لا تتسبب في انخرام العمارة وكذلك عدم جرف التربة في الجسر وانتشار المياه بكافة المساحة المعدة وفي ذلك أكثر من استفادة في المستويين المعماري والفلاحي. انظر: الثابتي 2016، ص 783-792.

2- الطابية: هي من نوع التربة المتماسكة تجرف فتكون بمثابة الحاجز المعترض لمجرى الوادي بغاية حبس كمية من مياه الأمطار ولكنها لا تصمد بمفردها بل تجب حماية طرفها ويتمثل في المنفس أو المعدّ لصرف الزائد من مياه السيالان⁽²⁸⁾. وينشأ هذا المعمار وفق قوانين دقيقة مستتبطة من المعرفة الدقيقة لخصوصيات الجهة إذ يجب مراعاة الخصائص المذكورة.

3- المنفس (المعدّ):

• الأسطر الحجرية: يشيّد المنفس بناءً بواسطة أسطر من الحجارة، عادة، في شكل قوس⁽²⁹⁾ يكون التجويف نحو أسفل الجسر وهذه الحجارة تكون ضخمة ومنحصرة بشكل يجعلها منضغطة بين الكتفين إن كان المنفس في وسط الطابية وبين كتف وطبقة صلبة إن كان المنفس في جهة جانبية من الطابية (الوثيقة رقم 04)، فهل أن هذه التقنية مرت من المشرق إلى المغرب الإسلامي وهو ما نجده في هذه العمارة بجبل دمرّ ومر إلى الأندلس فكانت السدود تبنى بهذه الطريقة حيث يقع تركيز أحد طرفي سد ميستيليا ببلنسية على جدار حجري⁽³⁰⁾.

هذا التقويس للأسطر الحجرية بغاية وظيفية إذ لا يمكن للمياه دفع هذه الحجارة نحو أسفل الجسر مهما قوي منسوبها فالمسافة التي امتد عليها السّطر أطول من المسافة الفاصلة بين الكتفين فيصبح طول السّطر أكثر من أن يسمح للماء بدفعه (الوثيقة رقم 04)، خاصة وأنّ هذه الحجارة الضخمة توضع بينها حجارة حادة في أسفلها عريضة نسبياً في أعلاها تدقّ بطريقة تجعل من الحجارة الضخمة تنضغط فتلتحم ببعضها البعض أي تتكاتف دونما أي تحرّك وهذه العملية تسمّى (القرص) ثمّ يقع ملء الفضاء أمام السّطر بحجارة مختلفة الأحجام (المرش) وتربة يميل لونها إلى البياض (تافزا) تتماسك بسرعة وتمنع تسرب المياه تحتها تسمّى (الصدر) وهو الجزء المعترض للمياه والمقدّر للقيمة المائية المتبقية بالجسر. وهذه الأسطر لا تبنى دفعة واحدة لأنّ الطابية لا تستطيع تحمل كميات كبيرة من المياه وإنما يجب بناء سطر أو سطرين لحبس كمية من الماء والطمي فيترسّب سطح الجسر تدريجياً وإذا ما اقترب هذا السطح من مستوى علو السطر يصبح ضرورياً إضافة سطر آخر بشكل متدرج ما يجعل البناء يتكئ

(28) بن وزدو : حسن : ممّو 1999، ص 211 : الثابتي 2006، ص 145-147.

(29) يكون القوس متجها نحو الاسفل وفي ذلك تقنية تضغط الحجارة بالسطر الحجري بشكل تكون نقطتا طرفي السطر ابعد بكثير من المسافة المقدره سمتا بين طرفيه وبهذه الطريقة لا يمكن للمياه دفع السطر نحو الاسفل او مجرد اقتلاع حجر واحد لأن باقتلاع واحدة ينخرم أكمله.

(30) دونالد رهيل 2004، ص 195-220 : الثابتي 2006، ص 791.

باتجاه السيلان، علما وان هذه التقنية قد أثبتت جدواها في الأودية بالبلاد المطيرة مثل سدود نهر توريا ببلنسية التي أنشأها المسلمون وصمدت لألف عام نظرا لقلّة ارتفاعها مع شكلها المسطح مع ارتكازها على أساسات عميقة وثابتة جدا⁽³¹⁾، مع طريقة تسمح بتجميع كمية من الماء بحسب الحاجة وبصرف الزائد إلى العمارة أسفلها ويكون نفس النسق من العلوي إلى السفلي. (الوثيقة رقم 07).

لا يمكن لهذه الأسطر من الحجارة ان تثبت إذا استندت جوانبها مباشرة إلى الطابية بل ترصف إلى جدار يفصل بينها وبين التربة المكونة للطابية تسمى «الكثف»⁽³²⁾.

• الكثف: هو بناء بحجارة متوسطة يحيط بالطابية من ناحية المنفس لمنع تسرب المياه إليها مع وضع حجارة في شكل لوح كبير بين الكثف والسطر تسمى الصرافة تلعب دور توجيه المياه التي يقع صرفها من قبل المنفس (الوثيقة رقم 05)، فلا يجب أن تتوجّه خلف الطابية فيكون انخرا مها تدريجياً من الأسفل⁽³³⁾.

يكون صرف هذه المياه في اتجاه تحدده الصرافة بالكثف لاتقاء انخرام المنفس من أسفله، كما تلعب الأسطر المبنية بشكل مدرّج يتكئ تدريجياً نحو «منقع» الجسر من جهة توافد المياه فيكون أقدر على الصمود أمام قوّة الدّفع للمياه أولاً ويجعلها تنكسر وتندرج في سقوطها أسفل المنفس لكي لا تحدث انجرافاً أسفله ما يعبر عنه بالحثّ التراجعي للمياه المصروفة⁽³⁴⁾.

تشبه هذه المنشأة في الأغراض التي من أجلها أنشئت المنشآت الفلاحية بلبنان وكذلك بفلسطين وتحديدًا بنابلس منذ الفترة البيزنطية⁽³⁵⁾.

(31) بن وزدو ؛ حسن ؛ ممّو 1999، ص 217 ؛ دونالد . ر. هيل 2004، ص 215.

(32) هذه الأسطر من الحجارة لا يمكنها الثبوت إذا كانت جوانبها مستندة إلى الطابية مباشرة بل وقع مراعاة ذلك بإنشاء الكثف، بن وزدو ؛ حسن ؛ ممّو 1999، ص 223 ؛ الثابتي 2006، ص 786.

(33) بن وزدو ؛ حسن ؛ ممّو 1999، ص 214.

Lebœuf 1903, p. 362.

(34) بن وزدو ؛ حسن ؛ ممّو 1999، ص 217 ؛ الثابتي 2009، ص 151-164 ؛ الثابتي 2016، ص 787.

(35) أعلن قسم السياحة والآثار في جامعة النجاح الوطنية أنه توصل إلى اكتشاف قرية زراعية تعود إلى العصر البيزنطي في نابلس. وقال إنه اكتشف القرية خلال الحفريات الأثرية التي أجراها في الفترة الزمنية بين 2013/06/29 - 2013/07/04 في تل صوفر. وكانت الحفريات قد تمت بإشراف الدكتور لؤي أبو السعود وبمشاركة الأستاذ عاطف خويّرة من قسم السياحة والآثار، والرسام الأثري إبراهيم اقطيط من معهد الآثار بجامعة أبو ديس، وبمشاركة 30 طالبا وطالبة. انظر: المؤسسة الوطنية الفلسطينية للدراسات والنشر والإعلام.

كما نجد هذه التقنية في كل المناطق الجبلية كالجبل الابيض والمناطق القريبة مثل مطماطة وجهة بني خدّاش وجبل نفوسة بليبيا .

كما انه في هذا المستوى من ناحية الطابية (المنقع) تكون أرفع كميات المياه المحتجزة في الجسر على عكس أعلاه والذي يسمّى «الرّقة» فمياهه قليلة. (الوثيقة رقم 06).

• الدّرع: إذا كان الجسر قادرا على تجميع كميات كبيرة من المياه فإنّ نفاذها يكون بعد مدّة زمنية معيّنة وهذه المدّة قد تكون مصحوبة برياح فتحدث موجات تتآكل بفعلها الطابية فوق التفتن إلى ذلك وحماية الطابية ببناء «صيرة» بارتفاع يتجاوز ما يمكن أن يصله مستوى المياه تسمّى محلياً الدّرع⁽³⁶⁾ وهو الواقى مع العلم أنّ في هذا المستوى من ناحية الطابية (المنقع) تكون أرفع مستوى لكميات المياه المحجوزة.

III- دور القوانين المائية في التنظيم وحل النزاعات

تخضع كل هذه المنشآت لقوانين محلية دونها الفرسطائي منذ الفترة الوسيطة وتواصلت الى حد الفترة الحديثة ثم المعاصرة اذ نجد لها صدى في العقود العديدة والأعراف، فلا يمكن لأحد أن يتعدّاها، ومن يخرق ذلك حُمِّل المسؤولية من قبل الجماعة ومن قبل القانون، فلا يجوز لصاحب الجسر العلوي في بعض الأحيان أن يضيف أكثر من سطر، مع تحديد ارتفاع هذا السطر بأقل من شبر (بين 25 سم و 30 سم)، ومنها المأثور «الماء خلخال» وذلك للسّماح لمن هو أسفل منه بالحصول على نصيب من ماء المطر والمحافظة على جسره والجسور أسفل منه. (الوثيقة رقم 07).

1- قوانين الفرسطائي: يعتبر كتاب القسمة وأصول الأراضي أهم مصدر لتنظيم العمارة المائية بجبل دمرّ إذ انه تمكن من تدوين كل الأشكال والمراحل الإنشائية المائية بهذا المجال مع تقديم الحلول لكل المشاكل الطارئة والتي يمكن أن تطرأ نتيجة شذوذ إما بفعل البشر أو بفعل العوامل الطبيعية مع ربط تصرف الإنسان في المجال بمآل هذه العمارة وما يمكن أن يجلبه سوء التصرف في التعمير بأصنافه، فحمّلت هذه القوانين المسؤولية لسوء التقدير البشري للمعطى الطبيعي،

(36) الفرسطائي 1997، ولا نعتقد بان ما جاء في مصنفه من قوانين هي من تأليفه وابتكاره وإنما كتاب القسمة هو تجميع للموروث العرفي وهو مخزون نتيجة تراكم التجارب المتعاقبة في التعامل مع مياه الامطار فيضانا وشحا وما يطرأ على ذلك من خصوصيات فالفرسطائي ربما كان له دور في الاطلاع عليها جميعها وتهذيبها على مستوى الصياغة وكذلك التنبؤ والتدوين.

فعلى سبيل المثال تعتبر المرحلة في بناء الأسطر واجبة فالقانون يحلّ من انخرم منفس جسره أو انثلمت طابيته إصلاح ما تسبب في إفساده من الجسور أسفل منه قبل إصلاح ضرر جسره، وكذلك تغيير مجاري المياه أو صرف كميات تكون سببا في الخراب أو خراب بفعل العروق وغيرها كثير، فتعددت المسائل الفقهية في فصول كتاب «القسمّة» والحلول المنتجة لكافة هذه المشاكل وفي ذلك - على سبيل المثال - «ومن كانت له عمارة فوق عمارة غيره فزاد إليها الماء، حتي انكسر جسرها بهذه الزيادة أو سد قنائها، فانكسر جسرها من اجل ذلك، أو كسر الجسر هو بنفسه، فانه يضمن كل ما أفسده الماء من العمارة التي كانت أسفل منه»⁽³⁷⁾.

ولئن تراكم موروث الفترات التاريخية بجبل دمر من العصور القديمة إلى الوسيطة وإلى الآن فان فترة أوج الازدهار كان عند انتشار المذهب الأباضي الموثق مصدريا في السير كانت تحديدا في القرن الخامس الهجري، من جبل نفوسة إلى دمر وتمولست وجربة وبلاد الزاب، وبالتمعن في النصوص الفقهية الاباضية يجد لها وقعا على ما شيده هؤلاء عصر - ذاك، ومنه ما تواصل إلى اليوم بالاعتداء بالنصوص المكتوبة من قبل أبي العباس أحمد الفرسطائي النفوسي، والذي جمّع كل الحلول لمختلف المسائل التي تحف بالعمارة والتعمير وكذلك في ما تواصل في الاستعمال اليومي واللفظي إلى اليوم انطلاقا من الحلول لبعض المسائل في العرف المتداول والتي أصبحت مادة تراثية أكثر منها مادة معتمدة في تسيير شؤون العامة.

212

2- قوانين العقود العدلية والعرف: ركزت العقود العدلية التي تهم الجبل الأبيض - وتنتمي كلها إلى الفترة الحديثة - على المسائل المائية في القسمّة والحدود للعقار مثبتة الحريم أكثر من المنشأة في حد ذاتها إذ تتناول عادة المنشآت المائية التي تفتقر إلى مصدر لكميات مياه الأمطار، فإذا كان الموقع قليل المسقى و«الصّبوب» (الحريم)، فإنّ صاحب الكاترة أو الجسر بإمكانه باتفاق الجماعة عرفا ويوثق ذلك أحيانا بعقد يضمن له جلب مياه بعيدة ولو اضطر إلى المرور بها عبر حمالة من أرض الغير. حيث تذكر وثيقة عدلية تتمثل في بيع «... جميع الكاترة بياض أرض في تلاخت»⁽³⁸⁾ بمساقها ومجاريها والحمالة التي تخطم⁽³⁹⁾ من وسط ملك يحي بن إبراهيم تصب في الكاترة

(37) الفرسطائي 1997، ص 313 ؛ بن وزدو ؛ حسن ؛ ممّو 1999، ص 217.

(38) تلاخت هي شعبة شمال شرق سدرّة مقسمة عقاريا بشكل كبير يكون أعلى صيبها من القسم الشمالي لبلد سدرّة المعروف إلى الآن باسم تازارت (بمعنى التين المجفف في اللغة البربرية).

(39) تعني تمرّ من، وفي الاستعمال المحلي تعني المرور المستعجل أو المرور المحفوف بالخوف إن كان المعني بشرا.

المذكورة بيعا بتا...» سنة تسعين ومائة وألف، العدل علي بن عبد القادر. ونظرا لأهمية الحريم أو المسقى فإنه يقع التنصيص في العقود عليه بشيء من التركيز أكثر من العقار في حد ذاته حيث ينص العقد على البيع للجسر «وقبله وجوفا الذي هو غربا جبل صبوب الماء الكائن مكانه بشعبة مقيزة بغابة بلد سدره بالجبل الأبيض بحدوده وحقوقه وعامة منافعه وما يعد وينسب إليه قديما وحديثا...»⁽⁴⁰⁾ وهذه الحقوق تكون منصوصا عليها في العقد وإن كانت الأراضي بيضاء (الوثيقة رقم 08). كما توثق العقود عادة على معرفة الشهود «شهادة واحدة محققة لا شك عندهم فيها ولا ريب لمعرفتهم لشعبة مطلاع الماجن التي تفلت⁽⁴¹⁾ فيها الحمالة التي تجلب الماء من القارة⁽⁴²⁾ في حياة المرحوم بلقاسم بن عبدالله...»⁽⁴³⁾ كما تورد وثيقة اشتراء أحد الأشخاص من قبيلة سدره «جميع ثلاثة كواتر وما بهم متراكبات في شعبة تلاخت ببلد سدره بالجبل الأبيض يحدهم من الأعلى... ومن الأسفل... وبهم حمالة تجلب الماء تصب بالكاترة الوسطى بمساققيهم ومجاريهم وما يعد وينصب إليهم من الماء له في جميع ذلك...»⁽⁴⁴⁾.

تنتشر بالقرب من القرى الجبلية والقصور عديد الكواتر بحجم صغير وبمنافس كبيرة وذلك اجتنابا لكل عملية إنخرام فيكون ذلك وبالا على صاحب الكاترة وأصحاب الكواتر أسفل منه فكانت القوانين صارمة في ذلك وملزمة للعلوي قبل السفلي فإن كانت كمية المياه قليلة أقتسم المسقى أيضا وعند البيع والشراء يقع التنصيص بكل دقة على حدود الجسر أو الكاترة مع المساقى والمجاري مع التأكيد على «أن الداخل للكاترة إليها والخارج عنها» مع ذكر عبارة «صبوب الماء من الجانبين والمعرفة تكفي عن التحديد» وأيضا «تبازيع الماء يميننا وشمالا»⁽⁴⁵⁾.

(40) وثيقة عدلية خاصة مؤرخة لسنة ثلاث وثلاثمائة وألف، بخط العدل المبروك بن أحمد بن سالم.

(41) تصب فيها وعادة بشكل سريع وقوي كانفلات القرب أو الشكوى.

(42) جبل شديد الانحدار مواجه للرياح الشمالية والشمالية الشرقية مقابل لبد سدره من الجنوب وهي جبل يتميز بتكرر الطبقات الصخرية ما يجعله حريما يوفر ويجلب كميات كبيرة من مياه الأمطار.

(43) وثيقة عدلية خاصة مؤرخة لأواسط جماد الأول سنة خمسة عشر ومائتين وألف، العدل محمد بن عبدالصمد الجليدي.

(44) وردت هذه العبارات في عدد من العقود ومنها نجد عقود القرن الرابع عشر هجري تختزل ذلك في «صبوب الماء من الجانبين».

(45) تعد هذه العبارة من المأثور المتناقل إلى الآن ولم نجد لها أثرا مكتوبا سوى في عقدين يعودان إلى أواخر القرن الثالث عشر هجري.

3- ضمان الحقوق وحلّ النزاعات: كثيرة هي النزاعات حول المياه منذ الفترة الوسيطة وتواصلت إلى الفترتين الحديثة والمعاصرة وخصوصا حول هذه الحماميل إذ نجد عديد العقود التي تدوّن هذه النزاعات و كيفية حلّها بتدخل الجماعة فإن عجزوا انتدبوا إلى ذلك فلاّحا وهو الخبير بأمور التعمير لمعاينة المسألة أو تدخل القاضي أحيانا. كما هو الشأن في النزاعات في حكم قاضي شقنطة (Sagonte) بالأندلس سنة 1223 ميلادي لحل نزاع بين فريقين حول تغيير حصل في ساقية الريّ ثم إلى محكمة المياه ببلنسية⁽⁴⁶⁾. لقد تواصلت هذه الأعراف إلى الفترة الحديثة بل والمعاصرة في التعامل مع أشكال الاستغلال لهذه العمائر الفلاحية بكل الأشكال بما في ذلك عند البيع والشراء والمغارسة والرهن وغيره إذ نجد حرصا كبيرا على التحديد للعقار بشكل ملفت للانتباه فما يخص في العقود من تدقيق حول الحدود والمنافع و«صبوب الماء» أكثر مما يذكر فيه الجسر والكاترة. ونفس المسألة بالأندلس في الفترة الوسيطة تطرحها وثائق عدلية خاصة تعود للفترة الحديثة بجبل دمرّ والجبل الأبيض، إذ تورد وثيقة عدلية في شكل معاينة للخبير علي اندامو السدراوي الفلاح «انه طاف على الساقية الذي تصب في العش الذي يعرف بعش الكراكيب⁽⁴⁷⁾ فطاف عليها فظهر له دليل عقله وبرهان بصره ان الساقية من غربا حقا للعش المذكور وحقا من حقوقه وجزء من أجزاءه...»⁽⁴⁸⁾ (الوثيقة رقم 9).

فإن لم يهتدوا إلى حلّ رفع ذلك الفلاح أمر المتنازعين إلى القاضي بالجبل الأبيض (تطاوين) حيث تورد وثيقة عدلية ذكر خصام شب بين مالكين حول قسمة الماء بالسفح من السافلة إلى العالية بجهة «سعادة»⁽⁴⁹⁾ حيث أمر القاضي بالجبل الأبيض الفلاح بالتوجه الى المكان صحبة المتخاصمين للمعاينة بقوله: «... وتوجهوا جميعا صحبة الفلاح منصور بن يحمّد قبيلهم وافصلهم بالوجه الشرعي إن أمكنك ذلك وإلا فوجه الجميع لدينا ومن له حق يتصل به إن شاء الله ومن امتنع فقيّد امتناعه ليعامل بمقتضاه...»⁽⁵⁰⁾ مشكل الحمالة وما يعلوها من السفح يصبح ملكا لصاحب الحمالة فإذا لم يكن كذلك فإن

(46) حسن 2004، ص 255.

(47) الكراكيب نسبة الى شكل البلح المنتج وهو الكركابي اذ الواحدة من الثمرة تاخذ الشكل الكروي.

(48) الوثيقة الخاصة رقم 11 وهي مؤرخة بتاريخ أوائل شوال سنة تسعين ومائة وألف بخط العدل علي بن سالم.

(49) جسر بواد يحوي مزار سي حمّد بن عيسى وهو من الاودية الفحلة التي تمتلكها عروش اهل سدرّة.

(50) وثيقة خاصة يرد فيها قاضي الجبل الأبيض إلى الفلاح بسدرّة على قفا الوثيقة المرسلة إليه من قبله لكي يتولى فض الخصام.

مجرى الحمالة يجب أن يكون محصوراً من الجهتين أو في شكل قناة يمرّ منها الماء عبر أرض الغير (الوثيقة رقم 10). وقد كتب على ظهر نفس الوثيقة بأن الفلاح قد استطاع حل المشكل وفض الخصام بقوله: «وتوجهنا لأرض الحمالة الذي عليها الخصام وقسمنا بينهم الماء من الخشم واصعد إلى بين الحقفات أما الحقفة المبنية لعبد الله المذكور أما الحقفة الذي غارقة وقدامها حجرة بيضاء لسالم بن احمد المذكور ووقفنا بينهم قمير والذي يفسده يتعين له عون ويدي الخدمة عادة شرع...»⁽⁵¹⁾.

هذا العقد يتضمنّ قسمة ماء ساقية مع تعليم ذلك بعلامة حدودية تسمى (القمير) وهي: أقمير في البربرية وتعني علامة الحد⁽⁵²⁾ مع التبيه على من يفسده أو يغير القسمة يتحمّل مسؤولية ما ارتكب.

كما يقع التخصيص أيضاً عند اشتراء أرض بمساحة شاسعة على الحدود المائية للقطعة «والظهرة البيضاء والغار الذي يفتح للغرب والشاريين المذكورين ومن الشمال وأنت مصوب⁽⁵³⁾ الهناشير السود وظهرة الدواميس وبادر وخشم المغر⁽⁵⁴⁾ لحرر وصوب الماء من كل ناحية وصوبها وما يصب إليها وينسبوه الناس إليها قديمه وحادثه بأشجارها وترابها...»⁽⁵⁵⁾.

هنا لابد من التفطن إلى مدى أقلمة الحلول الفقهية والعرفية للمسائل الجغرافية وهو ما يجعل من الفقه هو فهم للجغرافيا وفقه لها.

كما أن هذه العمائر يمكن أن تكون قريبة من المواقع المأهولة بالسكان فيقع تلافي تعرض المنشآت الفلاحية إلى الأضرار من قبل الحيوان في صورة ما إذا احتوت غراسات وخاصة زيتونة تكون الكاترة بأكملها محاطة بسور لا يمكن للحيوانات دخولها وإلحاق الضرر بها مع ترك فتحات تسمح بمرور مياه السيالان إذ يورد التجاني بقوله «... تحديق بمزارعهم أحداق السور أو السوار وتخرقها مذانب متسرّبة إليها منه»⁽⁵⁶⁾.

تتواصل هذه الأعراف إلى الفترة الحديثة بل وإلى المعاصرة في التعامل مع أشكال الاستغلال لهذه العمائر الفلاحية بكل الأشكال بما في ذلك عند البيع

(51) وثيقة عدلية بتاريخ أوائل شوال سنة تسعين ومائة وألف بخط العدل علي بن سالم.
(52) Boutliou (sans date d'édition), p. 40.

(53) مصوب هو النازل من المرتفع إلى المنخفض بشكل مستقيم استقامة تصويب البندقية.

(54) وهو المكان الرملي الذي يقع حفرة عن طريق مياه الأمطار بالسفح الجبلي.

(55) الوثيقة العدلية بتاريخ، اليوم الرابع عشر من حجة الحرام متمم شهور عام 1306 هـ.

(56) التجاني 1976، ص 149.

والشراء والمغارسة والرهن وغيره إذ نجد حرصا كبيرا على التحديد للعقار بشكل ملفت للانتباه فيما يخص في العقود من كتابة حول الحدود والمنافع وصبوب الماء أكثر مما يذكر فيه الجسر والكاترة⁽⁵⁷⁾ فالي أي مدى تواصل فقه فقه هذا المعمار للمحافظة عليه أولا وتجنب المشاكل وتصدع الروابط المجتمعية والأسرية ثانيا؟

خاتمة

تنوعت اشكال العمارة المائية الخاصة بالزراعة وتنوعت مكوناتها بحسب الاحجام والوظائف كما دلت الدراسات التاريخية والاثرية على قدم هذه الظاهرة وتواصلها عبر العصور مع بلوغها دقة متناهية في الفترة الوسيطة وتحديدًا في القرن الخامس الهجري حيث برز ادق قانون في المياه مترجما الازدهار والعناية بهكذا عمارة ذات اهمية بالغة وسمت المناطق الجبلية بشمال افريقيا والاندلس بل ونجدها في الشرق الاوسط منذ الفترة القديمة بلبنان وفلسطين.

ومن هنا لا يمكن نعت هذه العمارة بأنها حكر على افريقية أو على المجالات الاباضية إذ أننا نرى بانها نتيجة تجارب تراكمت عبر الزمن فجاءت عمارة محكمة تتم عن فقه دقيق للطبوغرافيا والجيولوجيا وطبيعة الزخات المطرية فجاءت متأقلمة مع هذه الطبيعة الجغرافية إنشاءً وغايةً من هذا الإنشاء مأقلمة ما هو موجود أملا من السكان في بلوغ المراد، فعرفوا كيف تكون عمليات الجلب لمياه الأمطار وحبس الكميات المحتاجة منها وصرف البقية بطريقة جد ذكية اعتمدت المواد المحلية وفق قوانين ضمنت لها البقاء والاستمرارية، وعند الخروج عن هذه الأعراف، خرب عديد منها، إذ أن العمائر العلوية تكون السبب في خراب السفلية، ومع عدم مراعاة هذه القوانين الضامنة لبقائها فان الخصومات والنزاعات اصبحت المراكز والمحاكم تعج بها حول الحماميل عند نزول الأمطار⁽⁵⁸⁾، والحلول فيها لا تصيب فقه أسباب الإنشاء، بالإضافة إلى ما يحدث لهذه العمائر، من تطورات كالقسمه بفعل التوريث أو البيع، لذلك حرص العرف على عدم التفتيت للملكية خاصة بعدم توريث البنات في كل الاحباس التي تضمن للبنات سوى الانتفاع بالأكل والسكن عند الترمّل أو الطلاق دون إسراف أو تبذير مع العودة إلى ما نص عليه الحبس عند عودتها إلى حالتها الأولى وهي خروجها من جديد مثلاً إلى حالة الزواج ثانية. «وكل

(57) لا يخصص في العقد سوى حيز يسير لتعريف الجسر سوى اسمه واسم الشعبة أو الوادي الموجود به في حين يقع التنصيص بكل دقة على ما يتبع الجسر أو الكاترة من حريم مسقى وحماميل لما لها من أهمية مائية لسقي الجسر.

(58) الثابتي 2009، ص 151-164.

من سعى في تغييره أو تغييره فإن الله طليبه ومجازيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها»⁽⁵⁹⁾.

إن دقة الحلول اللامتناهية في كتاب القسمة والعقود العدلية والعرف تتم عن فهم دقيق للمجال، بحيث ما لا يدع مجالاً للشك بأن العمارة محلية في غاياتها وتقنياتها وأن هذه القوانين لا يمكن تطبيقها إلا في مجالات جبلية وعرة ومتاخمة للصحراء أحياناً، إذ هي حلول لمشاكل المجال المعني ويمكن أن تكون نفسها أو شبيهة في مجال آخر يحمل نفس الخصائص إذ ورد قانون قريب من هذا المجال لكنه مختلف عنه في الخصائص الجغرافية فجاء مختلفاً مضموناً وهو قانون ابن الشبّاط بالجريد من بعده في بضع سنين. ولا يمكن نعت هذه القوانين في القرن الخامس الهجري بمجال أباضي بأنها أباضية أو مسيحية متأتية من نابلس بل إن الجغرافيا هي المحدد لسن مثل هذه القوانين. وبالرجوع إلى كتاب القسمة في فصوله وكافة بنود قوانينه وكذلك العقود العدلية الخاصة بالفترة الحديثة لا نجد استدلالاً أو استنباطاً منها اعتمد الآي⁽⁶⁰⁾ الكريم أو الأحاديث النبوية، بل اعتمد رأي عرفاء وصلحاء وخبراء في عمارة المجال فعليهم يعول في حل المشاكل وإليهم يردّ الكلّ إذ لا نجد ذكراً للشيخ والإمام، بل بإيراد، « هذا ما اتفق عليه »، أو « ما وقع التعارف عليه »، أو « ما بدا له بدليل العقل وبرهان بصره... » أو « عادة شرع » وهؤلاء هم بمثابة الأمناء في العمارة وفي الفلاحة وفي قسمة المياه ومعاينة وتقويم الأضرار والأعمال وفضهم ما أمكنهم من الخصومات.

(59) اطلعنا على ما يزيد عن 16 حبساً من الأحياس المختلفة تهم عدداً من العروش والعائلات بجهات مختلفة من سدرية بعروشها الخمسة وعائلاتها وبني بركة وذهيبة والدويرات وكلها تشابه في الصياغة وفي المضمون بنفس الغاية في حرمان البنت من الإرث ولكن يبقى لها الحق في حالات العوز والترمل وغيره فان خرجت من هذه الحالة عاد انطباق النص المضمّن بالحبس عليها مع التصييص عند الانقراض على من يرث ذلك الفرع فيكون الاقرب فالاقرب، فان انقرضوا جميعاً يعود الملك إلى الجامع وهو ما يوثقه حبس علي بن عبد الله بن علي السدراوي (الثابتي) والذي يعود تاريخه إلى سنة 1199 هـ، مع نشاز وجدناه في حبس الذهبيات فان الانقراض يؤدي إلى رجوع الملك إلى الحرمين الشريفين مكة وقبر الرسول بالمدينة المنورة.

(60) الآي جمع آية انظر: معجم المعاني الجامع حيث تجمع آية على آيات وآي، ولم يقع إيراد ولو آية واحدة في كتاب القسمة.

البليوغرافيا

الفرسطائي (النفّوسي أبو العباس أحمد)،
1992، القسمة وأصول الأراضي كتاب
في فقه العمارة الإسلامية، تحقيق
محمد صالح ناصر وبكير بن محمد
الشيخ بالحاج، سلطنة عمان.

المراجع باللغة العربية

الثابتي (علي)، 2006، عمارة القصور
بالجبل الأبيض (جنوب تطاوين) في
الفترة الوسيطة، ش. د. م، كلية العلوم
الإنسانية والاجتماعية، تونس.

الثابتي (علي)، 2009، «بعض المنشآت
المائية بجبل دمر: تقنيات الإنشاء
ومشاكل الاستغلال» في، الماء والتعمير
ببلاد المغرب في العهدين القديم
والوسيط، تونس.

الثابتي (علي)، 2016، عمارة جبل دمر
في العهدين الوسيط والحديث،
شهادة الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية
والاجتماعية، تونس.

المنصوري (المبروك)، 2010، جدل الدّين
الإسلامي والعمران المغربي، طبعة
الدار المتوسطية للنشر، تونس.

بن وزدو (الهادي) ؛ حسن (محمد) ؛ ممّو
(أحمد)، 1999، قانون المياه والتهيئة
المائية بجنوب إفريقية في العصر
الوسيط، من خلال كتاب: القسمة
وأصول الأراضي لأبي العباس أحمد بن
محمد أبي بكر الفرسطائي النفّوسي،
مركز النشر الجامعي، تونس.

بوزرارة (محمد)، 1914، التخوم التونسية
الليبية عبر التاريخ، نجع الذهبيات
وجيرانه، منشورات سعيدان، سوسة.

حسن (محمد)، 2004، الجغرافيا
التاريخية من القرن الأول إلى القرن

الوثائق العدلية الخاصة

- وثيقة عدلية خاصة مؤرخة لأوائل
شوال سنة تسعين ومائة وألف بخط
العدل علي بن سالم.

- نسخة من وثيقة عدلية (حبس)
مؤرخة بسنة تسعة وتسعين ومائة
والف مستخرجة في السادس من اول
الجمادين سنة ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة
والف بخط العدلين المبروك بن محمد
المقبلي وسعد بن محمد الجليدي.

- وثيقة عدلية خاصة فقد جزؤها
السفلي وبقي منها 11 سطرا واضحة
وسطر غير مقروء بتاريخ خمس في
رمضان بتاريخ محوله كاتبه أحمد
بن... أواسط جمادي الأول سنة خمسة
عشر ومائتين وألف بخط العدلين
محمد بن عبد الصمد الجليدي وعلي
بن عبد الغني.

- وثيقة عدلية خاصة بتاريخ ستة أيام
من ثاني الجمادين من عام ثلاثه
وثلاثمائة بعد ألف بخط العدل احمد
بن سالم.

- وثيقة عدلية خاصة بتاريخ يوم الرابع
عشر من حجة الحرام متمم شهور عام
سنة وثلاثمائة وألف بخط العدلين
عبد الله بن عمر الدويري وامحمد بن
الحاج سالم حرّار الدويري.

- وثيقة عدلية خاصة (حبس الذهبيات)
بتاريخ الرابع عشر من حجة الحرام
عام 1306 هـ.

المصادر

التجاني (أبو عبد الله)، 1976، كتاب
الرحلة، الدار العربية للكتاب، ليبيا-
تونس.

- Bonvallet J. (1986), « Tabias et jessour du Sud tunisien : Agriculture dans les zones marginales et parade à l'érosion », *Cah. ORSTOM; Ser. Pedol* ; XXII.
- Boutlioua H. (sans date d'édition), *DICTIONNAIRE FRANÇAIS-TAMAZIGHT – ARABE, édition AMAZAR*, ACTB, Bejaia.
- El Amami S. (1984), *Les aménagements hydrauliques traditionnels en Tunisie* ; Centre de Recherche en Génie Rural (CRGR) ; Tunis.
- Gauckler P. (1900), *Enquête sur les installations hydrauliques Romaines en Tunisie*, T. I, Tunis.
- Gauckler P. (1912), *Enquête sur les installations hydrauliques Romaines en Tunisie T II, Barrage d'Hencher Sedd*, Tunis.
- Khorchani S. (2017), *Le Jebel Demmer et le Jebel Labiedh dans l'antiquité : Approche archéologique et historique*, sous la direction de Ahmed M'charek, F.S.H.S.
- Lebœuf J. (1903), « La colonisation romaine de l'extrême sud Tunisien », *cahiers de Tunisie*, T.X.
- Pervinquier L. (1909), « Le sud Tunisien », dans *Revue de géographie annuelle*.
- Pervinquier L. (1912), *La tripolitaine interdite*, Ghadamès, librairie hachette, Paris.
- Trousset P. (1974), *Recherches sur le limes tripolitanus du Chott El-Djérid à la frontière Tuniso-libyenne*, Paris.

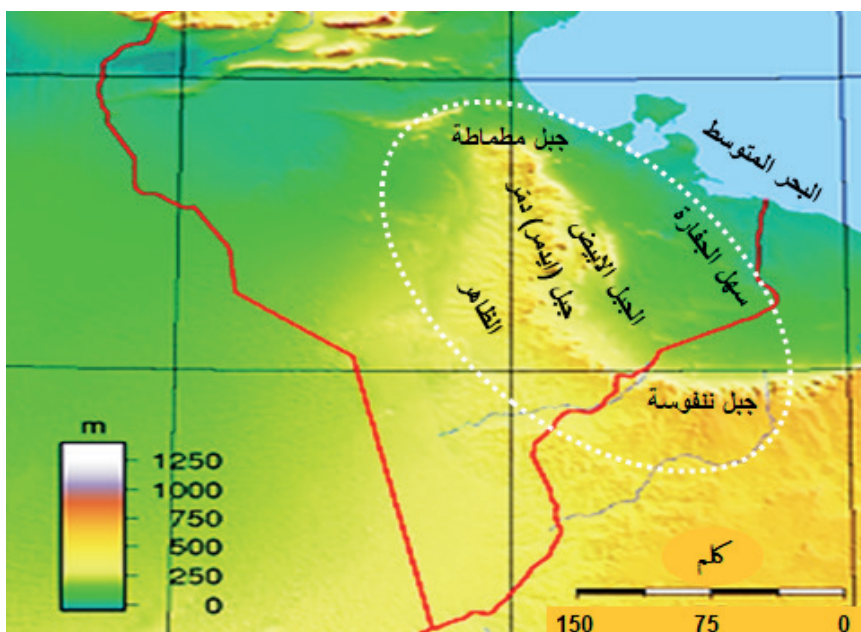
التاسع (XV-VII م)، فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، الطبعة الأولى بنغازي - ليبيا.

دونالد ر (هيل)، 2004، العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة د. أحمد فؤاد باشا، عالم المعرفة، الكويت.

المراجع باللغات الأجنبية

- Ben Fraj T., Ben Ouezdou H. et Boukhchim N. (2019), « Le Dahar septentrional : le milieu naturel et son aménagement », *Revue Tunisienne de Géographie (R T G)*, numéro spécial, «Les régions de montagne du Sud de la Méditerranée: diversités, mutations et risques», Tunis, pp. 51-102.
- Ben Ouezdou H. et Trousset P. (2009), « Aménagements hydrauliques dans le Sud-Est tunisien ; In Contrôle et distribution de l'eau dans le Maghreb antique et médiéval, Actes de colloque, Tunis, 22-25 mars 2002 ; Collection de l'École Française de Rome.
- Ben Ouezdou H., Abderrahmen A., Abbassi M., Ben Fraj T., Calianno M., Fallot J.-M., Milano M. et Reynard E. (2018), « Analyse de l'événement pluviométrique intense du 11 novembre 2017 et ses effets sur le système hydraulique des Jessour (Sud-est tunisien) », *Actes du XXXI^e Colloque de l'Association Internationale de Climatologie*, Nice.
- Bonvallet J. (1979), « Comportement des ouvrages de petite hydraulique dans la région de Médenine au cours des pluies exceptionnelles de mars 1979 » ; *Cah. ORSTOM ; Sér. Sci. Hum* ; vol. XVI (3).

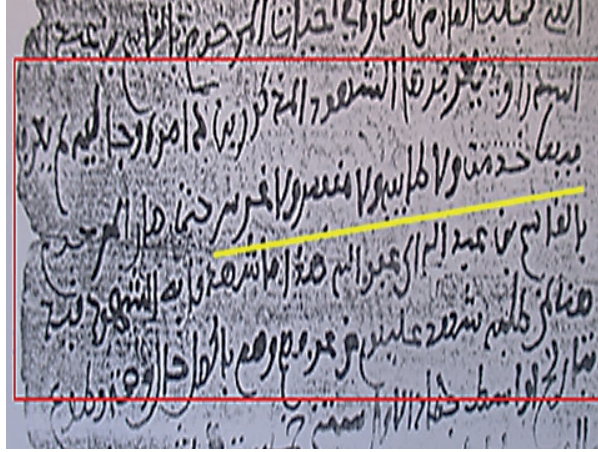
ملحق الوثائق



220

الوثيقة رقم 01: خريطة التضاريس⁽¹⁾،
(الجنوب الشرقي التونسي بتصرف)

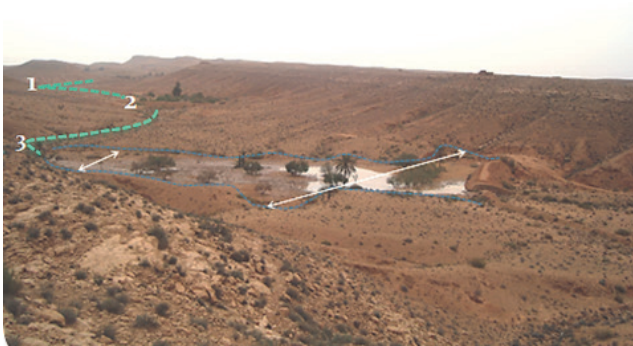
(1) الخريطة من موقع جغرافيا تونس ويكيبيديا
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D8%BA%D8%B1%D8%A7%D9%81%D9%8A%D8%A7_%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3



الوثيقة رقم 02: التمييز بين مكونات الجسر

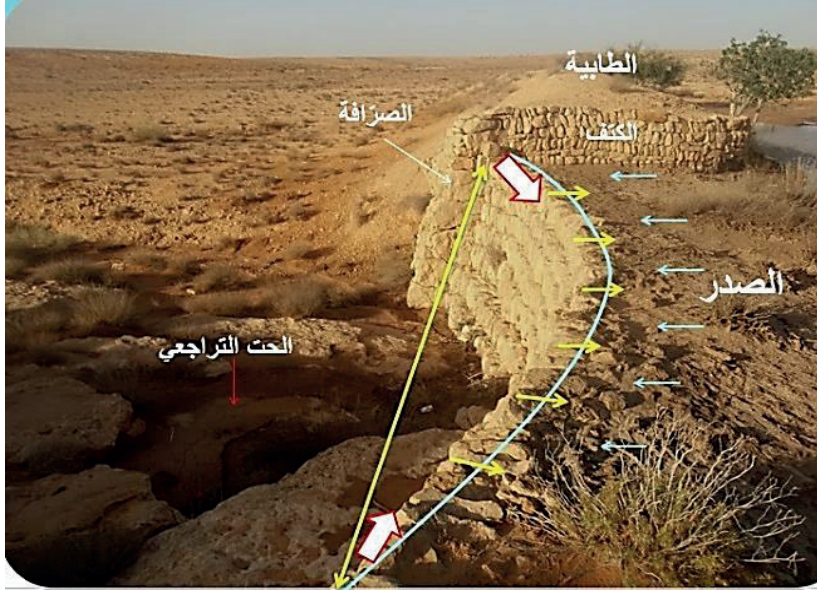
التي تجلب الماء من القارة في حياة المرحوم بالقاسم بن عبد الله السدراوي يعرفوها الشهود المذكورين دامرة وجالية لم يعرف فيها **خدمة** ولا **طابية** ولا **منفس** ولا **غرس** حتى صار المرحوم بالقاسم بن عبد الله الى عضو الله هذا ما شهدوا به الشهود قيد هنا لمن طلبه شهد عليهم من عرفهم وهم بأكمل حال وصحة وطوع بتاريخ أواسط جمادي الأول سنة خمس وعشر ومايتين وألف

تنزيل الوثيقة رقم 02



الوثيقة رقم 03: موضع جسر الطبايش غرب بلد سدرة من التواءات الواد

التحكم في مياه الأمطار بجنوب شرق البلاد التونسية منذ العصر الوسيط
من خلال الشواهد الأثرية والنصوص المصدرة



الوثيقة رقم 04: تقنية البناء

222



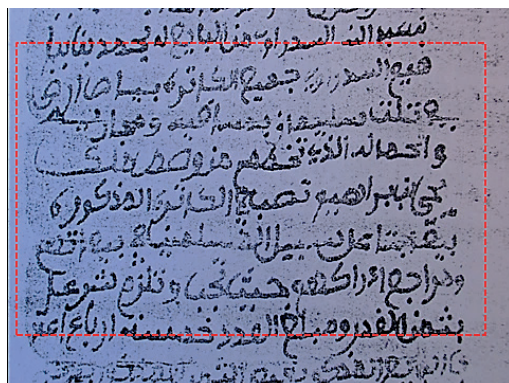
الوثيقة رقم 05: صرف الزائد



الوثيقة رقم 06: سمك المياه المحتجزة



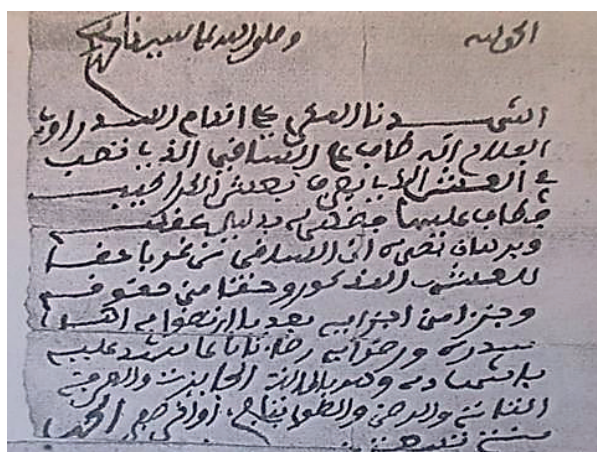
الوثيقة رقم 07 : حبس الكمية بحسب الحاجة



الوثيقة : رقم 08

بن عبد الله السدراوي من البايغ له يحمد بن برا
هيم السدراوي جميع الكاترة بياض ارض
في تات سليمان بمساقية ومجاريه
والحمالة الذي تخطم من وسط ملك
يحي بن براهيم تصب في الكاترة المذكورة
بيعا بتا على سبيل المسلمين في بيعاتهم
ومراجع ادراكهم حيث تجب وتلزم شرعا
.....
أوائل شوال من سنت تسعين ومائة والف

تنزيل الوثيقة رقم 08

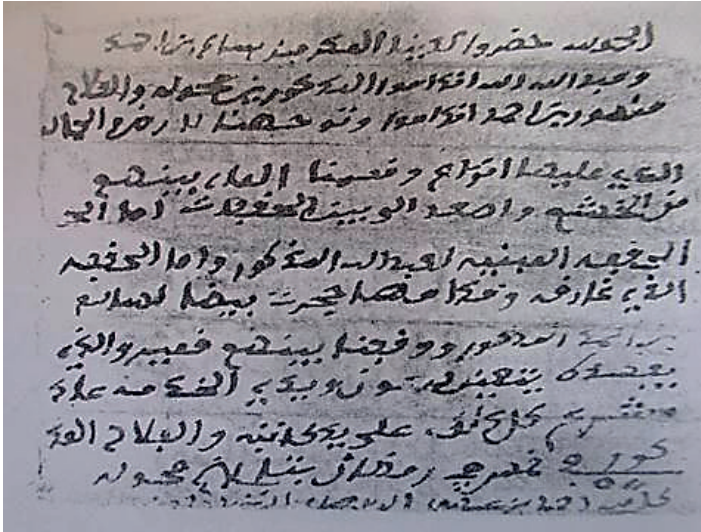


الوثيقة رقم 09: معاينة الخبير للحمالة

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد
 اشهدنا المكرم علي اندامو السدراوي
 الفلاح انه طاف على الساقى الذي تصب
 في العش الذي يعرف بعش الكراكيب
 فطاف عليها فظهر له بدليل عقله
 وبرهان بصره ان الساقى من غربا حقا
 للعش المذكور وحقا من حقوقه
 وجزا من اجزائه بعدما ارتضوا به اهل
 سدره ورضوا به رضا تاما بما شهد عليه
 باشهاده وهو بالحالة الجائزت والمعرفة
 التامة والرضى والطوع. وأواخر صفر الحب
 سنة تسعة

تنزيل الوثيقة رقم 09

225



الوثيقة رقم 10: تحديد الحمالة من قبل الخبير

الحمد لله حضر لدينا المكرمين سالم بن احمد
وعبد الله الله انداموا المذكورين محوله والفلاح
منصور بن احمد انداموا وتوجهنا لارض الحمالة
الذي عليها انزاع وقسمنا الماء بينهم
من الخشم واصعد الى بين الحقفات اما الح
الحقفة المبنية لعبد الله المذكور واما الحقفة
الذي غارقة وقدامها حجرت بيضا لسالم
بن احمد المذكور ووقفنا بينهم قمير والذي
يفسده يتعين له عون ويدي الخدمة عاد
ة شرع كل ذلك على يد كاتبه والفلاح المذ
كور في خمس في رمضان بتاريخ محوله
كاتبه احمد بن عيسى الرمضان السدراوي

تنزيل الوثيقة رقم 10

مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني خلال فترة حكم محمد الصادق باي 1859-1881 م

محمد اللواتي⁽¹⁾

ملخص

يهتم هذا المقال بمشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني، الذي قدّمه المهندس الفرنسي «بروسكي» إلى محمد الصادق باي سنة 1877 م، وتكوّن من عديد الفصول التي بيّنت حقوق وواجبات الطرفين. وهو يهدف إلى تشييد ساقية تحت الأرض تمتدّ بين آبار الشعبوني والمدينة، وترتبط بمنشآتها المائية الهامة، وتشيد خزّانان بشمال المدينة وجنوبها، قصد تأمين الكمّيات المائية اللازمة للسكّان.

الكلمات المفتاحية: مشروع، بئر، ساقية، فسقية، سبيل، خزّان، منشأة مائية.

Résumé

Cette étude concerne le projet d'alimentation de la ville de Sfax en eaux des puits de chaabouni, présenté par l'ingénieur français Broskiti pour Mohamed sadok Bey en 1877. Ce projet est composé de plusieurs articles qui précisent les droits et les devoirs des deux partis et qui concerne la construction d'une conduite souterraine entre les puits de chaabouni et la ville de Sfax et qui est reliée à ses installations hydrauliques importantes. D'autre part, il s'agit de la construction de deux réservoirs d'eau au nord et au sud de la ville pour assurer aux habitants les quantités nécessaires d'eau.

Mots clés : projet, puits, conduite, fesqiya, sbil, réservoir, installation hydraulique.

Abstract

This study concerns the project to supply the city of sfax with water from the chaabouni wells, presented by the French engineer Broskiti to Mohamed Sadok Bey in 1877. This project is made up of several articles which specify

(1) المعهد الوطني للتراث.

the rights and duties of the two started and concerns the construction of an underground pipe between the chaabouni wells and the city of Sfax and connected to its important hydraulic installations. On the other hand, it involves the construction of two water tanks north and south of the city, to provide residents with the necessary quantities of water.

Key words : project, well, pipe, fesqiya, sbil, reservoir, hydraulic installation.

المقدمة

احتوت مدينة صفاقس عديد المنشآت المائية الخاصة والعامة التي كانت تزود سكانها بمياه الشرب، لذلك شيدت المنشآت الخاصة وسط المساكن وكانت تزودها مياه المطر بشكل أساسي. كما ينتفع من مياهها أهل المسكن وحدهم، لأنها شيدت قصد تسديد حاجياتهم، وفق خطة فردية تهدف إلى حل مشاكلهم الخاصة. وأما المنشآت العمومية فقد شيدتها السلطة الحاكمة وأعيان المدينة قصد تلبية احتياجات السكان والمارة وعابري السبيل، وارتبطت بمعظم المنشآت المدنية والاقتصادية والاجتماعية على غرار المعالم الدينية والتعليمية والعسكرية والأسواق والساحات العامة والمدن والقرى المجاورة. وكانت تزودها مياه الأمطار لأن المدينة لا تحيط بها منابع مائية دائمة الجريان⁽²⁾.

228

وقد تواصلت هذه العملية خلال العصرين الوسيط والحديث، غير أنها منذ أواخر العصر الحديث تم إدخال تقنيات جديدة سهّلت عملية تزويد المدن بمياه الشرب. فكانت مدينة تونس أول المدن التونسية التي استفادت من هذه التقنيات، عندما زوّدت بمياه عيون زغوان وجقار بواسطة الضخ⁽³⁾. وتم تأسيس أول شركة مائية بالبلاد التونسية تشرف على هذه العملية. كما تم العمل على نشر هذه التقنية بمدن تونسية أخرى كان أولها مدينة صفاقس. لذلك تقدّم المهندس الفرنسي «بروسكي» بمشروع يتعلق بتزويد المدينة بمياه آبار الشعبوني. وي طرح هذا المقال عديد التساؤلات التي تمثّلت في محتوى مشروع تزويد المدينة بمياه آبار الشعبوني، وفي البحث عن العوامل التي مهّدت لهذا المشروع وموقف السلطة الحاكمة والسكان من إنجاز المشروع.

(2) تنتمي مدينة صفاقس للإقليم الجنوبي من البلاد التونسية، تتميز بعدم وجود منابع مياه دائمة الجريان وتتّصف بارتفاع نسبة ملوحة مياهها الجوفية، ويتذبذب كمّيات الأمطار. أنظر:

Sethom H. et Kassab A., (1981), p. 287-288.

(3) أ- و- ت- الدفتر رقم 2292، ص 1-20؛ ابن أبي الضياف، 1989، ج 4، ص 289-290.

أولاً: محتوى مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني ودواعيه

1- محتوى مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني

يتكوّن ملف مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني من ستّ ورقات مستطيلة الشكل يبلغ طول كلّ منها 29,5 سم وعرضها 21 سم، محفوظة بالأرشفيف الوطني التونسي، وكتبت بلغة عربية فصحي تخللتها بعض الألفاظ باللهجة العاميّة التونسية، وبخط مغربي واضح رسم بالحبر الأسود، وهو مشروع مائي تقدّم به المهندس الفرنسي «بروسكيتي» إلى محمد الصادق باي أثناء شهر نوفمبر 1877 م⁽⁴⁾. ثمّ ألحق بعدد الوثائق الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع. وقد كتبت الوثائق الأصلية باللغة الفرنسية وتمت ترجمتها إلى اللغة العربية، قصد عرضها على السلطة الحاكمة وأعيان المدينة وسكانها. ورغم محاولاتنا العديدة إلّا أنّنا لم نتمكن من العثور على الوثائق الأصلية التي كتبت باللغة الفرنسية ومخطّط مجرى الساقية وتوزّعها بوسط المدينة. ويظهر بأنّها ضاعت أو تمّ حفظها بإحدى الملفات الفرعية المتعلقة بالمدينة، لأنّ هذا الملف وجدناه في قسم النوازل والنزاعات عوضاً أن يكون مع المنشآت المائية، نتيجة قلة الدقّة التنظيمية التي يشكو منها الأرشفيف الوطني التونسي في بعض المواضيع. وقد تمثل هذا المشروع في دراسة ميدانية أنجزها المهندس الفرنسي «بروسكيتي»، حول تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني، قصد تقديمها للسلطة الحاكمة وتكوّنت من الطلبات التالية:

الطلب الأول: نطلب منحنا هكتارين أو ثلاثة هكتارات أرض قرب آبار الشعبوني لحفر آبار وتشبيد خزّان للماء.

الطلب الثاني: نطلب قطعة أرض على طول مجرى الساقية، تمتدّ بين آبار الشعبوني ومدينة صفاقس، يكون عرضها كافٍ لإنجاز الساقية، ولها القدر الكافي من الأرض على الجهتين الجانبيتين التي تمكن من إنجاز أشغال الحفظ والصيانة.

الطلب الثالث: نطلب أن يتمّ منحنا المايل القديم⁽⁵⁾، الخارب المتروك الموجود بجهة الجوف من المدينة، وقطعة أرض صغيرة حوله، تمكن من تشبيد

(4) أ-و-ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 88.

(5) يعرف بالمايل القديم والمايل العتيق وفسقية البرج نسبة للبرج الذي يتخلّل الزاوية الشمالية الغربية من سور المدينة.

Louhichi A., (1997), p. 91-131.

خزنة كبيرة تبلغ سعتها تسع آلاف متر مكعب من الماء، يتم استغلالها أثناء تزويد الجهة التي يسكنها المسلمون من أهالي المدينة بمياه الشرب.

الطلب الرابع: نطلب منحنا قطعة أرض ثانية بجهة حومة الإفرنج قصد تشييد خزنة ثانية.

الطلب الخامس: نلتزم بأن نبيع الماء أثناء مختلف الأوقات كل أربعين لترا بخربوتين بدلا عن الربع ريال والثلاثة أرباع الريال التي يباع بها الماء الآن.

الطلب السادس: نلتزم بأن نترك السكان يملئون المياه من الآبار ومن المواجه والفسيقيات العمومية التي مازالت تحتفظ بها المدينة كما كان سابقا.

الطلب السابع: نطلب من باب الإعانة أنه إذا تم اكتشاف مكان ثان يحتوي مياهها عذبة وتكون أقرب من مكان آبار الشعبوني، يتم منحه إلينا ولا يعطى إلى أحد غيرنا، وأن تكون المدة الممنوحة 49 سنة. ثم قدم هذه الطلبات ووعد بالمجيء إلى تونس قصد شرحها وتقديم تقرير مفصل وواضح حولها. كما بين بأن قدومه إلى تونس مرتبط بقبول مشروعه لأن وضعيته المادية لا تسمح له بتحمل مصاريف السفر إلا إذا تأكد من قبول مشروعه وضمن انجازه لدى السلطة الحاكمة⁽⁶⁾.

230

نرى بأن الدراسة التي قدمها المهندس الفرنسي إلى محمد الصادق باي جاءت واضحة، لأنها شملت مختلف الجوانب التي يتطلبها إنجاز المشروع مثل الأرض والتكلفة وثمان بيع المياه ومجانية ملء المياه من المنشآت العمومية التي تحتويها المدينة. وحددت المدة الزمنية المتعلقة بالإنجاز والاستغلال وبيّنت حقوق وواجبات المهندس والسكان.

2- دواعي وفوائد تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني

تظهر بعض المؤلفات التاريخية والأرشيفية والأثرية بأن مدينة صفاقس تفتقد لمصادر المياه العذبة، لذلك عانى سكانها منذ نشأتها من قلة مياه الشرب، ويتضاعف هذا التعب أثناء فصل الصيف وأوقات الجفاف، لأن مياه الأمطار شكلت المصدر الأساسي لشرب سكانها. وقد شكلت ظاهرة نقص مياه الشرب بالمدينة إحدى الدواعي الأساسية التي شجعت على التفكير في إنجاز هذا المشروع، والبحث عن حل مناسب يمكنهم من توفير الكميات المائية اللازمة لهم. كما ساهمت التقنيات الجديدة التي تم استعمالها في إصلاح ساقية زغوان

(6) أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 88.

وجلب مياهها نحو مدينة تونس، ووجود مهندسين أجانب لهم الخبرة الكافية في هذا المجال، عاملاً أساسياً يهدف إلى نشر هذه التجربة في عديد المدن التونسية. لذلك ساهمت هذه الدواعي مجتمعة في عرض مشروع إنجاز ساقية تجلب مياه آبار الشعبوني نحو مدينة صفاقس على السلطة الحاكمة. ثم توجه المهندس الفرنسي بروسكيتي نحو المدينة قصد معاينة الموقع وأخذ المقاييس اللازمة، فتأكد من إمكانية إنجاز هذا المشروع⁽⁷⁾.

ويهدف إنجاز مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني إلى تحقيق عديد الأهداف التي تمثل أبرزها في تمكين سكان المدينة من تخفيض المصاريف المتعلقة بنقل المياه، وتقليل الوقت في نقلها خاصة أثناء السنوات الجافة. وتوفير مياه الشرب العذبة لسكان المدينة بطريقة متواصلة، وتجنبهم شرب مياه الفسقيات التي كانوا يعتمدون عليها⁽⁸⁾. لذلك تعتبر هذه الأهداف منشودة لدى جميع سكان مدن البلاد التونسية وليس لسكان مدينة صفاقس وحدها.

3- تكلفة إنجاز المشروع وطريقة دفعها

بعد معاينة المهندس الفرنسي مكان آبار الشعبوني وقيس المسافة التي تفصلها عن مدينة صفاقس، قدر تكلفة إنجاز مشروع جلب المياه نحو المدينة بحوالي 150 ألف ريال. وتمثلت مكونات المشروع في إنجاز ساقية تربط بين الجهتين وبناء ثلاثة خزانات وعدة سبائل وتشبيد عدة بنايات وشراء محرّكات وكل اللوازم التي يتطلبها المشروع. كما تتطلب هذه العملية جمع مبلغاً مالياً من قبل سكان المدينة، يخصّص لصيانة وحفظ الساقية وإدارتها على طول السنة⁽⁹⁾.

4- بعض المعطيات المتعلقة بأسعار بيع الماء بمدينة صفاقس أثناء فترة حكم محمد الصادق باي

حاول المهندس الفرنسي أن يقنع أعيان المدينة بأهمية إنجاز المشروع، لذلك قدّم مقارنة بين أسعار بيع الماء بمدينة صفاقس قبل إنجاز المشروع وبعد إنجازه، مبيناً بأن هذا المشروع يمكن أن يوفر لسكان المدينة الرّيح في المال وفي الوقت الذي يخصّص لجلب المياه. وبين بأن كل عائلة من سكان المدينة كانت

(7) أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف

19/523 مكرّر، وثيقة عدد 218.

(8) أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف

19/523 مكرّر، وثيقة عدد 218.

(9) أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف

19/523 مكرّر، وثيقة عدد 218.

تشتري مائة لترا من الماء في كل يوم، وتباع هذه الكمية من الماء عندما تكون منشآت المدينة تحتوي كميات مائية وافرة بستة ريالات وربع ريال للمتر المكعب، وبأثنى عشر ريالا ونصف للمتر المكعب عندما تقل الكميات المائية. ويتوفر الماء خلال ستة أشهر ويقل أثناء الستة الأشهر الأخرى. لذلك يصرف سكان مدينة صفاقس 113125 ريالا خلال الستة أشهر الأولى، و226250 ريالا خلال الستة أشهر الثانية، و339375 ريالا خلال كل سنة.

بعد انجاز المشروع تصبح المياه متوفرة على طول السنة بثلاثة ريالات للمتر المكعب الواحد، كما تبلغ تكلفة مصاريفها 124061 ريالا في كل سنة، فإذا تم طرح هذا المبلغ من جملة المصاريف تكون المزايا في كل سنة 215314 ريالا. لذلك قد يوفر انجاز هذه المشروع مبلغا ماليا مهما يساعد فقراء المدينة على تحمل مصاريف تكلفة المياه، لأن أثريائها يملكون مواجل خاصة في مساكنهم⁽¹⁰⁾. وتظهر هذه المعطيات بأن تنفيذ المشروع يوفر الربح في المال ويقلص من تعب السكان ويضمن استمرارية تواجد المياه.

5- طريقة تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني

تمثلت طريقة جلب الماء في تشييد ساقية تحت سطح الأرض، تمتد بين الآبار وفسقيات المدينة، يبلغ عمقها متر واحد، ثم تتفرع وتتوزع في أنهج المدينة بواسطة قنوات، تتصل بعدة حنفيات يتم تشييدها بأماكن مختلف من المدينة، على غرار حنفيات أنهج مدينة تونس⁽¹¹⁾. وحسب المعطيات التي قدمتها الدراسة الأولية المتعلقة بمعاينة المسافة الفاصلة بين الآبار والمدينة، يتم تثبيت محرّكين بخاريين بالآبار، قصد استخراج المياه وضخها نحو المدينة. وقد بينت الاختبارات الأولى بأن آبار الشعبوني يمكن أن توفر 50 ألف لترا من الماء، خلال اثني عشر ساعة، وهي الكمية المائية التي يحتاجها سكان المدينة يوميا دون انقطاع⁽¹²⁾.

6- المنشآت المائية المرتبطة بمجرى الساقية

أ- آبار الشعبوني: يتم حفر مجموعة آبار حذو آبار الشعبوني، ويتم تشييد خزان كبير قصد تخزين المياه المستخرجة من الآبار بواسطة الضخ. ثم

(10) أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 223.

(11) محمد اللواتي، 2013، ص 94-164؛ ص 260.

(12) أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 218.

تمتدّ الساقية بين الخزّان والمنشآت المائية القديمة والجديدة التي يتطلّبها إنجاز المشروع. فجاء هذا المشروع تقليدا لمشروع المهندس الفرنسي فيليب فايا الذي قدّمه إلى محمد الصادق باي، بتاريخ 12 شوال 1285 هـ / ديسمبر 1868 م، والذي يهدف إلى تزويد مدينة تونس بمياه عيون زغوان وجقار، وبيعها لمن أراد من السكّان بشروط معيّنة وترك مياه المنشآت العمومية مجّانا.⁽¹³⁾

ب- فسقية علي باي: شيّدها علي باي الذي حكم البلاد التونسية بين سنتي 1759-1781 م. وأمر بأن تكون تكلفة أشغالها من مداخيل الزيتون الجالي بتلك المنطقة. وهي تقع على بعد 1,5 كلم غرب سور المدينة، بدأت أشغالها (أوائل شوال سنة 1186 هـ وانتهت أواخر ربيع الثاني سنة 1188 هـ)/(منتصف نوفمبر 1772 - أوائل ماي 1774 م)⁽¹⁴⁾. وأمر قايد بلد صفاقس بكار الجلّولي بالإشراف على جفرها الذي أحضر أهل الخبرة من المهندسين على غرار أمين البناء سعيد القطي وأسطى طاهر المنيف⁽¹⁵⁾.

وهي شبه مستطيلة الشكل، يبلغ طول الجهة الشماليّة 58,15 م والجهة الجنوبيّة 57,40 م والجهة الغربيّة 60,55 م والجهة الشرقيّة 61,40 م. وتكوّن من بركة التصفية وبركة تجميع المياه وصهرج ملء الماء. وتمّ تشييد بركة تصفية المياه من الجهة الشماليّة، مستطيلة الشكل، يبلغ طولها 58,15 م وعرضها 15,10 م. وتخلل الجهة الشرقيّة باب يفضي إلى مدرّجات تكوّن من ستّ درجات حجرية تمكّن من النزول إلى وسطها. واحتوت الجهة الغربيّة ثلاث فتحات، يبلغ طول كلّ منها 70 سم وعرضها 60 سم وعمقها 1,60 م والبقية مملوءة بالتّراب. وتخلل جدارها الجنوبي عشر فتحات، هدفها تمرير المياه من بركة التصفية إلى بركة التخزين الكبيرة.

(13) Louati M., « La vente d'eau des sources de Zaghouen et de Joggar à La ville de Tunis d'après un document d'archives sous le règne de Mohamed Sadok Bey 1859-1881 », *Peuplement, Société et Pouvoir dans le monde musulman, Hommage au Pr. Brahim Jadla*, Ministère de l'Enseignement supérieur Et de la Recherche scientifique - Université de la Manouba, Faculté des Lettres, des Arts et des Humanités de la Manouba, Laboratoire: ESICMED. LR 11 ES 28, LATRACH EDITION 2021, p. 227-248.

(14) Mahfoudh F., (1988), p. 208.

(15) محمود مقديش، 1988، ج 2، ص 180-186.



صورة عدد 1: مشهد عام لفسقية علي باي.

234

شيّدت بركة التخزين جنوب بركة التصفية، يبلغ طول جهتها الشمالية 55,90 م وجهتها الجنوبية 49,20 م وجهتها الشرقية 43,30 م وجهتها الغربية 42,80 م. ويبلغ عمقها 4,40 م، وسمك جدرانها 70 سم. وتخلل زاويتها الجنوبية الشرقية باب نصف دائري الشكل من الجهة العلوية، يفتح على مدرّجات حجرية. وتم بناء صهريج ملء الماء حذو بركة التخزين، مستطيل الشكل، يبلغ طول الجهة الغربية 43,30 م والجهة الشرقية 44,90 م والجهة الشمالية 6,90 م والجهة الجنوبية 6,90 م، ويبلغ عمقه 4,70 م. تخللته ثلاثة أبواب من الجهة الشرقية وباب وحيد من الجهة الجنوبية، وهي نصف دائرية الشكل من الجهة العلوية. وتمت تغطية هذه المنشأة بسقف مستو من الجهة الخارجية، تخللته 22 فوهة لاستخراج المياه، مشكلة صفين متوازيين يحتوي كل منهما 11 فوهة. وقد تم تشييد مختلف عناصر المنشأة بحجارة الدبش صغيرة الحجم وكسيت بخليط صلب يمنع تسرب المياه وسط الجدران والأرضية ويتكوّن من خليط الرّمل والجير ودقيق الآجر.

ت- فسقية مصطفى خوجة: شيّدها مصطفى خوجة على بعد حوالي 500 م شمال الباب الجبلي، وسط حديقة كانت في الأصل مكان مقبرة المدينة⁽¹⁶⁾، تحيط بها اليوم بنايات حديثة من الطراز الجيد. وتمّ بناؤها خلال النصف الثاني

(16) Guérin V., (1860), t. 1, p. 157 ; Mahfoudh F., (1988), p. 198 ; Mahfoudh F., (1991), p. 19.

من القرن الثامن عشر ميلادي بين سنتي (1759-1800 م)⁽¹⁷⁾، من ماله الخاص، قصد توفير مياه الشرب لسكان المدينة وتدعيم مكانته لدى السلطة ونيل الأجر والثواب. وهي تتكوّن من بركتي تصفية وتخزين وصهريج ملء المياه. وتمّ تشييد بركة تصفية المياه من الجهة الشمالية، دائرية الشكل، يبلغ قطرها 9,30 م وعمقها 6 م إلى الرّدم. تتخلّلها فتحة من الجهة الشماليّة، هدفها دخول مياه الوادي وسط هذه المنشأة. تتخلّلها ستّ دعّامات من الجهة الداخلية.



صورة عدد 2: مشهد عام لفسقية مصطفى خوجة.

وشيّدت بركة تخزين المياه بين بركة التصفية وصهريج ملء المياه، يبلغ قطرها 21,50 م وعمقها 6 م إلى مستوى الرّدم. يتوسّط جدارها الشمالي فتحة مستطيلة الشكل وتتخلّلها 10 دعّامات نصف اسطوانيّة الشكل من الدّاخل. وتمّ تشييد صهريج السّقياية من الجهة الجنوبيّة، مستطيل الشكل يبلغ طوله 10,15 م وعرضه 4,75 م، مغطى بسقف مسطح من الخارج، تتخلّله أربع فوهات. كما تخلّل جداره الجنوبي نافذة تتسع 60 سم وارتفاعها 50 سم هدفها تصريف المياه نحو الخارج عند الفيضان. وتزوّد هذه المنشأة مياه السيول ووادي القناطر. وكسيت الجدران الداخليّة والخارجيّة بخليط الرّمّل والجير ودقيق الآجر⁽¹⁸⁾.

(17) محمد اللواتي، «معطيات جديدة حول فسقيتي علي باي ومصطفى خوجة وسبيل أبي شويشة بمدينة صفاقس من خلال دفتر أوقاف رقم 17437»، إفريقية عدد 25، المعهد الوطني للتراث 2022، ص 12، 14، 15.

(18) Mahfoudh F., (1988), p. 198.

ث- خزان ماء الجهة الشمالية: يتم تشييد خزان مياه حذو الماغل القديم⁽¹⁹⁾، الذي يعرف بفسقية برج القصر، يقع بالجهة الشمالية من المدينة، وسط قطعة أرض صغيرة تحاذيه، تبلغ سعته تسع آلاف متر مكعب من الماء، تمكن من تزويد سكان المدينة بمياه الشرب، ويشبه خزان الماء الذي تم تشييده حذو باب سيدي عبد الله بمدينة تونس.

ج- فسقية البرج: تقع فسقية البرج بالزاوية الشمالية الغربية من المدينة لصق سورها، وهي تتكوّن من بركة تصفية دائرية الشكل يبلغ قطرها من الدّاخل 8,40 م ومن الخارج 10 م وعمقها حوالي 3,50 م، تتخلّلها ستّ دعامات من الجهة الخارجية نصف اسطوانية الشكل. وبركة تخزين دائرية الشكل يبلغ قطرها من الجهة الداخلية 31,50 م ومن الجهة الخارجية 33,30 م وعمقها حوالي 3 م، تتخلّلها دعامات من الجهتين الداخلية والخارجية نصف اسطوانية الشكل. وصهريرج ملء المياه يلاصق بركة التخزين من الجهة الجنوبية مستطيل الشكل يبلغ طوله 10 م وعرضه 2,50 م، وتمتّ تغطيته بقبو طولي شيدّ بحجارة الدبش صغيرة الحجم. وتمّ بناء المعلم بحجارة صغيرة الحجم، وكسيت بخليط الرّمل والجير ودقيق الفخار. وتمّ اكتشاف هذه المنشأة أثناء أشغال حفرة حدثت في صيف سنة 1996، مكنت من العثور على عديد الشواهد الأثرية، ورجّحت فترة تشييدها مع بعض المعطيات التاريخية بين منتصف القرن التاسع والقرن الثاني عشر ميلادي⁽²⁰⁾. غير أنّنا نعتقد بأنّ هذه المنشأة تمّ تشييدها أوائل الفترة الأغلبية، لأنّ المدينة لا يمكن تظلّ خالية من المنشآت المائية، واحتوت سوى مواجل الجامع الكبير التي نرجّح تشييدها مع الجامع أثناء هذه الفترة. كما وصفها ابن عبد العزيز بالسقاية العتيقة، وهي إشارة تدلّ حسب نظرنا إلى تشييدها أثناء فترة قديمة، ويبيّن بأنّ استغلالها تواصل إلى بعد منتصف القرن الثامن عشر ميلادي⁽²¹⁾. وأكدت الوثائق الأرشيفية هذه المعطيات.

(19) يقصد فسقية البرج التي تقع بالزاوية الشمالية الغربية من المدينة لصق سورها. قال ابن عبد العزيز «وأنشأ بمدينة صفاقس سقاياته التي ظهرت بركتها وحمد أثرها وحسنت عائداتها، وذلك أنّ السقاية العتيقة لا تقي بسقايها فيحتاجون أيّام المصيف إلى امتياح آبار بعيدة فأنشأ أيّده الله هذه السقاية على مسيل وادي عقارب»، أنظر: ابن عبد العزيز، 1970، ج 1، ص 314.

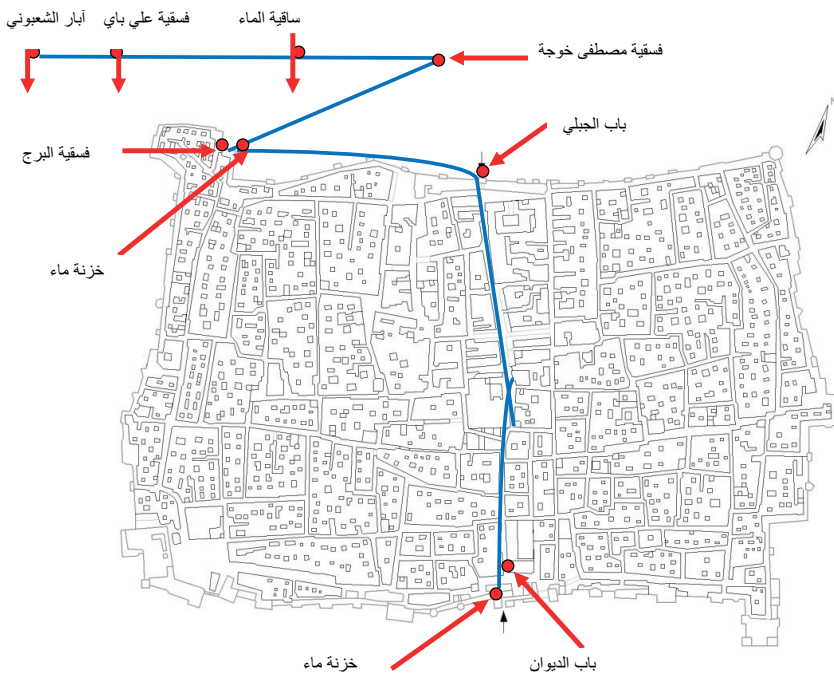
(20) Louhichi A., (1997), p. 91-131.

(21) ابن عبد العزيز، 1970، ج 1، ص 314.



صورة عدد 3: مشهد عام لفسقية البرج.

ح- خزان الجهة الجنوبية: يتم تشييد خزان مياه خارج باب الديوان وسط قطعة أرض تمنحها الدولة، يشبه الخزان الشمالي، قصد تخزين المياه وتوزيعها على سكان حومة الإفرنج بالجهة القبليّة من مدينة صفاقس. ورغم عدم معرفتنا بمكوّنات وأشكال الخزانات التي اقترحها المهندس الفرنسي إلا أنّ المعطيات الثرية بيّنت بأنّها دائرية الشكل وكبيرة الحجم، ويتمّ تشييدها بالحجر وتكسى بخليط الإسمنت الذي يمنع تسرّب المياه في الجدران والأرض.



صورة عدد 4: مخطط مبسّط لمجرى ساقية آبار الشعبوني بمدينة صفاقس.

ثانيا : تعطل إنجاز مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني وموقف السلطة الحاكمة والسكان

1- أسباب تعطل إنجاز مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني

تظهر بعض المعطيات الأرشيفية بأنّ مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني نال قبولا كبيرا لدى السلطة الحاكمة وعامل الجهة محمد البكوش وتم تدعيمه من قبل القنصل الفرنسي. كما اقتتعت مختلف الأطراف المعنية بأهميته، لأنه يساعد سكان المدينة على توفير مياه الشرب، ويمكنهم من توفير المال وريح الوقت. لذلك تلقى المهندس المسؤول وعدا بالدعم المادي من قبل مختلف الجهات المسؤولة، كما تلقى وعدا من قبل عائلته بنيل سلفة قدرها مائة ألف فرنكا. لكن نشوب الحرب في الشرق، وخوف المهندس وعائلته والأطراف المسؤولة من انتقالها إلى بلاد المغرب، جعلها تتراجع عن دعمها لإنجاز هذا المشروع خوفا من ضياع أموالها فتعطل إنجازها⁽²²⁾.

2- موقف السلطة الحاكمة من مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني

لقد أبدت السلطة الحاكمة رغبة كبيرة في إنجاز مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني، الذي يمكن سكانها من توفير الكميات المائية اللازمة لهم، ويقلص من مصاريفهم التي ينفقونها في جلب المياه ويمكنهم من الربح في الوقت الذي يقضوه في جلب الماء. لذلك طلبت من عاملها بصفاقس عرضه على أعيان المدينة وسكانها قصد معرفة موقفهم من المشروع برمته. ويظهر بأنّ الموافقة التامة للسلطة الحاكمة على هذا المشروع، جاءت بعد إنجاز مشروع تزويد مدينة تونس بمياه عيون زغوان وجقار بواسطة الضخ. ومعرفة نتائج الإيجابية التي حققها لسكان المدينة وتخلصهم من ظاهرة العطش وشرب مياه الأمطار.

3- موقف سكان مدينة صفاقس من تزويدهم بمياه آبار الشعبوني

عندما أكمل المهندس الفرنسي دراسة مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني، قدّمها إلى عامل صفاقس الذي عرضها على سكان المدينة. ورغم موافقتهم على المشروع الذي طرحه عليهم، إلا أنهم أبدوا رغبتهم في انجازه بأنفسهم ورفضوا تنفيذه من قبل المهندس الفرنسي. فبيّنوا بأنّ المبلغ

(22) أ-و-ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 88.

المالي الذي يتطلبه انجاز المشروع يمكن جمعه من سكّان المدينة الذين يبلغ عددهم حوالي 10 آلاف ساكن، واقترحوا فرض أداء سنوي قدره عشرة ريالات على السكّان الذين تكون وضعيتهم المادية ضعيفة وعشرون ريالاً على السكّان الذين تكون وضعيتهم المادية متوسطة وثلاثون ريالاً على السكّان الميسورين. كما بيّنوا بأنّ هذا المبلغ يستطيع سكّان المدينة تحمّله، ويعتبر قليلاً مقارنة مع المصاريف التي تتفّقها كل عائلة في جلب المياه بواسطة حيواناتهم. ويمكن أن يحقق هذا المشروع عديد المنافع للسكّان ويجنبهم التعب الذي يعانون منه.

كما طلب أعيان المدينة مساعدة السلطة الحاكمة على تنفيذ هذا المشروع، والسّماح لهم بإنجازه بأنفسهم، وأن تكون مدّة استغلال الآبار خمسون سنة، والتزموا بتشكيل شركة خاصّة في هذا الغرض. واشترطوا على أنفسهم إذا لم يبدأ العمل خلال ثلاثة سنوات يسقط حقهم فيها. وعندما تمضي الخمسون سنة المحدّدة تصبح الدولة مخيرة بين دفع نصف ثمن القنوات والآلات والبناءات ويصبح كل ذلك ملكاً لها، أو تجدد لهم الرّخصة مدّة عشرين سنة أخرى. وعند انتهاء المدّة الثانية يصبح كل ذلك ملكاً للدولة التونسية، ولا يحقّ للشركة مطالبتها بدفع شيء من ثمنه. كما طلب أعيان المدينة بأن تقدّر الدولة التونسية المنافع العظيمة التي يمكن أن يحققها إنجاز هذا المشروع. ثمّ بيّنوا بأنّ هذا الطلب ترافقه صور وبيانات تتعلق بالمعينة وملف يتضمّن دراسة مراحل المشروع. وعبروا عن أملهم الكبير في قبول طلبهم لدى السلطة الحاكمة⁽²³⁾.

240

4- تدخل القنصل الفرنسي وحثّ السلطة التونسية على تزويد المدينة بمياه آبار الشعبوني

بعد انقضاء فترة زمنية قصيرة تجددت رغبة المهندس الفرنسي في إنجاز مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني، فتدخل القنصل الفرنسي لدى السلطة التونسية وحثّها على ضرورة الاهتمام بهذا المشروع، لأنّه يحل إشكالية نقص مياه الشرب بمدينة صفاقس. كما بيّن بأنّ سكّان المدينة وأعيانها متفقون على ضرورة إنجاز هذا المشروع، ونبّه إلى رغبتهم في إنجازه بأنفسهم، ومعارضتهم لإنجازه من قبل الأجانب. وقد بيّنوا بأنّ المدينة تحتوي عشرة آلاف ساكن، فإذا تم فرض 10 ريالات على كل ساكن يتم تجميع مائة ألف ريالاً مع إضافة دخل أوقاف الفسقيتين، فيمكن أن ينجزوا هذا المشروع بأنفسهم ويضمّنوا مبلغاً مالياً يوظّف لصيانة القنوات وحفظها. ويمكن بهذا العمل تزويد السكّان بالمياه مجاناً وليس بالمال. لذلك ينتظر السكّان موافقة

(23) أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 218.

السلطة الحاكمة على هذا الاقتراح وتكليف عامل الجهة بتحمّل مسؤولية تسجيل السكّان وتجميع المال وإدارة المشروع⁽²⁴⁾. لذلك نرى بأنّ القنصل الفرنسي يرغب في تنفيذ المشروع من قبل المهندس الفرنسي وإن تعذّر ذلك يمكن للسكان أن ينجزوه لأنّ نتائجها إيجابية.

5- رغبة أحد الإيطاليين في نيل مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني وتدخل عامل الجهة

يبدو بأنّ تأخّر المهندس الفرنسي في إنجاز مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني أدّى إلى قدوم مهندس إيطالي إلى البلاد التونسية وحاول نيل إنجاز هذا المشروع، لأنّه تقدّم بطلب إلي محمد الصادق باي، تضمّن رغبته في جلب مياه آبار الشعبوني وبيعها لسكان المدينة بثمن معيّن. فصدر أمر علي نصّ بعرضه على سكّانها بتاريخ 5 جمادى الثانية 1296 هـ / 25 ماي 1879 م، قصد معرفة رأيهم حول هذا المشروع. فاجتمع أعضاء المجلس الشرعي والمشايخ وأعيان البلاد بالجامع الأعظم قصد اتّخاذ رأي جماعي موحد حول هذا الموضوع. فاتفق الجميع على أهميّة المشروع الذي تحتاجه المدينة، وأبدوا رغبتهم في إنجازها بأنفسهم ورفضوا إنجازها من قبل الأجانب. كما اتفقوا على أن يتولّوا تزويد مدينتهم بمياه آبار الشعبوني، وأن لا يشاركهم فيها أحد. واتفقوا على انتخاب مجموعة منهم، قصد الذهاب إلى الحاضرة ومقابلة الوزير الأكبر وتقديم مقترحاتهم⁽²⁵⁾. ثمّ وجّهوا أربعة أشخاص منهم قصد شرح وعرض الثلاثة فصول الآتية:

الفصل الأوّل: إنّه يطلبون اختصاصهم بجلب مياه آبار الشعبوني دون غيرهم، وأن لا يشاركهم أحد في ذلك وإن كان من الإيالة التونسية. ويرغبون في دفع جميع المصاريف من مالهم الخاص، يوزّعونها على كافة سكّان المدينة، كل حسب وضعيته الماديّة، ويكون خلاصه على أربعة أقساط. ويتمّ دفع قسطا أثناء كلّ ستة أشهر.

الفصل الثاني: يطلبون الفضل صدور الإذن بتوجيه مهندس الماء لقيس المسافة الفاصلة بين الآبار والمدينة، وتحرير قائمة في مختلف المواد والآلات وتقدير المصاريف اللازمة للمشروع.

(24) أ-و-ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 20.

(25) أ-و-ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 217.

الفصل الثالث: يطلبون الفضل بأن تكون الفسقيتان اللتان بالمدينة سقاية واحدة مع آبار الشعبوني بعد جلب مياهها⁽²⁶⁾.

رغم تكوّن طلب المهندس الإيطالي من ثلاثة عناصر أساسية، إلا أنّها شملت معظم المسائل اللازمة التي يتطلبها إنجاز المشروع. وتشابهها مع طلبات المهندس الفرنسي وسكان مدينة صفاقس دليل واضح على انتشار تقنية توزيع المياه بواسطة الضخ في أوروبا ووصول صداها إلى البلاد التونسية.

6- طلبات أهالي صفاقس المتعلقة بمشروع تزويد مدينتهم بمياه آبار الشعبوني

وجّه عامل صفاقس اللّواء حسين الجلولي مراسلة بتاريخ 9 شعبان سنة 1296 هـ / 27 جويلية 1879 م إلى الوزير الأكبر مصطفى خزندار تحتوي مطالب الأهالي المتعلقة بمشروع تزويد مدينتهم بمياه آبار الشعبوني بعد أن أرسل إليه مطالبهم في مراسلة سابقة تعلّقت بهذا المشروع، وتكوّنت من ثلاثة فصول. غير أنهم أدخلوا بعض الإضافات في محتواها فأصبحت تتكوّن من أربعة فصول كما يلي:

الفصل الأوّل: يطلبون اختصاصهم بجلب مياه آبار الشعبوني دون غيرهم، وأن لا يشاركونهم في ذلك أحد، وإن كان من سكان الإيالة التونسية. ويرغبون في دفع جميع المصاريف من مالهم الخاص، يوزعونها على كافة سكان المدينة، كل على حسب وضعيته المادية، ويكون خلاصه على أربعة أقساط، يدفع في كلّ ستة أشهر قسطا.

الفصل الثاني: يطلبون الفضل صدور الإذن بتوجيه مهندس الماء لقيس المسافة الفاصلة بين الآبار والمدينة، قصد معاينة الموقع وتحرير قائمة في مختلف المواد والآلات وتقدير المصاريف اللازمة للمشروع.

الفصل الثالث: يطلبون الفضل بأن تكون الفسقيتان اللتان بالمدينة سقاية واحدة مع آبار الشعبوني بعد جلب مياهها، وقد وجّهنا لسيادتكم مراسلة في الغرض بتاريخ 12 جويلية 1879 م. وأن تصرف الأموال المتبقية من دخل سبيل سيدي علي أبي شويشة وريع وقف المجاهدين وريع وقف المارستان الجديد على مختلف احتياجات الفسقيتان لأنّ أوقافهما غير كافية. وأن يتم تعيين وكيل على أوقاف المنشآت المذكورة بأمر مطاع خارج عن جمعية الأوقاف.

(26) أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 217.

الفصل الرابع : تتمثل طريقة تزويد المدينة بمياه الشرب في بناء خزانة حذو آبار الشعبوني، وتشبيد خزانة حذو باب الجبلي، ومد ساقية بين الآبار والخزانة. ويتم استخراج المياه وضخها بواسطة محرك بخاري، ويتحمل المهندس تحرير وتفسير جميع التفاصيل المتعلقة بالمشروع⁽²⁷⁾.

يظهر هذا الطلب الذي قدّمه أهالي مدينة صفاقس إلى محمد الصادق باي، موافقتهم التامة على تنفيذ مشروع آبار الشعبوني، إلا أنهم رفضوا تنفيذه من قبل المهندس الفرنسي. وطالبوه الموافقة على تنفيذه بأنفسهم وعدم مشاركتهم لأي جهة أو شخص آخر. كما أظهروا قدرتهم على جمع الأموال اللازمة من قبل السكان ومن دخل أوقاف بعض المنشآت المائية بالمدينة، إلا أنهم لم يظهروا مدى قدرتهم على تنفيذه من الجانب التقني، وهل لديهم مهندس تونسي قادر على تنفيذه أو سينتدبون أحد المهندسين الأجانب.

7- تدخل القنصل الفرنسي وتعديل المشروع وعرضه على السلطة التونسية

رغم إجماع مختلف الأطراف الفاعلة حول أهمية مشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني، وتبادل عديد المراسلات بين عامل المدينة والسلطة الحاكمة من جهة، وبين المهندس الفرنسي والسلطة الحاكمة من جهة ثانية، إلا أنّ أشغاله لم تبدأ بعد. لذلك تدخل قنصل فرنسا السنيور اينيال ماتاي وييك بصفاقس موجّها مراسلة للسلطة الحاكمة بتاريخ 26 أفريل 1879 م، حثها على إنجاز مشروع تزويد المدينة بمياه آبار الشعبوني، ومنحه للمهندس الفرنسي الذي عدّل مطلبه حسب الحوار الذي قام بين الطرفين والمتكوّن من الفصول التالية:

الفصل الأول: الدولة تعطينا ستّة مراجع أرض قرب الآبار التي سيتم حفرها بالوادي، حسب السعر الذي تتبع به الدولة التونسية أثناء الفترة الحاضرة، وهو ثلاث ريالات وثمان الريال للمرجع الواحد.

الفصل الثاني: الدولة تعطينا محلاً بالمكان المعروف بالخبيزة الكائن بحومة الإفرنج بمدينة صفاقس، قصد بناء خزانة تشبه خزانة الماء التي شيّدت غرب قصبة الحاضرة، وغرس شجرا للنزهة والزينة. ومنحنا محلاً آخر خلف المركاض بالجهة العليا، قصد تشبيد خزانة لتزويد حومة المسلمين بالمياه، ويكون لنا الحق في مد ساقية وسط المدينة تربط بين الخزنتين.

(27) أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 226، 227.

الفصل الثالث: يكون لنا الحق في بيع المتر المكعب من الماء بفرنك واحد و17 سنتيم، وذلك كناية عن خروبتيين لكل نقلة تحمل أربعين لترا مع أنّ النقلة تباع عادة بثلاثة خرابب أثناء فصل الشتاء وبثلاثة أرباع الريال خلال فصل الجفاف.

الفصل الرابع: تكون المدّة الممنوحة خمسون سنة، ويصبح المشروع بمختلف مكوّناته ملكا للدولة التونسية عند نهايتها.

الفصل الخامس: يحجّر على الدولة التونسية السماح لأيّ أحد أن يحفر آبارا أو مدّ سواقي للماء، تضرّ بعملنا. كما نلتزم بعدم منع أحدا من أخذ الماء من المواجل والآبار التي مازالت تحتفظ بها مدينة صفاقس.

الفصل السادس: إذا مضت سنة من تاريخ المنحة ولم نتّم مشروعنا في مدّة سنتين فإنّه يسقط حقنا من المنحة، وتصبح الخدمة المبتدئة من حقّ الدولة التونسية إلا إذا كان التعطيل ناتج عن أمر سماوي. كما أنّنا نقبل بجميع الشروط التي تشترطها علينا الدولة التونسية إن كانت متيسّرة مع الأصول المقرّرة أعلاه⁽²⁸⁾. رغم تدخّل القنصل الفرنسي ومحاولة تعديل الخلافات القائمة، إلا أنّنا نرى بأنّ المشروع حضاري له عديد المنافع وتكلفته المادية معقولة جدّا. ورغم قناعة جميع الأطراف بأهميّة المشروع وتعدّد محاولات تعديله إلا أنّه لم ينفذ، بسبب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عاشتها البلاد التونسية أواخر العصر الحديث.

ثالثا: الظرفية التاريخية التي استنبطت فيها آبار الشعبوني ومساهمتها في تزويد مدينة صفاقس بمياه الشرب

1- الظرفية التاريخية لتشييد آبار الشعبوني

يمكن تلخيص الظرفية التاريخية التي استنبطت فيها آبار الشعبوني في أربعة عناصر أساسية كما يلي:

أ- تشييد منشآت مائية جديدة

تميّزت مدينة صفاقس بتشكّلها وسط منطقة خالية من المنابع المائية دائمة الجريان، كما أنها تفتقد لمصادر مياه عذبة صالحة للشرب. لذلك فرضت هذه الوضعية تدخّل مختلف الأطراف المعنية المتمثلة في السلطة والأعيان والسكان في حلّ هذا الإشكال. ويندرج توظيف آبار الشعبوني في هذا الغرض،

(28) أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرّر، ملف عدد 18/523 مكرّر وملف 19/523 مكرّر، وثيقة عدد 221.

وقد استنبطها أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبو العباس أحمد الشيعوني خلال القرن الثامن عشر ميلادي⁽²⁹⁾، وسط ضيعته الفلاحية الواقعة غرب المدينة. وعندما وجد مياهها عذبة المذاق جعلها للسبيل ووظفها لشرب سكان المدينة والمارة وعابري السبيل. ورغم بعدها عن مدينة صفاقس إلا أنها لعبت دورا هاما داخل المنظومة المائية خلال العصر الحديث، وساهمت في توفير مياه الشرب لسكان المدينة، خاصة أثناء فصل الصيف واشتداد الحرارة ونضوب الكميات المائية المخزنة بالمنشآت المائية العمومية.

لقد دفعت هذه الوضعية السلطنة الحاكمة إلى التفكير في تدعيم المنشآت المائية التي احتوتها المدينة خلال العصر الوسيط، لذلك فكر حسين بن علي أثناء فترة حكمه التي امتدت بين سنتي 1705-1735 م في تشييد فسقية بالمدينة، قصد توفير مياه الشرب، غير أن أعيان المدينة عطلوا بناءها خوفا من تحملهم تكلفتها المادية. ثم تجددت فكرة انجازها خلال فترة حكم ابنه علي باي الذي حكم البلاد التونسية بين سنتي 1759-1781 م. فأمر بأن تكون تكلفة أشغالها من مداخيل الزيتون الجالي بتلك المنطقة. وهي تبعد حوالي 1,5 كلم غرب سور المدينة، بدأت أشغالها منتصف نوفمبر سنة 1772 وانتهت أوائل ماي سنة 1774 م⁽³⁰⁾. وأمر قايد بلد صفاقس بكّار الجلولي بالإشراف على حضرها الذي أحضر أهل الخبرة من المهندسين على غرار أمين البناء سعيد القطي وأسطى طاهر المنيف⁽³¹⁾.

كما ساهم مصطفى خوجة في مساندة هذا الجهد، لذلك شيّد فسقيته التي تقع على بعد حوالي 500 م شمال الباب الجبلي، وسط حديقة كانت في الأصل مكان مقبرة المدينة⁽³²⁾، تحيط بها اليوم بنايات حديثة من الطراز الجيد. وتم تشييدها خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي بين سنتي (1759-1800 م)⁽³³⁾، من ماله الخاص، قصد تدعيم مكانته لدى السلطة ونيل الأجر والثواب.

ب- تواصل الاهتمام بمنشآت العصر الوسيط

لقد تواصلت العناية بمنشآت العصر الوسيط على غرار سبالة سيدي علي أبي شويشة، التي تخللت واجهة جامع سيدي علي أبي شويشة، الذي يواجه

(29) محمود مقديش، 1988، ج 2، ص 181.

(30) Mahfoudh F., (1988), p. 208.

(31) محمود مقديش، 1988، ج 2، ص 180-186.

(32) Guérin V., (1860), t. 1, p. 157 ; Mahfoudh F., (1988), p. 198 ; Mahfoudh F., (1991), p. 19.

(33) محمد اللواتي، 2022، ص 12.

الباب الجبلي، والذي تم تشييده خلال الفترة الزيرية أثناء القرن الحادي عشر ميلادي⁽³⁴⁾، لذلك نعتقد بأنه ينتمي إلى نفس الفترة لأنه يتخلل جداره الشمالي. ويظهر بأنه ينسب إلى حارس باب الجبلي الملقب بالشاوش⁽³⁵⁾. يتكوّن السبيل من واجهة مستطيلة الشكل يبلغ طولها 1,32 م وعرضها 46 سم وعمقها 60 سم، تتخللها من الجهة العلوية الأمامية لوحة رخامية احتوت نصاً تمّت كتابته خلال الفترة المعاصرة ويتوسطها مصّاصة نحاسية، وخابية فخارية متوسطّة الحجم تتوسط جدار بيت الصلاة، كانت تزوّد المياه المجلوبة من خارج المدينة⁽³⁶⁾.

كما ساهمت السّقاية النّاصرية في تزويد سكّان المدينة بالمياه أثناء العصر الحديث، وهي مجموعة مواجل تقع شمال المدينة على بعد حوالي 1 كلم عن باب الجبلي الذي يتخلل السّور الشمالي⁽³⁷⁾، شيدت بتعليمات الخليفة محمّد النّاصر بن يعقوب بن عبد المؤمن الموحّدي سنة 601 هـ / 1203 م، عند مروره بمدينة صفاقس بعد انتهاء حربه الأخيرة مع ابن غانية⁽³⁸⁾، بعد أن اشتكى إليه سكّان المدينة من نقص المياه. لذلك نسبت تسميتها إليه إكراماً واعترافاً بجميل الرّجل الذي عمل على حل إحدى مشاكلهم اليومية.

لقد بيّنت المصادر التاريخية بأنّها تكوّنت من خمسة وستون وثلاثة مائة ماجل بقدر عدد أيام السّنة، ليشرب سكّان المدينة كلّ ليلة مياه ماجل⁽³⁹⁾. ويبدو أنّ شكلها تراوح بين المربع والمستطيل. كما احتوى كل ماجل نافذتين، وظفت الأولى لدخول المياه أثناء نزول المطر والثانية لخروجها عند الامتلاء. ثمّ بلّطت بحجارة الدبش وكسيت الأرضية والجدران بخليط صلب يتكوّن من الرّمّل والجير والرّماد⁽⁴⁰⁾. وتبلغ سعة الماغل الواحد حوالي 15 متراً مكعباً، غير أنّها اندثرت أثناء القرن الماضي وشيّد المعهد الثانوي النّاصرية وسط مكانها.

يظهر من خلال المعطيات الأرشيفية بأنّ سكّان المدينة كانوا يساهمون في إصلاحها، ويشرف نائب جمعية الأوقاف على أشغالها، مثل وصية الحاج عبد اللطيف المنيف الذي أوصى صهره محمد الخراط ببيع ثلث أملاكه التي تظلّ بعد وفاته وأن يصرفها في إصلاح هذه المنشآت⁽⁴¹⁾. وتمّ ذلك بشهادة

(34) Mahfoudh F., (1988), p. 461.

(35) فوزي محفوظ - لطفي عبد الجواد، 2016، ص 148.

(36) محمد اللواتي، 2022، ص 16-18.

(37) Servonnet J. - Laffite F., (2000), p. 32 ; Guérin V., (1860), t. 1, p. 157.

(38) محمود مقديش، 1988، ج 2، ص 178.

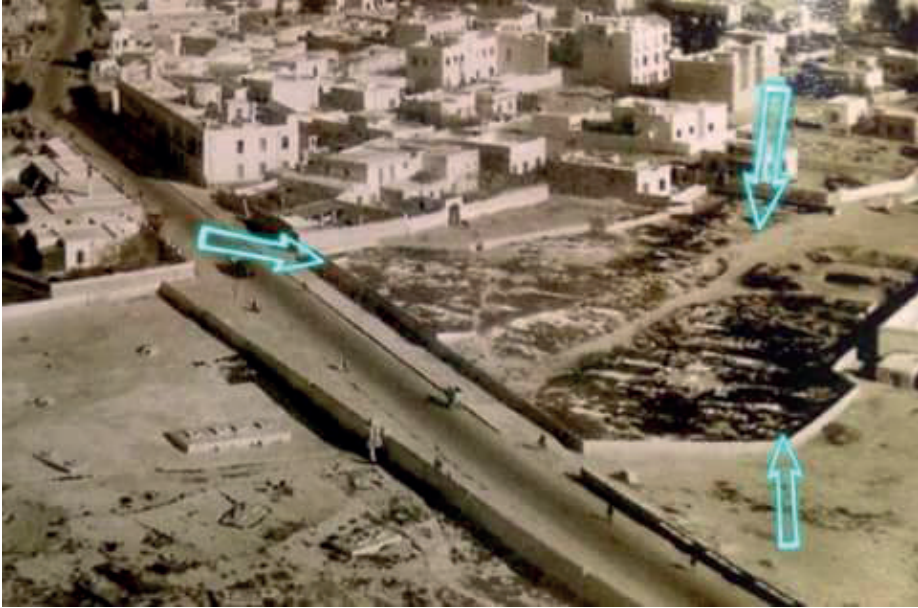
(39) محمود مقديش، 1988، ج 2، ص 179.

(40) Ibid., p. 207.

(41) A-N-T, C 2, carton 19, dossier 29, document 11.

العدلين الفقيهين محمد الفراتي ومحمد بوخريص بتاريخ أواسط شهر شعبان 1276 هـ / فيفري سنة 1860 م فقبل محمود الخراط الوصية.

كما تبيّن بأنّ الناصرية حافظت على عدد كبير من مواجلها إلى أواخر العصر الحديث، لأنّه عندما تقرّر تنفيذ الوصية وترميم المواجه وجه القاضي صفاقس المفتيون وأمناء البناء الذين تكونوا من أحمد المنيف وسعيد القرقوري ومحمد الزواري ومحمد عبد المولى إلى السقاية الناصرية، قصد معاينة حالتها المعمارية ومجاريها والأماكن المتداعية التي يلزم إصلاحها. فحلّ الجميع بالسقاية وأمعنوا النظر فيها إمعاناً كافياً، فظهر لهم بأنّ أسطحها بها خراب وانهداش يتأكد إصلاحه ومجاري مياهها بها خراب وجلّ مواجلها يستدعي الإصلاح، وأنّ الأفضل والأحسن أن يبدأ العمل بإصلاح مواجلها ومجاريها وسطوحها من الجهة الشرقية لما في ذلك من المصلحة للعامة بنفعها. وبذلك أدّوا شهادتهم لدى القاضي فقبلها وأذنهم بأدائها لشهيديه بتاريخ أواخر ربيع الثاني سنة 1277 هـ / نوفمبر سنة 1860 م.



صورة عدد 5: صورة قديمة لبقايا مواجل الناصرية.

ت- تدعيم المنظومة المائية بتشديد منشآت مائية جديدة داخل المدينة

تواصلت ظاهرة العناية بالمنشآت المائية الموجودة بالمدينة أثناء العصر الحديث، وتمّ تدعيمها بتشديد عديد المنشآت الأخرى، مثل سبّالة الناصرية التي شيّدت وسط سوق البلاغجية، الذي يقع على الجهة اليمنى من نهج الجامع الكبير المسمّى نهج المنجي سليم. وهو يقع في الزنقة قبل الأخيرة في اتجاه الباب الجبلي. ويبدو أنّها شيّدت خلال القرن التاسع عشر ميلادي لأنّ الوثائق الأرشيفية ذكرتها أثناء هذه الفترة، غير أنّها اندثرت ولم يبق لها أي أثر معماري، واندثر المقهى الذي كان يجاورها. وهي تهدف إلى توفير المياه اللازمة لعمّال السّوق والسكّان الذين يجاورونها.

سبّالة الشيخ الفرياني التي تقع بسوق ربع المارستان الذي يمتدّ بين نهج الصبّاغين المؤدّي إلى الباب الجبلي وسوق الرّبع الذي يفضي عن الجامع الكبير في اتجاه باب الديوان بالجهة الجنوبية من المدينة. ويبدو أنّها شيّدت بإحدى القيساريات القريبة من هذا السّوق خلال القرن التاسع عشر ميلادي. وسبّالة سوق الغزل التي شيّدت وسط هذا السوق، الذي يقع بالجهة الشمالية من المدينة حذو باب الجبلي. ويظهر بأنّها شيّدت خلال القرن التاسع عشر ميلادي، لأنّ الوثائق الأرشيفية ذكرتها أثناء هذه الفترة. غير أنّها اندثرت ولم نتمكن من معرفة مكوّناتها المعمارية. وسبيل ماجل الصّاغة الذي يقع برمانة الوزن وسط المدينة ويبدو أنّه شيّد أثناء القرن التاسع عشر ميلادي واندثر خلال القرن الماضي.

ث- تدعيم المنظومة المائية بتشديد منشآت مائية جديدة خارج المدينة

لقد تواصلت ظاهرة تدعيم المنظومة المائية لمدينة صفاقس بتشديد منشآت مائية خارجها، على الطرقات المؤدية إلى القرى التي تجاورها، تهدف إلى توفير مياه الشرب للسكّان والمارة وعابري السبيل، مثل سبيل ماجل النّصف الذي يقع غربي المدينة على طريق تتيور. ويبدو أنّه اندثر بمختلف عناصره المعمارية مع جميع الآبار التي كانت تقع خارج المدينة بسبب اتّساع المجال المعماري الحضري. وكان يوفّر مياه الشرب لسالكي الطريق الرّابطة بين مدينة صفاقس وقرية عقارب، وهي ظاهرة عرفتها عديد المدن التونسية مثل القيروان وسوسة وتونس، إذ شيّدت عديد المنشآت خارج أبوابها وعلى الطرق التي تربطها بقرى ومدن تجاورها⁽⁴²⁾.

(42) حسين خوجة، 1975، ص 151-152 : محمد اللواتي، 2016، ص 99-120.

بئر ثنيّة عطية التي تعرف بالبئر الأحمر وتقع بغابة صفاقس، شمال المدينة على طريق عطية⁽⁴³⁾، ويتّضح بأنّها كانت سبيلا عامّا يوفّر مياه الشرب لسالكى الطريق. ورغم وقوعها خارج المدينة إلا أنّها كانت محلّ عناية واهتمام لدى المسؤولين والسكان، فقد تبرّع الحاج أحمد بن حمودة المزغني بمصروف بناء صفة لها وإصلاحها وتحديد مساحتها من جهاتها الأربع يوم 8 صفر سنة 1303 هـ / 17 نوفمبر سنة 1885 م. وذلك رجاء في نيل ثواب الله. وقد بين محمد الفندري نائب جمعية الأوقاف بصفاقس، اعتمادا على رسم مؤرّخ بسنة 1283 هـ / 1866 م بأنّ هذه البئر كانت تحيط بها مساحة من الأرض مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها ستون ذراعا من كل جهة⁽⁴⁴⁾. وأنّ المكرمين محمود ومصطفى ولدي المرحوم أحمد والي استجدا حيازة مجاورة لمساحة البئر من الجهتين القبليّة والشرقية وأدخلا جل مساحة البئر في حيازتهما، وأقاما طابية فاصلة بينهما وبين ما تركاه من المساحة الذي مقداره اثني عشر ذراعا من الطابية للحافة القبليّة من البئر وثلاثون ذراعا من الطابية للحافة الشرقيّة من البئر.

كما استجدّ المكرّم الحاج أحمد بن حمودة المزغني حيازة مجاورة لمساحة البئر المذكورة من ناحية الغرب وأدخل جل مساحة البئر من الناحية المذكورة في حيازته. لذلك ترك خمسة عشر ذراعا من حافة البئر الغربيّة وأقام طابية بانتهائها من غير وجه شرعي. لذلك طلب نائب الجمعية من المكرمين محمود ومصطفى المذكورين رفع أيديهما عن القطعة التي أخذها من المساحة المذكورة وإزالة الطابية التي أحدثاها. كما طلب ذلك من الحاج أحمد المزغني المذكور بينهم الاعتراف بما ذكر وجوبا شرعيا وشهد عليه بذلك حال جواز ومعرفة بتاريخ يوم الجمعة 19 ربيع الأول سنة 1303 هـ / 27 ديسمبر 1885 م⁽⁴⁵⁾. وسبيل بئر المعق الذي يقع غرب مدينة صفاقس على الطريق المؤدّية نحو قرية المحرس، ويظهر

(43) A-N-T, C 2, carton 19, dossier 29, document 10.

(44) يقصد بهذه المساحة الحريم الذي شكّل إحدى المسائل الفقهيّة الهامّة خلال العصر الوسيط. سمّي بهذا الاسم لأنّه ملك يخصّ المنشأة ذاتها ويحرم أيّ شخص من التصرف فيه. وقد وضع العلماء معايير لقياس الحريم حسب كلّ حالة، استنادا إلى نصوص شرعية وضوابط معمارية وعمرانية. كما يرى بعض الفقهاء بأنّ مساحة حريم البئر تختلف حسب كبر وصغر المنشأة وصلابة الأرض ورخاوتها. لذلك بين الفقهاء بأنّ حريم البئر هو الفضاء الذي يحيط بجميع نواحيها. وهو المكان الذي تجب حمايته وعدم استباحته أو إلحاق الضرر به قصد احترام ملكيّة الآخرين وحفاظا على حقوقهم فيها. وقد ربط الفقهاء مقاييس الحريم بنوعيّة البئر وذلك وفق مختلف آرائهم واجتهاداتهم ونوعيّة استغلالها. أنظر: البرزلي، 2002، ج 4، ص 432؛ ابن الرّامي، 1999، ص 162-163؛ المسطاري بوكثير، 2004، ص 53؛ محمد اللواتي، 2013، ص 538-540.

(45) A-N-T, C 2, carton 19, dossier 29, document 9.

بأنّ البئر استتبطت خلال النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر، لأنّها ذكرت في مصادر هذه الفترة. وتهدف إلى توفير مياه الشرب لعابري الطريق الرّابطة بين مدينة صفاقس وقرية المحرس⁽⁴⁶⁾. ويظهر بأنّ الآبار التي ذكرناها قديمة، وربّما كانت موجودة منذ العصر الوسيط أو تمّ حفرها أوائل العصر الحديث، لأنّها ذكرت أثناء القرن الثامن عشر بطريقة عرضية⁽⁴⁷⁾.

ج- مساهمة آبار الشعبوني في تزويد مدينة صفاقس بمياه الشرب

تقع آبار الشعبوني على بعد مسافة تراوحت بين 6 و 7 كلم غرب مدينة صفاقس⁽⁴⁸⁾، وسط منطقة وادي القناطر. وهي مسافة بعيدة نسبيا مقارنة بجّل المنشآت المائيّة المرتبطة بعدد المدن التونسية خلال الفترة الحسينية، حفرها أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبو العبّاس أحمد الشعبوني خلال القرن الثامن عشر ميلادي⁽⁴⁹⁾، قصد سقي أشجار ضيعته، فاشتقت تسميتها من لقب صاحبها. وهي ظاهرة عرفتها عدد المنشآت المائيّة بعدد المدن التونسية على غرار مواجل الناصرية وسبيل سيدي علي أبي شويشة. غير أنّها اندثرت بمختلف عناصرها المعمارية. وقد تكوّنت من بئرين، وتميّزت بعذوبة مائها، فوظّفها لشرب المارّة وسكّان المدينة⁽⁵⁰⁾، لأنّ أغلبية مياه الآبار المحيطة بالمدينة مالحة المذاق. فساهم هذا العمل الخيري في اختياره من قبل سكان المدينة للإشراف على مصاريف فسقية علي باي التي تمّ تشييدها غرب المدينة⁽⁵¹⁾، لأنّه أصبح محلّ ثقة الجميع. كما استطاع أن يقدّم المصلحة الجماعيّة على المصلحة الشخصية دون أن يطلب منه ذلك أحد. ويمكن أن يبيّن هذا العمل أهميّة المياه لدى السكّان وخاصّة في المدن التي لا تملك موارد كافية وعذبة.

لقد لعبت هذه المنشأة دورا هامّا في تزويد سكّان المدينة والمارّة بالمياه العذبة. ويتضاعف دورها خاصّة أثناء فصل ارتفاع الحرارة وفترات الجفاف لأنّ مياه منشآت المدينة تنضب، فيتّيم الاعتماد عليها. ويجلب السقاؤون مياهها في القرب والجرار قصد بيعها لسكّان المدينة. وتجد هذه المياه رواجاً كبيراً خاصّة لدى سكّان الأحياء حديثة التشكّل لأنّ منازلها ليست لها صهاريج تخزين، ويتضاعف سعرها مقارنة بالفترات الماطرة⁽⁵²⁾.

(46) أ- و- ت- الحافظة عدد 361، ملف عدد 32، وثيقة عدد 1، ترحيل 2012.

(47) ابن عبد العزيز، 1970، ص 314.

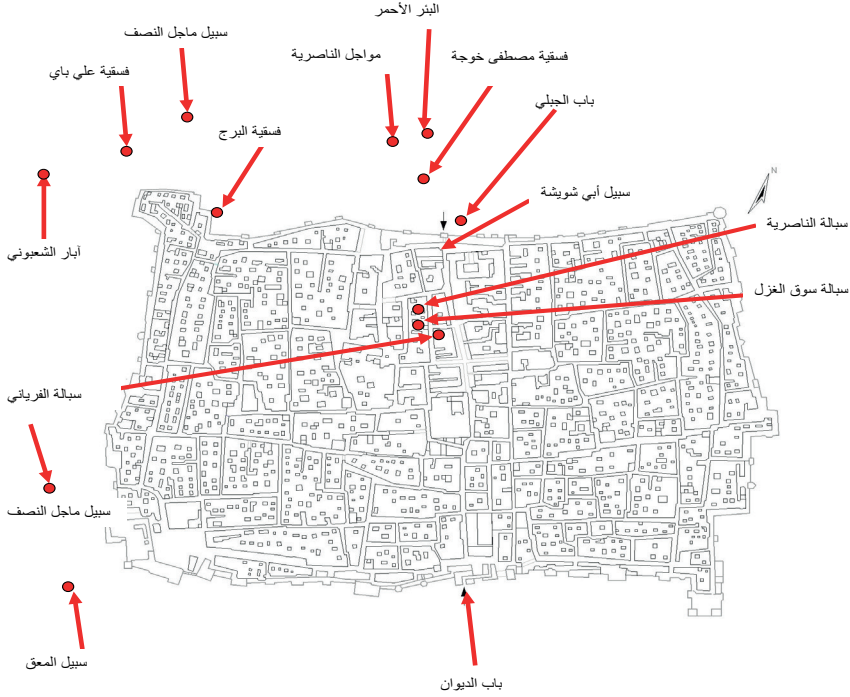
(48) Servonnet J. - Laffite F., (2000), p. 34.

(49) محمود مقديش، 1988، ج 2، ص 181.

(50) محمود مقديش، 1988، ج 2، ص 181.

(51) محمود مقديش، 1988، ج 2، ص 181.

(52) Servonnet J. - Laffite F., (2000), p. 34.

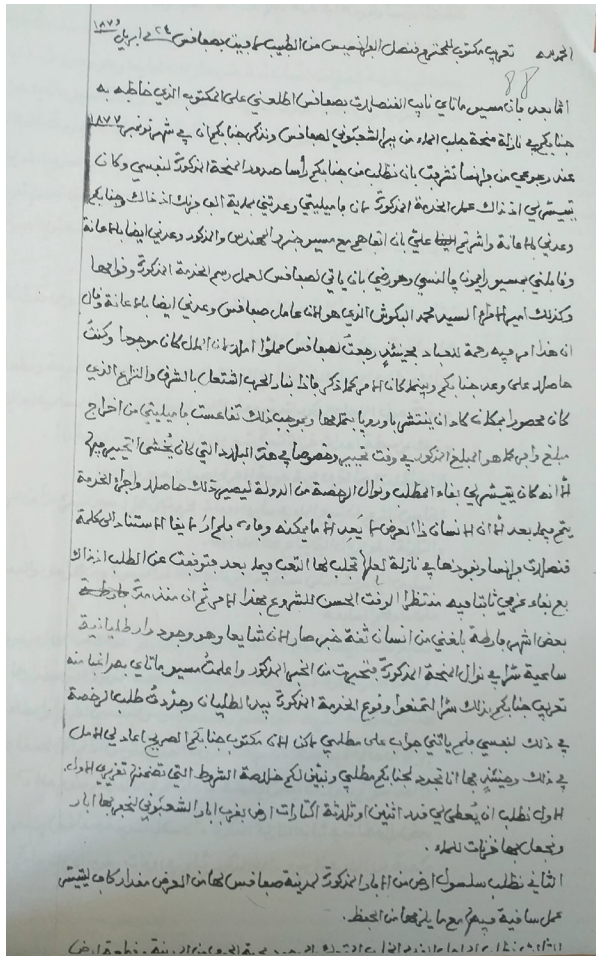


مخطط مبسّط للمنشآت المائية الواقعة وسط مدينة صفاقس وخارجها
خلال العصر الحديث.

الخاتمة

تناولنا في هذا المقال المعطيات المتعلقة بمشروع تزويد مدينة صفاقس بمياه آبار الشعبوني خلال فترة حكم محمد الصادق باي (1859-1881 م)، فبينما محتوى المشروع. ثم تطرّفنا إلى أصول الآبار وهدف استنباطها وتوظيفها منذ حفرها. وقد لاحظنا بأن اكتشاف تقنيات جديدة تخصّ تزويد المدن بمياه الشرب بواسطة الضخّ كان عاملاً أساسياً في التفكير في هذا المشروع. ورغم عدم إنجازه إلا أنّ الملف المتعلّق به احتوى وثائق أرشيفية هامة جدّاً، لأنّها قدّمت فكرة واضحة حول مكّونات الساقية ومصادر مياهها، وأعطت معلومات دقيقة حول الكميات المائية التي يمكن أن توفّرها آبار الشعبوني خلال اثني عشر ساعة، وثمن بيعها بالتر المكعب لسكان المدينة. كما بيّنت قيمة الأموال والوقت والمياه التي يمكن توفيرها لسكان المدينة.

ثمّ بينّا أسباب تعطلّ انجاز المشروع وموقف السلطة الحاكمة والقنصل الفرنسي وسكان المدينة من انجازه. ورغم قناعة جميع الأطراف بأهميته وفاعليته ورغبتهم في انجازه، إلا أنّ سكّان المدينة أصرّوا على انجازه بأنفسهم وأن لا يشاركهم في ذلك أحد، ودعوا السلطة الحاكمة إلى تحمّل مسؤولية الإشراف فقط. ثمّ تطرّقنا للظرفية التاريخية التي استتبطت فيها آبار الشعبوني، قصد عرض المنشآت المائية التي تمّ تشييدها وسط المدينة وخارجها، وعلى الطرقات المؤدّية نحو القرى المجاورة لها. فأبرزنا تواصل استغلال المنشآت المائية التي تمّ تشييدها خلال العصر الوسيط، وطريقة تدعيمها بمنشآت أخرى أثناء العصر الحديث، وبينّا مدى مساهمتها في توفير مياه الشرب لسكّان المدينة والمارة وعابري السبيل.



صورة عدد 7: الورقة الأولى من ملف مشروع مياه آبار الشعبوني.

البليوغرافيا

17437، إفريقيا عدد 25، المعهد الوطني للتراث 2022، ص 5-44.
محفوظ (فوزي) وعبد الجواد (لطفي) 2016، مدونة النقائش العربية بمعالم مدينة صفاقس، صفاقس.
مقديش (محمود) 1988، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، لبنان.

المراجع باللغات الأجنبية

Guérin V. (1862), *Voyage archéologique dans la régence de Tunis*, Paris.
Louati M. (2021), « La vente d'eau des sources de Zaghouen et de Joggar à La ville de Tunis d'après un document d'archives sous le règne de Mohamed Sadok Bey 1859-1881 », *Peuplement, Société et Pouvoir dans le monde musulman, Hommage au Pr. Brahim Jadla*, Ministère de l'Enseignement supérieur Et de la Recherche scientifique - Université de la Manouba, Faculté des Lettres, des Arts et des Humanités de la Manouba, Laboratoire: ESICMED. LR 11 ES 28, LATRACH EDITION, p. 227-248.
Louhichi A. (1997), « Fouilles d'un site hydraulique islamique de la Médina de Sfax ; les bassins de Borj al-Q'sar », *Africa*, XV, p. 91-131.
Mahfoudh F., (1988), *La ville de Sfax Recherche D'archéologie Monumentale et Évolution Urbaine*, Thèse de Doctorat en Art et Archéologie Islamique, Paris V.
Mahfoudh F. (1991), « Les installations hydrauliques de Sfax au Moyen Âge », *IBLA*, n° 167, p. 13-29.
Servonnet J.- Laffite F. (2000), *En Tunisie Le golfe de Gabès en 1881*, Espagne.

المصادر الأرشيفية

- A-N-T, C 2, carton 19, dossier 29, document 9, 10, 11.
أ- و- ت- السلسلة التاريخية، صندوق عدد 142 مكرر، ملف عدد 18/523 مكرر وملف 19/523 مكرر، نازلة جلب الماء من بئر الشعبوني إلى بلد صفاقس، وثيقة عدد 20، 88، 217، 218، 226، 227.
أ- و- ت- الحافظة عدد 361، ملف عدد 32، وثيقة عدد 1، ترحيل 2012.

المصادر والمراجع المطبوعة

ابن الرامي 1999، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق فريد بن سايمان، تونس.
ابن عبد العزيز 1970، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماضور، تونس.
البرزلي 2002، جامع مسائل الأحكام بما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق وتقديم الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
بوكثير (المسطاري) 2004، التهيئة المائية بإفريقية خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمّقة في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.
خوجة (حسين) 1975، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، تونس.
اللواتي (محمد) 2013، تزويد المدن التونسية بالمياه خلال العهد الحسيني: دراسة تاريخية وأثرية، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.
اللواتي (محمد) 2022، «معطيات جديدة حول فسقيتي علي باي ومصطفى خوجة وسبيل أبي شويشة بمدينة صفاقس من خلال دفتر أوقاف رقم

أسماء الأماكن الحالية بجزيرة جربة بين التّأصل والتّواصل

المنصف بربو⁽¹⁾

Résumé

L'échantillon qui nous a servi comme point de départ dans cet article est constitué de 143 toponymes. Nous avons essayé, en se basant sur ce nombre assez important des noms de lieux, de répondre à la problématique suivante : est ce que les noms de lieux actuels de l'île de Djerba représentent un aspect d'enracinement ou de continuité ?

En fait, notre recherche nous a permis de distinguer 5 ensembles de toponymes : noms berbères, d'autres berbérisés, noms arabisés, d'autres proprement arabes et enfin des noms intrus. Ce sont, certes, des noms de lieux, qui ont été stratifiés tout au long des époques, et qui ont été témoin de l'enracinement de la langue amazighe dans l'île de Djerba (puisque on a pu constater qu'environ 59 % de l'ensemble des noms de lieux actuels ont pu conserver leur structure berbère) ce qui signifie leur enracinement. D'autre part, on peut dire que cet enracinement a été ouvert sur toutes les influences des civilisations qui sont passées par l'île (surtout celle des arabo – musulmans (37 %), sans oublier l'influence latine et punique (4%). Cela nous a permis de dire que la langue berbère est une langue renouvelable au niveau de sa structure toponymique et que la toponymie actuelle de l'île de Djerba est une toponymie, en même temps, enracinée et continue.

Mots clés : Noms de lieux – Djerba – enracinement linguistique – continuité linguistique – berbère – langue enracinée – interactions – emprunt.

Abstract

The sample that we used as a starting point in this article consists of 143 toponyms. Based on this fairly large number of place names, we tried to answer the following problem : are the current place names of the island of Djerba represent an aspect of rootedness or continuity ?

(1) المعهد العالي للعلوم الإنسانية بمدنين، جامعة قابس.

In fact, our research allowed us to distinguish 5 sets of place names : berber names, « berberized ones », arabicised names, others strictly Arab, and finally intrusive names. These are, certainly , place names which have been stratified throughout the ages and which have witnessed the rooting of the Amazigh language on the island of Djerba (since it was found that about 59 % of all current place names were able to maintain their Berber structure) which means their rootedness. On the other hand, it can be said that this rootedness was open to all influences of civilizations that passed through the island especially that of Arab – Muslim ones (37 %), without forgetting the latin as well as the Punic influences (4%). This allowed us to say that the Berber language is a renewable language at the level of its toponymic structure and that the current toponymy of the island of Djerba is both rooted and continuous at the same time.

Key words: Place names – Djerba – linguistic rootedness – linguistic continuity – Berber – rooted language – interactions – borrowing.

المقدمة

256

قمنا في عمل سابق تحت عنوان: «تغيّر أسماء الأماكن بجزيرة جربة بين العهد الوسيط والفترة المعاصرة: البنى الطوبونومية والمعاني الدلالية»⁽²⁾ برصد التّغيرات التي طرأت على أسماء الأماكن بجزيرة جربة من خلال الوثائق المكتوبة وطيلة مدة زمنية تجاوزت الثلاثة قرون.

ارتأينا أن نواصل الخوض في مبحث طوبونوميا⁽³⁾ الجزيرة لكن من زاوية أخرى هدفها النّظر في أسماء الأماكن الحالية مُعتمدين، هذه المرّة، على عيّنة أشمل بلغت 143 اسما للمكان (عوضا عن 78 في المحاولة الفارطة)، لم

(2) بربو (م)، (2022)، 85-105. تمكّنّا، في هذا المقال المذكور، من الخروج باستنتاجين رئيسيين: تعلق أولهما بتعدّد البنى الطوبونومية لأسماء الأماكن بجزيرة جربة، بين العصر الوسيط والفترة المعاصرة، (أسماء بربريّة وأسماء مُعرّبة وأسماء عربيّة وأسماء ذات أصول مُختلفة: بونيّة و لاتينيّة). كما شمل ثانيهما تعدّد معانيها و دلالاتها (في علاقة بالجوانب القبليّة والإقتصاديّة والجغرافيّة والإستراتيجيّة والرّمزيّة). وقد خلصنا إلى أنّ أسباب هذا الثّراء، سواء فيما تعلق بالبنى أو الرّموز، كان نتيجة صراع بين منظومتين ثقافيتين مُتاقضتين، محليّة أصيلة ومركزيّة دخيلة.

(3) الطوبونوميا هو مبحث يعتمد على دراسة أسماء الأماكن وما يعنيه اسم المكان من انعكاس للهويّة ورسم للحدود وبيان للخصوصيّة وغيرها... لمزيد الاطلاع راجع سبيل الذّكر: Margouma M., (2004), p. 229.

(4) لقد اعتمدنا في استخراج هذا العدد من الأسماء على ما تضمّنته مدوّنة بحثنا في رسالة الذّكتوراه: بربو (م)، (2018) 726 صفحة.

يتمّ جمعها فقط، كما كان الأمر بالنسبة للعمل السابق، من الوثائق المكتوبة بل توخينا فيها أيضا العمل الميداني والتقصي الشفوي⁽⁴⁾. وقد وظفنا هذا العدد المحترم من أسماء الأماكن الحالية بجرية للإجابة على الاشكالية الموالية: هل تمثل أسماء الأماكن الحالية بجزيرة جربة مظهرا من مظاهر التّأصل أم التّواصل اللّغوي؟

I- التّأصل التاريخي لأسماء الأماكن الحالية بجزيرة جربة : أهمية الجذور الأمازيغية.

نرى بداية أن نعرّف معنى «التّأصل». إنّه اسم مشتقّ من فعل «تأصل»، تأصّلا فهو متأصل. وتأصل الشيء صار ذا أصل ثابت، ترسّخ وتعمّق⁽⁵⁾.

1- أسماء الأماكن الأمازيغية والممزّغة

الأسماء الأمازيغية: شملت العيّنة 33 اسما للمكان حافظت على جذورها الأمازيغية أي بنسبة 23.07 %، بما يقارب 1/4 العدد الجمليّ للأسماء مثل: تاوريت، خبالاش، صدغيان، تنازفت، مجماج، تاجموت...⁽⁶⁾.

الأسماء الممزّغة: احتوت العيّنة على 11 اسما مُمزّغا أي بنسبة بلغت 07.69 %.

والتمزيغ «هي عملية يقع فيها استعمال كلمات عربية وتطويع بنيتها لمقتضيات الأمازيغية»⁽⁷⁾. ومن الأمثلة على هذه الأسماء الممزّغة نذكر: تاجدیت (تعني الجديد)، تحريزيت (تعني الحرز)، مدراجن (تعني الدّرج)⁽⁸⁾.

غير أنّنا نضيف على ما قدّمه التعريف السابق أنّ هذا التّميزغ قد يشمل أيضا كلمات غير عربية مثل: تبورقت (تعني الاسم اللاتيني Burgus) أو تغديمس (تعني الاسم اللاتيني Cidamus)⁽⁹⁾.

(5) معجم المعاني الجامع، معجم عربي- عربي / تاصل

almaany.com/ar/dict/ar-ar/

(6) راجع العمود الأوّل بالجدول الخاصّ بتصنيف أسماء الأماكن الحالية بجزيرة جربة (في الملحق)

(7) بن معمر (ف) (2013)، ص 18.

(8) راجع العمود الثاني بالجدول السابق (الملحق).

(9) انظر نفس العمود بالجدول سابق الذكر (الملحق).

(10) الفجر م خ (2017)، ص 307.

2- أسماء الأماكن المعرّبة:

رصدنا في هذه العيّنة 41 اسما للمكان وردت في صيغة معرّبة أي بنسبة 28.67 %. وقد عرّف العلماء المعاصرون الاسم المعرّب بقولهم: «اللفظ الذي تقتضيه اللغة العربيّة من اللّغات الأخرى وتُخضعه لنظامها الصّوتي والصّرفي عن طريق الزّيادة فيه أو الإنقاص منه أو القلب أي إبدال حروف عربيّة ببعض حروفه»⁽¹⁰⁾. وكمثال على تعريب أسماء الأماكن ذات الأصول الأمازيغيّة يمكن أن نذكر: سيدي جَمُور (أصلها أَجمُور)، وادي أمغار، ربّانة (أصلها أربان)، للاً حضريّة... أمّا فيما يخصّ تعريب أسماء ذات أصول غير أمازيغيّة فإننا عثرنا في هذه القائمة على اسم وحيد وهو: حومة الزّنكريين نرجح أنّ اسمه المحدّد (Spécifique) وهو: الزّنكريين، تُركي الأصل⁽¹¹⁾.

ولو قارنا نسبة الأسماء الممزّعة (07.69 %) بنسبة الأسماء المعرّبة (28.67 %) للمسنا أهميّة هذا الصّنف الثّاني من أسماء الأماكن بجزيرة خلال الفترة الحاليّة. وليس من العسير أن نستنتج أنّ ذلك يعود إلى ما بلغته الجزيرة من أشواط مُتقدّمة في التعريب الذي بدأ نسقه يتصاعد منذ العهد الحفصيّ، كما سنبين ذلك لاحقا.

258

صفوة القول، يتبيّن لنا ممّا تقدّم تحليله، بخصوص هذه الأصناف الثّلاثة من أسماء الأماكن (الأسماء الأمازيغيّة والممزّعة والمعرّبة)، أنّ القاسم المُشترك بينها هو بُنيّتها الأمازيغيّة، إذ لاحظنا وجود 85 اسما من مجموع 143، بما يعادل 59.44 %⁽¹²⁾، وهي نسبة هامّة تُبيّن أنّ محافظة غالبيّة أسماء الأماكن الحاليّة بجزيرة جربة - مهما كان شكلها - على مضمونها الأمازيغيّ أي على مبناها اللّغويّ الأصليّ، بما يُفيدنا بتجذّر هذه اللّغة وعراقتها على هذه الأرض، وهو ما برّر تأصلها، وهو تأصل غدّته، على مرّ العصور، عديد التّفاعلات مع عديد الحضارات الوافدة لعلّ أبرزها الحضارة العربيّة، فكان الاتّصال وكذلك التّواصل.

(11) أفادنا بذلك الأستاذ فتحي بن معمر. راجع العمود الرابع بالجدول سابق الذكر (الملحق).

(12) انظر مجموع نسب الاعمدة الأوّل والثّاني والرّابع بالجدول سابق الذكر (الملحق).

(13) معجم المعاني، ن م / تواصل almaany.com/ar/dict/ar-ar/

II- التّواصل التاريخي لأسماء الأماكن الحالية بجزيرة جربة : ديناميّة التّفاعلات اللّغويّة.

مثلا كان الأمر بالنّسبة إلى العنصر الرّئيسي الأوّل، بهمّا أن نعرّف معنى «التّواصل». إنّه اسم مُشتقّ من فعل «تواصل»، تواصل، يتواصل، تواصلًا، فهو متواصل. تواصل الصّديقان: واصل أحدهما الآخر في اتّفاق ووئام، اجتمعا واتفقا. نقول تواصلت الأشياء: تتابعت ولم تنقطع⁽¹³⁾.

1- أسماء الأماكن العربيّة

قدّمت لنا العيّنة 53 اسما عربيّا للمكان بجزيرة جربة، في الفترة الحاليّة، بما يمثّل نسبة 37.06 %، مثل: الحشّان، المحبوبين، الأرباح، السّوق القبلي، الخنانسة...⁽¹⁴⁾ وهي أعلى نسبة من بين كل أصناف أسماء الأماكن التي رصدناها. وهو أمر مُكْمَل لما عرفته الجزيرة من تدعيم التّعريب منذ بدايات العهد الحفصيّ، إذ لاحظنا تقدّمًا في استعمال اللغة العربيّة، خلال الفترة المتأخّرة من العهد الوسيط، ليس في صفوف المجموعات العربيّة السّنيّة المالكيّة فحسب بل وأيضا في صفوف المجموعات الأمازيغيّة الإباضيّة، فقد ترجم الشّيخ عمرو بن جميع (الوالغي) بجزيرة جربة «مقدّمة التّوحيد» من اللّغة الأمازيغيّة إلى اللغة العربيّة في النّصف الثّاني من القرن السّابع للهجرة/13م، «وهو كتاب ألف في أواخر القرن الرّابع للهجرة/10م بالبربريّة لأنّ النّاس يومئذ كانوا لا يفهمون اللغة العربيّة»⁽¹⁵⁾. فمن القرن الرّابع للهجرة/10 م إلى القرن السّابع للهجرة/13 م، وعلى مدى ثلاثة قرون، نلاحظ اتّجاها مُتزايدًا نحو استعمال اللغة العربيّة داخل جربة⁽¹⁶⁾، لا شك أنّه وصل أوجه خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة.

من هذا المنطلق، يتحدّث العديد من المتحمّسين الجدد للمسألة الأمازيغيّة بتونس اليوم عن «فساد اللّسان الأمازيغي»⁽¹⁷⁾، فكأنّهم بذلك يُجيبون عبد الرّحمان بن خلدون الذي أكّد في مقدّمته، منذ ما يزيد عن ستّة قرون، عن «فساد اللّسان العربيّ» بمُخالطة الأعاجم بمن فيهم الأمازيغ⁽¹⁸⁾. فكلّا الموقفين، في تقديرنا، له تفسيره، لكنّا لا يمكن أن نقبل تبريرهما. فإن انطلق الموقف

(14) انظر العمود الثّالث بالجدول المذكور (الملحق).

(15) بن يعقوب (س) (2006)، ص 190. ولمزيد الاطلاع راجع: بن مرزوق (ص) (د ت)، ص 47.

(16) بربو (م) (2018)، ص 528.

(17) بن معمر (ف) (2013)، ص 15.

(18) ابن خلدون (ع ر) (2006)، ص 631-654.

الأوّل من «شعور بالإحباط»⁽¹⁹⁾ بسبب ما وصلت إليه اللغة الأمازيغيّة اليوم من تهميش، فإنّ الموقف الثّاني ينمُّ عن «شعور متعال» بدأ مع هيمنة اللغة العربيّة على بلاد المغرب خلال عصر بن خلدون (القرن الثامن الهجري/14 م)⁽²⁰⁾، وهي نظرة، في كلتا الحالتين، تشكو من خلل في التّواصل بين «مركزيّة الأنا» و«طرفيّة الآخر»⁽²¹⁾. وهو ما يقودنا إلى مسألة جوهريّة في فهم ديناميات التّفاعل بين اللّغات قديما وحديثا نعرف عند الباحثين بـ: الاقتراض اللّغويّ.

2- الاقتراض اللّغويّ

ليس من اليسير أن تندثر لغة، مهما عتت لغة أخرى وسيطرت بحكم الواقع الحضاريّ الجديد بكل أبعاده. فاللّغات تتفاعل وتقترض الواحدة من الأخرى بشكل يضمن تواصلها⁽²²⁾.

نستنتج ممّا تقدّم أنّ اللّغات مهما كان زمانها ومكانها ومدى انتشارها تتفاعل. ويكون تفاعلها عن طريق ما يسمّى بـ: الاقتراض اللّغويّ الذي يُعرّفه أحد المختصّين بأنّه « اتّصال الأمّة الأولى بالأمّة الثّانية، وقد يكون هذا الاتّصال بالجوار أو المتاجرة أو المعاملة أو المصادفة... إلخ»⁽²³⁾. فلا يمكن لأيّ لغة أن تتعزل عن الاحتكاك باللّغات الأخرى. ولا يُعدّ الاحتكاك والتأثير مؤشّر ضعف في اللغة إلا إذا أدّى إلى زوال معالمها واندماجها كليّة باللغة المتحكّمة بها، ولذلك لم تكن لغة من اللّغات الانسانيّة بمعزل عن التأثير أو التأثير بغيرها من اللّغات. فالأوغاريّة أثّرت في اللّغات الانسانيّة جمعاء بنقل طريقتها في رسم الأصوات، حيث أن أبجديتها أخذتها الفنيقيّة، ومن ثمّ الآراميّة والسّريانيّة والعبريّة والتّدمريّة والنّبطيّة والعربيّة وكذلك اللّغات الأوروبيّة كاليونانيّة⁽²⁴⁾.

وفي هذا الإطار تأتي المواقع شاهدا على التّواصل الطّوبونوميّ ببلاد المغرب عبر الزّمان والمكان، ذلك أنّ عددا كبيرا من هذه الأسماء المعربة مُشتقّ من أصول قديمة، لوبيّة بربريّة أو فنيقيّة أو إغريقيّة، لاتينيّة، ف «قرطاج» مثلا هي «قرط حدشت» الفنيقيّة...⁽²⁵⁾.

(19) في هذا الإطار يتحدّث الأستاذ الطّيب التّيزيني، عن «الثّقافة المحبّطة». انظر: التّيزيني (ط) (1989)، ص 48.

(20) الوريّميّ بوعجيلة (ن) (2008). ص 147-152.

(21) حول هذه المسألة (علاقة الأنا بالآخر)، راجع: المنصوري (م ط) (د ت)، ص 120.

(22) بن معمر (ف) (2013)، ص 77.

(23) الكرملّي (أ د ت)، ص 79. أوردته الفجر (م خ) (2017)، ص 304.

(24) انظر: عبد الواحد (واي ف) (2004)، ص 272-273، أوردته الفجر (م خ) (2017)، ص 303.

(25) حسن (م) (2004)، ص 10.

وإذا نزلنا كل ذلك في إطار مسألتنا موضوع الدراسة وهي أسماء الأماكن الحالية بجزيرة جربة، لأمكننا القول إن طوبونوميا الجزيرة، التي استنتجنا أن أغلبها يحمل في بنيته أصولاً أمازيغية، لم تخل هي أيضاً من مظاهر التفاعل والتواصل، وبشكل لافت للانتباه، مع لغات أخرى. وقد كان ذلك بطرق وأساليب مختلفة رأينا منها التمزيع والتعريب، ونضيف إليها ما يُعرف بالأسماء الدخيلة، وهي استعمال لألفاظ وتعابير كما هي في اللغة المصدر⁽²⁶⁾ مثل تغليسة (جزرها اللاتيني: Ecclesia)⁽²⁷⁾، وهو ما يعني أن الأمازيغ ربما كانوا يطمحون، من خلال الافتراض اللغوي، إلى الانفتاح على الآخر والأخذ بلغته، على غرار ما يُقال من أن «المغلوب يتشبه أبداً بالغالب»، على حدّ تعبير ابن خلدون⁽²⁸⁾، أو كما جاء في المثل العربي «من تعلم لغة قوم أمن شرهم»⁽²⁹⁾، بل ربما أيضاً من أجل إبراز قدرتهم على هضم لغة الآخر والتخاطب معه في مستوى الندية سواء أكان هذا الآخر عربياً مسلماً لأنه «لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى»⁽³⁰⁾، أم كان لاتينياً مسيحياً. ومهما يكن من أمر هذه الدوافع فقد أسست للغة أمازيغية متأصلة ولكن متواصلة مع الآخر.

الخاتمة

بيّنت لنا عملية «الحفر في اللغة»، التي قادتنا إلى دراسة أسماء الأماكن الحالية بجزيرة جربة، وجود مجموعات من الأسماء المتضادة والمترتبة⁽³¹⁾ (أسماء أمازيغية فأسماء مُمزّعة ثم أسماء مُعرّبة فأسماء عربية وأسماء دخيلة) هي بمثابة الطبقات الأركيولوجية⁽³²⁾ التي كانت أهم شاهد على تجذر اللغة الأمازيغية في أرض الجزيرة ولكن، في ذات الوقت، متفاعلة مع كل الحضارات الوافدة مما جعل منها لغة مُتجددة في بنيتها الطوبونومية، بما توفر لها من عناصر ثراء أو قابلية للإثراء في الاشتقاق والنحت والتركيب عبر الافتراض اللغوي، وهو ما يسمح لنا بالقول إنها طوبونوميا متأصلة ومتواصلة.

(26) راجع: بن معمّر ف. (2013)، ص. 80 : الفجر م خ (2017)، ص 307.

(27) لمزيد التوضيح أنظر مثلاً: Lassère (J. M.), (1982), p.170-171 et 172.

(28) ابن خلدون (ع ر) (2006)، ص 155-156.

(29) المنصوري (م ط) (د ت)، 132-133.

(30) في هذا الصدد أشادت عديد المصادر الإباضية بفضائل البربر. راجع في هذا الإطار:

الوارجلاني (أ ز) (1985)، ص 52-56.

(31) تشير بعض الدراسات إلى وجوب أن تتواجد - إلى جانب الجغرافيا الأسنينة - ما

يُعرف أيضاً بالجيولوجيا الأسنينة . يمكن، في هذا الشأن، العودة إلى:

Sindo (R.), (1983), pp. 50, 51.

Ben Jaafer (E.), (1985), 260 pages: ولمزيد الاطلاع راجع George (P.), (1987), p. 517 (32)

وهذا التّأصل وهذا التّحديث النّاجم عن التّفاعل أو التّواصل هما في واقع الأمر وجهان لعملة واحدة، وهو ما يجعلنا نؤكد على الأصالة المحدّثة والحدّثة المؤصّلة إذ من غير الممكن الفصل بينهما، فكلّاهما يَتِمّ الآخر⁽³³⁾، ممّا يقودنا إلى طرح جديد لقضيّة اللّغة باعتبارها مُكوّناً أساسيّاً من مُكوّنات التّراث عند كلّ شعب، وهو طرح يقطع، في ذات الوقت، مع كلّ النّزعات الأصوليّة والتّغريبية والتّوفيقيّة، ويُمْكِن، في قضيّة الحال، من إخراج مسألة اللّغة الأمازيغيّة من إطارها المحليّ الضيّق مروراً بمجالها المغاربيّ الأرحب وصولاً إلى فضائها الإنسانيّ الأشمل.

ملحق:

أصناف أسماء الأماكن الحالية بجزيرة جربة

أسماء أمازيغيّة	أسماء مُمرّغة	أسماء عربيّة	أسماء مُعربة	أسماء دخيلة
تاوريت	تاجديت	الحشاني / فضلون	الذريّة	تغليسة
فاتو	تحرّيزيت	خنفوس / القايد	بني ياندو	بورقو
غيزن	مدراجن	حومة السوق / القرع	بوملال	القسّيتل
خبلاش	مجين	بسباس / المحاميد	الزّنزوري	ميننكس
تلاكين	تخماجيت	خربة العجائز / الوشاشة	مزراية	تاريلّا
بركوك	تبورقت	السواني	سيدي جمور	
مرقان	أجيم	مليتة	هنشير المدينة	
صدغيان	قصبين	سانية الرّئيس	قشعين الحلو	
بازيم	تغديمس	الحشان	سوق أزيان	
قشعين	إبحريين	والغ	خزرون المالح	
تنازفت	إقبليين	الحفصيّة	خزرون الحلو	
خزرون		أولاد عمر	سوق زواغة	
مجماج		ظهرة المدينة	الماي	
مغراوة		الرّياض	جليج	
تفجان		حومة الفوقانيين	حومة السكّالة	
تاجموت		المحبوبين	غابة بوشواط	

(33) التّيزيني (ط) (1989)، ص 54.

أفصيل	غابة البور	وادي امغار	
تواجن	بحباح	ربانة	
تلات	غابة بوراس	غرداية	
سدويكش	الأرباح	عقة	
تلوين	البوليمانيين	حومة بني مرزيسن	
ورسيغن	الحزم	مزران	
فاهمين	بدوين	حومة أورير	
تاقرماس	وادي الزبيب	بوسمايل	
ميدون	بني معقل	هنشير الخواي	
تزدادين	الخناسنة	المثانية	
تملال	مجاز الذهب	المقارسة	
آركو	راس العبيد	حومة التلالة	
أغير	قلالة	تملال المالح	
تالة	القطعاية البحرية	تملال الحلو	
أوراسدة	القطعاية القبليّة	حواسة	
جربة	الساقية	حومة الزنكريين	
جعبيرة	الحدادة	الكراشوة	
	الرقة	حومة المذاردة	
	حومة العجامة	سيدي اسماعن	
	السوق القبلي	سيدي قاروز	
	القنطرة	سيدي بكور	
	كنيسة بومرداس	الصرندي	
	طريق الجمال	القاللة	
	أرض الرّوس	للأحضريّة	
	جبانة المجاهدين	واد سيدي	
	جنان المشماش	تاوسخت	
	الجوافر		
	حجر دار جربة		
	الجوامع		
	راس الرّمل		
	سيدي سالم		
	الشيخ يحي		
العدد	العدد	العدد	العدد
% 23.07 /33	% 37.06 /53	% 28.67 /41	% 03.49/05

البليوغرافيا

ابن خلدون (عبد الرحمان) 2005، تاريخ ابن خلدون، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، ط 3.

عبد الواحد وإفي (علي) 2004، علم اللّغة، نهضة مصر، ط 9، القاهرة.

الفجر (محمد خالد) 2017، أسس المعجم المصطلحيّ التّراثيّ، دار كنوز المعرفة للنّشر والتّوزيع، ط 1، عمّان (الأردن).

الكرملي (أنستاس ماري) د. ت، نشوء اللّغة العربيّة ونموّها واكتمالها، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة.

بن مرزوق (الصادق) د. ت، «الشّيخ عمر بن جميع: عصره وحياته وكتابه»، أعلام من جزيرة جربة، مجموعة من المحاضرات التي أقيمت على منبر جمعية صيانة جزيرة جربة، طبع الشّركة التّونسيّة لفنون الرّسم، ص ص 40-50.

معجم المعاني الجامع، معجم عربي-عربي almaany.com/ar/dict/ar-ar

بن معمر (فتحي) 2013، تنفست نلميراز: مقدّمات لدراسة الأمازيغيّة التّونسيّة المعاصرة، ط 1، مكتبة تونس.

المنصوري (محمد الطاهر) د ت، «صورة البيزنطيّين في الحضارة العربيّة من خلال اللّغة»، وقائع ندوة علميّة أيّام 9-10 و 11 أفريل 1999، جمعية صيانة المكتبة الجهويّة بصفافس، الجمعية التّونسيّة للدراسات الفلسفيّة، فرع صفافس. ص ص 119-133.

الوارجلاني (أبو زكرياء) 1985، كتاب السّيرة وأخبار الأئمّة، تحقيق عبد الرّحمان أيّوب، الدّار التّونسيّة للنّشر.

الوريّمي بوعجيلة (ناجية) 2008، حفريات في الخطاب الخلدونيّ: الأصول

باللّغة العربيّة

بربو (المنصف) 2018، تنظيم المجال والتّوطن والتّعمير بجزيرة جربة في العهد الوسيط، رسالة بحث لنيل شهادة الدّكتوراه في علوم التّراث (آثار اسلاميّة)، إشراف الأستاذ محمّد حسن، كلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس.

بربو (المنصف) 2022، «تغيّر أسماء الأماكن بجزيرة جربة بين العهد الوسيط والفترة المعاصرة: البنى الطّوبونيميّة والمعاني الدّلاليّة»، في من سرت الصّغرى إلى سرت الكبرى، تنقل الأشخاص والممتلكات والأفكار عبر التّاريخ، فعاليات المؤتمر الدّولي، صفاقس 17-18-19 نوفمبر 2016، جامعة صفاقس، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفافس، قسم التّاريخ، مخبر الدّراسات والبحوث متعدّدة المجالات والمقارنة، مخبر المغرب العربي: عمران متعدّد وجامعة نيوشاتال، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، قسم الآثار، جميع وتقديم حافظ العبدولي والهادي الدريدي وسالم المكني، ج 2، صفاقس 2022، ص ص 85-105.

التّيّزني (الطيب) 1989، «إشكالية التّراث في العقلانيّة والتّقدّم، لقاءات قابس 2، منشورات مهرجان قابس الدّوليّ. ص ص 41-57.

حسن (محمد) 2004، الجغرافيّة التّاريخيّة لإفريقيّة من القرن الأوّل الى القرن التاسع (XV-XII م): فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط 1.

السُّلَفِيَّةُ وَوَهْمُ الْحَدَاثَةِ الْعَرَبِيَّةِ، دار
الجنوب للنشر، تونس.

بن يعقوب (سالم) 2006، تاريخ جزيرة
جربة ومدارسها العلميّة، اعداد د.
فرحات بن علي الجعيري، دار سراس
للنشر، تونس.

باللغات الأجنبية

Ben Jaafar E. (1985), *Les noms de lieux de Tunisie, racines vivantes de l'identité nationale*, in Cahiers de C.E.R.E.S, série géographique, n°6, Tunis.

George P. (1987), « Evelyne Ben Jaafer, Les noms de lieux de Tunisie, racines vivantes de l'identité nationale », in *Annales de Géographie*, t. 96, n° 536, p. 517.

Lassère J.M. (1982), « Onomastica africana V-VIII », in *antiquités africaines*, 18, p. 167-175.

Margouma M. (2004), « La toponymie algérienne : lecture préliminaire de la dénomination de l'espace », in *nouvelle revue d'onomastique*, n° 43-44, p. 229-234.

Sindou R. (1983), « Paul Aebischer, Etudes de stratigraphie linguistique : Romania Helvetica, vol 87, 1978 », in *nouvelle revue d'onomastique*, n°1, p. 50-51.

بلاد سرت بين القرنين الأول والرابع الهجري / السابع والعاشر الميلادي: مقارنة جغرا - سياسية

محمد حسن⁽¹⁾

Résumé

Afin d'étudier le rôle géo-politique de la Grande Syrte à partir la période de transition entre l'Antiquité tardive et le Moyen-Âge : le I^{er}-II^e s./ VII^e-VIII^e s., jusqu'à la période fatimide, nous avons essayé de glaner des données éparées dans les sources littéraires, aussi bien antiques que médiévales, et dans l'archéologie.

La problématique sera appréhendée à partir de trois angles :

- *Le peuplement de la région* : à mi-chemin entre Pentapolis et Tripolis, Syrte est à la fois le toponyme d'une ville antique et d'une division administrative ('amal), appartenant au district de Barqa. Ce territoire est peuplé de villages, villes et notamment de tribus, dont la plus importante est Maces/ Mazata. L'arrivée des Arabes dans la région n'a pas beaucoup changé le paysage humain, du moins au début, malgré le déplacement subi par quelques fractions de tribus. Toutefois la continuité du peuplement n'a pas empêché la mobilité de la tribu dans l'espace maghrébin, subie par le pouvoir central et par les contraintes de la nature et de l'économie. A titre d'exemple, les Abbasides ont essayé de diviser la tribu, en cherchant à s'allier avec certaines de ses fractions.

- *Le rôle stratégique et militaire* : Surt défraye la chronique pendant cette période de conquête. En effet, Macomades était le point de départ des conquêtes entreprises par 'Uqba, à la fois en direction des oasis du Fezzan (Waddan...) et en direction de l'Ifrîqiya.

- La prolifération de l'Ibadisme au début du II s./VIII^e s. a entraîné l'islamisation de cette région et l'extension du domaine ibadite jusqu'à la région du Surt. Toutefois, cela a suscité la réaction de l'état abbaside, qui a envoyé des missionnaires pour gagner à sa cause les tribus ; certaines fractions de Nafzâwa (Gartita des Bani Mâlin), de Malila et même de Nefousa se sont ralliées à la cause abbaside.

(1) أستاذ متميز. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة تونس.

- *L'importance économique de la région* : la ville de Surt qui était au cœur d'un réseau d'échange à la fois saharien, méditerranéen et oriental, a pu passer d'un centre de guerre et de conflit à un espace économique et culturel florissant.

Après la fin des révoltes de Lawâta, la grande Syrte a connu une période de croissance économique manifestée par l'enrichissement de la tribu de Mazâta qui devint le support fondamental de l'imamat rustumide à Tâhirt. Au IV^e/X^e s., cette région qui est désormais au centre de l'empire fatimide, a connu une activité économique intense.

Mots clés :

Abstract

In order to study the geo-political role of Greater Sirte from the transition period between Late Antiquity and the Middle Ages: the 2nd-II/VII-VIII s., until the Fatimid period, we tried to glean scattered data from literary sources, both ancient and medieval, and in archaeology.

The problem will be understood from three angles:

- *The settlement of the region: half way between Pentapolis and Tripolis, Sirte is both the name of an ancient city and an administrative division ('amal), belonging to the district of Barqa. This territory is populated by villages, towns and especially tribes, the most important of which is Maces/Mazata. The arrival of the Arabs in the region did not change the human landscape much, at least at first, despite the displacement suffered by a few fractions of tribes. However, the continuity of the settlement did not prevent the mobility of the tribe in the Maghreb space, suffered by the central power and by the constraints of nature and economy. For example, the Abbasids tried to divide the tribe, seeking to ally themselves with some of its fractions.*

- *The strategic and military role: Surt made headlines during this period of conquest. Indeed, Macomades was the starting point of the conquests undertaken by 'Uqba, both towards the Oases of Fezzan (Waddan...) and towards The Ifrîqiya. The proliferation of Ibadism at the beginning of the 2nd century. led to the Islamization of this region and the extension of the Ibadite domain to the Surt region. However, this provoked the reaction of the Abbasid state, which sent missionaries to win over the tribes; fractions of Nafzâwa (Gartita des Bani Mâlin), Malila and even Nefousa have joined the Abbasid cause.*

- *The economic importance of the region: the city of Surt, which was at the heart of a network of exchanges that were both Saharan, Mediterranean and Eastern, was able to move from a centre of war and conflict to a flourishing economic and cultural space.*

After the end of the Lawâta revolts, the great Sirte experienced a period of economic growth manifested by the enrichment of the Mazâta tribe which became the fundamental support of the Rustumide Imamate in Tâhirt. In the 4th century, this region, which is now at the centre of the Fatimid empire, experienced intense economic activity.

Key words :

المقدمة

إذا ما استثنينا الدراسات حول سرت في العصر القديم، فقد ظلت الكتابات حولها في العصر الوسيط محدودة، وخصت أساسا المدينة وأثارها، ولم تعن إلا عرضا بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي⁽²⁾.

ويعود ذكر مجال سرت لأول مرة إلى المؤرخ الإغريقي «هيرودوتس» في القرن الخامس ق م، ثم بعد ذلك لم يغب الحديث عنها في المصادر الإغريقية واللاتينية. فكانت في البدء سوقا تتبادل فيها البضائع بين الفينيقيين والقبائل اللوبية، ثم تحولت تدريجيا إلى مدينة ذات سور⁽³⁾.

269

ورد في جغرافية سترابون (المتوفى سنة 19-21 م) ذكرا لبداية خليج سرت الكبرى وهي كيفالي، ومعنى الكلمة الرؤوس، ويقع عند قصر أحمد قرب مصراطة الحالية. وتعدّ برنيق نهاية هذا الخليج. وفي شرقها يوجد ضريح الأخوين فيليني *Autel des Philènes* الذي قسّم المجال إلى قسمين: البلاد الطرابلسية وأنطابلس⁽⁴⁾.

على أنّ آثار سرت الحالية لا تعود إلا للحقبة العربية، إذ لم يعثر في ناحيتها على آثار المدينة القديمة. ممّا يفسّر أنّ مسألة الانتقال من العصر القديم إلى الوسيط تظل مطروحة⁽⁵⁾.

فما هي خصائص التوطين والتعمير؟ وما هي مكانتها الإستراتيجية انطلاقا من الأدوار التاريخية التي قامت بها طيلة العصر الوسيط المبكر؟ وفي ما ذا تتمثل أهميتها الاقتصادية؟

(2) جولدتشايد (1999) : تيري (2003) : القرقوطي (2009) : عبد السيد (2009) :

Mattingly (1995) ; Abdussaid (1966-67) ; Mouton et Racinet (2014).

(3) Gsell (1915), p. 39 : Les Nasamons : « c'est un peuple libyen qui habite la Syrte ».

(4) سترابون (2002)، ص 112، 115.

(5) Mouton et Racinet (2014), p. 2.

أوّلاً: التّوطين والتّعمير

تمتدّ حدود إفريقيّة شرقاً إلى ناحية مسرّاتة، وهو ما ذكره سحنون في العهد الأغلبي وأكّده البرزلي في العهد الحفصي: «سحنون يقول: حدّ إفريقيّة من طرابلس إلى طنبّة، وهي قبلة بجاية وجبال طرابلس وعمالاتها منها. يقولون إلى سويقة مذكور [مطكود]، وهي اليوم مسرّاتة، موضع يقال له هوّارة، ووراءه بلد على مسيرة يوم يقال له تاورغا منها، ومن ورائها إقليم سرت وتقدّمت»⁽⁶⁾.

1- المجال: حيّز سرت والمدينة

يتمتدّ خليج سرت شرق مصراطة وتاورغا ابتداء من مغمّداس وإلى برنيق (بنغازي). وتوسّط هذا الخليج مدينة سرت التاريخيّة. وقد اتّخذ لفظ سرت (سرتكوس) في العهد البيزنطي معنى واسعاً⁽⁷⁾.

أ- مدينة سرت

توجد آثار مدينة سرت التاريخيّة في موقع سلطان الحالي. وتقع على ساحل البحر، وسط خليج ممتدّ على طول 425 كم، شمال وادّان بنحو 251 كم، وشرق المواقع التالية بالمسافات المذكورة: سرت الحالية: 55 كم، ومغمّداس: 59 كم، وقصور حسّان: 70 كم، وتاورغا: 270 كم، وطرابلس: 524 كم⁽⁸⁾.

كان أوّل من ذكرها ابن عبد الحكم شرق مغمّداس، عند حديثه عن فتحها: «وكان توجّه بسر(بن أبي أرطاة) إليها (أي مغمّداس)، كما حدّثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد، سنة 26 من سرت»⁽⁹⁾.

وقد كانت المدينة في علاقة وطيدة مع ناحيتها جنوباً، مثلما لمّح إلى ذلك ابن حوقل: «وودّان ناحية ومدينة في جنوب مدينة سرت، وكانت مضمومة إليها... وسرت مدينة ذات سور صالح كالمنيع من طين وطابية»⁽¹⁰⁾. ممّا يعني مدى ارتباط المدينة بناحيتها وبالقبائل الداخليّة.

ومن الجليّ أنّ المدينة بلغت أوج تطوّرها في العصر الفاطمي، حسب شهادة محمّد بن يوسف الورّاق: «وهي مدينة كبيرة على سيف البحر، عليها سور طوب وبها جامع وحمام وأسواق، ولها ثلاثة أبواب قبلي وجوفي وباب صغير إلى

(6) البرزلي (2002)، ج 2، ص 534.

(7) Moderan (2003), p. 230.

(8) تيري (2003)، ص 400؛ جولدشيلد (1999)، ص 259.

(9) ابن عبد الحكم (1991)، ص 194.

(10) ابن حوقل (1979)، ص 70-71.

البحر، ليس حولها أرباض». وهو ما أكّده المقدسي، فهي بلاد عامرة بنيانها حجارة على البحر، وشربهم من مياه الأمطار.

وقد بقيت آثار هذا الجامع وأُجريت به حفريّة في الستينات ودرسه عبد الحميد عبد السيد⁽¹¹⁾.

ب- مغمّداس الكبرى / *Macommades Maiores*:

تعدّ هذه المدينة الساحليّة مفصلاً هاماً في الطريق الرابط بين مصر وإفريقيّة. وقد كانت واقعة في حقبة الأمبراطوريّة العليا على التخوم الرومانيّة الطرابلسيّة إذ ذكرت: *Notitia Dignitum : limes Maccomadensis*⁽¹²⁾. وإن كنّا نجهل التحصينات القديمة الموجودة بها، فقد اتّخذها العرب منذ البداية معسكراً لجيوشهم التي تقوم بحملات في اتجاه فزان أو الغرب (إفريقيّة). ومن الأدلّة على ذلك اختيار مغمّداس معسكراً لجند عقبة بن نافع، أثناء الحملات الموجهة نحو فزان وطرابلس.

ويبدو أنّ معركة مغمّداس سنة 143 هـ/ 760-761 م قد كان لها الأثر الكبير بإفريقيّة، مثلما تدلّ عليه رسالة رباح بن يزيد اللخمي (ت 172 هـ/ 788-789 م) إلى البهلول بن راشد: «وقد علمت ما حل بمغمّداس وغيرها، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون»⁽¹³⁾.

ج- حيّز سرت

خصّص ابن الصغير مصطلح وطن لقبائل مزاتة وسدراتة المنتجة من أوطانها إلى تاهرت زمن الربيع. أمّا المجال الواقع بين إجدابية شرقاً وسرت ومغمّداس غرباً وودّان وزالة جنوباً، والمتوسّط بين إقليميّ طرابلس وأنطابلس برقة، فقد استعمل ابن سلام مصطلح حيّز سرت للدلالة عليه. وهو يبدأ حيث ينتهي حيّز طرابلس شرق تاورغا، الواقعة على مسيرة ثمانية أيّام من طرابلس حسب الدرجيني، كما ذكر ابن سلام «أهل سرت». وتعرّض الشماخي إلى أرض سرت. أمّا اليعقوبي، فإنّه تحدّث عن عمل سرت. وذكر صاحب «أخبار فحّ» ناحية سرت. فأثناء ثورة الجند بإفريقيّة، أمر هرثمة بن أعين سنة 179 هـ/ 795-796 م بتوجيه جند طرابلس إلى القيروان، «وخالفه عبد الله بن الجارود، (أحد قوّد ثورة الجند)، فخرج عنها إلى ناحية سرت وأقام بها»⁽¹⁴⁾.

(11) البكري (1992)، ج 2، ص 651-652؛ المقدسي (1906)، ص 224؛ عبد السيّد (2009).

(12) Itinéraire d'Antonin (1929): 34 milles entre Macomades Syrtis et Iscina; Moderan (2003), p. 262.

(13) المالكي (1983)، ج 1، ص 307.

(14) الدرجيني (د ت)، ج 1، ص 33، 39؛ ابن سلام (1986)، ص 119؛ الشماخي (2009)، ج 2، ص 253؛ الرازي (2011)، ص 178؛ اليعقوبي (1892)، ص 345.

وتعرّض ابن عبد الحكم إلى مجال أطلق عليه سرت، وكانت مغمداس من بين مدنه، وذلك عند ذكره لقيادة عقبة بن نافع العمليات العسكرية. ففي سنة 46 هـ/ 666-667 م، «أقبل (عقبة بن نافع) بمغمداش من سرت»، وهو ما يعني أنّ سرت شملت كامل الخليج الواقع بين الرأسين: طرابلس وبرقة⁽¹⁵⁾.

وحصيلة القول، لم تشهد الحدود من العهد البيزنطي إلى الإسلامي تغييراً كبيراً، فكانت تاورغا بداية حيّز طرابلس، وإن ظل المجال الفاصل بينها وبين ضريح «الأخوين فيلين» *Autel des Philènes* (مرسى زعفران الحالي) ومن ضمنه مغمداس وسرت، متأرجحاً بين إقليمي برقة وطرابلس⁽¹⁶⁾.

2- التوطين القبلي

سكن هذه البلاد في عهد الإمبراطورية العليا: *Maces* في الساحل الشرقي و*Nasamons* في الساحل الغربي. وذكرت هاتان القبيلتان في جل المصادر القديمة، من هيرودوت حتى «لوحة بيتتجر». وأوضحت بين القرنين الرابع والسادس الميلادي موطناً لقبيلة الأوستور (ياني) النازلة بين إقليمي طرابلس وأنطابلس. وقد مثلت واحداً زالة وأوجلة نقاط انسحاب للقبائل البدوية⁽¹⁷⁾.

كيفية تطوّرت الخارطة القبليّة ببلاد سرت في بداية العصر الوسيط؟

من الثابت أنّ تواصل التوطين بين القديم والوسيط هو أمر بديهي، إلّا أنّه شهد تطوّرات نوعيّة، ناجمة عن وجود هذه القبائل على طول طريق الجادة الكبرى، وعن سياسة الدول الأموية والعباسية، التي سعت لإبعادهم عن هذا الطريق الاستراتيجي.

- اتّحادية لواتة:

عرفت هذه القبيلة في المصادر البيزنطية بإقليم برقة الممتدّ إلى طبرق شرقاً وسرت غرباً، بتسميات مختلفة: *Levates-Laguantes*. ونشأ هذا التجمّع القبلي قبل الإسلام وتصدّى للرّومان ثمّ البيزنطيين. ففي العقد الرابع من القرن السادس م، تسرّبت مجموعات منها إلى بلاد المزاك للمشاركة في ثورة «أنتالاس/ *Antalas*» سنة 544-546 م، وذلك لمحاربة

(15) ابن عبد الحكم (1991)، ص 194.

(16) الرازي (2011)، ص 50؛

Benabbes (2004), p. 37.

(17) Moderan (2003), p. 214, 218 (Moderan fait la différence entre Mazikes - Mzûgha et Maketai - Mazata).

البيزنطيين، مثلما أشار إلى ذلك «كورييوس»، ثمّ عادت من جديد إلى مواطنها بالصحراء⁽¹⁸⁾.

تكوّن حلف لواتة من المجموعات القبلية الأولى التي تصدّت للعرب الوافدين من مصر، وذلك قبل أن تتحالف معهم، واعتنقت الإسلام مبكراً حتى زعمت الروايات الإباضية التقاء وفد من لواتة بعمر بن الخطاب. كما انخرطت في جيش عقبة، واعتمد عليها حسان كذلك، فعين هلال بن ثروان اللواتي في مقدّمة الجند. وقد عملت السلطة على تأمين طريق الجادة وإبعاد القبائل عنه⁽¹⁹⁾. ولئن يعسر تتبّع انتقال لواتة من الشرق إلى الغرب، فقد انتشرت بطونها منذ زمن مبكر في بلاد قصطيلية وجبال الأوراس ومنطقة الزّاب. ولدينا إشارة واضحة إلى النقل القسري الذي تعرّضت له بعض فروعها إلى ضواحي تاهرت، من ناحية القبلة. ولعلّ ذلك حصل زمن موسى بن نصير، إذ جاء في كتاب العبر: «ويقال إنّ بعض أمراء القيروان نقلهم معه في غزوة وأنزلهم هنالك»⁽²⁰⁾.

- مزاتة:

القبيلة	الموقع	الخصوصية	المصدر
<i>Maces</i>	شمال النازامون وغربهم <i>Au dessus des Nasamons</i>	« ceux-ci se rasent les cheveux »	<i>Hérodote, 13</i>
مzataة		محلّو الرؤوس واللحي	أبوزكريا، كتاب المسيرة، ص 55.

اعتبرت مزاتة من أهمّ بطون لواتة، نظرا إلى الجوار بين القبيلتين، وإلى أولوية لواتة في الأحداث الحاصلة عند حروب الفتح. وإذ رجّح «ديزانج» أن يكون اسمها القديم: *Mastitae*، وموطنها الأصلي وادي نظرون، فإنّ «موديران» ذهب إلى أنّه *Maces*، وهو الأقرب على الصواب.

(18) Moderan (2003), p. 67, 315-334.

(19) ابن عبد الحكم (1991)، ص 200 : أبو زكريا (1985)، ص 53-55. كما كان جدّ ابن سلام، عمر بن يمتن، من لواتة: ابن سلام (1986)، ص 121.

(20) ابن خلدون (2011)، ج 11، ص 258.

وتعرّض «كوريبوس» إلى مَزاق *Mazac* بمعنى الموريين. وذكر *Synésios de Cyrène : Macètes*، ووردت في القرن السادس م تحت اسم *Maces* ⁽²¹⁾.

وقد كانت نازلة بالمثلث غريان بو نجم ودّان. ورد ذكرها في «هيرودوت»، مجاورين للنازامون، وكانوا يخلقون شعورهم كاملا، وهو ما استمرّوا على العمل به قبل سنة 23 هـ/ 644 م، في الوفد الذي التقى بعمر بن الخطاب ⁽²²⁾.

ذكر ابن عبد الحكم «أرض مزاتة» جنوب سرت منذ النصف الأول من القرن الأول هـ/ السابع م سنة 46 هـ/ 666-667 م، لما تولّى عقبة السيطرة على قصورها، قبل متابعة طريقه في اتجاه القيروان: «وأخذ إلى أرض مزاتة، فافتتح كل قصر منها ثم مضى إلى... فافتتح قلاعها وقصورها، ثم بعث خيلا إلى غدامس» ⁽²³⁾. وهو ما يعني أنّ المجال المزاتي كان في الآن نفسه قبيلا وزراعيا، مقتنرا بالأرض.

ورأينا أنّ ابن سلام نعت هذا المجال بحيز سرت، وهو ما تناسب مع المجال الإداري الذي أطلق عليه عمل سرت. قال اليعقوبي في هذا الصدد: «ومن أعمال برقة المضافة كانت إليها ودّان، وهو بلد يؤتى من مفازة، وهو ممّا يضاف إلى عمل سرت». ويتنزّل في هذا السياق استقرار مجموعات يمانية بوّدان أو هكذا تزعم، وذلك لتأمين المحور التجاري سرت ودان زويلة ⁽²⁴⁾. وذكر اليعقوبي داخل مجال سرت ومزاتة البطون التالية:

- منداسة: نزلت قبيلة منداس حسب الدرجيني بموضع تاهرت. وقد اعتبرها ابن خلدون من بين قبائل هواره ⁽²⁵⁾.
- مجيجة (أو محنا): وهي حسب ابن خلدون من بطون مزاتة ⁽²⁶⁾.
- فنتاس حسب اليعقوبي، ولعلّها فطناسة، عدّها ابن حوقل من زناتة ⁽²⁷⁾.

(21) Moderan (2003), p. 214, 218 (il a distingué entre Mazikes et Maketai - Maces - Mazata).

Benabbes (2004), p. 350-351.

(22) Gsell (1915), p. 13 ; Désanges (1962), p. 173-178 ; Moderan (2003), p. 777-778 ;

الهداجي (2014)، ص 17-18.

(23) ابن عبد الحكم (1991)، ص 196.

(24) ابن عبد الحكم (1991)، ص 196 ؛ ابن سلام (1986)، ص 118 ؛ اليعقوبي (1892)، ص 345.

(25) ابن خلدون (2011)، ج 11، ص 256؛ الدرجيني (د ت)، ج 2، ص 430، 442 ؛ ابن سلام (1986)، ص 117.

(26) ابن خلدون (2011)، ج 11، ص 256، 306 ؛ الدرجيني (د ت)، ج 1، ص 43.

(27) اليعقوبي (1892)، ص 344 ؛ ابن حوقل (1979)، ص 103.

وذكر ابن خلدون من بين بطون مزاتة: دكمة وبنو مطكود وبنو يليان ومجيجة ومدنة وبنو زميرين وكزينة. كما ورد في «ذكر أسماء بعض شيوخ الوهبيّة» (نهاية القرن السادس هـ/ الثاني عشر م) البطون التالية: يزميرتن، مطكود، مدونة، يليان، كزينة، زميرين، زهانة. كما اعتبرت المصادر الإباضيّة فطناسة من مزاتة. وتعرّض إليها ابن سلام في قوله: «زهانة ومن فيها من فطناسة» بمغمداس. وإجمالاً تقع منازل مزاتة بوْدان، وتتّجع شمالاً في ناحية مغمداس سرت.

وقد تعرّضت المصادر إليها في أحداث سنة 144 هـ/ 761-762م، لما انتقلت فروع منها إلى جبل نفوسة وتيهرت عند إنشاء الإمارة الرّستميّة. وهو ما يأتي حجة على أنّ حركة القبائل كانت من الشّرق في اتجاه الغرب في الحقبة الإسلاميّة المبكرة. كما انتقلت مجموعات أخرى إلى جبال نفوسة ودمّر وقصطالية وجبل وسلات وبلاد الزاب⁽²⁸⁾.

ولئن انضوت مجموعات صغيرة إلى السلطة المركزيّة بالقبروان، وخصوصاً في العصرين الفاطمي والصنهاجي، فإنّ جلّ مزاتة ظلّت وفيّة لانتمائها المذهبي الإباضي، وكانت قبيلة فاعلة في مواجهة الفاطميين، حتّى أنّ المعزّ لدين الله الفاطمي أوصى بمحاربة مزاتة وزناتة⁽²⁹⁾.

- هَوّارة: يبدو أنّها تتاسب *Aor* الوارد ذكرها في «كوريبوس». انتشرت منذ العهد البيزنطي في جنوب شرق طرابلس، بين تاورغا شرقاً وطرابلس وجبال نفوسة وغريان غرباً وبنو الوليد جنوباً، على طول سهل جفارة، وقرب خط الثغور (الليماس) في الصّحراء والتّلّول.

تولّى عقبة بن نافع غزو هَوّارة وشريك بن سمّي مدينة لبدة سنة 43 هـ/ 663-664 م، ويبدو أنّها لم تتخذ موقفاً مناصراً للبيزنطيين، ولم تبد في تلك الحقبة مقاومة ما⁽³⁰⁾.

وكانت مليلة إحدى بطونها بناحية طرابلس سنة 150-155 هـ/ 767-772 م، وهي بنواحي زليتن حسب لويسكي⁽³¹⁾. تولّت قيادة جيش أبي الخطاب، لكن ذلك لم يمنع من انحيازها سنة 154 هـ/ 771 م إلى صف الجند العبّاسي.

(28) ابن عبد الحكم (1991)، ص 194، 196؛ ابن سلام (1986)، ص 131؛ ابن الصغير (1986)، ص 47، 113؛ ابن خلدون (2011)، ج 11، ص 256؛ Lewicki (1957), p. 318.

(29) الدرجيني (د ت)، ج 1، ص 140؛ المقرئ (1967)، ج 1، ص 101.

(30) الكندي (1908)، ص 32؛ ابن خلدون (2011)، ج 11، ص 305-317؛ Lewicki (1957), p. 321؛

ابن خلدون (2011)، ج 11، ص 307.

وقد ذكرت ورداسة قرب تاورغا في المجال الهواري سنة 145 هـ/ 762-763 م، وتكرّر الحديث عنها لدى ابن خرداذبه واليعقوبي والرقبي في هذه الناحية.

أمّا ملزوزة التي اعتبرتها المصادر الإباضيّة من هواره، فقد نسبها ابن خلدون إلى مغيلة من ضريسة، وكذلك نسب أبا حاتم الإباضي (ت 155 هـ/ 772 م)، بيد أنّه اعتبر عبد الجبار بن قيس المرادي والحارث بن تليد الحضرمي، وقد توفيا سنة 132 هـ/ 749 م، من هواره⁽³²⁾.

- **نفزاوة:** تحالفت قرطبيطة بسرت من بني مالين مع العباسيين ضدّ أبي الخطاب⁽³³⁾.

- **زناتة:** عدّها ابن حوقل من زناتة. ومن بطونها في القرن الثاني هـ: مرهنيان⁽³⁴⁾.

- **عجم سرت:** لم تقتصر الساكنة على البربر فحسب، مثلما أشار إلى ذلك نصّ ابن حوقل، وإن اكتنفه بعض الغموض: «وعدد البربر بها أوفر وأغزر وأكثر منه بما جاورها. وللبربر حاضرة بنفس قسبة سرت، وبينهم خلاف على مرّ الأوقات وحروب... وعاملهم قائم بنفسه من تحت يد سلطانهم الأعظم». ولا نستبعد أن يكون أجوار البربر من بقايا العجم الأفارقة الذين تحدّث عنهم البكري. قال في خصوص لغة أهل سرت القديمة التي يبدو أنّها من بقايا اللغة البونيّة: «ولهم كلام يتراطنون به ليس بعربي ولا عجمي ولا بربري ولا قبلي لا يعرفه غيرهم. وهو على خلاف أخلاق أهل طرابلس، فإنّ أهل طرابلس أحسن خلق الله معاشرة وأجودهم معاملة وأبرّهم بغريب»⁽³⁵⁾.

وحصيلة القول، لا يشكّ أنّ موقع سرت متميّز في خارطة البحر المتوسط من جهة، والصحراء الكبرى وأفريقيا من جهة ثانية، وهي علاوة على ذلك نقطة ربط بين المشرق والمغرب. وعلى المستوى المحلي، ظلت منطقة متوسطة بين طرابلس وبرقة، وإن انتمت في الغالب إلى شرق خط ضريح الأخوين فيلين/ *Autel des Philènes*.

(32) ابن سلام (1986)، ص 131؛ ابن خرداذبه (1889)، ص 86؛ اليعقوبي (1892)، ص 346؛ الرقيبي (1990)، ص 104؛ النويري (1983)، ص 74؛ ابن خلدون (2011)، ج 11، ص 242، 275-276.

Bouzid (2004), p. 243-245.

(33) ابن سلام (1986)، ص 119.

Bouzid (1991-92), p. 155.

(34) ابن سلام (1986)، ص 121؛ ابن حوقل (1979)، ص 103.

(35) ابن حوقل (1979)، ص 71؛ البكري (1992)، ج 2، ص 652.

وفضلاً عن تواصل تعمير مدينة سرت القديمة، أضحت مغمّداً إحدى نقاط الارتكاز الأساسية في هذه المنطقة. أمّا قبائل سرت، وهي لواتة ومزاتة وهوارة، فقد شهدت تطوراً محدوداً في مجالها منذ العهد البيزنطي، تمثل في انتقال مجموعات إلى الغرب. ومثلما لجأ الرومان إلى سياسة تقسيم القبائل، فقد سعى العرب إلى كسب ودّ بعض بطون هذه القبائل مثل قرطيطة من نفزاوة ومليلة من هوارة، وذلك لغرض السيطرة على الطريق الرئيس الرابط بين المغرب والمشرق⁽³⁶⁾.

ثانياً: الدور الاستراتيجي: المكافحة الدفاعية بسرت

نظراً إلى أهمية الموقع، بدأت بعض القبائل: لواتة أولاً، ثم بنو مالين من نفزاوة، ومليلة من هوارة، وحتى بعض النفوسيين، في تقبّل الوجود العباسي تدريجياً. إلا أنّ الغالب على هذه القبائل هو التشبّث بكيانها والحفاظ على خصوصياتها القديمة.

1- سرت إحدى نقاط الارتكاز في حروب الفتح

أ- طور الفتح بعهد

أبرمت لواتة معاهدة مع الجيش الواصل إليها من مصر، بقيادة عمرو بن العاص، دون أن تبدي مقاومة كبيرة في تلك الآونة، رغبة منها، دون شك، في التخلص من المحتل البيزنطي. ولم يكن جند ابن العاص كثير العدد، إذا ما اعتبرنا أنه قدم من مصر ومعه حوالي أربعة آلاف مقاتل، وبلغ عدد المقاتلة بعد أن وصله المدد نحو 12000⁽³⁷⁾.

تعرّض الكندي إلى هذه الأطوار التي عرفتها علاقة لواتة بالسلطة المركزية، فبين أنّ هذا الصّلع مع لواتة ظلّ ساري المفعول من تاريخ إبراهيم سنة 21 هـ/ 642 م إلى بداية خلافة معاوية بن أبي سفيان. ويبدو أنّ الأمويين قاموا بمراجعة هذه المعاهدات، بما فيها قاعدة الجباية، فأثار ذلك ردّ فعل لواتة. ممّا جعل عمرو بن العاص يرسل شريك بن سمّي الغطيفي لغزو لواتة سنة 40 هـ/ 660-661 م. جاء في الكندي: «عقد عمرو بن العاص لشريك بن سمّي الغطيفي على غزو لواتة من البربر، فغزاهم شريك في سنة 40 هـ، فصالحهم». ويبدو أنّ هذه الحملة لم تحقّق أهدافها، إذ تنزّل في هذا الإطار حملة عقبة بن نافع في السنة الموالية، بعد أن اتّجهت لواتة غرباً إلى ناحية طرابلس، فرارا من دفع الجباية. وأضاف مؤلّف «كتاب الولاة والقضاة»: «ثمّ

(36) Modéran (2003), p. 246-247, 266.

اعتبر موديران أنّ لواتة والأستور هم من البربر خارج الليماس.
(37) ابن عبد الحكم (1991)، ص 118-128.

انتقضوا بعد ذلك على عمرو بن العاص، فبعث إليهم عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري في سنة 41 هـ/ 661 م، فغزاهم⁽³⁸⁾.

وهو ما يفسّر اتّخاذ عقبة مغمّداس نقطة ارتكاز لقطع الطريق أمام تقدّم لواتة، خصوصا أنّه اتّجه في حملته جنوبا إلى مدن فزان، بدءا بوّدان، التي غزاها لأوّل مرّة بسر بن أبي أرطاة سنة 23 هـ/ 644 م، وحسب ابن الشباط: سنة 26 هـ/ 647-646 م⁽³⁹⁾.

وتتّزل حملته الصّحراوية في هذا الإطار، من ضبط حدود القبائل ومنع تسربها إلى الغرب، لتيسير جبايتها. ويتّضح من خلال كل ذلك أنّ انتشار الإسلام لدى لواتة لم يحصل إلى حدّ ذلك الوقت⁽⁴⁰⁾.

وفي سنة 41 هـ/ 661 م، عيّن عمرو بن العاص عقبة بن نافع، وهو ابن خالته، على قيادة جيش. فانطلق من مصر، في اتجاه «لوبيّة ومراقية»، وكثر القتل والسّبي في هذه العمليّات الأولى التي حصلت في المجال المتوسّط بين مصر وبرقة، بعدما أبدوا مقاومة، وحسب عبارة ابن الخياط: «أطاعوا ثمّ كفروا»⁽⁴¹⁾. وقد اتّجه عقبة لمحاربة لواتة الذين أبرموا صلحا أولا عمرو بن العاص سنة 21 هـ، وثانياً مع قائده: شريك بن سمي الغطيفي المرادي سنة 40 هـ/ 660 م. ولمّا نقضوا العهد، أرسل إليهم عقبة بن نافع، فتقدّم غربا لغزو هوّارة، واتّجه شريك الغطيفي إلى لبدة سنة 43 هـ/ 663 م⁽⁴²⁾.

(38) الكندي (1908)، ص 32. مثلما حصل لبرقة، فتحت إجدابيّة صلحا، مقابل دفع جزية مقدارها خمسة آلاف دينار: ياقوت (د ت)، ج 1، ص 100.
(39) الشّابي (1977)، ص 9؛ حسب ابن أبي دينار (1967)، اتّجه بسر بن (أبي) أرطاة إلى جبل نفوسة ثمّ إلى وّدان.

(40) الكندي (1908)، ص 32: «فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم، فأبى عليهم وقال: إنّه ليس لمشرك عهد عندنا... ولكن أبايعكم على أنكم توفوني وذابتي، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بعناكم»؛ ابن عبد الحكم (1991)، ص 194: «فأقبل عقبة بن نافع حتّى نزل مغمّداس من سرت، وكان توجّه بسر إليها... وبلغه أنّ أهل وّدان قد نقضوا عهدهم، ومنعوا ما كان بسر بن أبي أرطاة فرض عليهم».

(41) ابن الخياط (1993)، ص 153: «ولّى عمرو بن العاصي وهو والي مصر عقبة بن نافع الفهري وهو ابن خالة عمرو، فانتهى إلى لوبيّة ومراقية»؛ وذهب ابن حزم (1983)، ص 163 إلى كونه شقيق عمرو من أمّه.

(42) الكندي (1908)، ص 32-33، 38؛ ابن الأثير (1965)، ج 3، ص 209. عاد عقبة بعد حملته على فزان إلى مغمّداس ومنها انطلق من جديد في اتجاه القيروان: «ثمّ ارتحل حتّى قدم عسكره بعد خمسة أشهر، وقد جمّت خيولهم وظهرهم، فسار متوجّها إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض مزاتة...»؛ ابن عبد الحكم (1991)، ص 194، 196.

ولم يحصل الاتجاه نحو ودّان ثم فزان إلا سنة 46 هـ/666 م، مثلما ورد في ابن عبد الحكم، وذلك رفقة بسر بن أبي أرطاة وشريك بن سمي الغطيفي المرادي. وكانت الحملة مكوّنة من عدد ضئيل من المقاتلة: 400 فارس و400 بغير و800 قرية.

ثمّ عقب التّجوال في فزان اتّجاهه إلى ناحية الشّمال الغربي، ولا ندري هل دخل غدامس فعلاً سنة 46 هـ/666 م، قبل وصوله إلى القيروان، أم أنه وقع تصحيف لاسم الموقع. وفي هذه الحالة، يحتمل أنه عاد من جديد إلى مغمّداس، التي اتخذها منطلقاً لغزواته ونقطة التقاء لهذه القبائل العربيّة القادمة من كل صوب.

ففي هذه السنة، أي 46 هـ، انطلقت حملة عقبة في اتجاه فزان من مغمّداس، وترك جزءاً من الجيش هنالك تحت إمرة عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، واتّجه جنوباً إلى ودّان، وذلك لتأمين الخطوط الخلفيّة للمقاتلة العربيّة⁽⁴³⁾.

ويبدو أنه ابتداء من تلك الحقبة وقع تأمين هذا المثلث في وجه تحرّكات المقاتلة العربيّة في اتجاه المشرق أو القيروان. ولم يقع ذكر هذا الحصن إلا قبيل سقوط الدولة الأمويّة.

والحقيقة ليس من اليسير إعادة ترتيب الأحداث، نظراً إلى ما اكتنف التّاريخ من روايات ذات طابع أسطوري تراكمت عبر الزمن، ومن انحياز إلى طرف دون آخر، وطمس للعهد الأموي. وتمثّلت غائيّة حملات عقبة في إحكام السيطرة على طريقي الجادة الكبرى والصّحراوي، اللّذين يمثّلان عماد النّشاط الاقتصاديّ لدى لواتة ومزاتة. وقد تمكّن بواسطة هذه الحملة من الفصل بين القبيلة ومجالها الاقتصادي.

ب- ولاية حسان بن نعمان

لما هزمت الكاهنة حسان، انسحب إلى الشرق واستقرّ بالقصور المسماة باسمه، غرب سرت التاريخيّة بنحو سبعين كلم. وإذ أنشأ نقطة ارتكاز هناك، في حدود إفريقيّة الشرقيّة، فإنّ ذلك لم يمنعه من السعي إلى ضمّ كامل إقليم برقة إلى إفريقيّة بعد انتصاره على الكاهنة، لكنّه فشل في ذلك، وأضحت تابعة لوالي مصر: عبد العزيز بن مروان. وممّا يذكر في هذا الصدد أنّه في حدود سنة 147 هـ/764 م، «ضمّ (والي مصر) يزيد بن حاتم من جديد برقة إلى عمل مصر»⁽⁴⁴⁾. ممّا يعني أنّ المسألة أعيد طرحها قبل هذا التاريخ.

(43) ابن عبد الحكم (1991)، ص 194؛ ابن الأثير (1965)، ج 3، ص 231؛ جعيط (2008)، ص 18.

(44) الكندي (1908)، ص 116.

2- سرت، أرض الدعاة

أ- انتشار المذهب الإباضي بسرت

يعود امتداد المجال الإباضي إلى سرت إلى سنة 131 هـ/ 749-748 م، إذ سيطر الإباضيّة آنذاك على مجال ممتدّ من جبل نفوسة إلى سرت. ففي هذه السنة، كان عمرو بن عثمان القرشي واليا على طرابلس. «فقفل عبد الرحمان بن حبيب واجتمع إليه جمع كثير فزحف بهم عبد الجبار والحارث بن تليد، فلقبهم بأرض زناتة، فانهزم عمرو بن عثمان وأصحابه واستولى عبد الجبار والحارث على طرابلس كلها. ثمّ خرج عمرو بن عثمان إلى رغوغا [دغوغا] ومعه مجاهد بن مسلم، واتبعه الحارث بن تليد، فتوجّه عمرو من دغوغا إلى أرض الصحراء، فأدركه الحارث، فتقدّم عمرو إلى سرت، فأدركته خيل الحارث، فقتلوا نفرا من أصحابه ونجا عمرو على فرسه جريحا»⁽⁴⁵⁾.

ب- أسرة ابن سلام بن عمر بن يمكتن اللواتي

كان لسرت السبق في تعلّم اللغة العربيّة ببلاد المغرب، إذ كان عمر بن يمكتن، وهو من جبل نفوسة، يعترض السابلة بمغمداس، في الطريق الرابط بين المشرق والمغرب، ليتعلّم اللغة العربيّة. ثمّ أضحي بدوره مدرّسا لها. عيّنه أبو الخطاب المعافري عاملا على سرت. وشارك في معركة تاورغا وتوفي بها سنة 144 هـ/ 761 م. وعند ذكر ابن سلام لجده، قال: «قاتل أبو الخطاب الجند بمغمداس بمن معه من البربر، منهم جدي عمر بن تمطين». ثمّ أضاف عند الحديث عن معركة تاورغا: «ولواء لواتة يومئذ عمر بن تمكين، ليس للواتة مع أبي الخطاب غير لواء عمر». ثمّ أضاف: «وأخبرني أبو صالح النفوسي بتوزر قبل سنة أربعين ومائتين أنّ أوّل من علّم القرآن بجبل نفوسة عمر بن يمكتن بمنزل يقال له إيفاطمان»⁽⁴⁶⁾. وتولى ابنه سلام بن عمر خطّة عامل عبد الوهّاب (168-208 هـ/ 784-824 م) على سرت، وقد التقى بالفقيه أبي إبراهيم موفق بمصر. أمّا لوّاب بن سلام، فقد اتّصل بخلف بن السمع وتقلّ بين مصر وقسطلية وجبل نفوسة، ولعله قام بدور الربط بين المجموعات الإباضيّة المتباعدة. وهو صاحب كتاب: «بدء الإسلام وشرائع الدين»⁽⁴⁷⁾.

(45) ابن عبد الحكم (1991)، ص 224.

(46) ابن سلام (1986)، ص 118، 120-121، 125-126.

(47) البغطوري (2014)، ص 42؛ الوسياني (2009)، ج 1، ص 208-209؛ الشماخي (2009)،

ج 2، ص 290: «قال ابن سلام بن عمرو على ما حدّثه نفّاث بن نصر النفوسي...»؛

Aillet (2015), p. 67-82.

ج- الدعاة العبّاسيون بسرت

تمكّن العبّاسيون من كسب أنصار بسرت منذ سنة 137 هـ/754-755 م، وبثّوا العيون بين بعض القبائل. ممّا يفسّر أنّها أضحت أرض صراع بين الإباضية والعبّاسيين.

كان صالح بن علي بن عبد الله بن العبّاس واليا على مصر سنة 136 هـ/753-754 م، «ولى أبا عون عبد الملك بن يزيد جيوش المغرب وقدّم أمامه رجالا من أشراف أهل مصر دعاة لأهل إفريقية، منهم قنبرة بن بحرية بن عبد الرحمان بن معاوية بن حديج وعثمان بن عبيد الله بن موسى بن نصير والضحاك بن محمد اللخمي ووحوح بن ثابت البلوي، فخرجوا أمام أبي عون وكان خروج أبي عون جمادى الآخرة سنة 136. وخرج عامر بن إسماعيل في جيوشه على مقدّمة أبي عون، وبعث بالمشي بن زياد الخثعمي في شوال سنة ست إلى الإسكندرية ليجّهز المراكب إلى طرابلس، وبعث بعبّاش بن عقبة الحضرمي في حمل الطعام لجيش أبي عون وعامر بن إسماعيل. [وفي الأثناء توفّي الخليفة أبي العبّاس السفاح، ... وسنة 137] «أقرّ (أبو جعفر) صالح بن علي على صلاتها وخراجها، وكتب صالح إلى أبي عون يأمره بالرجوع وبرّد الدعاة من أهل مصر وقد بلغوا سُرّت وبلغ أبو عون برقة، فأقام بها أحد عشر شهرا واتّخذ بها مصلّى، وتركه ثمّ رجع أبو عون في جيشه إلى مصر»⁽⁴⁸⁾.

3- سرت أرض معارك: من مغمّداس إلى تاورغا

أ- حملة أبي الخطّاب المعافري في اتجاه سرت ومعركة مغمّداس

لما تولّى محمد بن الأشعث الخزاعي ولاية مصر سنة 141 هـ/759 م، «عقد محمد بن الأشعث لأبي الأحوص عمرو بن الأحوص على جيش، وبعث به إلى المغرب لقتال أبي الخطّاب عبد الأعلى بن الشيخ الإباضي مولى معافر، فلقية أبو الخطّاب ب[مغمّداس]، فهزم أبا الأحوص وقتل عسكره»، وكان ذلك بين تاريخي تولية ابن الأشعث يوم الاثنين 5 ذي الحجة 141 هـ/10 أبريل 759 م وخروجه إلى الجيزة متّجها إلى الإسكندرية يوم الأضحى سنة 142/4 أبريل 760⁽⁴⁹⁾.

وإذ تقتصر الرواية السنيّة على ذكر الأحداث الكبرى، فقد تعرّضت الرواية الإباضية إلى أحداث هذه الفترة بأكثر دقّة: بعد أن استولى أبو الخطّاب

(48) الكندي (1908)، ص 102-103.

(49) الكندي (1908)، ص 108-109.

على طرابلس، وأطرد عاملها عمرو بن عثمان القرشي واستحوذ على بيت المال، أتجه إلى القيروان. إلا أنّ قدوم ابن الأشعث جعله يغادر القيروان على وجه السرعة، ويتّجه إلى سرت ليرابط بها⁽⁵⁰⁾. ودارت المعركة الأولى بين أبي الخطاب وأبي الأحوص بمغمّداس، «من أرض سرت» حسب الشماخي، فانهزم أبو الأحوص وانسحب إلى مصر. وأشار هذا الأخير إلى حدوث معركة أولى قبل انتصاره على أبي الأحوص قادها من الطرف العبّاسي العوّام بن عبيد العزيز البجلي بورداصة، بين تاورغا ولبدة، بأرض سرت⁽⁵¹⁾. وأضاف ابن سلام أنّ أبا الخطاب «قتل الجند بمغمّداس، ويقال اسم عامل الجند الذين قتلهم بمغمّداس أبو دانق»، مفصّلاً الحديث في هذا الصدد عن المرحلة الأولى من المواجهة التي بدأت بتدخّل الجواسيس من الجهتين:

- عيون الجند: من الفرسان وانتن بن تلاميس «من بني مرهنيان من زهانة ومن فيها من فطناسة» وراشد بن مومنين [المانوري]. ولما قبض على عيون الجند، استشفعت القبائل في الأوّل وقتل الثاني رجالان من قريش والحرث بن [...]»⁽⁵²⁾.

- عيون أبي الخطاب: وذكر قواد جيش أبي الخطاب من هواره: أبو يحيى الهواري وأويس بن عمرو المليلي (من مليلة) ومن مزاته: أويس المزاتي وعيسى بن يطوفت المزاتي ومحمّد البديّ وسعيد بن قايد المزاتي، ومن نفوسة: عمر بن يمكتن («وقد كان منحازا بنفوسة عن حيز سرت»، أي أنّه تأخّر عن المشاركة في المعركة).

أمّا الجند العبّاسي، فقد كان من شيعتهم: «ومع الجند بمغمّداس فيما بلغنا، واللّه أعلم، حمل بنعمران بن مسسنين، وهو من شيعة الجند مع جماعة من قرطيفة بسرت من بني مالين، وكان بنو مالين من أهل ديوان الجند بسرت مكتوب في ديوان الجند: والين بن ورينكت من أهل سرت، عند الخلفاء، أرزاقه في السنة 300 دينار»⁽⁵³⁾.

يتّضح ممّا يلي أنّ العبّاسيين نجحوا في اختراق القبائل البربريّة منذ سنة 137هـ، ومن كسب أنصار من قرطيفة من بني مالين من نفزاوة، وهم من «أهل سرت»، وقد ضمّ ديوان الجند البعض منهم. وفي المقابل، اعتمد جيش

(50) الرقيق (1990)، ص 104؛ أبو زكريا (1985)، ص 71-73؛ ابن عذاري (1948)، ص 82.

(51) البعقوبي (1892)، ص 346؛ ابن خرداذبه (1889)، ص 86؛ البكري (1992)، ج 2،

ص 653-654؛ ابن عذاري (1948)، ص 82؛ الشماخي (2009)، ج 2، ص 253.

(52) ابن سلام (1986)، ص 117، 121.

(53) ابن سلام (1986)، ص 119.

أبي الخطاب على مزاة النازلة بسرت وهوارة غربها وخصوصا على مليلة من هوارة، وكذلك على ضريسة وزناته. مما يفسر تأخر بعض لواتة ونفوسة عن المشاركة في هذه المعركة⁽⁵⁴⁾.

ب- النقل القسري لأهل البلد

ذكر ابن سلام خبرا استقاه من أصحاب واجين بن عبد الملك، ومفاده أن أبا الخطاب وعماله أخرجوا وأجلوا أهل قرى سرت حتى بلغوا قصور حسان، وقالوا لهم: «أنتم مركز الجند بسرت. فبلغ من حزن خروج نسائهم من قرى سرت أن صرّوا تراب بلدهم في مقانعهم لشدة حبهم القيام في بلدهم. فردّهم [عمر بن يمين] قصور حسان، وعمر حينئذ من عمال أبي الخطاب بسرت، ومقامهم في ولاية بزلاج».

حينئذ، قام أبو الخطاب بإجلاء أهل القرى غرب مدينة سرت القديمة بنحو سبعين كم، وذلك في سعي منه لصد الغزاة في مستوى خط سرت. إلا أن ذلك أثار تصدي أهل البلد الذين رفضوا الخروج. ويعتبر ما قامت به النساء من نقل صرّ تراب في ثيابهن رمزا لمدي التشبث بالأرض، رمز الحياة⁽⁵⁵⁾.

ج- هزيمة تاورغا سنة 144 هـ/761-762 م

انطلق ابن الأشعث من الفسطاط، فجاز النيل ومرّ بالجيزة، وقسم جيشه الذي تجاوز الأربعين ألفا (حسب أبي زكريا: 50000-70000) إلى 28 قيادة. وكان من بينهم الأغلب بن سالم التميمي. ومن الجهة الأخرى، بلغ جيش أبي الخطاب سبعين ألفا (وحسب ابن عذاري: مائتي ألف مقاتل)⁽⁵⁶⁾.

حاول أبو الخطاب تكوين خط دفاع بمغمداس بناحية السرت، مما أجبره على ترحيل أنصاره من مزاة ولواتة النازلين بالموضع، «فأخرجوا وأجلوا قرى سرت». على أن العباسيين تمكّنوا من اقتحام هذا الجدار، والتقدّم إلى تاورغا حيث حصلت المواجهة الحاسمة. وتجدر الإشارة إلى أن الاتحاد القبلي لم يستمر طويلا، إذ دخلت القبيلتان: هوارة وزناته من جديد في نزاع، أدّى إلى انقسام الحركة على نفسها وانهزامها أمام جيش محمد بن الأشعث سنة 144 هـ/761-762 م، خصوصا أن هذه الأحداث تزامنت مع موسم الحصاد. قال ابن عذاري: «ثم أن زناته وهوارة تنازعت فيما بينها، واتّهمت زناته أبا

(54) ابن سلام (1986)، ص 125-128.

(55) ابن سلام (1986)، ص 120.

(56) أبو زكريا (1985)، ص 71، 73؛ ابن عذاري (1948)، ص 82.

الخطاب في ميله مع هوّارة، ففارقه جماعة منهم، وبلغ ذلك ابن الأشعث، فسّر به ورحل إليه»⁽⁵⁷⁾.

كما أنّ الحيلة التي اعتمدها ابن الأشعث، وهي التظاهر بالانسحاب والعودة إلى المشرق، فانسحب عدد من جيشه إلى «موطنهم ومنازلهم»، ساعدت على هزيمة أبي الخطاب⁽⁵⁸⁾.

وقبل اندلاع المعركة، سبق ابن الأشعث أبا الخطاب، فنزل بعيون تاورغا. فانهزم جيش الإباضية وقتل أبو الخطاب، ولاحق الجند الفارّين في الجبال والسهول. وتولى القائد العبّاسي إسماعيل بن عكرمة الخزاعي استئصال شأفة المحكّمة في زويلة ووّدان، بينما قام المخارق بن غفار بتتبّعهم في جهة طرابلس. وكان مصير رئيس زناتة أبي هريرة الزناتي، وهو على رأس ستة عشر ألف مقاتل، الموت⁽⁵⁹⁾. ونتيجة لذلك، وضع حدّا لإمامة الظهور، ولامتداد الإباضية شرق ناحية سرت.

د- معركة مغمّداس الثانية سنة 154 هـ/ 771 م

تمكّن أبو حاتم الهواري الملوّزي من دخول القيروان، بعد مقتل وإليها عمر بن حفص. «فأحرق أبوابها وثلم سورها». ولمّا علم بقدوم يزيد بن حاتم، اتّجه إلى ناحية طرابلس لمواجهة الجند. وتغلّب في البداية على طلائع الجند العبّاسي التي قادها سالم بن سودة التميمي في مغمّداس، وقتل من بينهم عددا كبيرا⁽⁶⁰⁾.

إلا أنّ الجند العبّاسي بلغ نحو تسعين ألفا إلى 120 ألف، وكان نصفهم من الفرسان. وفي المقابل، تميّز عسكر أبي حاتم ذي الصبغة القبليّة بعدم الانسجام. ومرة أخرى، خرجت قبيلة مليلة من هوّارة وعمر بن مطكود من نفوسة عن صفّ أبي حاتم وانضّوا إلى الجند العبّاسي. جاء في أبي زكريا ما يلي: «فمدّت قبيلة من هوّارة يقال لها مليلة يزيد بن حاتم على أبي حاتم». ونتيجة لذلك التجأ أبو حاتم إلى جبل نفوسة، وتحصّن به، إلا أنّ ذلك لم يمنع يزيد بن حاتم من اقتحام هذه التحصينات واستئصال شأفة الجيش الإباضي⁽⁶¹⁾.

(57) ابن سلّام (1986)، ص 257؛ ابن عذاري (1948)، ج 1، ص 72.

(58) أبو زكريا (1985)، ص 73؛ ابن عذاري (1948)، ج 1، ص 73.

(59) ابن عذاري (1948)، ج 1، ص 73، 84؛ النويري (1983)، ج 24، ص 74-75؛ الشماخي (2009)، ج 2، ص 134.

(60) الرقيق (1990)، ص 147؛ أبو زكريا (1985)، ص 82؛ يرى زغلول (1967)، ج 1، ص 360؛ أنّ أبا حاتم انهزم في هذه المعركة.

(61) اليعقوبي (1892)، 120؛ الرقيق (1990)، 159؛ ابن الأثير (1965)، 5، 222؛ ابن عذاري (1948)، ص 94؛ أبو زكريا (1985)، ص 83-84.

4- هل كانت سرت تابعة للإمارة الرستمية؟

تدلّ مؤشرات عديدة على انتماء سرت وناحيتها للمذهب الإباضي والإمارة الرستمية، رغم انتقال كثير من السرتيين إلى القيروان وتبحّروهم في الفقه المالكي. وفضلاً عن الإشارة إلى تعيين عبد الوهّاب بن رستم لسلام بن عمرو عاملاً على سرت، فقد ذكر اليعقوبي انتماء مزاتة ودّان إلى الإباضية. وتواصل الأمر كذلك في العهد الفاطمي، ممّا يفسّر نعت السرتيين، على خلاف أهل طرابلس، بنعوت سيّئة. وقد أسهمت مزاتة في معركة باغاي سنة 358 هـ/ 969 م إسهاماً كبيراً، إلّا أنّ انضمام فرع منها إلى الفاطميين، وهم «إيل أيّان» المتنازعين مع مدنة، قد سارع في هزيمة الإباضية. وعند رحيل المعزّ إلى مصر سنة 362 هـ/ 973 م، أوصى بلكين بن زيري بما يلي: «اشفني من أولاد المجوس، زناتة ومزاتة واعلم أنّي تركت لك بإفريقية مائة ألف منزل، فمتى هممت بمحاربة عدوّ، فاجعل على كل منزل فارساً واحداً...»⁽⁶²⁾.

على أنّ انتماء عدد من أهل سرت إلى المذهب المالكي، وقد كانوا من صفوة تلامذة سحنون، مثل سعيد بن عبّاد السرتي (ت 251 هـ/ 865 م) وعبد الجبّار بن خالد السرتي (ت 281 هـ/ 894 م) يدل على بداية تسرّب المذهب المالكي إلى سكّان المدينة⁽⁶³⁾.

وفي النهاية، ظلّت سرت ومغمّداس قاعدتين للصراع بين أهل البلد والطائفتين عليه، وقد تجلّى ذلك في مناسبتين: حصل في الأولى إبرام معاهدة عند حروب الفتح، وفي الثانية انتشار الإباضية المعارضة للخلافتين الأموية والعبّاسية، وقد انتهى فيها النزاع سنة 155 هـ إلى انقراض اتّحادية لواتة، وبداية اندماجها، نتيجة تحالفها مع العبّاسيين، أو إسهامها في نشأة الإمارة الرستمية.

(62) الدرجيني (د ت)، ج 1، ص 140.

(63) أبو العرب، طبقات، ص 79 (سعيد بن السرتي)، 145-146 (عبد الجبّار بن خالد السرتي)؛ المالكي (1983)، ج 2، ص 189-192: أبو محمّد عبد الله المعروف بالغمي: اعتنى بالمدونة، وربط بقصر الطوب، وكان له دكان بالقيروان؛ الزبيدي، طبقات النحويين، ص 257-259: «أبو محمّد عبد الله بن محمّد المكشوف النحوي: كان من أعلم خلق الله بالعربية والغريب والشعر وتفسير المشروحات وأيام العرب وأخبارها... وله كتب كثيرة في اللغة والعربية... وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب»؛ وأضاف ابن ناجي (1978): حجّاج بن يعقوب السرتي (3، 61) ومحمّد بن حسن الزويلي السرتي (3، 105) ويحيى بن وتران المزاتي (3، 226).

ثالثا: مكانة سرت الاقتصادية

1- سرت، ميناء وملتقى للطرق

أ الطرقات البريّة

البكري	قدامة بن جعفر	ابن خرداذبة	اليعقوبي
	برقة: طريق الساحل: 144 ميل طريق السكة: 160 ميل	برقة: 154 ميل	برقة
	أجدابية	أجدابية	أجدابية 5 مراحل
	حي نجوة: 20 سبخة منهوسا: 30	حرقرة: 20 سبخة منهوشة: 30	الفاروج
	قصر العطش: 34	قصر العطش: 34	قصر العطش
	اليهوديتين: 24	اليهوديتين: 34	اليهوديّة
	قبر العبّادي: 34	قبر العبّادي: 34	قصر العبّادي
سرت	سرت: 34	سرت: 34	سرت 2 مراحل
مغداس: مرحلة من قصور حسّان إلى الراشدة	القرنين: 18 مغمداش: 20 قصور حسّان: 30 المنصف: 40	القريتين: 13 قصور حسّان: 30 المنصف: 40	قبائل منداسة ومجيحة وفنطاس
	تاورغا: 24	تاورغا: 24	تورغة آخر حدّ برقة ومزاة
			ودّان ممّا يضاف إلى عمل سرت (5 مراحل).

يربط هذا القسم من طريق الجادّة الكبرى بين سرت وتاورغا، وبينهما مرحلتان، حسب اليعقوبي، وهو مجال قبيلة مزاة بفروعها: منداسة ومجيحة (أومحنا) وفنطاس وغيرها⁽⁶⁴⁾.

وقد حدّد ابن خرداذبة هذه المراحل بالأميال: «ثمّ (من سرت) إلى القريتين 13 ميلا، ثمّ إلى قصور حسّان بن النعمان الغسّاني ثلاثين ميلا، ثمّ إلى المنصف أربعون ميلا، ثمّ إلى تورغا 24 ميلا». الجملة: 107 ميل.

(64) اليعقوبي (1892)، ص 97-98. انظر فصل التوطن القبلي.

ولم تختلف هذه المسافة كثيرا لدى قدامة بن جعفر: «ومن سرت إلى القرنين 18 ميلا ومن القرنين على مغمداش عشرون ميلا ومن مغمداش إلى قصور حسان ثلاثون ميلا ومن قصور حسان إلى المنصف أربعون ميلا ومن المنصف إلى تورغا 24 ميلا (ومن تورغا إلى دغوغا عشرون ميلا)». الجملة: 108 ميل⁽⁶⁵⁾.

وهو ما يوافق ثلاث مراحل حسب المقدسي: «إلى قصور حسان مرحلة، ثم إلى مغمداش مرحلة، ثم إلى سرت مرحلة».

أما صاحب «نزهة المشتاق»، فقد ذكر المراحل التالية: «ومن مدينة طرابلس من جهة الشرق إلى مدينة صرت 230 ميلا، وهي 11 مرحلة، ... من رغوغا [دغوغا] إلى تاورغا 22 ميلا ثم إلى المنصف 25 ميلا ثم إلى قصور حسان بن نعمان الغساني 40 ميلا ثم إلى الأصنام 30 ميلا ثم على صرت 43 ميلا». الجملة: 116 ميلا.

وقد تعرّض كذلك إلى هذا الطريق في «أنس المهج»: «من خرج على الساحل من طرف قانان صار إلى قصور حسان في البرية أربع مراحل، ثم إلى الأصنام ثلاثون ميلا، ثم إلى سرت 13 ميلا، إلى قصر العبادي على البحر 34 ميلا، إلى منهوشة ثلاث مراحل...»⁽⁶⁶⁾.

ب- الطرقات البحرية

بلغ محيط الخليج حسب سترابون: 3930 ستاديوم، وعمقه: 1500 ساديوم. وأضاف أن «صعوبة سرت الكبرى وسرت الصغرى هو أنها في أماكن كثيرة يكون القاع غير عميق، وخلال فترة المد والجزر، يحدث كثيرا أن تصطدم سفنهم بالضحاح وتوقف هناك ونادرا ما يكون المركب سالما. لذلك فإنهم يحرصون على أن يقوموا بالإبحار بعيدا عن الساحل وألا تسحبهم الرياح دون أن يستطيعوا مقاومتها ويدخلوا هذه الخلجان»⁽⁶⁷⁾.

كما تشير بعض النصوص التالية إلى صعوبة الملاحة في كل إقليم برقة، وخصوصا بخليج سرت. ونقتصر في هذا الصدد على ما ورد في وثائق الجنيزة حول الملاحة بسرت:

(65) Modéran (2003), p. 222 : La table de Peutinger qualifie Macomades et Digdiga des villes « des Seli » (Selirum).

(66) ابن خرداذبة (1889)، ص 86 : قدامة بن جعفر (1889)، ص 224-225 : المقدسي (1906)، ص 245 : الإدريسي (1989)، ج 1، ص 297 : نفسه (2007)، ص 213.

(67) سترابون (2002)، ص 112-114.

- سنة 1025 م: «غرق قاربنا في زديق [زريق؟]، بين سرت وهوارة (لبدة)، وتركنا مفلسين».
- سنة 1063 م: «أبحرت ثلاثة زوارق من الإسكندرية، ووصل اثنان إلى بنغازي (برنيق)، والثالث يرسو في سرت».
- «هناك وصل راسلان بن محمود، القريب من ابن رحمة، الذي عاش معك في سرت، والتقيت به»⁽⁶⁸⁾.

2- النشاط الاقتصادي

أ- تربية الماشية

ظلت مزاة قبيلة بدوية منتجة، بين ودان وسرت، وكذلك بين الصحراء وتاهرت. ورد في ابن الصغير: «أن قبائل مزاة وسدراتة وغيرهم كانوا ينتجعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازا لما حولها من الشلأ وغيره». ويبدو أن اقتران تربية الماشية بالتجارة الصحراوية قد أسهم في إثراء بعض الأعيان، مثل يبيب بن زلغين، وكان له 30 ألف ناقة و300 ألف شاة و12 ألف حمار. قال عبد الوهاب بن رستم في هذا الشأن: «لولا أنا ومحمد بن جرني ويبيب بن زلغين لأغنيا بيت المال، أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وابن زلغين بالأنعام»⁽⁶⁹⁾.

وما انفكت مكانة مزاة تتدعم على حساب القبائل المجاورة، بما فيها لواتة، وذلك طيلة هذه الحقبة وبعدها، وخصوصا في أوسط القرن الرابع هـ/ العاشر م. جاء في الدرجيني ما يلي: «كان المشائخ على حسب عادتهم يخرجون إلى البادية في أوان الربيع، وكان أكثر خروجهم إلى مزاة، وكانت مزاة في إفريقية في قوة عظيمة، من مال وحال ورجال وخيل، وقالوا إنهم كانوا إذاك في اثني عشر ألف فارس، وأمّا الرجال فلا يحصون كثرة»⁽⁷⁰⁾.

(68) Simonsohn (1979), p. 44, 325, 441, p. 44: Our boat was shipwrecked at Zadiq, between Sirte and Hawwâra (Lebda) and we were left penniless; p. 325: three boats sailed from Alexandria, two arrived at Barniq (Benghazi). And the third docked at Sirte... p. 441: there arrived Raslan b. Mahmud, the relative of ibn Rahma, who lived with you in Surt. I met him...

(69) ابن الصغير (1986)، ص 41، 47 : الدرجيني (د ت)، ج 1، ص 86 : الشماخي (2009)، ج 2، ص 340-341.

(70) الدرجيني (د ت)، ج 1، ص 126.

ب- الإنتاج الزراعي والحرث

تعرّضت المصادر الجغرافية إلى مختلف النشاطات الزراعية والحرفية بسرت، فذكرت بها الآبار العذبة وزراعة الذرة والعنب والزيتون والتوت، والنخيل وإن شكّ العبدري في ما ذكره البكري، ورَجَّح أنّ التمر مجلوب من أوجلة، ومن الواضح اعتماداً على مختلف الشهادات أنه جانب الصواب في قوله: «وأظنه (البكري) سمع بوجود التمر، فذكر بها نخلا والتمر مجلوب من بلاد أوجلة». ولم تعد هذه المجالات الشاسعة من تربية المواشي من ضان وماعز وإبل، ومن المواد الأولية: الشبّ والكبريت⁽⁷¹⁾.

قال إسحاق بن الحسين (القرن الرابع هـ/العاشر م): «ومدينة سرت كبيرة وبها مسجد جامع ونهر صغير جار ونخيل، وهي قرب البحر الشامي، وبينها وبين أجدابية مسيرة ثلاثة أيام».

وأضاف ابن حوقل: «وودّان ناحية ومدينة في جنوب مدينة سرت، وكانت مضمومة إليها... وبها قبائل من البربر، ولهم مزارع في نفس البر، تقصد نواحيها إذا مطرت وتتجع مراعيها. ولها من وجوه الأموال والغلات والصدقات في سائمة الإبل والغنم ما يزيد على حال أجدابية... ولهم أعناب وفواكه وأسعارهم صالحة على مرّ الأوقات. والمتولّي صدقاتهم وجباياتهم وخراجاتهم وما يجب على القوافل المجتازة بهم صاحب صلاتهم. وإليه جميع مجاري أمر البلد والنظر فيه وفيما ورد إليه وصدر في استيفاء ضرائبه واعتبار السجلات والمناشير بمواجب ما على الأمتعة وتصفّحها خوف الحيلة الواقعة دون الأداء عنها بإفريقية، ودخلها أوفر من دخل أجدابية لما ذكرت»⁽⁷²⁾.

ج- النشاط التجاري

أضاف ابن حوقل متعرّضاً إلى موقعها، قال: «وهي في غلوة سهم عن البحر في مستواة من رمل، وترد المراكب أيضاً عليها بالمتاع وتصدر عنها بشيء منه كالشبّ السرتي، فإنه بها غزير كثير وبالصوف أيضاً ولحوم المعز... وشرب أهلها من ماء المطر المختزن في المواجل». والحقيقة لا ندري مدى صحّة الإشارة التي ذكرها أبو الفداء: «ومن أرض كوار يجلب الشبّ». في الحقبة الفاطمية، أي هل كان الشبّ إنتاجاً سرتياً أو مجلوباً من التشاد؟

(71) البكري (1992)، ج 2، ص 651؛ العبدري (1968)، ص 85.

(72) إسحاق بن حسين (1988)، ص 96-97؛ ابن حوقل (1979)، ص 70-71.

واقتصرت المصادر المتأخرة على ذكر الكبريت الذي يحمل إلى مصر من خليج سرت حسب ابن سعيد. وقد حدد الورثيلاني كيفية استخراج⁽⁷³⁾.

ويفسر المحور التجاري سرت ودان فزان النزاعات الحاصلة بين الطرفين: مزاة الواقعة جنوب سرت وفزان. وهو ما عبّر عنه اليعقوبي: «وجنس يعرف بفزان، أخلاط من الناس لهم رئيس يطاع فيهم وبلد واسع ومدينة عظيمة، وبينهم وبين مزاة حرب لا قح أبدا».

وقد أدى إسهام المزايتين في التجارة الصحراوية تراكم الأموال، حتى قال عبد الوهاب بن رستم: «إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاة»⁽⁷⁴⁾.

وفضلا عن أهمية المحور التجاري الصحراوي، والرابط بين المشرق والمغرب، فإن للملاحة البحرية مكانتها في توريد زيت الزيتون من إفريقيا، وخصوصا من جهة طرابلس. على أن العلاقة بين المدينتين لم تكن خالية من التنافس، خصوصا أنهما تنتميان إلى مذهبين مختلفين. ولذا رددت المصادر رواية مفادها حذق السريتين لفنون التجارة، وصعوبة بيع الزيت وشتى البضائع بها، وتضامن التجار للحصول على البضائع الوافدة بأسعار بخسة. وأول من ذكرها البكري: «وأهل سرت من أحسن خلق الله خلقا وأسوأهم معاملة، ولا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفق جميعهم عليه، وربما نزل المركب بساحلهم موسوقا بزييت، وهم أحوج الناس إليه، فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفخونها ويوكونها ثم يصنفونها في حوانيتهم وأفنياتهم ليرى أهل المركب أن الزيت عندهم بائر، لو أقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا ما باعوا منهم إلا على حكمهم، وأهل سرت يعرفون بعبيد قرلة، وهم يغضبون من ذلك...». وقرله هو طائر صغير يضرب المثل بشراسته وحرصه.

نقل هذه الرواية صاحب الاستبصار وياقوت والإدريسي وكذلك الحميري: «مدينة في برقة بينها وبين طرابلس مائتا ميل وثلاثون ميلا، وبينها وبين البحر ميلان، وعليها سور تراب، وفيها النخل والزيتون بها، والتوت بها كثير وبعض شجر تين، غير أن العرب أتت على أكثرها، وكانت فيها فواكه وأعنان ذهب»⁽⁷⁵⁾.

(73) ابن حوقل (1979)، نفس الإحالة : ابن سعيد (1982)، ص 155 : أبو الفداء (2009)، ص 127 : الورثيلاني (2008)، ج 1، ص 263-265.

(74) اليعقوبي (1892)، ص 346 : الشماخي (2009)، ج 2، ص .

(75) البكري (1992)، ج 2، 651-652 : الاستبصار (1985)، ص 109 : الحميري (1984)، ص 312.

د- انهيار الشبكة الحضرية

لم تسلم هذه المدينة ذات الموقع الهام في شبكة الطرقات المغربية من تداعيات الأزمة العامة، وانقطاع الطريق الساحلي في مستوى خليج سرت برقة، حتى فضل جل الزائرين للمشرق، من حجاج وتجار وعلماء، الطريق البحري. وبديهي القول إن قدوم بني هلال إلى إفريقية غير المشهد الزراعي والعمراني العام، إذ تلاشت ملامح المدينة الحضرية وأضحت مجرد قصور. فقد ذكر العبدري (بعد سنة 688 هـ/1289 م) وكذلك أبو الفداء (ت 732 هـ/1331 م) أن سرت أطلقت على عدد من القصور، وخصوصا على «قصير صغير يعرف بالمدينة، وهو أول قصور سرت من جهة الشرق». ولذا فإن هذه القصور ليست مجرد حصون مثلما يُعتقد، إنما هي شكل جديد من التوطن وتجمعات سكنية حول حصن أو شبه محصنة⁽⁷⁶⁾.

الخاتمة

لم يمنع موقع سرت الاستراتيجي من أن تصبح مركزا للحفاظ على الخصوصية المحلية، بعيدا في الآن نفسه عن تأثيرات تهرت الرستمية والقيروان العباسية. ففي طور أول استعملت الحرب لدفع العباسيين بعيدا عن بلدهم. وفي طور ثان، أسهمت في بناء ثقافة دفاعية، تتناول تاريخ المنطقة من الداخل بعيدا عن التشويه والتحقير، بل على العكس من ذلك نشأت بها «فضائل البربر» التي أعطت الأولوية للوامة، في التقائهم بالنبي وبعمربن الخطاب، ثم لمزاة في الثراء وتراكم الرأسمال التجاري.

وسرعان ما انخرط السرتيون في التجارة المتوسطية والبرية مع المشرق والمغرب ومع بلاد السودان. ومثلت بلادهم جزءا من الشبكة الحضرية ببلاد المغرب، المكونة من مدن وقرى ومنازل، وخصوصا من قبائل مزاة التي قامت بأدوار عديدة في الحرب والسلم، في الدفاع عن الأرض ونشر الأفكار والمذاهب والتجارة الصحراوية.

ولما قام التطور العمراني والثقافي والنمو الاقتصادي على تواصل شبكة الطرقات بين المشرق والمغرب، فقد نجم عن تفكك حلقات هذا العقد المترابط من الإسكندرية إلى القيروان، مروراً ببرقة وإجدابية وسرت وتاورغا ولبة وطرابلس وقابس، انهيار التجارة الأفقية بين المشرق والمغرب انهيارا كاملا، وتقطع السبل بالعابرين. ولم يكن الطريق البحري أحسن حظا، إذ أصبح عرضة ابتداء من نهاية العصر الموحد لحركات القطع والقرصنة.

(76) العبدري (1968)، ص 85، 158، 236، 283؛ أبو الفداء (2009)، ص 127؛ Mouton et Racinet (2014)، p. 3 (parlent des forts au XIII^e siècle).

البليوغرافيا

نفسه (2006-2015)، تحقيق إبراهيم شيوخ، تونس.

ابن الخياط، خليفة (1993)، تاريخ، تحقيق سهيل زكار، بيروت، دار الفكر.

الدرجيني، أحمد (د.ت.)، طبقات، تحقيق إبراهيم طلاي، طبعة ثانية، الجمهورية الجزائرية.

ابن ابي دينار (1967)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس.

الرازي، أحمد بن سهل (2011)، أخبار فخ، تحقيق ماهر جرار، بيروت.

الرفيقي، إبراهيم (1990)، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبد الله زيدان وعز الدين موسى، بيروت.

أبو زكريا يحيى بن أبي بكر (1985)، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمان بن أيوب، تونس.

سترابون (2002)، الكتاب السابع عشر من جغرافية سترافون، نقله إلى العربية محمد المبروك ذويب، بنغازي.

ابن سعيد، علي (1982)، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر.

ابن سلام (1986)، بدء الإسلام وشرائع الدين، تحقيق فيرنرشفارتس وسالم بن يعقوب، فيسبادن.

الشّابي، خالد (1977)، فتح إفريقية من خلال ابن الشّباط، صلة السّمط، شهادة الكفاءة في البحث، تونس.

الشّمّاخي، أحمد (2009)، كتاب السير، تحقيق محمد حسن، بيروت، دار المدار الإسلامي.

المصادر المخطوطة والمطبوعة

ابن الأثير، عزّ الدين (1965)، الكامل في التاريخ، بيروت.

الإدريسي، أبو عبد الله محمد (1989)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب.

الإدريسي (2007)، أنس المهج وروض الفرج، تحقيق الوايفي نوح، الرباط.

ابن الحسين، إسحاق (1988)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، نشر فهمي سعد.

البرزلي، أبو القاسم (2002)، جامع مسائل الأحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

البطوري، مقرين (2014)، سيرة مشائخ نفوسة، تحقيق توفيق عياد الشقروني، تاوالت.

البكري، أبو عبيد (1992)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فلوتن وأندري فيري، تونس، بيت الحكمة.

ابن حزم، علي (1983)، جمهرة أنساب العرب، بيروت، دار الكتب العلمية.

الحموي، ياقوت (د.ت.)، معجم البلدان، بيروت.

الحميري (1984)، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت. ابن حوقل، أبو القاسم محمد (1979)، صورة الأرض، بيروت.

ابن خرداذبة، أبو القاسم (1889)، المسالك والممالك، ويليّه نبذ من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، نشر دي قوج، ليدن.

ابن خلدون، عبد الرحمان (1983)، كتاب العبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

النوري، أحمد (1983)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار وعبد العزيز الأهواني، القاهرة.

الورثيلاني، حسين (2008)، الرحلة: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، القاهرة.

الورجلاني، أبو زكريا (1985)، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمان أيوب، تونس.

الوسيانى، سليمان (2009)، كتاب السير، تحقيق عمر بن لقمان، مسقط.

اليعقوبي، أحمد (1892)، البلدان، نشر دي قوج، أعيد نشره، بيروت، دار صادر.

الدراسات باللغة العربية

تيري، جاك (2003)، تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى، ترجمة جاد الله عزّوز الطلحي، طرابلس.

جعيط، هشام (2008)، تأسيس الغرب الإسلامي، بيروت.

جولدتشايلد، ر.ج. (1999)، دراسات ليبية، نقله إلى العربية عبد الحفيظ الميار وأحمد اليازوري، طرابلس.

حسن، محمد (1999)، المدينة والبادية بإفريقية في العصر الحفصي، تونس.

الرحبي، عبد الله (2020)، «مدينة سرت الأثرية: ظهورها وازدهارها وتدهور أحوالها»، في ندوة إفريقية والمتوسط.

ابن الصغير (1986)، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد الناصر وإبراهيم بخاز، بيروت.

العبدري، محمد (1968)، رحلة، تحقيق محمد الفاسي، الرباط.

ابن عبد الحكم، (1991)، فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، دار المد بولي.

أبو العرب، محمد (د. ت.)، طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق محمد بن شنب، بيروت.

ابن عذاري (1948)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 1، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، بيروت.

أبو الفداء (2009)، تقويم البلدان، بيروت، دار بيبليون.

الكندي (1908)، كتاب الولاة وكتاب القضاة، نشر رفن كست، ليدن.

المالكي، أبو بكر (1983)، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

مجهول (1985)، كتاب الاستبصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء.

المقدسي، محمد (1906)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي قوج ليدن.

المقريزي، تقي الدين (1967)، انعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة.

ابن ناجي، أبو القاسم (1978)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج 3، تحقيق محمد ماضور، تونس.

«الجوء» السياسي في منطقة سرت الكبرى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

عبد القادر سوداني⁽¹⁾

ملخص

تكمن أهمية منطقة سرت الكبرى بكونها تمتد على جزء من مجالي تونس وطرابلس الغرب، وبالتالي فهي تربط بلدين، ليس جغرافيا فحسب، بل شمل تلك التداخل السكاني والمعيشي. وقد امتد هذا الامتزاج ليشمل المستوى السياسي، إذ لبثت هذه المنطقة ملاذا آمنا لكل من رام الهروب من سطوة الحكم المركزي، وكذلك فضاء لإيواء الطاعنين على الحكم والمنهزمين في صراعات الأجنحة داخل السلالة الحاكمة. وكان للإخلاء تداعيات مهمة تجاوز الشأن السياسي ليشمل الوشائج القبلية.

كلمات مفتاحية: سرت الكبرى، تونس، طرابلس الغرب، السلطة المركزية، المجتمع.

L'asile politique dans la région de la Grande Syrte aux XVIII^e et XIX^e siècles

Résumé

De nombreuses raisons ont conduit à de fréquentes opérations d'asile politique entre la Tunisie et Tripoli d'Occident ; de la cascade de sécheresses et de famines et la succession de conflits politiques, obligeant les vaincues à fuir vers un autre endroit politique sûr, ou à rechercher le soutien d'une force extérieure pour récupérer le pouvoir. L'asile politique reflète la mobilité de la population et des étendues tribales dans la région de Syrte et la facilité de mouvement d'une région à l'autre.

Mots clés: Grande Syrte, Tunisie, Tripoli d'Occident, Autorité centrale, Société.

(1) باحث في التاريخ الحديث/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة صفاقس.

Political asylum in the region of the Great Syrte in the XVIIIth and XIXth centuries

Abstract

Many reasons have led to frequent political asylum operations between Tunisia and Tripolitania; from the cascade of droughts and famines and the succession of political conflicts, forcing the vanquished to flee to another safe political place, or to seek the support of an external force to recover power. The political asylum reflects the mobility of the population and tribal areas in the Sure region and the ease of movement from one region to another.

Keywords: Great Syrte, Tunisia, Tripolitania, Central Authority, Society.

مقدمة

طوال الحقبة الحديثة - محور اهتمام هذا المقال - مثلت منطقة سرت الكبرى إطارا للصراع بين حكام تونس وطرابلس الغرب من أجل الاستحواذ على أكبر قسط ممكن من السيادة والنفوذ، وكانت الصراعات المتواترة بين أعوان البايليك الحسيني والباشليك القارمنلي تنتهي غالبا بفرار أحدهم صوب الحد السياسي الآخر من سرت الكبرى. لذلك سنسعى من خلال هذا العمل إلى الإحاطة بمسألة هروب عددا عديدا من الطغمة السياسية الحاكمة في تونس وطرابلس الغرب من «البر والبلاد» شطر المجال المجاور خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكذا كيفية تعاطي الحكام مع مسألة الحدود المتداخلة لمنطقة سرت الكبرى، أكان من خلال اعتبار تخوم سرت حاجزا سياسيا يفصل تونس عن طرابلس الغرب، تنتفي فيه السلطة بانتهاء العلامات السيمائية لحضور المركز، أو في الركون إلى إكراه الجيوبوليتيكا العنصرية والتشابك السكاني في المنطقة.

علاوة على العامل السياسي فقد دفعت العوامل الطبيعية قطاعات واسعة من سكان طرابلس الغرب إلى اللجوء إلى بر تونس بحثا عن فرص أنسب للعيش، فقد كانت تغريبة بني هلال أبرز مثال على دور القحط في تهجير السكان⁽²⁾، وقد تواصلت عمليات اللجوء، الجماعية والفردية، بأسباب وأشكال متعددة، إذ طالت المعدمين في الأرض ممن ضاقت بهم السبل وذوي الأسنان من البلدين سواء بسواء. زد على ذلك فإن عمليات التهجير والإيواء تكون مقرونة غالبا بإعادة هيكلة سلوكية من قبل بلد الانطلاق وبلد الوصول، وتنعكس كذلك اختلاف موازين القوى بين أنظمة الحكم في تونس وطرابلس الغرب.

(2) أبو النصر (عمر)، (1971)، تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتى خليفة، دار عمر أبو النصر وشركاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص 14.

في هذا السياق آثرنا التعرّيج على تاريخانية اللجوء⁽³⁾ السياسي بين تونس وطرابلس الغرب خلال القرنين 18 و19، وقد أنزلنا هذا المبحث في نسقه العام القائم على الحركية السكانية في الحدود التونسية الطرابلسية، وحاولنا قدر جهدنا الابتعاد عن التاريخ المكرر والنسق البحثي المغلق.

I) الحدود السياسية والدينامية السكانية في سرت الكبرى

1- الحراك السكاني بين البلدين

إن ما يرشح على سطح البراكيس السياسي ليست بظواهر عارضة بقدر ما يعكس تلك المرفولوجيا العميقة في الفكر والسلوك السلطوي، دونكم في ذلك ومسألة هروب الدائرين في فلك بلاطي تونس وطرابلس الغرب والتجاءهم إلى فضاء منفلت عن سيطرة الحاكم حتى يأمنوا غائلة البطش والزجر. وفي مقابل الصراع السياسي بين السلالتين القارمنلية والحسينية على مجال السيادة فقد بدا حضور الحدود لدى اللّيف السكاني ضعيفا سواء من خلال حركة السكان، التي لا تأبه كثيرا بالفواصل السياسية، أو من خلال ظاهرتي الإغارة والصوفوية القبلية، تينك المثالين الذين عبّرا عن اختلاف مفهوم الحدود الفاصلة بين السلطة والمجتمع. كما حمل هذا التداخل الحدودي في وعي السكان تواصل التلاحق الحضاري في منطقة سرت الكبرى وكذلك الامتزاج الطوعي بين التكوينات السكانية، أو من خلال لجوء سدنة القصر إلى فضاء سياسي مغاير.

يمتد سهل منطقة سرت من تخوم زوارة حتى الزويتنة في الشرق مروراً برأس السن غرب الخمس وهذا السهل غني بالمياه الجوفية والوديان مثل الوشكة والحرمر والعقر، أما حدودها شرقا فتتصر بين الأطراف الغربية للجبل الأخضر والساحل الشرقي لخليج سرت ويمتد ما بين توكرة في الشرق والزويتنة في الغرب وهو على شكل مثلث رأسه في الشرق وقاعدته في الغرب، ويمتاز بخصوبة أرضه حيث تنتشر فيه التربة الطينية الحمراء وتبلغ مساحة الأرض المزروعة والقابلة للزراعة 58 ألف هكتار⁽⁴⁾. أما منطقة سرت في مجال البلاد التونسية فتظم تلك المنطقة الواقعة بين جزيرة الببيان غرب زوارة إلى غرب صفاقس. وقد عرفت هذه المنطقة بتعدد مظاهر الثراء، ففي هذه المنطقة نجد تربية الماشية وبعض جيوب الحبوب والزيتون، ففي سنة

(3) ارتأينا استعمال مصطلح اللجوء السياسي لعدم وجود مصطلح دقيق خاص بالفترة الحديثة.

(4) بن موسى (تيسير)، (1988)، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية الليبية 1988، ص 101.

1846 أشار بعض الرحالة إلى الحركية التجارية المهمة التي تشهدها مدينة صفاقس والتي تزخر بغابات الزيتون المترامية الأطراف⁽⁵⁾، أما في المجالات الصحراوية فقد زحرت بغابات النخيل مثل قرية الزارات التي كانت مسورة بأشجار النخيل. وفي مجال طرابلس الغرب وعلاوة على منتوجات الزراعة وتربية الماشية، فقد عرفت منطقة سرت تجارة الملح. زيادة على ذلك، فقد شهدت سرت الكبرى تركزا ديموغرافيا شديدا الأمر الذي جعل السلطتين القارمنلية والحسينية تسعى إلى أن يكون لها حضورا ناجزا من أجل تحصيل المجابي. فقد استفاد البلاط الحسيني من الضرائب المفروضة على الرؤوس والمنتوجات مثل المحصولات والدخان والملح والجلد والاتفاق والديوان والكبش والمجبي وخيل الشوك وثيران الكريسته وفرس العادة والضيقة، عدا أعشار الحبوب والزيت وقانون الزيتون والنخيل⁽⁶⁾ وهو ما يعكس أهمية السيطرة على المجال لمزيد تحصيل الجباية.

وكان قرب البلاد التونسية من الأقاليم الغربية لإيالة طرابلس (موطن الثقل الديمغرافي ومركز الحكم) وتشابه المشهد الطبوغرافي بين حدود البلدين يشهد عمليات الهجرة واللجوء القسري هروبا من الجباية⁽⁷⁾، إذ كانت تخوم البلدين تمثل قطاعا جغرافيا متجانسا سواء في نطاقاته السهلية الشمالية أو الجبلية أو الظاهرية أو القبلية، وأيضا في توافق الظروف الحياتية للمجتمعات القبلية عبر الحدود مما أدى لتهاوي الحدود السياسية أمام الاستحقاقات المعيشية للسكان، لذلك شهدنا دفقا من الموجات الهجرية بين البلدين، وقد كانت منطقة سرت الصغرى هي الفضاء الأكثر حركية بين المجاميع السكانية لأن «المناطق الحدودية تجمع أكثر مما تفرق لتداخل البشر والأرض»⁽⁸⁾، فبنو رياح وبنو زغبة توزعوا بين طرابلس وقابس، وبذلك كان التنقل من مجال لآخر يسيرا. أثارت هذه العوامل انتباه المخزن الحسيني الذي عمل على إحكام مراقبته لهذا المجال القصي حتى يحول دون تسرب مظاهر العصيان من المحاميد والنوايل إلى عروش الأعراض أو هروب بعض الطاعنين على الحكم الحسيني إلى بر طرابلس.

(5) بارت (هاينريتش) (1987)، الرحلة إلى تونس 1845-1846، تحقيق وتعريب منير الفنري، بيت الحكمة، تونس، ص 33.

(6) الخامس (محمد بيرم) (1989)، القطر التونسي في صفة الاعتبار في مستودع الأمصار والأقطار، تحقيق علي الشنوفي وعبد الحفيظ منصور ورياض المرزوقي، بيت الحكمة قرطاج، الطبعة الأولى تونس، ص 58.

(7) Charnes. G, (1883), *La Tunisie et la Tripolitaine*, Calman Lévy éditeur, Paris, p. 49.

(8) Chater, KH. (1984), *Dépendance et mutation précoloniale ; la régence de Tunis de 1815 à 1857, P-U-T*, Tunis, p. 55.

ولم تقتصر أهمية منطقة سرت الكبرى على الجانب الاقتصادي - ومن مظهرات هذه الأهمية هو انتشار عدة مراسي في أغلب المدن الساحلية كمصراة وسرت والخمس وزليطن وزواغة وزوارة وبنغازي وغيرها من الموانئ الصغيرة- بل استمدت أهميتها من الجانب السياسي، ففي عدة مناسبات انبثقت أخطار من منطقة سرت الكبرى مستهدفة بلاطي تونس وطرابلس الغرب، سواء من خلال الثارات القبلية التي تنهل من مخزن الأحقاد أو هروب أعداء المخزن.

2- صراع السلطة والمجتمع والبحث عن ملاذ

خير الكثير من الوجاهات السياسية التونسية، والتي تعرضت لغضب البايات، إلى الهروب صوب مجال طرابلس حتى يأمنوا من الانتقام والزجر، وقد تكررت هذه الظاهرة كثيرا خاصة خلال القرن 18 مما يشي بقوة حضور الحدود القطرية داخل العقل السياسي، فالهروب خارج الحدود يعني الخروج من عالم سيادة المركز وبالتالي الدخول في مجال مغاير خاضع لسلطة مغايرة. في الآن نفسه خير القارمنليون استعمال ورقة الحدود من أجل الحد من خطورة تدخل البايات في الشأن الداخلي لطرابلس من خلال إيواء الطاعنين على الحكم الحسيني وحتى نصرة المطالبين بالعرش.

299

وفي هذا السياق، سارعت مجموعات الحمارنة والحزم إلى نصرة إسماعيل بن يونس في إشارة إلى ضعف مراقبة المركز للقبائل الحدودية، كما أن السكان في طرابلس كانوا كثيرا ما يقصدون تونس عند كل أزمة مما خلق نوعا من التواصل بين الجانبين تداعت تبعاته على صراع أجنحة الحكم.

ومن جانبه سعى البلاط الحسيني إلى استمالة القبائل الحدودية، وخاصة تلك القبائل المعروفة بعصيانها المتتالي مثل قبيلة المحاميد بالجبل الغربي بطرابلس وزعامتها بيد بني نويرة وأولاد سليمان بنواحي سرت وزعامتها بيد سيف النصر. فعندما شاعت الاضطرابات منذ بدايات القرن 18 نتيجة الإجحاف الضريبي الذي مارسه القارمنليون مما حدا بالكثير من الأهالي إلى الهجرة نحو البلاد التونسية بعد أن أثخنهم أجهزة السلطة بالحمالات الزجرية، فسنة 1713 ثار عرب ترهونة فقام أحمد باشا قارمنلي بالتكليف بهم وقتلهم، وقام يوسف باشا قارمنلي بعدة حملات ردعية تجاه فزان وقرى كودان ونالوت بين 1813 و1815 مما حمل جموعا من السكان إلى التشتت خارج مواطنهم.

ولا ريب أن كل سلطة تهدف إلى تنظيم خاص للمكان، وهذا غير ممكن إلا في حدود الأمكنة الخاضعة لمراقبتها، لذلك لبث أتراك طرابلس مع البروقراطية النظامية حبيسي المكان، ذلك أن الوجود الفعلي للسلطة

بقي يحمل رمزية السيطرة على القصر دون العمل على مد نفوذ السلطة على كل مجالات البلاد والأهالي، فطغت مجالات البارود على الفضاءات المراقبة، وقد مثلت ظاهرة اللجوء السياسي إشارة إلى ذلك البون بين السلطة والمجتمع بعد تنامي حملات الزجر والردع تجاه المجموعات المتطوعة لاسيما تلك المجاميع القبلية التي لا تنزل عند مبدأ السيادة السياسية، لذلك تتالت محاولات مراقبة فضاء سرت الكبرى من قبل الحكام من أجل تحديد علامات سطوة الكيان السياسي فقد تعددت مراسلات البايليك إلى عمال الأعراض «بضرورة رد البال من أولئك الذين يتسربون إلى العروش الحدودية والذين قد يسببون الاضطرابات»⁽⁹⁾.

إذ لبثت عدة مجالات قبلية في طرابلس الغرب خارجة عن مراقبة السلطة إذ إنتأت عن تأثيرات القوى التي سيطرت على طرابلس مثل الأسباب والأترك، كما بقيت دواخل البلاد بمنأى عن الهيمنة السياسية المركزية. فعند زيارة الرحالة الأجانب لمنطقة سرت من الجانب التونسي كانوا يخافون من عدائية السكان تجاههم، فأثناء توجه كل من «رابتال Rabatel» و«تيران Tirant» إلى الجنوب التونسي اضطروا إلى مرافقة الجنرال البكوش وطلبا من الوزير خيرالدين بعض الأعوان المسلحين حتى يرافقوهما في رحلتهم⁽¹⁰⁾، مما يعني ضعف حضور أجهزة السلطة في جنوب الإيالة. لذلك كان البايليك الحسيني يستعيز عن هذا الضعف بشبكة من التحالفات في منطقة سرت، فعند لجوء غومة المحمودي إلى مجال تونس عوّلت السلطة على دعم قبيلة ورغمة لمهاجمة غومة وأتباعه من المحاميد⁽¹¹⁾، فجهة سرت بقيت مجالا عصيا على البلاط الحسيني الذي وجد صعوبات جمة في مراقبة البلاد والعباد.

في مقابل ذلك، وجد القارمنليون دعما، في مرات كثيرة، من قبل بعض القبائل سواء منها ذات الولاء التقليدي كالمنشية وتاجوراء ومسلاتة ومصرطاة والزاوية وزوارة، أو تلك التي عرفت بصدامها المتتابع مع السلطة المركزية مثل ورفلة والقذاذفة والمحاميد.

وتبعاً لما تقدم، فقد جنحت إستراتيجية السلطة في تونس على حضّ الطرابلسية على القدوم إلى بر تونس لحتمية المحافظة على قاعدتها الاجتماعية لأجل تقوية الحضر على حساب البدو ومحاولة نمذجة المجتمع والانتقال من

(9) الأرشيف التونسي. صندوق 42، (1825-1860)، ملف 474.

(10) Rabatel F. & Tirant G. (1874), *Voyage dans la régence de Tunis*, Paris, p. 292.

(11) بنبلغيث (الشيبياني)، (1992)، «فاح الشيخ غومة بن خليفة المحمودي في جنوب تونس»،

المجلة التاريخية المغاربية، عدد 67-68، تونس، ص 296.

الكيانات القبلية إلى عالم الدولة ومركزة السلطة وبالتالي سلب الجانب الآخر من الحدود من رصيدها البشري.

وقد عمل حكام تونس وطرابلس على إفراد الفئات الوافدة بجملة من العطايا والمزايا التي تتيح للفيف الحاكم الاستحواذ على الزعامة السياسية والاجتماعية، ففي تونس حاول المخزن خلق لفيف من الأشياع والأتباع حتى في البلدان المجاورة في شكل «دواسيس» بغاية تحسس أي خطر محتمل، وكان البايليك والباشليك يوفّر الحماية لدواسيسه عندما يستجيرون به.

ونتيجة لذلك، أدت سياسة المراقبة الصارمة لمجال سرت الكبرى والإسراف في الحملات الزجرية إلى إعدام مظاهر الثراء وبالتالي انخراط العروش في الأعمال الاحتجاجية، الأمر الذي يدفع بعض الزعامات الثورية إلى الهروب من مجال نفوذ الحكم المركزي. فقد واجه أحمد قارمنلي منذ بداية حكمه عدم اعتراف أقاليم طرابلس بسلطته فقام بحملة تأديبية ضدهم ثم توجه صوب بعض الفرسان المالطيين في جنده الذين راموا إعادة جانم خوجة إلى الحكم فأبادهم وألقى بهم في البحر⁽¹²⁾، أما محمد باشا قارمنلي فقد انتهج سياسة التهديد باستهداف ممتلكات القبيلة كالزراع لأجل إجبارها على دفع ضريبة القطيع، فقد توجه سيدي محمد باي قارمنلي في المحلة المنصورة إلى عبد الرحمان الترهوني إلى الجفارة يبغى يحط على الزرع متاعهم (كذا)، إن كان هو قدم عليه (كذا) يأخذ منهم القطيع الذي عليهم وإن ما قدم عليه يأذنههم بحصد الزرع ويروّج بيه (كذا)⁽¹³⁾. كانت هذه الصراعات تنتهي بهروب المنهزم إلى عروش الأعراس وبني زيد مثلما كان الحال مع غومة المحمودي.

فكانت عدوى الاحتجاجات سريعا ما تنتقل من الحدود الغربية للإيالة إلى الحدود مع طرابلس، فسنة 1817 اندلعت ثورة في القبائل الغربية ثم تبعتها القبائل الواقعة بين صفاقس وحدود طرابلس تحت قيادة أحد زعماء طرابلس معلنة رفضها لسلطة الباي⁽¹⁴⁾ وهو ما يعني أن الصدامات القبلية كانت عنوان الفترة الحديثة في مجال سرت الكبرى، فكلما تواترت الأزمات السياسية في كل من تونس وطرابلس الغرب كلما زاد نسق اللجوء السياسي.

(12) ميكايي (رودلفو)، (1961)، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القارمنلي، ترجمة طه فوزي، معهد الدراسات العالية وجامعة الدول العربية، مصر، ص 17.

(13) حسن (الفقيه حسن)، (1984)، اليوميات الليبية، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، طرابلس، جزء 1، ص 207.

(14) Chérif, Mh. (1970), « Expansion européenne et difficulté tunisienne de 1815 à 1830 », *Annales E-S-C*, Mai-juin, p. 730.

(II) أزمات الحكم واللجوء السياسي

1- صراعات الأجنحة وإستراتيجية الإيواء

خلال الفترات العثمانية، ستجد مسألة «اللجوء» السياسي بعضاً من مسوِّغاتها ببقاء التخوم الغربية لتونس ساحة للتوتر لعدم ترسيم الحدود. فقد شمل الصراع في الزمن الحفصي ولاية طرابلس الذين كانوا يغتزمون ضعف الحضور السياسي للحفصيين في جنوب البلاد ليمدوا نفوذهم حتى صفاقس وجربة، وكان الأمر سيان عند أوج القوة الحفصية التي يصل مدى نفوذها حتى سرت. وفي الحقبة الحديثة اقتصرت سلطة الحكومات في طرابلس الغرب في غالبها على المنشية وتاجوراء ومسلاته ومصراطة والزاوية وزواره وتركت بقية مجالات سرت الكبرى إلى تغلب العروش وسطوة القبيلة.

خلال الطور الحسيني - القارمنلي عمد كل حاكم إلى إيواء الطاعنين على حكم الطرف المقابل والمارقين على السلطة من الدائرة القائدة، فتوترت علاقات باشاوات طرابلس مع البايليك الحسيني. فأثناء الفتنة الباشية الحسينية وبعد أن بانّت الغلبة للخط الباشي جنح بعض وجوه الساحل ذات الميول الحسينية إلى الفرار إلى طرابلس عبر البحر، مثل قايد المنستير شعبان السبعي⁽¹⁵⁾.

302

في ذات السياق آوى القارمنليون محمد بن مامي ثم إسماعيل بن يونس، هذا الطامع في السلطة الذي خيّر الهروب إلى صفاقس ومنها إلى جزيرة جربة ومن خلالها أبحر إلى عمالة طرابلس الغرب طالبا حماية علي باشا قارمنلي، ثم بدأ في إعداد العدة من أجل الوثوب على السلطة، وآزره في ذلك عروش الحزم وبني زيد وغيرهم قبل أن يعتصم بجبل وسلات ولكن خاب مسعاه في الاستحواذ على الحكم⁽¹⁶⁾.

أما أثناء حكم علي باشا الحسيني فقد عمل على تولية سلطة تابعة له في طرابلس لذلك شجّع الحاج محمد ابن الداوي السابق (اللاجئ في تونس) على المطالبة بأحقّيته في الحكم ووعدّه بالمساعدة بالمال والسلاح، وبدأ الحاج محمد في التحضير لذلك بجمع الرجال، فسارع أحمد باشا قارمنلي باعتقاله، فأحبط

(15) روسو (ألفونس). (د ت)، الحواريات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة وتحقيق محمد عبد الكريم الواحي، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ص 54.

(16) ابن عبد العزيز (حمودة)، (1970)، الكتاب الباشي، 2 أجزاء، تحقيق محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، تونس، ج 1، ص 47-90.

بذلك مشروع علي باشا الحسيني الذي بيّنت مرة أخرى الانتقام من الباشا من خلال إيواء أسرة بوشاقور في تونس، والتي تتمتع بدعم سكان الجبل الغربي، وحضّهم على المطالبة بالاستقلال عن السلطة المركزية في طرابلس.

وفي سنة 1739 أقترح قايد جربة سعيد بن موسى على أحمد قارمنلي تسليمه جربة وأمام انكشاف أمره قام بدعوة عكارة والتوازين بنهب المدينة وفرّ عنها⁽¹⁷⁾ لأن المخزن خشي أن تصبح جربة بمثابة القاعدة التي يركز عليها البلاط القارمنلي من أجل مد نفوذه في جنوب الإيالة. في هذا الإطار يتنزل استهداف علي باشا لعائلة بالجلود ذات الولاء القوي للفرع الحسيني، وسنة 1819 رفض سكان المناطق الجنوبية الشرقية للإيالة دفع الجباية لمحلة صالح بن عياد لأنه لم يراع فداحة القحط والمسغبة مما شجّع داي الجزائر وباشا طرابلس على إذكاء هذا التمرد المحدود لولا حيطة باي تونس. وهو ما يشير إلى أن سلوك القيادة قد تكون له تداعيات تتجاوز الحدود القطرية. ولنا أن نستحضر الدور الذي قام به مشايخ قابس والحمارنة في تعضيد التمرد الذي انطلق من منطقة سرت سنة 1759 ليمتد على أغلب مجالات الإيالة وكاد يعصف بالحكم الحسيني. فقد تمكن إسماعيل بن يونس، حفيد علي باشا، من الهروب شطر طرابلس إثر مقتل جده، ومن هناك بدأ في إعداد العدة للثورة على أبناء حسين بن علي (محمد وعلي باي)، وبعد حشد الحشود اعتصم بجبل وسلات ليناوش القتال من هناك القوات المخزنية حتى سنة 1863 أين التجأ إلى الجزائر. هذا الأمر جعل البلاط يتوجس خيفة من كل نذر للاحتجاج، لذلك كانت عملية التولية في العروش الجنوبية للبلاد التونسية تتم وفق الإخلاص والانتماء للحاكم حتى تكون الطاعة هي قاعدة سلوكية للشيخ وإخوته.

من جهتهم، سعى باشاوات طرابلس إلى استقطاب الطاعنين على حكم علي باشا الحسيني الذي عمل بدوره على تولية سلطة تابعة له في طرابلس، فلجأ قايد جربة الشيخ أحمد إلى طرابلس وطلب من أحمد قارمنلي أن يساعده في الاستقلال بحكم الجزيرة لكن خوف السلطة في طرابلس من ردة فعل بلاط باردو جعلته يقتصر على مراقبة سلوك علي باشا الحسيني الذي لم يعد يخفي مطامحه التوسعية في طرابلس، لكبح جماح باي تونس تحالف كل من أحمد باشا قارمنلي وإبراهيم داي الجزائر في مواجهة علي باشا الذي شجّع الحاج محمد ابن الداوي السابق على المطالبة بأحقّيته في الحكم ووعدّه بالمساعدة بالمال والسلاح وبدأ الحاج محمد في التحضير لذلك بجمع

(17) Martel, A. (1965), *Les confins saharo-tripolitaine de la Tunisie 1881-1911*, 2 T, P-U-F, Tunis, p. 64.

الرجال للزحف انطلاقاً من مصر وعند وصوله إلى طرابلس اعتقله أحمد باشا قارمنلي بتوصية من إبراهيم داي، مما أحبط مشروع علي باشا الحسيني الذي بيّث الانتقام من باشا طرابلس فاستقدم أسرة بوشاقور إلى تونس والتي تتمتع بدعم سكان الجبل الغربي في مطالبتها باستقلاله عن السلطة المركزية في طرابلس. وبعد أن تولى محمد قارمنلي الحكم في طرابلس الغرب نشبت خلافات دامية بينه وبين ابن عمه رئيس البحرية حسن كيخيا انتهت بفرار أبناء الكيخيا إلى تونس، فأستقبلهم علي باشا وحشد لهم الأنصار وجعل من غريان مركزاً للاستيلاء على الحكم، غير أن فشل مشروعهم الانقلابي جعلهم يخشون الهروب مرة أخرى إلى تونس وانتظار الفرصة السانحة للعودة إلى طرابلس⁽¹⁸⁾. ثم كانت الصراعات بين أجنحة العائلة القارمنلية وخاصة بين الأخوين حسن بك ويوسف بك، وكانت في كل مرة تنتهي بفرار بعض أعوان الدولة إلى تونس⁽¹⁹⁾.

فلا مندوحة أن الأزمات الداخلية وصراعات أجنحة الحكم من العوامل التي أفرزت ظاهرة اللجوء السياسي، فخلال دولة حمودة باشا فرّ عنه خليله وصهره إسماعيل كاهية إلى طرابلس ومنها إلى مصر لضغينة سابقة بينهما، ولم يعد إلى الإيالة إلا بعد وفاة غريمه. كما تراوحت علاقة حكام طرابلس وتونس بين التعاون السياسي وبين الانخراط في حياكة المؤامرات المتبادلة، ففي فترة علي برغل سعى هذا المغامر إلى التوسع في مملكة تونس ووزّع أعمال الإيالة بين أعوانه وتوجه قاره محمد التركي لاحتلال جربة القريبة مغتتما غضب أهلها نتيجة جور عاملها حميدة بن عياد، فكان لزاماً على حمودة باشا وطغمته دحر الخطر القادم من الشرق، فأرسل حملة بقيادة مصطفى خوجة الذي تعرض لقتال سكان المنشية التي نهبت فيما بعد من قبل الجند التونسي ثم بدأ سكان طرابلس في الدفاع عن مدينتهم حتى أعلنوا الاستسلام بفرار علي برغل.

ولا يفوتنا الإشارة إلى العون الذي لقيه القارمنليون من البايليك زمن انقلاب علي برغل في جويلية 1793 ولجوء علي باشا قارمنلي إلى بر تونس، وسارع حمودة باشا بإكرام وفادته وعظم مقدمه وأتباعه ثم أرسل جيشاً لرد حكمه، رغم المصاريف الباهظة التي تم رصدها إلى الجيش الذي ذهب «لفتح»

(18) فيرو (شارل لوران)، (1994)، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تحقيق وتقديم محمد عبدالكريم الوافي، منشورات جامعة قار يونس، الطبعة الثالثة، بنغازي، ص 311.

(19) توللي (ريتشارد)، (1967)، عشر سنوات في بلاط طرابلس وصف شامل لتدريبات صادقة عن طرائق البلاط وباشا الإيالة الحاكم وعادات وتقاليده مسلمي المغرب والعرب والأتراك، نقله إلى العربية عمر الديراوي أبو حجلة، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ص 432.

طرابلس على يد الحاج مصطفى خوجة وإحسانه لكل المشاركين في هذه البعثة العسكرية⁽²⁰⁾. ورفض الباب العالي هذا التدخل وقام بالإعداد لحملة تعيد طرابلس إلى إشرافه المباشر «فقد نقلت الرسائل السرية الواردة من تونس أن حملة يجري تشكيلها هناك بموافقة السلطان لتعيد مطالباً بعرش طرابلس موجوداً عند باي تونس، وهو عم باشا طرابلس الحالي، وكان قد نجا من فتكه يوم تولي العرش فقد قتل الباشا سبعة من أعمامه يوم ذاك لكن هذا الرجل فرّ إلى الجبال وانتقل منها إلى تونس»⁽²¹⁾.

2- تداعيات اللجوء السياسي على السلطة والمجتمع

لا شك أن الصراعات المحمومة في المنطقة كان لها تداعيات محلية وإقليمية خطيرة، فقد باتت القبائل عصيّة عن الاختراق من قبل السلطة المركزية، فكان نفوذ ممثلي الدولة العثمانية في طرابلس الغرب عاجزاً عن التغلغل في الدواخل وكان ولائها لا يستطيعون أن يحكموا تلك المناطق إلا عن طريق مشايخ القبائل فيها، وعرفت بعض القبائل بعصيانها المتتالي مثل قبيلة المحاميد بالجبل الغربي بطرابلس وزعامتها بيد بني نويرة وأولاد سليمان بنواحي سرت وزعامتها بيد سيف النصر⁽²²⁾، لذلك أمست منطقة سرت، لاسيما القسم الشرقي منها، مكاناً أمست السطوة فيها للقبيلة دون سواها، فلا غرابة والحالة تلك أن تكون طرابلس الغرب ملاذاً للهاربين من أفراد الجند التونسي، رغم صدور أوامر عليّة إلى عمال صفاقس بالحيلولة دون هروب الجند نحو مجال طرابلس⁽²³⁾.

وأدى تواتر اللجوء السياسي إلى انخراط السلطة في تونس وطرابلس الغرب في الصراعات العابرة للحدود، والتي تركزت أساساً حول مراقبة مجال سرت الكبرى، ففي ديسمبر 1794 وبعد استخلاص الحاج علي الجزيري جربة من يد محمد قاره عامل علي برغل أمر العسكر بنهب سوقها وزواياها وشدد وطأته على أهلها لأنهم تواطؤوا مع محمد قاره، كما لم يبحث غلاة القصر في دواعي تعاون أهل جربة مع الغازي الجديد، بل اقتصر على ظاهر الفعل وهو الالتحاق بشرعية أخرى وهو ما يوجب القمع العنيف، لذلك كانت بعض

(20) الأرشيف الوطني التونسي. الدفاتر الجبائية، (1794)، دفتر عدد 279.

(21) تولي (ريتشارد)، (1956)، عشر سنوات في بلاط طرابلس وصف شامل لذكريات صادقة

عن طرائق البلاط وباشا الإيالة الحاكم وعادات وتقاليده مسلمي المغرب والعرب والأتراك،

نقله إلى العربية عمر الديراوي أبو حجلة، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ص 380.

(22) ابن إسماعيل (عمر علي)، (د ت)، انهيار الحكم القارمنلي بلبيبا، مكتبة الفرجاني،

طرابلس، ص 28.

(23) الأرشيف الوطني التونسي، صندوق 15، (1829)، ملف 142.

المجموعات ترد على عنف السلطة بعنف مماثل وخاصة المجموعات ذات التمرس بالقتال. لذلك، وفي محاولة لتلافي هذا التوتر بعث السلطان العثماني محمود عبد الحميد خان رسالة إلى حسين باي تونس بشأن إعادة طرابلس إلى السلطان سنة 1834 جاء فيها: «يكون المعلوم أن أمير الأمراء لإيالة طرابلس الغرب يوسف باشا دامت معاليه، بما أنه قد طعن في السن وأصبح عديم الاقتدار على إدارة الأمور، حدث من ذي مدة منافسة وشقاق بينه وبين الشخص المقيم خارج الصور (كذا) السيد محمد بك وأمددناه بأن يجتهد في خصوص دفع الفساد والاختلال الحاصل بالإيالة»⁽²⁴⁾، وعند اشتداد الأزمة بدأ السلطان في سحب الشرعية من يوسف باشا بفرمان، ثم شرع السلطان في التحضير لاستعادة الإشراف المباشر على تونس عن طريق الوزير شاكير صاحب الطابع لكن المشروع سريعا ما وأد، لتبقى منطقة سرت الكبرى ساحة للصراعات ومنفذا لتهاوي الحكم المركزي.

وبعد استعادة طرابلس الغرب من قبل السلطان العثماني سنة 1835 بدأت حقبة جديدة من عمليات اللجوء السياسي، فقد كانت المجموعات القبلية تخير الفرار إلى مجال طرابلس هروبا من الاعتصار الضريبي الذي يمارسه أعوان الدولة، إذ خير جمع كبير من التونسيين الهجرة صوب طرابلس الغرب رفضا للوجود العسكري الفرنسي في تونس، لذلك كانت هجرة عام 1881 تعبيرة عن استمطار الدعم السلطاني وبداية حقبة جديدة من اللجوء السياسي بين تونس وطرابلس الغرب.

الخاتمة

إن تناول مسألة اللجوء السياسي هي أبعد غورا من ذلك، إنها تعبيرة عن الأزمة التي عصفت بالسلطة كما المجتمع في كل من تونس وطرابلس، لذلك رمنا في هذه الخطاطة الكشف عن ذلك التمايز بين الواقع الطبيعي والسكاني في منطقة سرت الكبرى وتماهي ذلك الواقع مع إستراتيجيات الحكم التركي الذي لم يأل جهدا في شغل مقدرات المنطقة ومنع تراكم فائض القيمة.

وقد تعددت الأسباب الحافة باللجوء السياسي في منطقة سرت حجم صراعات الأجنحة داخل السلالة الحاكمة والتي تدفع الشق المنهزم إلى البحث إما عن مكان يعصمهم من عنف السلطة أو طلبا للمدد. وقد عكست ظاهرة الالتجاء السياسي في منطقة سرت الكبرى ذلك الحجاب الصفيق الذي كاد يحجب ما عرفته تونس وطرابلس الغرب من أزمات سياسية وصراعات حامية

(24) القرمانلي (حبيب). (1997)، الحضور العثماني بإفريقيا الشمالية: قيام الدولة القارمنلية بالأناضول التركي والإيالة الطرابلسية، دار الفرجاني، طرابلس، ص 331.

الوطيس على تولي الحكم، والرغبة في إعتصار السكان ضريبيا، فعبر الإخلاء القسري والطوعي في تونس وطرابلس الغرب عن ترهل أدوات السلطة وعدم قدرتها عن ممارسة واجباتها في تنمية منطقة سرت الكبرى.

فأدت الصراعات المتواترة في منطقة سرت الكبرى بين البايك الحسيني والباشليك القارملي إلى عزم الباب العالي حسم هذه الخلافات بمحاولة إرجاع البلدين إلى الإشراف المباشر للسلطان، غير أن ترامي المخزن الحسيني على العون الفرنسي أفضل هذا المشروع، بل أغرق البلاط الحسيني في إستراتيجياته الاستقلالية.

البليوغرافيا

بارت (هانريتش) 1987، الرحلة إلى تونس 1845-1846، تحقيق وتعريب منير الفندري، بيت الحكمة، تونس.

تولي (ريتشارد) 1956، عشر سنوات في بلاط طرابلس وصف شامل لذكريات صادقة عن طرائق البلاط وباشا إيالة الحاكم وعادات وتقاليده مسلمي المغرب والعرب والأتراك، نقله إلى العربية عمر الديراوي أبو حجلة، مكتبة الفرجاني، طرابلس.

حسن (الفقيه حسن) 1984، اليوميات الليبية، تحقيق محمد الأسطى وعمار جعيدر، طرابلس.

الخامس (محمد بيرم) 1989، القطر التونسي في صفوة الاعتبار في مستودع الأمصار والأقطار، تحقيق علي الشنوفي وعبد الحفيظ منصور ورياض المرزوقي، بيت الحكمة قرطاج، الطبعة الأولى تونس.

روسو (ألفونس) د ت، الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، ترجمة وتحقيق محمد عبدالكريم الوايي، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي.

المصادر

ابن عبد العزيز (حمودة) 1970، الكتاب الباشي، 2 أجزاء، تحقيق محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، تونس.

الأرشيف الوطني التونسي، الدفاتر الجبائية، (1794)، دفتر عدد 279: مصاريف في شأن الجيش الذي ذهب لفتح طرابلس على يد الحاج مصطفى خوجة والإحسان لكل المشاركين في هذه البعثة العسكرية.

الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، (1829)، صندوق 15، ملف 142: أوامر عليّة إلى عمال صفاقس بالحيولة دون هروب الجند نحو مجال طرابلس.

الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، (1825-1862)، صندوق 42، ملف 474.

أبو النصر (عمر) 1971، تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة، دار عمر أبو النصر وشركاه للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

المراجع باللغات الأجنبية

- Chater, Kh. (1984), *Dépendance et mutation précoloniales ; la régence de Tunis de 1815 à 1857*, P-U-T, Tunis.
- Chérif, Mh. (1970), « Expansion européenne et difficulté tunisienne de 1815 à 1830 », *Annales E-S-C*, Mai-juin.
- Charmes, G. (1883), *la Tunisie et la Tripolitaine*, Calman Lévy éditeur, Paris.
- Martel, A. (1965), *Les confins saharo-tripolitaine de la Tunisie 1881-1911*, 2T, P-U-F, Tunis, p. 64.
- Rabatel, F. & Tirant, G. (1874), *Voyage dans la régence de Tunis*, Paris.

فيرو (شارل لوران) 1994، *الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي*، تحقيق وتقديم محمد عبدالكريم الواقي، منشورات جامعة قار يونس، الطبعة الثالثة، بنغازي.

ميكاكي (رودولفو) 1961، *طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القارمنلي*، ترجمة طه فوزي، معهد الدراسات العالية وجامعة الدول العربية، مصر.

المراجع

- ابن إسماعيل (عمر علي) د ت، *انهيار الحكم القارمنلي بليبيا*، مكتبة الفرجاني، طرابلس.
- بنبلغيث. (الشيواني) 1992، «كفاح الشيخ غومة بن خليفة المحمودي في جنوب تونس»، *المجلة التاريخية المغاربية*، عدد 67-68، تونس.
- بن موسى (تيسير) 1988، *المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني*، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية 1988.
- القرماني (الحبيب) 1997، *الحضور العثماني بإفريقيا الشمالية: قيام الدولة القارمنلية بالأناضول التركي والإيالة الطرابلسية*، دار الفرجاني، طرابلس.

البعد الاستراتيجي لخليج سرت الكبرى في السياسة الفرنسية من أعقاب الحرب العالمية الثانية حتى عام 1952

عبد الناصر اشتيوي⁽¹⁾

ملخص

نعلم أنّ فرنسا أصبحت لاعبة رئيسة في تسوية القضية الليبية مع تداعيات الحرب العالمية الثانية والهزيمة الإيطالية في يناير 1943، والهدف من ذلك هو تحليل السياسة الفرنسية تجاه هذه المنطقة المهمة، لا سيما أثناء سيطرتها على فزان. وفي البداية تمّ تقديم عرض تاريخي ضروري لفهم موضوع البحث «البعد الاستراتيجي لخليج سرت الكبرى في السياسة الفرنسية من أعقاب الحرب العالمية الثانية حتى عام 1952»، وكذلك إظهار اهتمام فرنسا بهذه المنطقة. وبالتالي التركيز على العمل الفرنسي في هذا المجال، وكيف عمل السياسيين الفرنسيين على وضع أيديهم عليها على الرغم من الدعم الفرنسي لبعض القبائل والقادة، فقد ترك التنافس الاستراتيجي فرنسا دون أي تأثير حقيقي بسبب التنافس مع البريطانيين أو الإيطاليين على الأقل.

الكلمات المفتاح: ليبيا - فرنسا - سرت الكبرى - سياسة دولية - حرب العالمية - دبلوماسية.

Résumé

Cette étude intitulée. La dimension stratégique du golfe de la grande Syrte dans la politique française après la guerre jusqu'en 1952. Nous savons que la France est devenue un acteur majeur dans le règlement de l'affaire libyenne, avec les conséquences du second conflit mondial et la défaite italienne en janvier 1943. L'objectif est d'analyser la politique française envers cette importante région, notamment lors de son installation au Fezzan. Dans un premier temps, une présentation historique paraît indispensable pour bien comprendre notre sujet, tout comme montrer l'intérêt de la France pour cette région. Dans un second temps, nous nous concentrerons sur l'action

(1) أستاذ مساعد قسم التاريخ / جامعة سرت.

française dans cette zone. Nous verrons comment les politiciens français ont travaillé pour avoir la main sur elle. Enfin, malgré le soutien français à certaines tribus et certains chefs, la rivalité stratégique a laissé la France sans réelle influence en raison de la concurrence avec notamment les Anglais ou au moins les Italiens.

Mots-clés : Libye, France, Grande Syrte, Relations, colonisation, diplomatie.

The strategic dimension of the Gulf of Greater Sirte in French politics after the war until 1952

Summary

This study entitled The strategic dimension of the Gulf of Greater Sirte in French politics after the war until 1952. We know that France has become a major player in the settlement of the Libyan affair, with the consequences of the Second World War and the Italian defeat in January 1943. The objective is to analyse the French policy towards this important region, especially during its installation in Fezzan. At first, a historical presentation seems essential to understand our subject, as well as show France's interest in this region. Secondly, we will focus on French action in this area. We will see how the French politicians worked to get their hands on her. Finally, despite French support for certain tribes and chiefs, strategic rivalry left France without any real influence because of competition with the English or at least the Italians.

Keywords: Libya, France, Great Sirte, Relations, colonization, diplomacy.

المقدمة

مثلت منطقة سرت الكبرى (خليج سرت) دوراً كبيراً في الربط بين مختلف أجزاء الأرض الليبية جغرافياً وسياسياً واجتماعياً، إضافة إلى دورها حلقة وصل في حلحلة العديد من الخلافات السياسية لاسيما زمن الاحتلال الإيطالي ولعل أبرزها لقاءات رمضان السويحلي وقادة السنوسية برعاية تركية زمن الحرب العالمية الأولى عام 1914، وهزيمة إيطاليا بعد ذلك في القرصاوية عام 1915، إلى مؤتمر سرت عام 1922، واختيار الأمير إدريس السنوسي بعد اتفاق قادة الجهاد حول ذلك. إضافة إلى موقعها الجغرافي الطبيعي الذي يعطيها مزايا مختلفة في العمق الليبي، وكذلك ما تحويه من موارد طبيعية تجعلها نقطة نزاع بين القوى الكبرى على غرار ما يحدث في يومنا هذا.

وكما هو معلوم لدى الجميع لم تربط فرنسا بليبيا أي صلات قوية أو بمعنى آخر لم يكن لها موطأ قدم على غرار تونس والجزائر رغم علاقاتها المميزة مع الأسرة القرمانلية وتجارتها مع مارسيليا، إلا بتواجدها في فزان عام 1943، لاسيما أعقاب الحرب العالمية الثانية وانتصار الحلفاء على دول المحور في صحراء ليبيا بقيادة الجنرال لكليز Leclerc أو فيما سُمي بملحمة لكليز التي رافقه فيها جمع كبير من قوم أولاد سليمان وغيرها من القبائل الليبية التي هُجرت من ليبيا بعد إعادة احتلال فزان من قبل غرتسياني Graziani. وتحدث المؤرخ الفرنسي أندري مارتيل André Martel على أن أعين فرنسا كانت على ليبيا ولو على جزء منها أي واحتى غات وغدامس، فليبيا مثلت أهمية كبرى لفرنسا خصوصاً بعد اتفاق عام 1900-1902 مع إيطاليا ضمن صفقة تبادلية مع المغرب، وهزيمة إيطاليا القاسية في القرصانية عام 1915.

وكذلك الطريق (رقم 5° Piste) فورت-لامى-فزان-تونس، Fort-Lamy-Fezzan-Tunis الذي يمر عبر ليبيا والذي يخبر عن مدى الصعوبات التي تواجهها الأنشطة التجارية الفرنسية، وما تتكبد من مشاق وبُعد مسافة للوصول إلى مرافئ سرت الصغرى في تلك الفترة. إلا أن ذلك يُعدّ أقلّ عناءً من رحلتها التي كانت تمرّ عبر المغرب باتجاه السنغال ثم إلى قلب القارة الإفريقية حيث وصفها الفرنسيون بأنها رحلة الستة أشهر. وإذا نظرت إلى موقع منطقة سرت القريب والذي يصلح لميناء يسهّل عملية التنقل يجعلك أمام التفكير في هل كانت هناك استراتيجيات للنظرة التوسعية الاستعمارية الفرنسية تجاه هذه المنطقة ؟

وتتطلب هذه الدراسة من نظرية التنافس الاستعماري مع القوى الأخرى، وإمكانية سيطرة فرنسا على منفذ بحري صوب منطقة سرت في تلك الفترة.

وهناك العديد من التساؤلات التي يمكننا طرحها والبحث لها عن إجابة عن أهمية منطقة سرت لفرنسا في تلك الفترة، هل حاولت فرنسا إيجاد نفوذ لها في تلك المنطقة على غرار الإنجليز والأمير إدريس عن طريق حلفائهم أولاد سليمان ؟ هل وضعت فرنسا سياسة معينة للظفر بهذه المنطقة ولو في المستقبل ؟ هل كانت فرنسا تهدف لربط فزان بسرت للحصول على نقطة بحرية ؟

يحاول الباحث في هذه الورقة أن يشرح بعض المحركات الكامنة وراء الإطار العام للسياسة الفرنسية تجاه منطقة سرت في تلك الفترة. وتكمن أهمية هذه الورقة في إمالة اللثام عن هذه الحقبة من تاريخ ليبيا في زمن التنافس الاستعماري وتأثيره على مستقبل المنطقة الوسطى في تحديد مصير الدولة.

وتستند هذه الدراسة أساسًا إلى مصادر أولية من أرشيف وزارات الخارجية والدفاع في باريس، وكذلك الوثائق السرية للسفارة الفرنسية في طرابلس فترة الاحتلال الإيطالي في ليبيا الموجودة في نانت، إضافة إلى الأرشيف الخاص بالجنرال ديغول De Gaulle ووزير خارجيته في تلك الفترة جورج بيدو Bidault George، إضافة إلى ملف روبرت شومان Robert Schuman وزير خارجية فرنسا، وأرشيف الرئيس فنسين أوريول Vincent Auriol، حيث تُعدّ هذه الوثائق جديدة وأصيلة في معلوماتها ولم يتم التطرق سابقًا لها. وتمّ تقسيم هذه الدراسة إلى محورين رئيسين:

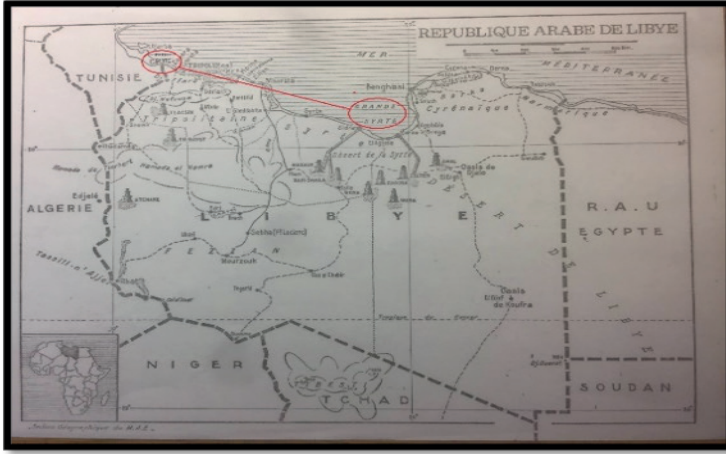
I- تاريخ خليج سرت نقطة استراتيجية منذ القدم وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية.

II- سرت الكبرى وموقعها الاستراتيجي في الأجندات السياسية الفرنسية.

I- تاريخ خليج سرت نقطة استراتيجية منذ القدم وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية

في واقع الأمر ومن زيارة أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية لاحظ الباحث بعض الخرائط المتواجدة في الأرشيف، وتشير إلى رقعتين لم تكونا ضمن مجال دراسته، ولكنه أشار بها إلى مشرفته الأستاذة كارولين موان Caroline Moine⁽²⁾ التي قالت بالحرف الواحد: إنه جدًّا شيقّ ربما يومًا ما ستكتب لنا عن ذلك لمعرفة تفاصيل هذه الخرائط والمناطق المشار إليها. وبالفعل جاءت اللحظة التي سيحاول الباحث فيها فهم الكثير عن هذه المناطق وأهميتها ولو لواحدة منها على وجه الخصوص، ولكن تبقى لكل منها خصوصيتها ومكانتها المهمة منذ القدم.

(2) Maîtresse de conférences en histoire contemporaine à l'Université Paris-Saclay/ Université Versailles Saint-Quentin-en-Yvelines.



الشكل رقم 1 / سرت الكبرى وسرت الصغرى⁽³⁾

إنّها إلزامية المؤرخ في كتاباته أن يرجع للتاريخ الأقدم للتعريف عمّا يقوم بدراسته، وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية سرت الكبرى منذ القدم لكي يكون المتتبع على دراية تامة بأدق التفاصيل، كذلك لتمييزها عن أختها الصغرى في تونس الشقيقة، فوفقاً لبيرر بانّا Pierre Pinta مؤلف كتاب ليبيا أن هيرودوت أشار إليها بأنّها أرض الساحل والأراضي الشاسعة الرملية في الدواخل أي صحراوية، (وهذا التعريف ناقص) أمّا سترابون فيميزها عن سرت الصغرى بأنّها خطيرة جداً في الإبحار وذلك بسبب كثرة الرمال الكثيفة فيها⁽⁴⁾.

هذا في العهد القديم أمّا في الحقبة الوسيطة وانتشار الإسلام والرحالة العرب فنجد وصفها عند ابن حوقل: (أنّ أهله السكان بربر وهي غنية من الناحية الزراعية خاصة النخيل وليس لها الكفاية من قصب السكر)⁽⁵⁾. (ولهم أعناب وفواكه على مرّ الأوقات، والأموال والإبل والأغنام ما يزيد على إجدابية وما لها في وقتنا هذا، وحرّكة نشطة في مينائها الذي تصله بضائع من تونس ومصر وهو المتحكم في أمور المدينة من ضرائب ولوازمه)⁽⁶⁾. وفيما يتعلق بالسكان يشير البكري إلى عكس ذلك بقوله: «إنّهم لا يتحدثون البربرية ولا العربية أو الفارسية أو حتى القبطية سكانها يتحدثون البونيقية القديمة»⁽⁷⁾.

(3) Archives diplomatiques du MAE La Courneuve, (1971), p. 1.

(4) Pinta, P., (2006), p. 18.

(5) *Idem.*, p21.

(6) ابن حوقل (1992)، ص 70.

(7) Tadeusz Lewicki, T. et autres, (1990), pp. 303-363.

ويستمر البكري في وصف منطقة سرت بقوله: إنها إقليم ينقسم إلى مقاطعتين، وهي سرت ذاتها تمثل المنطقة الساحلية بينما المنطقة الثانية وهي ودان أو فيما يعرف حديثاً بالجفرة المنطقة الداخلية، حيث كان يسكنها قبيلة المزاةة من البربر ديران اللواتي في برقة، والهواره في طرابلس⁽⁸⁾. وذكر ودان هنا وربطه بمنطقة سرت لربما سيجعله لاحقاً عقب أحداث الحرب العالمية الثانية يطفو من جديد على السطح لاسيما وأن فرنسا أقامت حدودها على جنوب سرت في ودان وامتداد المنطقة ببعضها يجعلها مثيرة للتساؤل عما إذا ما سعت فرنسا للمطالبة بتلك المناطق لارتباطها جغرافياً وتاريخياً ؟

أمّا فيما يخص بدايات التواصل الفرنسي بمنطقة سرت فيرجع إلى عام 1839، حيث وصل عدد من موظفي بيت التجارة مرسليليا من قبل السيد تيفونن، L.Thévenin لعمل دراسة حول تواجد الكبريت في المنطقة⁽⁹⁾. حيث حصل الفرنسيون على اتفاق من السيد عبد الجليل للاستكشاف في المنطقة، الأمر الذي لا يرغبه العثمانيون خوفاً من تحول هذه المبادرة التجارية إلى حملة سياسية تمكن فرنسا من السيطرة وتكريس مشاريعهم في منطقة سرت وإقامة قاعدة خلفية للسيطرة على كل فزان لاحقاً⁽¹⁰⁾.

لهذا عمل علي عسكر باشا خليفة حسن باشا على القيام بحملة عسكرية ضد سيف النصر، بينما كان السيد سبتيل Subtil المفاوضات المرسليليا يضغط على هذا الاتفاق من أجل الحصول على عقد لمدة أربع سنوات في منطقة سرت لتصدير الكبريت. وتجدر الإشارة إلى أن الاتفاق كان على أن السلاح مقابل الكبريت⁽¹¹⁾. فالإنجليز بدورهم أرادوا منع التوسع الفرنسي عبر الجزائر حيث حدث تقارب مع عبد الجليل سيف النصر، ففي 10 إبريل عام 1842 ألتقى القنصل وارنغتون Warrington السيد سيف النصر في خليج سرت من أجل ضمان حياده لتتمكن من إحكام سيطرتها التجارية على إفريقيا الوسطى⁽¹²⁾. فالتنافس الاستعماري لحقت بركبه القوة الاستعمارية الأضعف، حيث أرسلت إيطاليا مستكشفين من أجل مهمة علمية في منطقة سرت الكبرى برعاية مصرف روما اللذين انتهى بهم المطاف بالقبض عليهم من قبل العثمانيين في سوكنة جنوب سرت⁽¹³⁾. وهم ربما تابعون لشركة سان فيليبو Sanfilippo الفرنسية الإيطالية للتقيب عن الكبريت، فهذه العمليات لاقت هجوماً عنيفاً

(8) *Idem.*, p. 311.

(9) De Léone, E. (1956), p. 268.

(10) *Idem.*, p. 268.

(11) Martel, A. (2012), p. 25.

(12) Rossi E., (1927). pp. 4-5.

(13) Sanfilippo I., (1919), p. 912-952.

من الباي بشير السعداوي الذي وصفها بالمهمات التجسسية الاستعمارية هدفها التمهيد لاحتلال البلاد⁽¹⁴⁾. وتجدر الإشارة إلى أن فرنسا وإيطاليا وقعتا اتفاقاً عام 1900-1902 يقضي باحتلال إيطاليا لطرابلس الغرب وفرنسا المغرب ضد النفوذ الألماني آنذاك⁽¹⁵⁾. والإيطاليون أنفسهم بقيادة ميانى في حملته على فزان التي بدأت عام 1914 حاولوا التقرب من سيف النصر لضمان سير عملية الاحتلال بطريقة سلسة، وهذا وفقاً لإرادة الحاكم العسكري جاريوني Garioni الذي طلب ذلك⁽¹⁶⁾.



الشكل رقم 2 / البعثة الإيطالية التي تم إطلاق سراحها في عام 1912⁽¹⁷⁾

وظلت منطقة سرت ذات أهمية كبيرة فقد حاولت إيطاليا بمختلف ولاءاتها وجنيرالاتها السيطرة على ليبيا وعلى سرت لقطع الطريق أمام السنوسية التي يصفها الفرنسيون بالأسطورة السوداء فشهدت المنطقة عام 1914 محادثات للمّ الشمل لقيادات الجهاد بين رمضان السويحلي من جهة وأحمد الشريف من جهة أخرى برعاية الأتراك إلا أن شيء لم ينتج عن ذلك فاتجهوا للمصالحة، (الأمر الذي كان في مصلحة إيطاليا التي انطلقت قواتها إلى محاولة إعادة احتلال البلاد مروراً بسرت بمساعدة رمضان السويحلي ظاهرياً، إلا أن قوات الجنرال

(14) Béchir Sadaoui, B. (1929), p. 16.

(15) Pierre Milza, P. (1977), pp. 1158-1159.

(16) Palmieri, T. (2015), pp. 107-108.

(17) <https://societageografica.net/wp/2020/05/21/ignazio-sanfilippo/>> consulté septembre 2019.

مياني⁽¹⁸⁾ منيت بهزيمة ساحقة فيما عُرف بمعركة كل الليبيين القرضابية حيث يصفها المؤرخ الإيطالي أنجلو ديل بوكا بالهزيمة النكراء لإيطاليا التي كانت أشد من هزيمة عدوه عام 1896. وتجدر الإشارة إلى أن سرت أصبحت تحت سيطرة أولاد سليمان بقيادة عبد الجليل سيف النصر مستغلا في ذلك تدهور أوضاع الأسرة القرمانلية والجعل منها إمبراطورية ذات سيادة تحت حدود تشاد إلا أن والي طرابلس حسن باشا توصل لاتفاق مع سيف النصر مقابل خدمته تحت السلطان العثماني وحصول الأول على جزية بقيمة 25,000⁽¹⁹⁾.

ولكن يجب فهم الوضع العام في منطقة سرت والقوى المحلية الأكثر نفوذاً وهل فقط هم أولاد سليمان أم هناك من له تأثير في هذه الرقعة الجغرافية الاستراتيجية، حيث يصفها المؤرخ الإيطالي أنتونيو بالومبو Antonio Palumbo بأنها ومن دون خوف من المبالغة في قوله مصدر لجميع برامج التمرد والمقاومة منذ عام 1951 من فزان إلى الساحل⁽²⁰⁾. وهنالك قوى كل منها له نفوذ في المنطقة فمثلاً السنوسية لها تأثير قوي في منطقة سرت وهي شبه متكاملة، حيث تتكون أضلاع السيطرة من المغاربة بقيادة الأطيوش حليف السنوسية، وأولاد سليمان والقذافة والتمامة تحت قيادة سيف النصر، أمّا في الطرف الثالث فتجد آل المنتصر الذين يسيطرون على كل طرابلس الشرقية مصراتة إلى سرت⁽²¹⁾.



الشكل رقم 3 / قصر أبو هادي - سرت معركة القرضابية 1915⁽²²⁾

(18) Del Boca, A. (2004).

(19) Palmieri, T. (2015), p. 53.

(20) Palumbo, A. (mars-juin 1920), pp. 1-24.

(21) Palumbo, A., *Ibid.*, p. 3.

(22) http://fezzan24.blogspot.com/2012/12/blog-post_2.html consulté en septembre 2019.



الشكل رقم 4 / أراضي تحت نفوذ آل سيف النصر ومن ضمنها دواخل سرت إلى الحدود التشادية⁽²⁶⁾

(26) Archives du ANOM, Aix-en-Provence, dossier n° 980, 1943 Fezzan.

طبيعة الحالة الليبية أنّ السيطرة على أي منطقة تتم بالتحالف مع زعماء القبائل الكبرى وهذا يجري إلى يومنا، عليه فهمت فرنسا أنّ دخولها ليبيا لن يتم إلا بهذه الطريقة حيث من الصعوبة بمكان معرفة الصحراء الليبية وخفاياها إلا من قبل من يسكنها، وفي حقيقة الأمر نستغرب كثيراً من عدم ذكر دور الليبيين العائدين من تشاد والنيجر من قبل المؤرخين الفرنسيين فقط إشارتهم إلى قوات فرنسا وشجاعته وأنها دخلت للمنطقة ومعها مدفع 75 سم. والأمر الذي تجدر الإشارة إليه وربما نفسر سيطرة عائلة المنتصر على سرت هو غياب آل سيف النصر عن المنطقة وهجرتهم، إضافة إلى أنّ سالم المنتصر عم محمود المنتصر أول رئيس وزراء في تاريخ ليبيا المستقلة كانت تربطه علاقات جيدة مع الإيطاليين حيث يذكر القنصل الفرنسي السيد روجييه شمباغ Roger Chambard أنّ سالم المنتصر كان يفضل احتلال ليبيا من قبل إيطاليا، إضافة إلى أنّ حزب الاستقلال في فترة الأربعينات حظي بدعم إيطاليا⁽²⁷⁾.

ورغم ذلك ظلت سرت منطلقاً دائماً لحركة الجهاد ففي عام 1922 تمّ عقد مؤتمر سرت ضم قيادات غرب وشرق ليبيا خاصة السنوسية واتفقوا على تعيين الأمير إدريس السنوسي أميراً على حركة الجهاد وكل ليبيا، إلا أنّ الأخير هاجر إلى ليبيا وترك الراية إلى شقيقه الرضا⁽²⁸⁾ ومن ثمّ لشيخ المجاهدين عمر المختار الذي أعدم عام 1931. وظلت ليبيا تحت ويلات المستعمر الإيطالي في المعتقلات الجماعية وظلت فرنسا متفرجة ففي تلك الفترة حاولت أنّ تخطب ود الفاشيين وزعيمهم موسوليني خاصة باتفاق روما عام 1935 لترسيم الحدود، أضف إلى قول أندري مارتل André Martel إنّ الأطماع الفرنسية اصطدمت أولاً مع الدولة العثمانية بين عامي 1835-1911 وفي المواجهة الثانية ضد الإمبراطورية الإيطالية أعوام 1902-1911/1911-1943⁽²⁹⁾. إلى أنّ قامت الحرب العالمية الجديدة خلطت التي الأوراق وغيّرت مصير أمة بأكملها. عليه سيُخصّص المحور الثاني حول سياسة فرنسا في ليبيا عامة وسرت الكبرى خاصة.

II- سرت الكبرى وموقعها الاستراتيجي في الأجنات السياسية الفرنسية

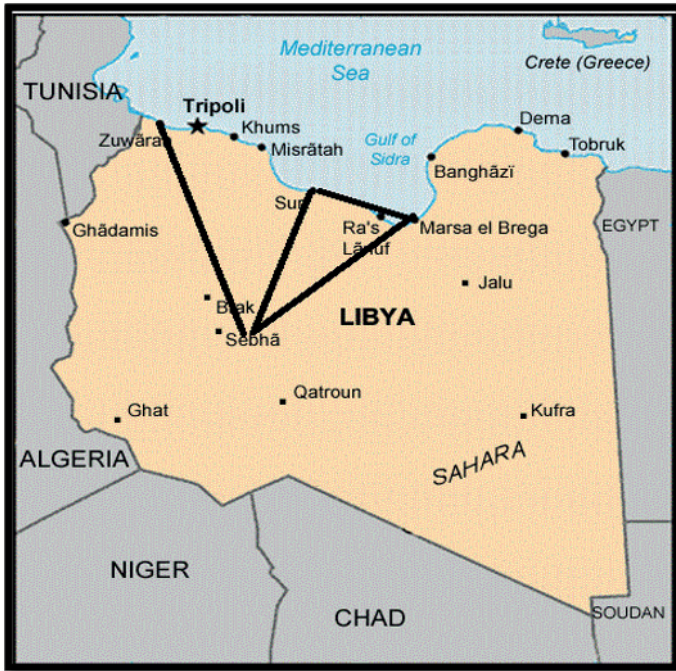
حمى وطيس أحداث الحرب العالمية الثانية على الأرض الليبية وما آلت إليه الأمور من انتقال البلاد من حكم الفاشيست الطليان إلى زمن الإدارتين الفرنسية والبريطانية، الأمر الذي جعل من فرنسا أحد أبرز الفاعلين في المشكل

(27) Archives militaires du SHD, 1948, p. 2.

(28) Azmi, M. (1949), pp. 505-522.

(29) Martel, A. et autres, (2012), p. 23.

الليبي باحتلالها لفزان كيفما ذكر المؤرخ الفرنسي أندري مارتل André Martel، وظلت ليبيا دائماً في مخيلة الساسة الفرنسيين وعلى أقل تقدير واحتياغات وغدامس⁽³⁰⁾ وفكرة ضمهما إلى أراضيها في إفريقيا الشمالية أمر مهم، ولكن إيجاد منفذ بحري استراتيجي يُعدّ أكثر أهمية من الجوانب الاقتصادية والاستراتيجية والعمق الإفريقي للقارة. فمن الناحية الاستراتيجية يرى كونراد كيلان Conrad Kilian الجغرافي والجيولوجي الفرنسي فكرة حصول فرنسا على منفذ بحري فيما أسماه فزان المتكامل بقوله: «إنّ الحصول على منفذ بحري في زوارة ليس منه فائدة لأننا قريبين من تونس، ومن الأفضل الحصول على ذلك المنفذ في قلب ليبيا في خليج سرت أو مرسى البريقة لتكون منطقة استراتيجية لفرنسا في تحركها في العمق الإفريقي وفي نفس الوقت السيطرة على منفذ استراتيجي آخر»⁽³¹⁾.



الشكل رقم 5 / رؤية الجغرافي الفرنسي ومثلث فزان-سرت-مرسى البريقة على حساب زوارة-فزان⁽³²⁾

(30) Ashtiewi, A. (2018), p. 2.

(31) Archives nationales Pierrefitte, (1947), pp. 1-2.

(32) Conard Kilian, *Idem*.

والجدير بالذكر أنه بعد اتفاق يناير عام 1942 بين⁽³³⁾ فرنسا وبريطانيا على ترسيم الحدود الإدارية بين مناطقهم في ليبيا خضعت منطقة سرت للنفوذ الإنجليزي، لهذا كانت فرنسا تدفع بإيطاليا للحصول على الوصايا على إقليم طرابلس ربما لأنها قوى أضعف منها وبإمكان فرنسا إجبارها على القبول بشروطها مقابل التبادل التجاري والاقتصادي والمهاجرين الإيطاليين السياسيين خاصة، إضافة إلى أن بين البلدين حدود مشتركة تجعلها ورقة ضغط على الإيطاليين خاصة وأن فرنسا تمثل أرضاً خصبة للمهاجرين الإيطاليين بطرق شرعية وغير شرعية للعمل فيها، وهذا ما تبنته حكومة الجمهورية الإيطالية بعد الحرب العالمية الثانية منعاً للبطالة⁽³⁴⁾. هنا ربما جعل طموحات فرنسا تجاه هذا الإقليم معقدة الحصول خاصة دبلوماسياً معرفتنا أولاً باتفاق ترسيم الحدود بين طرفين في يناير عام 1943، إضافة إلى أن الإنجليزي لن يتخلوا عن هذا الموقع الاستراتيجي بسهولة في ظل التنافس الدولي وبدايات الحرب الباردة.

حاول الفرنسيون توطيد أقدامهم في ليبيا سواء في فزان أو غيرها لأنهم يعلمون جيداً أن أي مشروع للحكم الذاتي يُعد تهديداً لفرنسا في إفريقيا، الشيء الذي أكدّه بيير غولياني Pierre Guillen في مقالته تهديد لإفريقيا الفرنسية والحوار الدولي حول مسألة المستعمرات الإيطالية السابقة ومن بينها ليبيا⁽³⁵⁾. وربما من أجل إيجاد الحلول لهذا التهديد بدأ الساسة الفرنسيين بالبحث عن منفذ سيطرة على البحر يجعل مسألة الحكم الذاتي أكثر تعقيداً وفي نفس الوقت إطالة مدة الحديث عن مشروع دولة مستقلة في ليبيا كما حدث في شاياء المؤتمرات الدولية السابقة عن تمسك فرنسا بموقفها من عودة إيطاليا بالوصايا على إقليم طرابلس، أو حتى مساندة مشروع بيفن-سفورزا الهادف إلى ذلك في مايو عام 1949.

وفي حقيقة الأمر لا يمكن الجزم أن فرنسا كانت نشطة على تلك الجبهة؛ أي الحصول على منفذ بحري بقدر ما كانت في تلك الفترة منشغلة

(33) Vernier, B. (1947), pp. 188-200, Cet accord est postérieur à la proclamation n°1 du général B. L. Montgomery, commandant la VIII^e armée, datée du 15 décembre 1942, et dont l'article 2 est le suivant :

- Art. 2. Définition de la Tripolitaine : dans la présente déclaration et dans les suivantes, les termes.
- Tripolitaine » ou le « Territoire », comprennent les provinces italiennes de Misurata et Tripoli et les quatre subdivisions occidentales de Mourzouk, Brak, Hon et Chat qui font partie du territoire militaire de la Libye, à l'exclusion des subdivisions » militaires d'El Djof et des confins ». pp. 190-191.

(34) Rinauro, S. (2012), pp. 13-26.

(35) Guillen, P. (1984), p. 69.

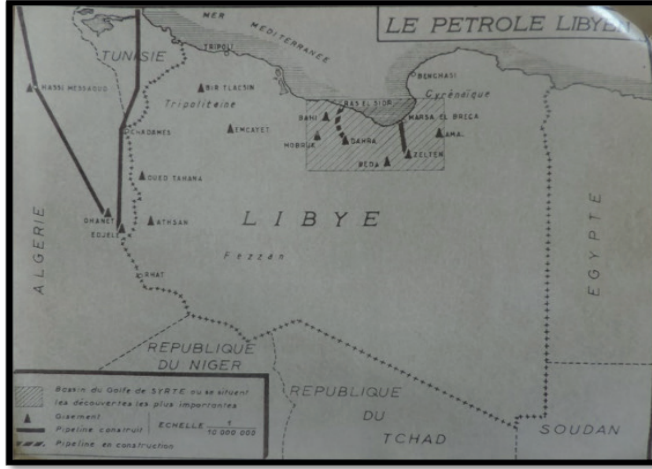
بوضع نظامها الذي أعدته لفزان؛ أي ما يُعرف بالنظام الانتقالي لفزان حيث أسست له دستور وحكومة ورئيس ألا وهو السيد أحمد سيف النصر⁽³⁶⁾، إضافة إلى سعيها لفرض هذا المخطط على السيد بلت مبعوث الأمم المتحدة الذي حاول ورفض هذه الفكرة، إلا أن السيطرة الاستعمارية لفرنسا هي من فرضت نفسها في آخر المطاف بتطبيق ما أرادته في فزان كما هو الحال في برقة من استقلال حصلت عليه في يونيو عام 1949 بمساعدة الإنجليز. أضف إلى ذلك الحفاظ على قواعدها العسكرية في فزان. وهدفت فرنسا إلى الحصول على أرض شاسعة للنظام التي أرادته في فزان ففي مذكرة من السيد القنصل الفرنسي في طرابلس يوم 19 نوفمبر 1949، يوضح جلياً طموح فرنسا في الحصول على سرت بقوله: (بالنسبة لفزان من المحتمل أن يكون هناك ما يشبه الحكم الذاتي بمجرد قيام البريطانيين بنفس العملية في طرابلس. وهناك خريطة مثيرة للاهتمام تلعبها في هذه المناسبة، وهي اتفاق مع جميع المجموعات البدوية من الحدود التونسية إلى سرت، والتي بدعم منا يمكن أن تلعب دوراً مهماً في المسألة الليبية (1950)⁽³⁷⁾.

ففي مذكراته يذكر رئيس وزراء ليبيا خلال الفترة من 1960-1963 السيد محمد عثمان الصيد أصيل فزان أنه ألتقى مع الأمير إدريس في عام 1950 وتناولوا وجبة الغداء سوياً وأخبره بمطامع فرنسا حيث ذكر له (أن فرنسا قد اجتمعت في تشاد مع السيد عمر سيف النصر ومحمد سيف النصر شقيقي حمد سيف النصر، واقترح المسؤولون الفرنسيون ضم منطقة سرت وجعلها ميناء بحري لدولة فزان التي أقاموها في تلك الفترة⁽³⁸⁾). غير أن الفرنسيين كانوا على دراية بوجود النفط في هذه المنطقة منذ عام 1942، الأمر الذي ربما جعلهم حالمين بنفوذ فيها. أضف إلى ذلك المنافسة الشرسة مع الإنجليز الذين يطمحون للسيطرة عليها وفقاً للاتفاقات المبرمة مسبقاً بشأن الحدود في ليبيا بين الدولتين.

(36) Archives diplomatiques, MAE La Courneuve, (1950), pp. 1-3.

(37) (Pour le Fezzan, il y aura probablement à mettre en place un semblant de gouvernement autonome dès que les Anglais auront procédé à la même opération à Tripoli. Il y a une carte intéressante à jouer, à cette occasion, qui est celle d'une entente avec tous les groupements nomades, de la frontière tunisienne à la Syrie, qui, appuyée sur nous, pourront jouer un rôle important dans la question libyenne), Archives diplomatiques MAE La Courneuve, (1949), p. 1-2.

(38) محمد عثمان الصيد (1996)، ص 61.



الشكل رقم 6 / حقول النفط في حوض خليج سرت خلال ستينيات القرن الماضي⁽³⁹⁾

عليه وفي وقت لاحق طُرحت مسألة سرت في أروقة اجتماعات وزراء الحكومة الفرنسية، حيث ركز الاجتماع على إيجاد منفذ نحو البحر وتمت الإشارة إلى منطقة سرت الكبرى وخاصة مرسى البريقة ليكون ميناءً تجاريًا لفرنسا⁽⁴⁰⁾. إضافة إلى أنه خلال محادثات البي بشير السعداوي مع فرنسا زمن الانتخابات البرلمانية في فبراير عام 1952 عرض عليهم التحالف وضم قبائل منطقة سرت إلى ذلك التحالف إلا أن فرنسا - خوفًا من طموحات البي الداعية إلى ليبيا واحدة ونبذ النظام الفيدرالي - جعلها تتجاهل طلب الأخير خوفًا على مصالحها بكل تأكيد⁽⁴¹⁾. ويشير مصطفى عبد الحليم أن رئيس الوزراء الأول محمود المنتصر لم يرغب في تمديد الاتفاقيات مع فرنسا خوفًا من تزايد نفوذ عائلة سيف النصر حليفة فرنسا الأمر الذي سيقوي نفوذها⁽⁴²⁾.

الخاتمة

يمكن القول إن منطقة سرت تُعدّ من المناطق المهمة على الساحل الليبي حيث يمكن بكل سهولة اتخاذها ميناءً أو مناطق استراتيجية كقاعدة عسكرية وهو يمثل اليوم في قاعدة القرصانية أكبر قاعدة ربما في شمال إفريقيا، إضافة إلى أن فرنسا بعد سقوط القذافي أرسلت مستشارين لها ويبقى

(39) Archives militaires SHD, (1956), p. 1.

(40) Archives diplomatiques du MAE, (1950), pp. 1-9.

(41) Archives militaires SHD 1951, p. 1.

(42) مصطفى بن حليم، (1992)، ص 243.

سبب الزيارة مجهولاً. أمّا فيما يتعلق بما تمّ سرده تاريخياً فعلى الرغم من دعم فرنسا لعائلة سيف النصر خاصة في الفترة المتأخرة أي زمن الإدارتين ظل اهتمام فرنسا بمنطقة سرت الكبرى مجرد أحلام، لما للمنطقة من حساسية خاصة جعلها مكاناً لتنافس القوى الكبرى ومن بينها بريطانيا التي دعمت أطرافاً أخرى بمساندة إيطاليا على حساب سيف النصر للسيطرة على المنطقة. إنّ عدم تمكّن فرنسا من إحكام السيطرة على هذه المنطقة راجع إلى تركيزها على تثبيت أركان نظامها الذي أنشأته في فزان الذي لاقى معارضة كبيرة من المبعوث أدريان بلت والأحزاب السياسية في طرابلس الغرب زمن تلك الفترة. ويمكن القول إنّ ساسة فرنسا رأوا أنّ هذه المنطقة لا تشكل حالياً خطراً على تواجدتها في تونس والجزائر لبعدها الاستراتيجي من ناحية الحدود.

أضف إلى ذلك سيطرة آل المنتصر على منطقة سرت الأمر الذي يلزمهم عدم تزايد نفوذ عائلة سيف النصر التي ستسمح لفرنسا بالحصول على موطأ قدم في منطقة سرت الكبرى. وفي نهاية المطاف ظلت هذه المنطقة في مخيلة الساسة الفرنسيين - على الرغم من أنّها أحد الأسباب الرئيسة للأحداث في ليبيا ومقتل القذافي في سرت - ولو ظاهرياً بعيداً عن نفوذها الذي ربما نترك للزمن ولما يتم الكشف عنه من وثائق لمعرفة اهتمامات فرنسا الفعلية بهذه المنطقة. والشيء الذي يمكن الختام به هو أنّ عيون فرنسا ظلت على منطقة سرت ولكن أولوياتها في فزان والحدود وإيجاد خطط بديلة بعد الحرب العالمية الثانية هو ربما السبب الذي جعل سياستها غائبة في منطقة سرت الكبرى بشكل مباشر كما الإنجليز مثلاً.

أخيراً تبقى هذه الدراسة محل البحث للوصول إلى معلومات جديدة حول طبيعة سياسة فرنسا تجاه هذه المنطقة؛ لأنّه وبسبب عدم وضوح الأرشيف لاسيما الفرنسي حال دون الوصول إلى نتائج أخرى لفقدانه للتنظيم المناطقي للأرشيف.

البليوغرافيا

Béchir Sadaoui, 1929, *Les horreurs fascistes en Tripolitaine et en Cyrénaïque*, publié par le Comité de défense de la Tripolitaine et Cyrénaïque, Damas.

De Léone, Enrico, 1956, *La colonizzazione dell'Africa del Nord: Algeria, Tunisia, Marocco, Libia*. Padoue, CEDAM.

DelBoca,Anglo,1989,*Leconseguenze per l'Italia del mancato dibattito sul colonialismo*, Studi Piacentini, n° 5. Roma.

Del Boca, Anglo, 2004, *La disfatta di Gasr bu Hâdi 1915: il colonnello Miani e il più grande disastro dell'Italia coloniale*, éd modadori, Italia.

Guillen, Pierre, 1984, « Une menace pour l'Afrique française : le débat international sur le statut des anciennes colonies italiennes 1943-1949 », Charles-Robert AGERON, *Les chemins de la décolonisation de l'Empire colonial français*, CNRS Paris.

Martel, André, 2012, « Le Fezzan interdit dans l'imaginaire impérial français 1835-1943 », Moncef Ouannès et Pierre Noël Denieuil, *Une histoire méconnue. Les relations libyo-françaises au Fezzan de 1943 à 1956*, Édition Cérès, RMC, Tunis.

Palmieri, Tommaso., 2015, *Étude comparative de l'administration militaire de l'Italie et de la France au Fezzan libyen. : Un cas de modèle colonial en continuité (1930-1951)*, thèse de doctorat, sous la direction de Fabienne Le Houerou et de Maurizio Vernassa, Aix-Marseille.

المصادر والمراجع باللغات الأجنبية

Archives : Diplomatique, militaires, coloniales et nationales.

- 1- Archives Diplomatique, Paris-Courneuve
- Libye-italienne 1918-1940
* Dossier n°10
- Série Afrique-anciennes colonies italiennes 1944-1952
* Dossier n°38
* Dossier n°
- Fond, Libye 1971-1989
* Dossier n°68 Cartes
- 2- Archives du Musée Jean-Moulin-Montparnasse
- Fond Leclerc, Boite n° 7, Fezzan-Tchad
- 3- Archives d'Outre-Mer Aix-En-Provence
- Fond ministériel F81
* Dossier n°980, Fezzan
- 4- Archives Militaire DHS Défense, Vincennes.
- Tome II Armée de la Terre, Algérie 1945-1962
* Dossier n°14S237
* Dossier n°1H4862-63
- 5- Archives nationales Pierrefitte
- Fond George Bidault
* Dossier n°457

Livres et articles

- Ashtiewi, Abdelnaser, 2018, *La position de la France à l'égard de la question libyenne 1943-1952*, thèse de doctorat en histoire contemporaine, Université de Paris-Seine, sous la direction de M. Eric Vial, Paris.
- Azmi Mahmoud. 1949, « La question de Libye ». In *Politique étrangère*, n° 6.

المصادر والمراجع باللغة العربية

ابن حوقل، 1992، صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت لبنان.

محمد عثمان الصيد، 1996، محطات من تاريخ ليبيا، مذكرات محمد عثمان الصيد رئيس الحكومة الليبية الأسبق، ط 1، أكadal، المغرب.

مصطفى بن حليم، 1922، صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، دار الهاني للنشر، ليبيا.

مواقع الكترونية

- < <http://ilforconedeldiavolo.blogspot.com/2016/06/la-storia-delle-colonie-italiane-la.html> > consulté en septembre 2019.
- « http://fezzan24.blogspot.com/2012/12/blog-post_2.html » consulté en septembre 2019.

Palumbo, Antonio, 1920, « La paix de Noufalia », *rivista coloniale*, Milano.

Pierre, Milza, 1977, *Français et Italiens à la fin du XIXe siècle. Aux origines du rapprochement franco-italien de 1900-1902*, Paris.

Pierre, Pinta, 2006, *La Libye*, édit Karthala.

Rossi, E., 1927, « Il secondo periodo del dominio ottomano a Tripoli (1835-1911) », *Rivista coloniale*, Milano.

Sanfilippo, I., 1919, La missione mineralogica italiana in Tripolitania, *Bollettino della Società Geografica Italiana*, vol. I, Roma.

Tadeusz, Lewicki, 1990, « le rôle du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », In M. ELFASI et I. HRBEK (éd.), *Histoire générale de l'Afrique du VIIe au XIe siècles*, vol III, UNESCO, Paris.

Vernier, Bernard. 1947, « Le statut du Fezzan », in *Politique étrangère*, n°2 -12° année, Paris.

Rinauro, Sandro, « La frontière irrésistible : l'immigration irrégulière des italiens en France après la deuxième guerre mondiale », Dans *Migrations Société* 2012/3-4 (N° 141-142), p. 13-26.

« <https://www.cairn.info/revue-migrations-societe-2012-3-page-13.htm#> ».

البعد التاريخي للخلاف الليبي الأمريكي على خليج سرت الكبرى 1986-1973

الزرقاء سالم محمد حسين⁽¹⁾

The historical dimension of the Libyan-American dispute over the Greater Sirte Gulf (1973-1986)

Abstract

The importance of this study is concentrated in tracking the external colonial ambitions of the greater Sirte region, especially since many historical evidence confirms the exposure of the Gulf of Sirte to many attempts at colonial control at the beginning of the sixteenth century, when the Spanish attacked the Sirte Bay, and after them the knights of St. John 1530, and in The twentieth century America tried to extend its influence over the Greater Sirte Gulf, given its strategic importance in American foreign policy.

Study problems:

By studying the Libyan-American dispute over the Greater Sirte Gulf, at various stages in its history, a group of problems are addressed in our minds, the answer to which is an important conclusion in the clarity of the reasons for this dispute, the most prominent of these problems are:

- 1-What is the strategic importance of the Greater Sirte Gulf in American foreign policy?*
- 2- How was Libyan international sovereignty violated by the United States of America?*
- 3- What are the results of the dispute over the Libyan-American relations? To clarify the topic, the study was divided into several topics, in addition to an introduction, a conclusion, and a list of sources and references, and included:*

(1) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة سرت.

The first topic: the strategic and geographical importance of the Great Sirte Bay, and it is divided into three demands, the first requirement: the geographical location, and its strategic importance, the second requirement: a brief history of the Gulf of Sirte, the third requirement: legal opinions on the sovereignty of Libya over the Gulf of Sirte

The second topic: the Libyan-American dispute over the Greater Sirte Gulf and included three demands, the first requirement: American violations of the Libyan regional sovereignty, and the drawing of the line 32:30, the second requirement: the Libyan-American confrontations on the Gulf of Sirte, the third requirement: international and Arab reactions to armed confrontations Libyan American over Sirte Bay

Key words: Libya, USA, Sirte Bay, Line 32:30, Armed confrontations.

La dimension historique du différend libyo-américain sur le golfe de la Grande Syrte (1973-1986)

Résumé

L'importance de cette étude se concentre sur le suivi des ambitions coloniales externes de la grande région de Syrte, d'autant plus que de nombreuses preuves historiques confirment l'exposition du golfe de Syrte à de nombreuses tentatives de contrôle colonial au début du XVI^e siècle, lorsque les Espagnols ont attaqué la baie de Syrte, après eux les chevaliers de Saint-Jean 1530, et dans L'Amérique du XX^e siècle a tenté d'étendre son influence sur le golfe du Grand Syrte, compte tenu de son importance stratégique dans la politique étrangère américaine.

Problèmes d'étude :

En étudiant le différend libyen-américain sur le golfe du Grand Syrte, à différentes étapes de son histoire, un groupe de problèmes est abordé dans nos esprits, dont la réponse est une conclusion importante dans la clarté des raisons de ce différend, les plus importants de ces problèmes sont :

- 1- Quelle est l'importance stratégique du golfe du Grand Syrte dans la politique étrangère américaine ?
- 2- Comment la souveraineté internationale de la Libye a-t-elle été violée par les États-Unis d'Amérique ?
- 3- Quels sont les résultats du différend sur les relations libyennes-américaines ?

Pour clarifier le sujet, l'étude a été divisée en plusieurs sujets, en plus d'une introduction, d'une conclusion et d'une liste de sources et de références, et comprenait :

Le premier sujet : l'importance stratégique et géographique de la baie de Great Sirte, et il est divisé en trois demandes, la première exigence : l'emplacement géographique et son importance stratégique, la deuxième exigence : une brève histoire du golfe de Syrte, la troisième exigence: avis juridiques sur la souveraineté de la Libye sur le golfe de Syrte

Le deuxième sujet : le différend libyen-américain sur le golfe du Grand Syrte et comprenait trois demandes, la première exigence : les violations américaines de la souveraineté régionale libyenne, et le tracé de la ligne 32:30, la deuxième exigence: les affrontements libyens-américains sur le golfe de Syrte, la troisième exigence: réactions internationales et arabes aux affrontements armés Américain libyen sur Syrte Bay

les mots clés : Libye, États-Unis, Syrte Bay, ligne 32:30, affrontements armés.

المقدمة

إنّ تتبع الاستراتيجية الاستعمارية عبر العصور القديمة والوسطى، وازديادها بشكل كبير في العصر الحديث، خاصة بعد سيطرة الكثير من الدول الأوروبية على مساحات كبيرة من قارة أفريقيا، وسط تنافس كبير فيما بينهما؛ لأجل تحقيق أكبر المكاسب الاقتصادية، وفرض السيطرة على الموانئ والممرات البحرية.

دخلت ليبيا الحياة الدولية الحديثة بإعلان استقلالها بقصر المنار، بمدينة بنغازي في 24 ديسمبر 1915، باعتبارها دولة ذات سيادة، تُعرف باسم المملكة الليبية المتحدة، وذلك عملاً بالقرار رقم 289 الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، بتاريخ 21 نوفمبر 1949، القاضي باستقلال وسيادة الدولة الليبية على كامل التراب الليبي، بأقاليمه الثلاثة طرابلس برقة فزان، على أن يسرى هذا القرار في مدة لا تتجاوز أول يناير 1952.

ومنذ تلك الفترة أُعتبر خليج سرت بأبعاده الجغرافية بحراً داخلياً يتوغل في عمق الأراضي الليبية، وسيطر على مناطق استراتيجية وحيوية مهمة، وله دور فعال في أمن البلاد وسلامتها.

الأهمية والهدف

تتركز أهمية هذه الدراسة في تتبع الأطماع الاستعمارية الخارجية لمنطقة سرت الكبرى خاصة أن الكثير من الشواهد التاريخية تؤكد على تعرض خليج سرت إلى العديد من محاولات السيطرة الاستعمارية مع بداية القرن السادس عشر، حيث قام الإسبان بالاعتداء على خليج سرت، وبعدهم فرسان القديس يوحنا 1530، وفي القرن العشرين حاولت أمريكا بسط نفوذها على خليج سرت الكبرى؛ نظراً لأهميته الاستراتيجية في السياسة الخارجية الأمريكية.

إشكاليات الدراسة

من خلال دراسة الخلاف الليبي الأمريكي على خليج سرت الكبرى، عبر مراحل مختلفة من تاريخ تطور هذا الخلاف الى مرحلة المواجهة العسكرية، وتتركز الإشكالية الرئيسة حول أسباب الاهتمام الأمريكي بمنطقة خليج سرت، ومن أبرز إشكاليات الدراسة هي:

1- ماهي الأهمية الاستراتيجية لخليج سرت الكبرى في سياسة الخارجية الأمريكية؟

2- كيف تمّ انتهاك السيادة الدولية الليبية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية؟

3- ما هي نتائج الخلاف على العلاقات الليبية الأمريكية؟

للإجابة على هذه الإشكاليات، سوف تستخدم الدراسة منهج التحليل التاريخي وهو كغيره من مناهج البحث التاريخي، يوفر آلية علمية؛ لطرح الموضوع بشكل موضوعي وعلمي، وفق شروط البحث العلمي.

خطة الدراسة:

لتوضيح الموضوع، فقد تمّ تقسيم الدراسة إلى العديد من المباحث، بالإضافة إلى مقدمة، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع، وشملت على:

المبحث الأول: الأهمية الاستراتيجية، والجغرافية لخليج سرت الكبرى.

المطلب الأول: الموقع الجغرافي، وأهميته الاستراتيجية.

المطلب الثاني: نبذة تاريخية عن خليج سرت.

المطلب الثالث: الآراء القانونية حول سيادة ليبيا على خليج سرت.

المبحث الثاني: الخلاف الليبي الأمريكي حول خليج سرت الكبرى.

المطلب الأول: الانتهاكات الأمريكية للسيادة الإقليمية الليبية، ورسم خط 32.

المطلب الثاني: المواجهات الليبية الأمريكية على خليج سرت.

المطلب الثالث: ردود الفعل الدولية والعربية على المواجهات المسلحة الليبية الأمريكية فوق خليج سرت.

المبحث الأول: الأهمية الاستراتيجية، والجغرافية لخليج سرت الكبرى.

المطلب الأول: الموقع الجغرافي، وأهميته.

يحتل خليج سرت حيزاً كبيراً في منتصف الشواطئ الليبية، على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط؛ لهذا يُعد جزءاً من المياه الإقليمية العربية المطلة على شمال أفريقيا، التي شهدت أطماع خارجية عبر العصور التاريخية، فالشواهد التاريخية تؤكد سيطرة العديد من المحتلين على هذه المنطقة ففي بداية القرن السادس عشر قام الإسبان بالاعتداء على خليج سرت، ومن بعدهم فرسان القديس يوحنا، الذين قاموا بالهجوم على الشواطئ الليبية، ومن ضمنها خليج سرت⁽²⁾، ويشكل خليج سرت مساحةً من الساحل الليبي، تمتد من رأس بنغازي شرقاً إلى رأس الزروق بمصراته غرباً، ومساحته ثمانون ألف كيلومتر مربع، وتحيط به الأرض الليبية من ثلاث جهات، وخليج سرت أهمية جغرافية منذ زمن قديم؛ لربطه بين دول أفريقيا الوسطى، والدول الأوروبية، وهو معبر للسفن العابرة لشبه الجزيرة العربية، وأهميته الجغرافية، وموقعه الاستراتيجي طور حركة التجارة بالسفن العابرة ورسوها بالخليج؛ لتبادل التجارة واستيراد السلع يُعد خليج سرت من الخلجان التاريخية؛ لأن ليبيا تمارس سيادتها على هذا الخليج منذ مدة طويلة، ولم ينازعها أحد في هذه السيادة، إضافة إلى أهميته الاستراتيجية من حيث أمن وسلامة البلاد، بسبب موقعه الجغرافي في قلب الأراضي الليبية.

ومن المعروف أن خليج سرت يفصل بين إقليمين ليبيين، هما إقليم طرابلس وإقليم برقة، ويبلغ طوله 244 ميلاً بحرياً وعرضه يزيد عن 113 ميلاً بحرياً، أما طول شواطئه من بنغازي إلى مصراته فهو أكثر من 650 كم، وأطلق

(2) نجم 1991، ص 319.

عليه أسم خليج سرت؛ نسبة إلى مدينة سرت، وما يحدها من مناطق عُرفت بصحراء سرت⁽³⁾، ومناخه يجمع بين الاعتدال البحري والمناخ الصحراوي، وخليج سرت كان يُعرف بخليج السدرة، وشهد إبان الحرب الباردة مواجهات بين ليبيا وأميركا، أطلق على المدينة اسم الرباط الأمامي بعد هذه المواجهات، وسمّي خليجها للسبب ذاته باسم خليج التحدي.

تقتضي النظرة العلمية للأشياء نظرة كلية شمولية، إذ أن الأمور وإن بدت من الداخل مجزأة، ولكن ما بينها من روابط وعلاقات يجعلها تتكامل في الفعل، وإن بدأ فعل جزء أكثر أو أعلى من جزء آخر، انطلاقاً من هذا الأساس أو النظرة، فإنه مما لا شك فيه إن هناك دوافع اقتصادية، واستراتيجية وراء الاهتمام الأمريكي الكبير في منطقة خليج سرت، وما الخلاف الأمريكي الليبي إلا تأكيداً لذلك.

إن الخلاف يتعدى كونه مسألة قانونية أو اختلاف في التفسير القانوني بين الولايات المتحدة الأمريكية وليبيا، ظاهرياً يبدو الأمر على أنه مسألة قانونية، ولكن حقيقة الأمر ليس كذلك، لقد كانت الموارد الطبيعية وفي مقدمتها النفط كان حاضراً في الموقف الأمريكي من قضية خليج سرت، كما أن الأهمية الجيوستراتيجية كانت وراء الفعل الأمريكي، ولم تكن مجرد رداً على ممارسة ليبيا السيادة، أو ادعائها بحقوق سيادية في مياه خليج سرت⁽⁴⁾.

تأتي الأهمية الاقتصادية لخليج سرت ممّا يأتي:

الموارد النفطية في حوض خليج سرت

يحتل خليج سرت أهمية كبيرة و متميزة في احتياطي و إنتاج النفط الليبي، إذ يعد حوض سرت الحوض الرئيسي للاحتياطي وإنتاج النفط، كما إنه يتمتع بميزة جغرافية، تتمثل في قرب حقول الإنتاج من الساحل؛ وذلك نتيجة تقوس خليج سرت نحو الداخل؛ مما يجعلها أكثر قرباً من البحر، وهذا يسهل عملية التصدير للخارج، ويقلل من التكاليف.

يتركز إنتاج النفط في ليبيا بأربعة أحواض رئيسية هي (حوض سرت، الحمادة، الحمراء، مرزوق)، ويتوزع الإنتاج على عدد من الحقول أهمها (زلطن، باهي، مبروك، الظهرة، زقوط، الواحة، الحفرة، جالو، السرير)، ويساهم حوض سرت لوحده بنحو 95 % من إنتاج النفط في ليبيا، ويعد حقل السرير الواقع في

(3) جفال 1985، ص 132.

(4) عبدالله 2010، ص 431.

حوض خليج سرت واحداً من أهم عشرة حقول في العالم⁽⁵⁾.

تركزت الموانئ على سواحل خليج سرت، بعد البدء بإنتاج النفط، وتزايد الكميات المصدرة للخارج، وهذه الموانئ هي حسب تسلسل إنشائها ميناء البريقة الذي انشئ عام 1961، وهو أول الموانئ النفطية، وميناء السدرة عام 1962، وميناء رأس لانوف عام 1964، ثم ميناء الزويتينة عام 1968، وتتركز هذه الموانئ على الساحل الجنوبي الشرقي لخليج سرت، على الرغم من الظروف الطبيعية غير الملائمة للسكن؛ ولهذا تتميز بقلّة عدد سكانها⁽⁶⁾.

والخليج جغرافياً يمثل بحيرة داخل الأراضي الليبية، فعلى شواطئه الشرقية تقع مدينة بنغازي ثاني أكبر المدن الليبية، أما على شواطئه الغربية فتقع مدينة مصراته، ذات المركز التجاري والصناعي والزراعي المهم، كما يتضمن الخليج أربعة موانئ نفطية مهمة وهي ميناء البريقة، وميناء السدرة، وميناء رأس لانوف، وميناء الزويتينة؛ لذلك كله يلعب الخليج دوراً استراتيجياً في السياسة الليبية، فإذا سيطرت عليه قوة خارجية ستهدد أمن وسلامة ليبيا⁽⁷⁾.

جغرافياً: يُعرف أنه توغل واضح للمياه في الساحل، بشكل تكون فيه المياه شبه محاطة باليابسة.

وقانونياً: وفقاً لاتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار 1982، يُعرف على أنه انبعاث واضح المعالم متوغلاً في الساحل، بالقياس إلى عرض مدخله، على نحو يجعله يحتوي على مياه محصورة بالبر، وبشكل أكثر من مجرد انحناء، ولا يعتبر خليجاً إلا إذا كانت مساحته تعادل أو تفوق نصف دائرة قطرها الخط المرسوم عبر مدخل الخليج ولا يزيد اتساع مدخله عن 24 ميلاً بحرياً، وأُسْتُثِنَت المادة العاشرة من اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار 1982، من تطبيق أحكامها على الخليجان الواقعة ضمن سواحل أكثر من دولة، وكذلك الخليجان التاريخيتان التي تعتبر محكومة بقواعد القانون الدولي العرفي.

امتازت الخليجان بأهمية خاصة عبر التاريخ، إذ كانت مثاراً لنزاعات كثيرة، وادعاءات متناقضة، كان دافعها الأول والأساسي باستمرار أمن الدولة الساحلية، وحقوق مواطنيها في ثروات ومياه هذه الخليجان؛ مما تطلب تحديد أنواع الخليجان إلى:

(5) غانم 1985، ص 707.

(6) غانم، 1985، ص 710.

(7) نجم 2013، ص 23.

الخلجان الوطنية: هي التي تقع بأكملها في إقليم دولة واحدة، لا يزيد اتساع مدخلها عن 24 ميلاً بحرياً وهذا النوع ينطبق على خليج سرت.

الخلجان الدولية: وهي التي يزيد اتساع مدخلها عن 24 ميلاً بحرياً، ولو كان يقع داخل إقليم دولة واحدة، ويعتبر معيار تعدد الدول المطلة على الخليج المعيار الثاني، بعد معيار الاتساع، وتعدد الدول المطلة على الخليج يصبح الخليج دولياً⁽⁸⁾.

الخلجان التاريخية: بعض الخلجان يزيد اتساع مدخلها عن 24 ميلاً بحرياً ورغم ذلك يضافي عليها القانون الدولي وصف الخليج الوطني، وتخضع للقواعد الوطنية، ومحكومة بقواعد القانون الدولي العرفي، وفقاً لاستثناءات المادة العاشرة من اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار 1982، وقد جرى العرف الدولي على الاعتراف بسيادة الدولة على الخليج؛ لاعتبارات تاريخية وقانونية، واستناداً إلى وضع يد الدولة الساحلية عليها مدة طويلة دون اعتراض من جانب الدول الأخرى، وعُرف عدة فقهاء الخلجان التاريخية بأنها تلك الخلجان التي تخضع لممارسة واضحة وطويلة، لأعمال سلطة الدولة، وعدم اعتراض الدول الأخرى لهذه الممارسة كما حدث عند ممارسة ليبيا السيادة على خليج سرت منذ عهود تاريخية طويلة⁽⁹⁾.

المطلب الثاني: نبذة تاريخية عن خليج سرت

أنَّ السيادة على خليج سرت ثابتة عبر التاريخ، لاسيما أنه يعد مجاًلاً حيوياً للأمن القومي والعربي، فقد أكدت ليبيا على سيادتها على خليج سرت في العديد من المحافل الدولية، وأرتبط اسم الخليج بمدينة سرت، التي تطل على البحر الأبيض المتوسط، وأسس عليها الكنعانيون ميناءً أستخدم كمحطة تجارية؛ لتبادل البضائع والتزود بالمؤن، ومدينة سرت عرفت بأسماء عديدة؛ وذلك تماشياً مع التطور التاريخي للجماعات البشرية التي عاشت فيها، فقد سميت أوفرانتا Eughranti، وأطلق عليها رجال قرطاجنة سرت الصغرى Syrtis Moior، كما سميت مكمداس، وعرفت عند اليونانيين سرساي Suriltha، بمعنى يجر أو يسحب؛ بسبب سحب الخليج للسفن إلى الشاطئ؛ لشدة التيار المائي⁽¹⁰⁾.

(8) حسين 2015، ص 3.

(9) حسين 2015، ص 3.

(10) سرت <https://Wikipedia.org.ar>

تعود السيادة الليبية على مياهها البحرية بما فيها خليج سرت عبر التاريخ، حيث بسطت سيادتها على جانب كبير من المتوسط، فكانت خلال القرن الثامن عشر تفرض رسوماً على السفن الأجنبية، المارة في المناطق الخاضعة لسيادتها مقابل حمايتها، في 1796 تم إبرام معاهدة بين ليبيا والدنمارك، وكذلك مع امريكا تعهدت فيه دفع رسوم سنوية قدرها 250 ألف فرنك، مقابل حماية البحرية الليبية للأسطول التجاري الأمريكي في المتوسط، في 1799 أجبرت ليبيا الدنمارك على توقيع اتفاقية لسداد الديون مع دفع غرامة، في 1798 توقيع اتفاقية مع السويد للحماية البحرية، في 1802 استولت البحرية الليبية على سبع سفن سويدية، واجبرت السويد على زيادة الرسوم السنوية، ودفع غرامة بسبب انتهاكها للمعاهدة المبرمة، كما اصدرت سلطات الاحتلال الإيطالي قوانيناً بشأن ممارسة الصيد في الشواطئ الليبية، وكانت تفرض الحصول على تراخيص لصيد الاسفنج داخل الخليج⁽¹¹⁾.

وبالتالي يعتبر الخليج منطقة حيوية، بالغة الأهمية من الناحية العسكرية، حيث يمثل خليج سرت عمقاً استراتيجياً لحماية المنشآت النفطية، ومنطقة عبور الحركة البحرية والجوية، وربط الاتصالات السلكية واللاسلكية الداخلية⁽¹²⁾، خاصة وأن ليبيا اهمية استراتيجية لا يمكن تجاهلها، فهي لم تكن منذ وجودها على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط كياناً هامشياً لا أهمية استراتيجية له، وهذا امر اختبرته الولايات المتحدة الأمريكية جيداً منذ مطلع القرن التاسع عشر، فعرفت سيطرة قوة غير صديقة أو موالية على شاطئ يمتد لنحو ألفي كيلومتر، على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، وتذوقت عواقبه عندما قام يوسف باشا القرمانلي حاكم طرابلس في 1804 بتدمير قطع حربية للبحرية الأميركية وأسر سفينتها الأم فيلادلفيا، وفرض أتاوات على البحرية، والتجارة الأميركية في المتوسط، وأكبر دليلاً على ذلك ما يُعبر عنه نشيد البحرية الأمريكية استذكارا لهذا الدرس المر.

تجدر الإشارة هنا أن كل مراحل التاريخ المضطرب للعلاقات الليبية الأمريكية منذ أوائل القرن التاسع عشر 1801-1804 انطلقاً بما عرف في التاريخ الأمريكي بحروب البربري Bar تحسن تغيير bary War وفي التاريخ الليبي بحرب السنوات الاربع⁽¹³⁾، خاصة أن تاريخ العلاقات بين البلدين مرّ بتفاصيل كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، ولكن نستطيع أن ندرك سبب الأهتمام

(11) أبو عجيبة 1997، ص ص 34-40.

(12) حسين، 2015، ص 2.

(13) حكيم 1970، ص ص 110-123.

الأمريكي بليبيا أدخل الدولتين في اضطرابات سياسية وصلت لاي مرحلة العدوان العسكري وقطع العلاقات بينهم⁽¹⁴⁾.

عند استقلال ليبيا بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة، وإعلانها دولة جديدة في 1951، أصبحت ليبيا من بين دول المنطقة الأكثر استقطاباً للوجود الأمريكي المتعدد المستويات، وخاصة العسكري والاقتصادي، اللذان تعززان بعد اكتشاف النفط الليبي بكميات تجارية، والبدء بتصديره في 1963، حصلت الولايات المتحدة على حق إنشاء واستخدام قواعد عسكرية في ليبيا، ثم ازداد النفوذ الأمريكي عمقاً وقوة لتستحوذ الشركات الأمريكية على النفط الليبي، الذي اتجهت صادراته للولايات المتحدة، وسيطرت الشركات الأمريكية على ما يزيد عن 3 ملايين برميلاً يومياً⁽¹⁵⁾، هكذا باتت ليبيا تحتل أهمية مركزية في الاستراتيجية الأمريكية في المتوسط، والشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وهو ما عبرت عنه المكانة التي احتلتها قاعدة هويلس Wheelus Air Base بطرابلس، والتي وصفها سفير اميركي سابق لدى ليبيا بأنها «اميركا صغيرة A Little America»، كونها أكبر وأهم القواعد الأمريكية في الخارج حينذاك⁽¹⁶⁾.

المطلب الثالث: الآراء القانونية حول سيادة ليبيا على خليج سرت

انقسمت الآراء حول التكييف القانوني لخليج سرت، فمنها ما يراه مياهاً داخلية باعتباره خليجاً تاريخياً، ومنها ما يراه غير ذلك باعتبار أن المسافة بين نقطتي مدخل الخليج قد تجاوزت 24 ميلاً المنصوص عليها في قانون البحار الدولي، وبالتالي يخرج عن كونه مياهاً داخلية، ويصبح مياهاً دولية، ومن ضمن هذه الآراء:

الرأي الأول: خليج سرت مياه دوليه

يستند هذا الرأي إلى المادة العاشرة من اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار 1982، والتي تشترط للخليج وفقاً - لمفهوم النص - ألا يزيد أوسع مدخله عن 24 ميلاً بحرياً، وأن تكون مساحته تعادل أو تفوق نصف دائرة قطرها الخط المرسوم عبر مدخل الخليج، وبما أن خليج سرت لا يحوي مياهاً داخلية؛ لتجاوز المسافة بين نقطتي المدخل 24 ميلاً بحرياً، وبالتالي فأنصار هذا الرأي يرون أن مياه خليج سرت دولية، ينطبق عليها مبدأ حرية الملاحة والمرور الحر، وأنصار هذا الرأي تجاهلوا أن خليج سرت تطل عليه دولة واحدة وأن المياه بداخله تشكل نصف دائرة، قطرها المسافة بين نقطتي مدخل الخليج.

(14) Douglas Little, 2013, p. 70-99.

(15) عيش 2008، ص 380.

(16) http://en.wikipedia.org/wiki/Wheelus_Air_Base

الرأي الثاني: خليج سرت خليجاً تاريخياً

يستند هذا الرأي إلى استثناء الفقرة السادسة من المادة العاشرة، من اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار 1982، من تطبيق أحكامها على الخلجان التاريخية، فهي محكومة بقواعد القانون الدولي العرفي⁽¹⁷⁾، ويرى أنصار هذا الرأي أنّ السيادة على خليج سرت ليبية، اعتماداً على حصيلة أقوال الفقهاء، واستناداً لأحكام المحاكم الدولية، وقد خلصوا أن خليج سرت تنطبق عليه الشروط المتعلقة بالخلجان التاريخية وفقاً للعوامل التالية:

العوامل التاريخية: إن السيادة الليبية على خليج سرت معلنة منذ وقت طويل، ولم تكن محلاً للنزاع منذ القدم، وإن ليبيا كانت تقوم بحماية السفن الأجنبية المارة قبالة الخليج مقابل أجر، وهذا ما أثبتته الوثائق الدولية في شكل معاهدات، أبرمتها ليبيا مع أمريكا والسويد وغيرهما، واستمرت بدون اعتراض، وحتى خلال فترة الاحتلال الإيطالي لليبيا وما بعدها، وإن إعلان السيادة على المياه التاريخية لا يعني بالضرورة الإفصاح الرسمي، وإنما الإعلان يعني الوضوح والممارسة الظاهرة لأعمال السيطرة على المياه التاريخية، ورغم ذلك أصدرت ليبيا بياناً رسمياً في 1973، بعد مئات السنين من الممارسة الفعلية للسيادة الليبية.

العوامل الجغرافية: تؤكد سيطرة ليبيا على الخليج، بإقامة المصائد الدائمة، وكذلك ضحالة مياه خليج سرت منعت الغير من دخوله، وبالتالي لم تتكون قاعدة عرفية دولية للمرور عبر الخليج دون إذن السلطات الليبية، ولم يشكل ممراً ملاحياً دولياً، وظل حكرًا على السفن الليبية، وإن الموانئ النفطية الموجودة به خصّصت للصناعات النفطية الليبية وتصديرها، وإن خليج سرت لا يشكل مصالح دولية جوهرية لدول ساحلية أخرى، أو مصلحة جوهرية للجماعة الدولية؛ لبعده عن خطوط الملاحة الدولية، وإنما يشكل مصلحة جوهرية لليبيا سواء مصالح اقتصادية جوهرية (صيد الأسماك والصناعات النفطية) أو مصالح دفاعية وأهمية عسكرية، ورغم اعتراض «الولايات المتحدة الأمريكية» بعد سنة من الإعلان في 1974، ويعود هذا الاعتراض بالأساس لأسباب سياسية لتعارض مواقف الدولتين من الأحداث العربية والدولية، ورد فعل أمريكا على فقد مصالحها الاستراتيجية في ليبيا، وهذا الاعتراض لا يعني إهدار السمة التاريخية لخليج سرت، وأكدته الدفاعات البحرية والجوية الليبية عند تصديدها للوحدات الأمريكية، التي حاولت اختراق مياه خليج سرت؛ لتؤكد بأن مياهه

(17) حمود 2008، ص ص 86-87.

تاريخية وليست دولية، ولم يؤيد المجتمع الدولي الولايات المتحدة وهذا يؤكد على أنه مجرد موقف خاص، تطور من اعتراضها القانوني لأسباب سياسية، وتطور بعدها الى نزاع عسكري⁽¹⁸⁾،

وأما الجانب القانوني: من خلال آراء الفقهاء، فيؤكد بأن مياه خليج سرت مياه تاريخية، كل تلك الممارسات التاريخية دعت الفقيه الفرنسي «شارل روسو» في تعليقه على السيادة الليبية على خليج سرت إلى القول أنه: «يبدو من الصعب المجادلة في إدخال خليج سرت الكبير ضمن طائفة الخلجان التاريخية»⁽¹⁹⁾.

المبحث الثاني: الخلاف الليبي الأمريكي حول خليج سرت الكبرى

المطلب الأول: الانتهاكات الأمريكية للسيادة الإقليمية الليبية ورسم خط 32.

يشغل خليج سرت أكبر مساحة من الساحل الليبي، ويتمتع بأهمية اقتصادية، وسياسية وجغرافية بسبب موقعه الجغرافي، وطبقاً للمرسوم رقم 2 الصادر في 18 فبراير 1959، فإن اتساع البحر الإقليمي الليبي يصل إلى اثني عشر ميلاً بحرياً وهو نفس التحديد الذي اتخذته اتفاقية قانون البحار سنة 1982 كمعيار أساسي لأقصى البحر الإقليمي⁽²⁰⁾.

أما التنافس الليبي الأمريكي حول خليج سرت، وهل هو خليج تاريخي إقليمي أم دولي، فقد شهد عام 1973 صراعاً مع الولايات المتحدة الأمريكية، عندما أعلنت السلطات الليبية في 10 أكتوبر 1973 بإصدار وثيقة رسمية، أبلغتها إلى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية، تفيد بأن خليج سرت خليجاً تاريخياً يخضع للسيادة العربية الليبية، وقد ورد بالوثيقة ما يلي: «تعلن الجمهورية العربية الليبية أن خليج سرت الواقع في أراضيها، والذي تحده شرقاً وجنوباً وغرباً اليابسة الليبية، ويحده شمالاً خط العرض 32 درجة 30 دقيقة يعتبر جزءاً لا يتجزأ من إقليمها، ويخضع لكامل سيادتها باعتباره مياهاً داخلية، يبدأ من بعدها بحرهما الإقليمي، وممارستها عليه حقوق السيادة عبر التاريخ الطويل، دون منازعة، باعتباره ملكاً لها فضلاً عن حيويته بالنسبة لأمن الجمهورية، وضرورة الإشراف عليه إشرافاً تاماً لضمان أمن البلاد وسلامتها»⁽²¹⁾. (كما موضح في الخريطة رقم 1).

(18) سالم 2013، ص 95.

(19) حسين 2015، ص 3.

(20) قريرة 2013، ص 106.

(21) الجريدة الرسمية، 9 أكتوبر 1973.



الخرائط من قبل الجاهل بالانتماء على خريطة العالم - جيمس برنارد - Arc GIS 9.2

خريطة رقم 1: توضح حدود المياه الداخلية في خليج سرت كما أعلنته السلطات الليبية
سنة 1973

اعتبرت السلطات الليبية خليج سرت خليجاً تاريخياً، وهذا نابع من تقديرها للمصالح الحيوية العليا في خليج سرت بالنسبة للدولة الليبية، والناجمة عن شكل خليج سرت، بحيث استندت إليه واعتبرته مبرراً كافياً للإعلان عن خليج سرت خليجاً تاريخياً ؛ وبالتالي اعتبار مياهه مياهاً داخلية، تخضع للسيادة الليبية بالكامل⁽²²⁾.

اعترضت على ذلك بعض الدول، بما في ذلك الولايات المتحدة، وأعضاء الاتحاد الأوروبي، فقد أشارت الولايات المتحدة الأمريكية في مذكرة إلى ليبيا عام 1974، إلى قواعد القانون الدولي الخاصة بممارسة السلطة الفعالة، والعلنية على الخليج، وموافقة بالدول الأخرى على ذلك، وأنها أرسلت في عدة مناسبات قوات بحرية وجوية إلى الخليج ؛ لتؤكد معارضتها للدعوى الليبية، وأن مياه الخليج جزءاً من أعالي البحار، ولا يزال الخلاف مستمر بين

(22) عبدالله 2010، ص 450.

ليبيا والولايات المتحدة الأمريكية حول وضع خليج سرت⁽²³⁾.

عارضت الولايات المتحدة الأمريكية ذلك وكانت حرب سنة 1983 نقطة تحول، حيث تطورت الأحداث عندما أعلنت ليبيا في 10 أكتوبر 1973 بأن خليج سرت مياه إقليمية وأنه:

- جزء لا يتجزأ من ليبيا وأراضيها.
- يرتبط بأمم ليبيا.
- جميع حقوق الصيد في الخليج هي حقوق لليبيا.
- السيادة على الخليج سيادة ليبية وعلى السفن الداخلة لمياه الخليج أخذت تصاريح من السلطات الليبية⁽²⁴⁾.

اعترضت الولايات المتحدة الأمريكية على القرار الليبي في 1973، بإعلان خليج سرت جزءاً من إقليمها وحدوده بخط عرض 30° 32 شمال، ازداد توتر العلاقات الليبية الأمريكية بعد التقارب الليبي السوفيتي، وعندما روجت بعض الصحف شائعات تؤكد إقامة مجموعة من القواعد السوفيتية على الأراضي الليبية، وفي نهاية يونيو 1975 خلال مقابلة صحفية أجرتها صحيفة الديار الأسبوعية اللبنانية مع العقيد معمر القذافي، نفى خلالها تأكيدات الصحف الأمريكية والمصرية حول منح ليبيا قواعد للاتحاد السوفيتي، وفي أبريل أكدت الصحف المصرية منح ليبيا قاعدة عقبة بن نافع للاتحاد السوفيتي خلال 27-30 يوليو 1978، أجرى الأسطول السادس الأمريكي مناورات قبالة السواحل الليبية⁽²⁵⁾.

ونظراً لعدم اعتراض أي من الدول المجاورة لليبيا على القرار الليبي بشأن خليج سرت، وهذا يعني ضمناً بأن هذا القرار لا يتعارض مع مصالحها في البحر المتوسط عموماً، ومنطقة خليج سرت على وجه الخصوص، إن الولايات المتحدة ذاتها ودول عديدة أخرى أعلنت سيادتها على خلجان لا تتوفر فيها الشروط القانونية للخلجان القياسية أو القانونية، أي أنها اعتبرت خلجان تاريخية «لأن فتحتها أكبر من 24 ميلاً بحرياً»، ومن الأمثلة على ذلك في الولايات المتحدة ذاتها خليج مونري، وسانتا مونيك وغيرها⁽²⁶⁾.

(23) قريرة 2013، ص 114.

(24) قريرة 2013، ص 114.

(25) سالم 1989، ص 219.

(26) عبدالله 2010، ص 255.

المطلب الثاني : المواجهات الليبية الأمريكية فوق خليج سرت

بعد استلام رونالد ريغان مقاليد السلطة كرئيس لأمريكا مباشرة خلال الفترة 1981-1989، أعلن قائد الاسطول السادس الأمريكي في البحر المتوسط عن عزم أسطوله إجراء مناورات عسكرية داخل مياه خليج سرت، لمدة أربعة أيام من التاسع عشر إلى الثاني والعشرين من شهر أغسطس عام 1981، أما من الجانب الليبي فقد كانت أقرب القواعد الجوية لمنطقة الخليج هي قاعدة القرضابية الجوية، والتي تقع بضواحي مدينة سرت، حيث كانت في تلك الفترة تحت أمرة عقيد طيار جمعة رمضان زائد⁽²⁷⁾.

وخلال الفترة 8-9 أغسطس 1979 أجرت الولايات المتحدة الأمريكية مناورات بمحاذاة خط عرض 30° 32 شمالاً، وأعلنت ليبيا احتجاجاتها الرسمية والشعبية عبر خارجيتها، وأنها ستدافع عن مياهها الإقليمية إذا لزم الأمر، أدت تلك الاستفزازات الأمريكية إلى تفجر موجة من الاحتجاجات، حيث خرج المتظاهرون في ليبيا إلى السفارة الأمريكية في ديسمبر 1979، وعلى إثرها أغلقت الولايات المتحدة سفارتها في ليبيا، وفي مايو 1980 غادر دبلوماسيون أمريكيون طرابلس، وبالمقابل غادر الدبلوماسيون الليبيون واشنطن⁽²⁸⁾. (الصورة رقم 1).

341



صورة رقم 1: توضح بداية المواجهات فوق خليج سرت خط 32:30⁽²⁹⁾

بدأت الموجة الثانية من التوتر بين البلدين في 1981، بعد تبين موقف الدولتين خاصة بعد أن قامت ليبيا بدعم حركات التحرير، ومكافحة التمييز

(27) رواية شفهية للعقيد الطيار بلقاسم أمسيك الزنتاني 1986، ص 3.

(28) حسين 2015، ص 4.

(29) صحيفة المرصد الليبية 1986، ص 2.

العنصري، والتي اعتبرته أمريكا دعمًا لحركات الإرهاب الدولي، وتحت هذه الذريعة قامت أمريكا بإغلاق المكتب الشعبي الليبي في واشنطن، بالإضافة لذلك في مايو 1981 أصبح من المعروف قيام الإدارة الأمريكية بوضع خطة سرية باستخدام بعض الدول العربية لقلب النظام السياسي في ليبيا، في أغسطس 1981 أجرت الولايات المتحدة مناورات استنزائية قبالة خليج سرت، وفي 19 أغسطس 1981 قامت المقاتلات الأمريكية المشاركة في المناورة بإسقاط طائرتين ليبيتين كانتا تقومان بدورية روتينية، وعلى إثرها قدمت ليبيا احتجاجاً لمجلس الأمن خلال الفترة 17-22 أكتوبر 1981، أجرت الولايات المتحدة مناورات بحرية جديدة قبالة خليج سرت، وفي أواخر 1981 أثارت الولايات المتحدة الأمريكية حملة ادعاءات مفادها إرسال ليبيا مجموعة لاغتيال رونالد ريغان، واستغلت وكالة الاستخبارات الأمريكية هذه الحملة في ديسمبر 1981 بالتخطيط لاغتيال العقيد معمر القذافي، والذي أصبح الهدف الرئيسي في سلسلة العمليات السرية، وفي الشهر نفسه طلب رونالد ريغان من الخبراء الأمريكيين مغادرة ليبيا، وإيقاف أنشطة الشركات النفطية في ليبيا، وكذلك في هذا الشهر تم إجراء أول مراحل مناورات النجم الساطع على الأراضي المصرية، والتي كانت بحسب المحللين أنها تركز بالأساس على الأعمال العسكرية المضادة لليبية⁽³⁰⁾.

وفي فبراير 1982 قامت المقاتلات الأمريكية بانتهاك المجال الجوي الليبي، واقتربت إلى مسافة 80 كم من مدينة بنغازي، وفي مارس 1982 قام الأسطول الأمريكي مجدداً بإجراء مناورات استنزائية بالقرب من السواحل الليبية، وخلال هذا الشهر أعلنت أمريكا حظر استيراد النفط الليبي، وتوريد المعدات النفطية الأمريكية لليبية، حيث شمل التصعيد قطع العلاقات السياسية، والتعاون الاقتصادي، والتقنيات الشبه عسكرية في 17 فبراير 1983 أرسل الرئيس ريغان حاملة الطائرات ذات الدفع النووي «نيميتز» قبالة المياه الليبية، وفي يوليو 1984 اخترقت المقاتلات الأمريكية للحظات المجال الجوي الليبي بالقرب من سواحل مدن (البيضاء، بنغازي، سرت)، وفي سبتمبر 1984 قام الأسطول الأمريكي مجدداً بإجراء مناورات واسعة النطاق بالقرب من السواحل الليبية، وفي نوفمبر 1984 قامت الاستخبارات الأمريكية بإعداد تقرير حول ليبيا، والذي اقترح برنامجاً واسعاً ضد ليبيا يشمل إجراءات اقتصادية وسياسية وشبه عسكرية، في إطار العمليات الاستخباراتية والاستطلاعية تم إشراك الغواصات، ففي 1985 قامت الغواصة النووية «Sivull» بالاشتراك مع الغواصة الخاصة الخفيفة جداً «NR-1» بالقيام بعمليات استخباراتية - استطلاعية في

البحر المتوسط، والتصنت على كوابل الاتصالات الليبية، في أكتوبر 1985 تم تنفيذ قرار الرئيس الأمريكي بحظر استيراد النفط الليبي⁽³¹⁾.

في ذروة المواجهة، قالت صحيفة نيويورك تايمز في طبعة ورقية نادرة صادرة يوم 25 مارس 1986 - حصلت عليها صحيفة المرصد الليبية - بأن النزاع الذي تفجر بين ليبيا والولايات المتحدة على خليج سرت عمره 13 سنة، أي منذ سنة 1976 وكانت طرابلس تطالب بمنطقة مياه إقليمية، تبلغ مساحتها 12 ميلاً تقيسها من ساحلها على طول خط مرسوم من مدينة مصراتة على الساحل الغربي عبر خليج سرت إلى بنغازي على الشاطئ الشرقي بينما ترى واشنطن العكس وفي ذات اليوم جدد رئيس مجلس النواب الأمريكي حينها «توماس أونيل جونيور» تمسك بلاده بأن مياه الخليج دولية وليست ليبية قائلاً: «إن أعمال القوات المسلحة الأمريكية في المياه الدولية التي تدعى ليبيا سيادتها عليها لها ما يبررها وبناء على الإحاطة المقدمة لي من البيت الأبيض فقد كانت الطائرات الأمريكية التي هاجمتها ليبيا اليوم في مهمة سلمية بالمياه الدولية وليبيا ليس لها الحق بتاتا في إطلاق النار على طائراتنا» «توماس جونيور رئيس مجلس النواب الأمريكي 25 مارس 1986⁽³²⁾». (الصورة رقم 2).

(31) حسين 2015، ص 5.

(32) صحيفة نيويورك تايمز 25 مارس 1986، ص 3.

344

خلال الفترة 24-31 يناير قام الأسطول الأمريكي بأول مناورة له خلال 1986 وقامت خلالها الطائرات الأمريكية بانتهاك الحدود الدولية خلال مهامها الاستطلاعية، وفي 26 يناير 1986 في خطوة لتأكيد سيادة ليبيا على خليج سرت قام العقيد معمر القذافي على متن زورق صاروخي بتحديد خط أطلق عليه خط الموت خط 32 30 في 4 فبراير 1986 قامت مقاتلات الكيان الصهيوني باعتراض طائرة مدنية ليبية باستخدام معلومات تم التقاطها من سفن الأسطول السادس وفي فبراير 1986 قامت الولايات المتحدة بإجراء التظاهرة الاستعراضية العسكرية الثانية 14-16 مارس إجراء المناورة الثالثة وفي 19-21 مارس التظاهرة العسكرية الرابعة، في منتصف مارس 1986 حشدت الولايات المتحدة في منتصف البحر المتوسط بعض السفن العسكرية منها حاملة طائرات، وفي 20 مارس وصلت ثالث حاملة الطائرات للبحر المتوسط «أميركا-66CV» وفي 23-28 مارس المناورة الخامسة للأسطول السادس بالقرب من السواحل الليبية والتي نتج عنها توجيه ضربات صاروخية بالقنابل على مدينة سرت والمناطق السكنية المجاورة في إطار عملية مخططة وهذه الغارات تمت في ظروف تفوق أمريكي كبير في القوات والوسائل، وبحساب الطرادات والمدمرات الصاروخية فقط وما تحمله من منصات إطلاق مختلف أنواع الصواريخ ومجموعات قتالية تتفوق بعشرات المرات على إجمالي مجموع الأسطول البحري الليبي⁽³³⁾.

345

وجاء الرد بإرسال طائرتي السوخوي من القاعدة الجوية على تمام الساعة 07:02 صباحا وكان على طائرة القيادة الطيار بلقاسم أمسيك والأخرى يقودها مختار الجعفري، وماهي إلا لحظات بسيطة حيث صرح الطيار أمسيك بأنه يرى عدد 2 طائرات أف 14 أمريكية من أصل 8 والتي يرصدها الرادار الليبي بالعين المجردة وينتظر الأوامر، فتم إعطائه الأمر بالتعامل معها نظرا لتجاوزها الخط 32.

وحسب ما كان من المعتاد بين السربين الليبي والأمريكي في اللقاءات السابقة فقد كانت التشكيلات الجوية تطير متلاصقة و تعمد الطائرات الأمريكية إلى مواجهة الطيران الليبي مباشرة أي وجه لوجه وعند اقتراب الأمريكية تقوم بالدوران الحاد جداً لتأخذ وضعا جانبيا بعد أن تغير اتجاهها 180 درجة الصورة التالية توضح الشرح أكثر⁽³⁴⁾. (الصورة رقم 3).

(33) صحيفة البيان 2008، ص 5.

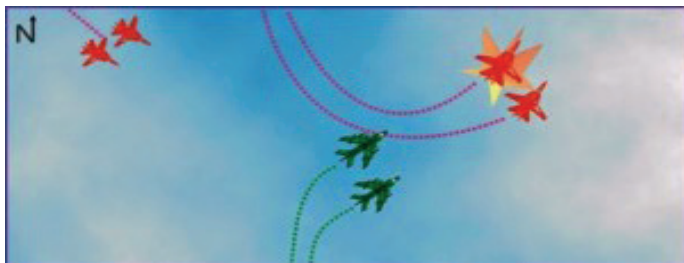
(34) رواية العقيد الطيار بلقاسم أمسيك الزنتاني 1986، ص 3.



صورة رقم 3: توضح تقابل الطائرات الليبية والأمريكية خارج المياه الإقليمية الليبية

فبمجرد انحناء الـ 14 أف بزاوية 180 درجة غير الطيار بلقاسم أمسيك وضعية طائرته بانحناء قوي جداً إلى اليمين ليصبح وفي لحظة خلف طائرة الـ 14 أف الأمريكية ويصبح هدف سهل جداً للسخوي 22 والتي لولا عنصر المفاجأة من الطيار لا تستطيع الالتفاف وجعل الـ 14 أف هدف، دوت صافرة الإنذار داخل مقصورة بلقاسم أمسيك تنبيهها بأن الهدف في المرمى فضغط على الزر المتحكم في إطلاق الصواريخ وماهي إلا ثوان حتى انفجرت الطائرة الأمريكية والتي يقودها قائد السرب الأمريكي «هنري مارتن» على بعد 75 كم من شواطئ سرت⁽³⁵⁾. (الصورة رقم 4).

346



صورة رقم 4: توضح المواجهات المسلحة بين الطائرات الليبية والأمريكية فوق خليج سرت

وشهدت سنة 1986 ذروة المواجهات الليبية - الأمريكية حيث أجرت الولايات المتحدة مناورات وتدريبات بلغت ثمانية عشرة، وبدأت في اختراق خط الموت مما تسبب في مواجهات مسلحة والتي بلغت ثمانية اصطدامات مسلحة، في يناير 1986 أعلن الرئيس ريغان فرض عقوبات جديدة على ليبيا شملت حظر جميع العلاقات الاقتصادية والتجارية، وأصدرت الإدارة الأمريكية تعليماتها للأفراد والشركات الأمريكية بمغادرة ليبيا وتهديد المخالفين بالسجن أو الغرامة⁽³⁶⁾.

(35) رواية العقيد بلقاسم أمسيك الزنتاني 1986، ص 3.

(36) سالم 1986، ص 225.

المطلب الثالث: ردود الدولية على المواجهات المسلحة الليبية الأمريكية فوق خليج سرت

1- ردود الفعل السوفيتية.

أكد الاتحاد السوفيتي من خلال رسالة بعثها إلى القذافي بأن موسكو تقف حكومة وشعبا في وجه التجاوزات الأمريكية العسكرية للسيادة الليبية وأن ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية عمل إجرامي ويشكل خطر على السلام والأمن الدوليين⁽³⁷⁾.

2- ردود الفعل العربية.

لم تختلف ردود الفعل العربية عن ردود الفعل السوفيتية، ويمكن القول بأنها كانت محايدة وأكتفت بإدانة الهجوم الأمريكي على ليبيا إعلاميا عبر العديد من الصحف العربية التي أصدرت مقالات تنديد بالهجوم الأمريكي على ليبيا واعتبرته تهديد لكل البلاد العربية⁽³⁸⁾.

3- ردود الفعل الأوروبية.

رغم أن أوروبا لم تقتنع بالعمل العسكري الأمريكي لكنها وقفت في صف السياسة الأمريكية وقامت بإغلاق سفاراتها في ليبيا ووضعت قيود على تحرك الليبيين ومنعت رحلات الطيران المباشرة إلى ليبيا⁽³⁹⁾. أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة عدم مشروعية تصرفات الولايات المتحدة الأمريكية في قرارها رقم 38 الدورة 40 الصادر في 20 نوفمبر 1986 بإدانة العدوان العسكري الجوي والبحري على ليبيا والتأكيد على حق ليبيا في الحصول على تعويض مناسب عن الخسائر المادية والبشرية التي تكبدتها، ومما لاشك فيه أن أمريكا رغم قدرتها العسكرية المتقدمة لم تستطيع تجاوز خط 32 درجة و30 دقيقة، وأن نضال الشعب الليبي المستميت على خليج سرت بالتصدي لكل محاولة أمريكية وتراجع هذه الأخيرة يعد خير دليل على اعترافها بالسيادة التاريخية لليبيا على خليج سرت⁽⁴⁰⁾.

(37) عمارة 2019، ص 35.

(38) صحيفة عكاظ 1986، ص 1 - ص 3.

(39) صحيفة البيان 2008، ص 3.

(40) عبدالله 2010، ص 260.

الخاتمة

تؤكد الشواهد التاريخية بأن خليج سرت جزءاً لا يتجزأ من ليبيا ويخضع لكامل سيادتها باعتباره مياهها داخلية يبدأ من بعدها بحرهما الإقليمي لمسافة 12 ميلاً بحرياً وذلك من خلال ممارستها عليه حقوق السيادة عبر التاريخ الطويل دون منازع، وإن ما تدعيه الولايات المتحدة الأمريكية من أن خليج سرت المنطقة الوحيدة في البحر المتوسط التي يمكن للبحرية الأمريكية من التدريب العسكري وإطلاق الصواريخ بعيدة المدى ذريعة سياسية لا أساس لها وبهذا تظهر رغبة أمريكا في السيطرة على البحار العالمية والخلجان التاريخية لاستغلال الثروات الطبيعية الموجودة بها.

إن توغل خليج سرت داخل اليابس الليبي قد خلق وضعاً خاصاً له وأصبحت هذه المنطقة تشكل منطقة مصالح ليبية بالغة الحيوية من الناحية الأمنية والدفاعية فضلاً عن تركيز حقول النفط بالمنطقة بحيث تنتج 95 % من إنتاج النفط وتركز الصناعات المرتبطة بالمشتقات النفطية وتركز موانئ تصدير النفط على سواحل خليج سرت.

جاء الإعلان الليبي بإعلان خليج سرت خليجاً تاريخياً ومياه داخلية إدراكاً من أهميته الأمنية نتيجة توغله داخل اليابس الليبي فضلاً عن أهميته الاقتصادية الكبيرة، خاصة وأن مبدأ حرية الملاحة في أعالي البحار يتعارض مع متطلبات الأمن الوطني لا بل وحتى الأمن الدولي.

رفض الولايات المتحدة القاطع للقرار الليبي الخاص بخليج سرت واعتباره تجاوزاً على المياه الدولية وتأكيداً لموقفها الرافض فقد قامت الطائرات الأمريكية بإسقاط طائرتين ليبيتين في مياه خليج سرت ويلاحظ أن هناك ازدواجية واضحة في الموقف الأمريكي ففي الوقت الذي ترفض الاعتراف بخليج سرت خليجاً تاريخياً فإنها نفسها أعلنت خلجاناً تاريخياً منها على سبيل المثال لا الحصر خليج سانت مونيكا على سواحل المحيط الهادي جنوب كاليفورنيا فضلاً عن أن هناك دولاً عديدة قامت بذات الشيء.

إن الموقف الأمريكي الرافض لاعتبار خليج سرت خليجاً تاريخياً وما يترتب عليه من اعتبار مياهه مياهاً داخلية لا يقوم على أساس الدفاع عن اتفاقية قانون البحار ومنع ليبيا من خرق القانون الدولي، وإنما هو خوف أمريكا من ظهور وتنامي أي قوة مهما كانت درجتها تهدد مصالحها الحيوية من قبيل مصادر الطاقة أو طرق المواصلات الحيوية، وذلك تنفيذاً لاستراتيجية الهيمنة الأمريكية على العالم من خلال السيطرة على المناطق الحيوية.

البليوغرافيا

المصادر

1- الصحف

- الجريدة الرسمية، عدد خاص رقم (5)، السنة الحادية عشر 1973/10/9، طرابلس.

- صحيفة المرصد الليبية، 27 مارس، 1986 عمليات خط 32:30 فوق خليج سرت.

- صحيفة نيويورك تايمز، 25 مارس 1986.

- صحيفة البيان، مسلسل المواجهات الأمريكية الليبية وسياسة الأبواب الموصدة، الإمارات العربية، 5 يونيو، 2008.

- صحيفة عكاظ، العدد 7246، السنة 26، 16 أبريل 1986.

2- الرويات الشفهية

- رواية العقيد الطيار بلقاسم أمسيك الزنتاني، مواجهات خليج سرت عملية المروج، مجلة المسلح

<https://www.almusalh.ly>

المراجع

المراجع باللغة العربية

أبوعجيلة، (محمد الهادي) 1997، النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية 1711-1835 وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية، جامعة قاريونس، بنغازي.

جفال، (مصطفى) 1985، المواجهة العربية الأمريكية فوق خليج سرت، ط 1، دار الموقف العربي، نيقوسيا.

حكيم (سامي) 1970، حقيقة ليبيا، ط 2، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

حمود، (محمد الحاج) 2008، القانون الدولي للبحار، دار الثقافة للنشر، ليبيا.

عمارة (سامي) 2019، موسكو وثائق وأسرار 1955-1968، دار الشروق، القاهرة.

عميش، (ابراهيم فتحي) 2008، التاريخ السياسي ومستقبل المجتمع المدني في ليبيا، الجزء الاول، دار برنيق للطباعة والترجمة والنشر، بنغازي.

غانم، (شكري محمد) وآخرون 1985، النفط في الجماهيرية دراسة في الجغرافية، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، سرت-ليبيا.

المراجع باللغات الأجنبية

Douglas L. 2013, "On the history of relations: To the Shores of Tripoli: America, Qaddafi, and Libyan Revolution 1969-89", *The International History Review*, vol. 35, n° 1.

المؤتمرات والدوريات

سالم، (علاء) 1989، «تطور العلاقات الليبية الأمريكية»، مجلة السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام، العدد 60، القاهرة.

سالم، (كركرة رمضان) 2013، «البعد التاريخي للسيادة الليبية على خليج سرت وطبيعته القانونية»، أعمال الملتقى الجغرافي الرابع عشر، جغرافية خليج سرت وإمكانياته التنموية، جامعة سرت.

عبدالله، (يونس علي) 2010، «المياه في خليج سرت والموقف الأمريكي منها»، مجلة الرافدين للحقوق، المجلد 12، العدد 45، ص 431.

قريرة (عبد المنعم) 2013، الأهمية الجغرافية لخليج سرت ومدى سيادة الدولة الليبية عليه من الناحية القانونية، أعمال الملتقى الجغرافي الرابع عشر، جغرافية خليج سرت وإمكانياته التنموية، جامعة سرت.

نجم، (محمود عبدالله) 1991، «الاستعمار وأثره في التركيب الجيولوجي في أفريقيا»، المؤتمر العلمي الثالث حول الاستعمار والفراغ، جامعة بنغازي، ليبيا.

نجم، (محمود عبدالله) 2013، «خليج سرت والأطماع الخارجية نظرة جيوسراتيجية»، أعمال الملتقى الجغرافي الرابع عشر، جغرافية خليج سرت وإمكانياته التنموية، جامعة سرت.

المواقع الإلكترونية

حسين (علي حسين)، 8 أبريل 2015، «مواجهات خليج سرت»، مجلة المسلح، www.almusalh.ly/https://ar.wikipedia.org/: http://en.wikipedia.org/wiki/Wheelus_Air_Base